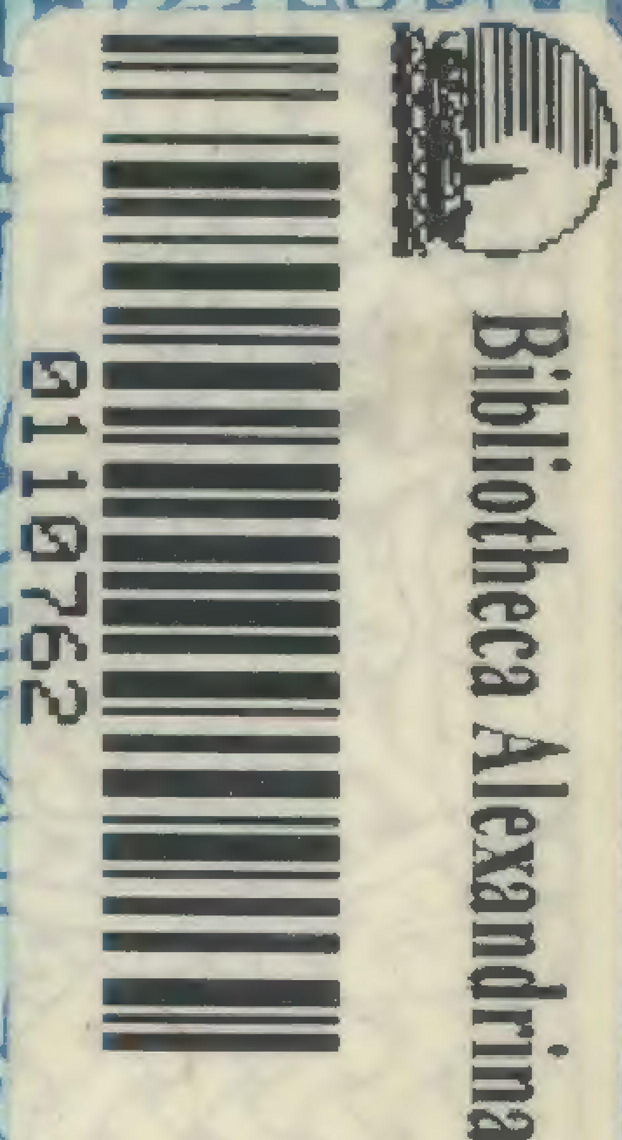
تاريخ العرب الحديث

د . جلال يحيى

أستاذ التاريخ والعلوم الإنسانية (جامعة الاسكندرية)

د . جاد طه

أستاذ التاريخ والعلوم الإنسانية (جامعة عين شمس)



تاريخ العرب الحديث

د . جلال يحيى

أستاذ التاريخ والعلوم الإنسانية (جامعة الاسكندرية)

د . جاد طه

أستاذ التاريخ والعلوم الإنسانية (جامعة عين شمس)

مقدمة

تداولت على العرب ، فى تاريخهم الحديث ، أحداث جسام ، أثرت على حياتهم ، وأجبرتهم على النزول إلى معارك متتالية دفعوا فيها بالنفس والنفيس للمحافظة على حريتهم والدفاع عن مقدساتهم .

وتعتبر دراسة العرب فى تاريخهم الحديث وفى تاريخهم المعاصر ، دراسة تتعلق بقوميتنا وشخصيتنا ، وجزءاً هاماً من تراثنا ، وزاداً لنا فى معاركنا المقبلة ، سواء فى ذلك معاركنا العسكرية ، أو السياسية ، ومعاركنا من أجل التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعى .

وبدأ العرب تاريخهم الحديث ، وأحوالهم تخضع لظروف جمود وتأخر وتخلف ، ويرسفون تحت حكم اقطاعى فى مقوماته وخصائصه ؛ ومروا عبر تجارب مختلفة ، سياسية واقتصادية وثقافية ، لفك نطاق هذه الأوضاع المفروضة عليهم ، والخروج منها إلى وجه الحياة . وكانت لأهمية المنطقة العربية فى العالم ، سواء من الناحية الاستراتيجية أو من الناحية الإقتصادية ، ما يدفع العرب إلى النمو من ناحية ، وإلى الاضطرار إلى النزول إلى معارك ، من أجل تطوير أحوالهم .

وشاهد العرب فى تاريخهم الحديث ، والذى إمتد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، عمليات استعمارية موجهة ضدهم ، وكان ذلك فى مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ، واحتلال بريطانيا لعدن ، واحتلال فرنسا للجزائر ، وفرض فرنسا حمايتها على تونس ؛ ونزول القوات البريطانية واحتلالها مصر ؛ واستمر بعد ذلك مع استيلاء ايطاليا على طرابلس الغرب وبرقة ، وفرض فرنسا وأسبانيا حمايتها على سلطنة المغرب الأقصى . وظلت أقاليم المشرق ، فى الشام والعراق والحجاز ، خاضعة للدولة العثمانية ، وان كانت قد شهدت بذور حركات اليقظة العربية فى

محاولات متتالية لتخليص العرب من الحكم العثمانى . وكانت هذه الأقاليم فى المشرق هى التى شهدت ثورة الشريف حسين بن على ، التى عرف الاستعمار كيف يستغلها لصالحه ، ويوجه على العرب ، ويقتسم ما بقى من أقاليمهم بين دولة الاستعمارية . وكان ذلك نهاية لعصر ، وبداية لعصر جديد ، يزيد فيه نمو العرب ، فى تاريخهم المعاصر ، ويقومون ، كل فى إقليمه ، بالكفاح ضد الاستعمار ، ومن أجل وصولهم إلى حريتهم ، وإلى وحدتهم .

ولقد تعاونا فى الكتابة ، وكتب الدكتور جلال يحيى الفصل الأول عن : الدولة العثمانية والعالم العربى ؛ والفصل الثامن عن : حركة اليقظة العربية ؛ والفصل التاسع عن : العرب والترك قبيل الحرب العالمية الأولى ؛ والفصل العاشر عن : ثورة الشريف حسين ؛ والفصل الحادى عشر عن : العرب وتسويات الحرب العالمية الأولى — وكتب الدكتور جاد طه الفصل الثانى عن : الحملة الفرنسية على مصر ؛ والفصل الثالث عن : عصر محمد على ؛ والفصل الرابع عن : بريطانيا واحتلال عدن ؛ والفصل الخامس عن : فرنسا واحتلال الجزائر ؛ والفصل السادس عن : تونس والحماية الفرنسية ؛ والفصل السابع عن : مصر والاحتلال البريطانى .

ونرجو أن يسد هذا الكتاب نقصا فى المكتبة العربية ، وأن يفيد به الطالب ، والدارس ، والقارىء العام .

وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتور جاد طه | دكتور جلال يحيى

المنيا ، فى أول ديسمبر ١٩٧٣

الفصل الأول

الدولة العثمانية والعالم العربى

فى الوقت الذى زاد فيه ضعف القوى المملوكية فى مصر والشام ، عند نهاية العصور الوسطى ، وبدء عصر فجر التاريخ الحديث ، تزايدت قوى العثمانيين فى كل من البلقان وآسيا الصغرى ، كما تزايدت قوى فارس فى عهد الصفويين . وكان نفس العصر يبشر بإزدياد نمو القوى الرأسمالية فى أوربا ، وإزدياد قوة الطبقة الوسطى المتاجرة فى الغرب . ولقد توصل الاوربيون إلى تحويل طرق التجارة العالمية عن منطقة الشرق الأدنى العربى بوصولهم إلى الهند والشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وفقدت منطقة الشرق الأدنى العربى مورداً من أهم موارد رزقها ، وتعرضت فى نفس الوقت لإمتداد حكم العثمانيين ودولتهم النامية وإذا كانت ظروف المشرق العربى قد جعلته يخضع بالقوة لحكم العثمانيين ، فإن ظروف بلدان المغرب العربى قد وجهتها صوب الاتحاد مع نفس الدولة العثمانية . وكان لتغيير مراكز الثروة العالمية أكبر الأثر فى الوصول إلى هذه النتائج .

تحول طرق التجارة :

ظلت مصر وسوريا ، والدولة القائمة على شئونهما واحدة فى عصر المماليك، وظلت مسيطرة على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب حتى نهاية القرن الخامس عشر . ولقد تعاملت أوربا مع العرب ، وشعرت بأهمية هذه التجارة ، وأهمية الايرادات التى تصل عن طريقها إلى جيوب حكام الشرق الأدنى . وكانت الأسباب الاقتصادية أهم وأعمق من غيرها فى دفع الأوربيين إلى إرسال حملاتهم الصليبية إلى الشام وإلى دمياط . وإذا كانت البابوية قد دعت المسيحيين

الغربيين إلى المساهمة فى هذه الحملات باسم الصليب ، فان أطماع الملوك والأمراء والفرسان الأوربيين كانت واضحة فى نفس هذه الحملات .

ولقد ساعدت الحروب الصليبية على زيادة سلطة الملوك فى أوربا ، فى وقت غيبة عدد من النبلاء والفرسان فى الأراضى المقدسة ، خاصة وأن بعضهم قد قتل فى هذه الحروب، واستولى الملوك على أراضيهم. وخرج الاقطاعيون الأوربيون من هذه الحروب ضعفاء ، كما إضطر بعضهم إلى بيع أراضيه أو رهنها . وكذلك ساعدت هذه الحروب على نشأة الضرائب المباشرة للانفاق على الحملات ، وزادت هذه الضرائب من تدعيم مركز الملوك فى الوقت الذى زاد فيه عبؤها على الإقطاعيين فضعضعت الطبقة الاقطاعية ، ونمت الطبقة الوسطى التى تزايدت الأموال فى أيديها . وجاء استخدام البارود ، وتكوين الجيوش الحديثة ضربة قوية موجهة إلى الاقطاع الأوربى ، إذ أنه لم يكن فى وسع الأمير الاقطاعى أن ينفق على تكوين مثل هذ الجيوش الحديثة ، بمدفعيتها وبنادقها ، وكان فى وسع الملك وحده أن ينشىء هذه الجيوش ، ويستعين فى ذلك بالضرائب المباشرة ، التى زودته بها الطبقة الوسطى المتاجرة . وهكذا نمت الملكيات ، ونمت الطبقات الوسطى معها ، وتكاملت مع بعضها فى شكل القوميات الحديثة .

وكما تغيرت القوى المسيطرة على أوربا ، تغيرت وسائل عملها . وإذا كان الفرسان والنبلاء قد حاولوا الإنتصار على بلاد المشرق العربى برياً ، فإن الطبقة الوسطى المتاجرة ستحاول أن تنتصر عليهم بحرياً. واعتمدت هذه الطبقة المتاجرة على وسائل جديدة ، مثل البوصلة ، أو الإبرة المغناطيسية ، والاسطرلاب ، والدفة المتحركة ، لعبور البحار ، وسمحت لها هذه الوسائل ببناء سفن كبيرة ، وتطلب بناءها وسائل مادية كبيرة كذلك ، فبدأت الرأسمالية فى عملها .

وكان معنى بناء سفن كبيرة وقوية إمكان شحنها بكميات أكبر من البضائع ،

فجاء تقدم الوسائل المالية ، مكملا لتقدم الوسائل الفنية البحرية .وظهرت البنوك، وانتشرت العمليات المصرفية ، ثم نشأت الشركات وعمليات التأمين . ثم زادت وسائل العمل تقدما باستخدام الصكوك ، وساعد ذلك على إنتشار الأجور ، وعلى إختفاء نظام الرق ، وعلى تحرر أبناء القرى وأبناء المدن . ولقد إجتمعت بذلك العوامل الأساسية للازدهار الصناعى ، وإنتشرت صناعة الأنسجةالصوفية فى كل أوربا ، وعاش منها آلاف من الغزالين والنساجين والصباغين .

ولقد كانت هذه الوسائل الجديدة من سفن ونقود وأنسجة ، تهدف التعامل مع الشرق ، وإرتبطت أوربا بهذه الأسواق الجديدة،وأصبحت محتاجة إلى أن تبيع، وجرها ذلك إلى البحث عن المراكز البحرية ، وعن المخازن والقواعد والامتيازات . ودخلت أوربا بذلك فى عصر الاستغلال الرأسمالى ، الذى كان أساساً لدخولها فى عصر الاستعمار .

ولقد ساعدت هذه التغيرات الاقتصادية والمالية التى وقعت فى أوربا على تغيير وجه تاريخ العالم بشكل عام ، وتاريخ الشرق الأدنى ومصر بشكل خاص . وأخذت أوربا تبحث عن كنوز تنهبها ، ومناجم ذهب تستغلها ، ولم يكن فى وسعها أن تجدها إلا فيما وراء البحار . وكانت السيطرة على التجارة العالمية ، والبحث عن كنوز جديدة من المعدن النفيس، سبباً أساسياً فى الوصول إلى الكشوف الجغرافية ، وتحول التجارة العالمية وقامت كل من البرتغال وأسبانيا بدورها فى الكشوف الجغرافية ، وغزو العالم، بحثاً عن الذهب ، عصب الحياة الرأسمالية .

وساعد موقع البرتغال الممتاز على توجيه أنظار البرتغاليين إلى السواحل الإفريقية ، وعملهم على استكشاف ما وراء المحيط الأطلسى .واذا كان البرتغاليون قد بدأوا عملياتهم فى شكل عسكرى للسيطرة على بلاد المغاربة ، فانهم قد حاولوا الالتفاف حول العالم الاسلامى للوصول الى طريق التوابل ، فوصلت سفنهم إلى

ذلك الجزء من الساحل الافريقى الذى كانت تصل إليه قوافل التبر الآتيـة من السودان الغربى ، وسموه نهر الذهب Rio de Oro ثم إلى الرأس الأخضر ، وأنشـأوا القلاع على نقط مختلفـة من الساحل . وواصل بارثلميو دياز سفره صوب الجنوب حتى رأس العواصف ،الذى التف حوله ، وسماه باسم رأس الرجاء الصالح ، ودخل إلى المحيط الهندى . ووجدت البرتغال بهذه الطريقة طريق الهند، أو طريق الشرق الأقصى،الذى كان مصدر التوابل ، ومصدر الحرير. وسيطرت البرتغال على تجارة الشرق الأقصى،وأخذت فى تصديرها إلى أوربا وتتقاضى ثمنها بالذهب . أما اسبانيا فإنها قـد تمكنت من السيطرة على مناطق غنية بالذهب فى أمريكا . ثم تمكن الاسبانيون من القيام بعمليات للاستغلال الزراعى فى العالم الجديد ، عمليات أصبحت تدر عليهم من المحاصيل ومن المنتجات الكثير(1) .

والمهم هو أن وصول البرتغاليين إلى مياه الشرق الأقصى ، وسيطرتهم على التجارة العالمية ، جاء على حساب مصر وأبناء الشرق الأدنى العربى . ولقـد كان وصول البرتغاليين إلى ميـــاه المحيط الهندى فى سنة ١٤٩٨ كارثة على العرب ومراكزهم ومدنهم وسفنهم وتجارتهم فى كل مكان ويروى لنـا التاريخ أن البرتغاليين قاموا باحراق مدن وموانى العرب على طول ساحل افريقية الشرقى ، ومن موزمبيق حتى ساحل البنادر وخليج عدن . وأحرقوا وأغرقوا سفن العرب فى كل مكان ، ومنعوا تجـارة الشرق الأقصى من الوصول إلى الشرق الأدنى ، وإلى مصر والشام .

وكان هجوماً عنيفاً على سلطنة المماليك ، وفى ميدان خلفى لم تكن هذه الدولة

(١) أنظر : دكتور جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف . الدار القومية ، ١٩٦٥ ، ص ١٦٦ — ١٧٧

تتوقع هجوم الأعداء منه . ولقد حاولت مصر ، رغم المفاجأة ، ورغم قلة إمكانياتها ، أن تدفع هذا الهجوم ؛ وحاولت أن تتحالف مع البندقية ، وأن ترسل السفن إلى البحر الأحمر ، والقوات العسكرية إلى اليمن ، لكى تمنع استيلاء البرتغاليين على عدن ، أو دخولهم فى البحر الأحمر وتهديدهم لموانى الحجاز ، والموانى المصرية . وبذل السلطان الغورى كل ما فى وسعه ، ولكن القوات المصرية ضلت الطريق فى اليمن ، وانشغلت بمشكلات القبائل وخصوماتها ، وانهزم الاسطول المصرى أمام الأسطول البرتغالى فى مياه الهند فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٨ .

وتم بذلك للبرتغاليين السيطرة على مياه الهند ، فى نفس الوقت الذى ضعفت فيه إمكانيات مصر العسكرية ، وقل ورود التجارة إليها ، وحرمت من مورد أساسى من موارد رزقها (١) .

وبدأ الفقر يخيم منذ ذلك الوقت ، على منطقة مصر والشرق الأدنى ، وأثر ذلك على مستوى معيشة العرب ، وأدى إلى فقرهم وانصرافهم عن العلوم والفنون إلى البحث عن قوت يومهم ، وإلى كدحهم وشقائهم . فلقد تغيرت الظروف العامة فى المنطقة ، فى الوقت الذى لم يجد فيه الفلاح مناصاً من العمل فى هذه الظروف العصيبة ، حاول الحكام والمسيطرون أن يحافظوا على مستوى معيشتهم ، ولم يجدوا سوى الأرض والفلاح أمامهم وسيلة للحصول على مايلزمهم من موارد . فزاد العبء أضعافاً مضاعفة على الفلاح ، ولم تسمح له الظروف بالتحرك أو التململ ؛ وربما كان ذلك قناعة منه أو استسلاماً أو عجزاً أو جهلا بما وصل إليه ؛

(١) أنظر : دكتور جلال يحيى : العلاقات المصرية الصومالية . لجنة الدراسات الافريقية ، ١٩٦٠ . ص ١٥—١٦

ولكنه استمر فى فقرة وعجزه عن مواجهة الأمراض والأوبئة ، وانقطعت صلته بالعالم ، وبدأ رحلة طويلة على طريق التخلف والخضوع للتحكم وللاقطاع وللاستغلال . وجاء الغزو العثمانى لمنطقة الشرق الأدنى العربية لكى يزيد أحواله سوءاً وبؤسه شقاءاً .

الغزو العثمانى للشرق الأدنى :

ينسب معظم الكتاب سوء أحوال مصر والشرق الأدنى إلى الحكم العثمانى ولكن الواقع هو أن هذا الحكم قد وصل إلى المنطقة بعد نمو وتركز النظام الاقطاعى فيها ، وبعد تحول طرق التجارة العالمية عنها . ولقد سهل على العثمانيين أن يتوسعوا فى منطقة الشرق الأدنى ومصر نتيجة لذلك الإنهيار الاقتصادى والعسكرى للمنطقة . وجاءت طبيعة الحكم العثمانى، وطبيعة القائمين عليه، وإمكانياتهم لحكم المنطقة،سبباً جديداً يمكن إضافته إلى اسباب تدهور وتخلف المنطقة .

وكانت منطقة الشرق الأدنى تشتمل فى ذلك الوقت على ثلاث قوى رئيسية : الأولى هى قوة الاتراك العثمانيين فى البلقان وآسيا الصغرى ، والثانية هى قوة الصفويين ن فارس ، والثالثة هى قوة المماليك فى مصر والشام والحجاز . وكان التنافس واضحاً بين كل من هذه القوى ، وخاصة بين العثمانيين السنيين ، وبين الصفويين الشيعة . وكانت كل قوة من هذه القوى آخذه فى النمو، وتسير على سياسة التوسع الإقليمى على حساب جيرانها . واتجهت انظارهما من هضاب فارس وآسيا الصغرى إلى منطقة السهول الجنوبية ، تلك الأرض المنبسطة التى يسكنها العرب . ولما كانت كل قوة من هاتين القوتين ، الفارسية والتركية ، غير عربية، فانها قد إتخذت الاسلام شعاراً لحركتها التوسعية . ولقد نجح الفرس فى الاستيلاء على بلاد الرافدين ، خاصة وأن عدداً من أهل المنطقة كانوا يدينون بمذهب

الشيعة ، فعمد العثمانيون إلى إجلائهم عن العراق ، للاحتفاظ به لأهل السنة .

استولى الصفويون على العراق سنة ١٥٠٨، وفى عصر الشاه اسماعيل الذى أقام دولته على انقاض الامارات المغولية، وأعطى المذهب الشيعى مذهباً رسمياً لدولته ، وجاء الاتراك العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول زاحفين نحو الشرق، وهزموا القوات الفارسية فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤، ودخلوا عاصمتهم تبريز . ولكن السلطان سليم ارتد عن هذه العاصمة ، وترك بذلك الفرصة للإيرانيين للانتعاش. ولم تكن موقعة جالديران حاسمة إلا فى أنها وجهت أنظار العثمانيين صوب ضرورة السيطرة على بقية الأقاليم العربية ، ولكى يمنعوا الفرس من التوسع فيها .

والواقع أن الخلاف المذهبي لم يكن إلا ستاراً دعائياً وإعلامياً لتوسيع رقعة هذه الدولة أو تلك ، والسيطرة على الموارد الاقتصادية فى البلاد العربية، والدفاع عنها وعن مواردها وغلاتها بالقوة الحربية ؛ أى بمعنى آخر ، منع مرور هذه الموارد والغلات إلى ايدى الآخرين ؛ ذلك أن حكام فارس لم يكونوا من أهل البيت الكريم ، ولم يظهروا إستعداداً لتولية سلالة الرسول مسئوليات معينة فى دولتهم ، رغم تكريمهم لأماكن تقديس وزيارة أبناء المذهب الشيعى ؛ وكذلك الحال مع الاتراك العثمانيين الذين كانوا من السنة ، دون أن يتركوا لأهل الجماعة حظ فى إدارة شئونهم ، بل عمدوا إلى الاستيلاء على الخلافة الاسلامية عند أول فرصة سنحت .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن العثمانيين كانوا قد وقفوا وقفات هامة ضد القوى المسيحية فى البلقان ، وتمكنوا من الاستيلاء على القسطنطينية ، وتحويلها إلى عاصمة لامبراطوريتهم . ومعنى هذا أنهم قاموا بالهجوم على قوات الاستعمار

الأوروبية التى حاولت إستعادة نفوذها فى شرق البحر المتوسط ، ذلك النفوذ الذى إرتبط بمصالح اقتصادية هامة . ولكن العثمانيين لم يعملوا على القضاء على الامبراطورية الفارسية ، وهى المنافسة لهم فى عملية توحيد الشرق الأدنى ، بل إتجهوا صوب سوريا ومصر ، والتى كانت تشرف على الحجاز واليمن، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه قوة المماليك فى حرب معلنة ، وعلى أشدها ، مع القوات البرتغالية ، التى كانت قد نجحت فى الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح، وقامت بتخريب المدن العربية فى شرق افريقية ، وأقامت معاقل لها على بر الزنج، وفى منطقة الجنوب العربى ، ووصلت إلى الهند وأخذت فى تهديد مصر والحجاز من البحر الأحمر . وأخيراً فإن اسبانيا كانت تواصل هجماتها فى ذلك الوقت على البلدان العربية والاسلامية فى شمال إفريقية ، وكان من الأجدى لقوى الدولة العثمانية أن تعمل على الدفاع عن أرض الإسلام ، وإن تتجه صوب هذه القوى الاستعمارية المسيحية المعتدية ، والتى أغارت على بلاد المغرب الاسلامى، بعد أن طردت العرب من الاندلس ، وذلك بدلا من أن توجه جهودها صوب الشام ، وصوب مصر .

ولقد إعتبر العثمانيون أن واجبهم الأول يتلخص فى الدفاع عن الأقاليم الاسلامية ضد الأخطار والهجمات الخارجية . واعتقدوا أنهم أقدر من السلطان الغورى ومن دولة المماليك على الدفاع عن المنطقة ، وتوحيدها فى صف واحد قوى ضد أى إعتداء أجنبي . واستخدم العثمانيون السيف وسيلة لتوحيد الشرق الأدنى العربى بأقاليمه فى دولة واحدة ، أى أن المسألة قد وصلت إلى مرحلة معركة حول قيادة المنطقة ووحدتها .

ولقد سار السلطان سليم الأول على رأس قواته وجيوشه صوب سوريا،

التى كانت متحدة مع مصر تحت حكم المماليك ، بدعوى وجود تحالف بين الغورى سلطان مصر المملوكى وبين شاه الفرس، وان هذا التحالف يهدد الاقاليم الجديدة التى استولى عليها العثمانيون فى كوردستان وفى شمال العراق . وبدأت الحملة من شهر أغسطس سنة ١٥١٦ وحصلت على إنتصارات سريعة فى مرحلتها الأولى ، وكان ذلك يرجع من ناحية إلى قوة مدفعية الأتراك ونقص هذا السلاح عند قوات المماليك ، ويرجع من ناحية أخرى إلى الانقسامات والخلافات والتفكك الموجود فى ذلك الوقت بين قيادات المماليك .

ولقد انتصر العثمانيون فى معركة مرج دابق على قوات السلطان الغورى ، الذى فقد فى هذه المعركة ، واستولوا على حلب وحماة ودمشق والقدس، ثم عبروا الصحراء إلى مصر وانتصروا على المماليك فى موقعة الريدانية فى سنة ١٥١٧ :

« فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصلت اوائله الى الجبل الأحمر . فلما بلغ السلطان طومان باى زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال ابن عثمان ، فركب الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا وركب العسكر قاطبة حتى سدوا الفضاء . وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر ، وهم السواد الاعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية فكان بين الفريقين واقعة مهولة ، يطول شرحها ... ثم أن العثمانية تحايلوا وجاءوا من كل ناحية أفواجا كأنهم قطع الغمام ثم أنقسموا فرقتين فرقة جاءت عن تحت الجبل الأحمر وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية وطرشوهم بالبندق الرصاص وهجموا عليهم هجمة منكرة . فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر مالا يعلمه إلا الله تعالى ... فلم تكن إلا ساعة يسيرة حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبراً وتمت عليهم الكسرة . فثبت بعد الكسرة طومان باى نحو عشرين

درجة وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ... فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية ورأى العسكر قد ذهب من حوله خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى السنجق السلطانى واختفى ... وأما الفرقة العثمانية التى توجهت من تحت الجبل الأحمر فإنها نزلت على الوطاق السلطانى وعلى وطاق الأمراء والعسكر ونهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك ، ثم نهبوا المكاحل التى كان نصبها السلطان هناك ونهبوا الطوارق والستائر الخشب والعربات التى تصعب عليها السلطان ـ وصرف عليها جملة من المال ولم يفده من ذلك شىء ونهبوا البارود الذى كان هناك ولم يبقوا بالوطاق شيئاً لا قليلا ولا كثيراً ... ثم أن جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق دخلوا القاهرة بالسيف عنوة وتوجه جماعة منهم المقشرة واحرقو بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس ... ثم توجهوا إلى بيت الأمير خايربك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه وكذلك بيت يونس الترجمان وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس . وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية . فأنطلق فى أهل مصر جمرة نار . ثم دخل جماعة من العثمانية إلى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش وأخذوا عدة جمال من السائقين . وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لها من القماش وغير ذلك وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود . واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم إلى ما بعد المغرب ثم توجهوا إلى شون القمح التى بمصر وبولاق ونهبوا ما فيها من الغلال حتى المسلمين . وهذه الحادثة التى وقعت لم تكن لأحد على بال » (١) .

ولقد تمكن العثمانيون من مصر واستلموا مفاتيح الكعبة من شريف مكة الذى

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . الجزء الثالث طبعة بولاق .

قدمها طوعاً للسلطان سليم ، وهو الذى سمى بعد ذلك بخادم الحرمين وخطبت له مساجد القاهرة على أنه «السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه ... »

وتخلص السلطان سليم من طومان باى الذى أمر بقتله(١) ، ثم حصل لنفسه على لقب الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين . وأصبح العثمانيون بذلك أكبر قوة موجودة فى العالم الإسلامى . وأصبح العالم العربى فى غالبيته يمثل جزءاً من الأملاك العثمانية . كما أن انتصارات العثمانيين فى المشرق العربى أثرت على انتصاراتهم فى المغرب العربى ، وفى الطريقة التى تمت بها هذه الانتصارات الاخيرة .

الدولة العثمانية والمغرب العربى :

وإذا كان العثمانيون قد استخدموا السيف وسيلة لتوحيد الشرق الأدنى، فإن طريقتهم لتوحيد أقاليم شمال إفريقية قد تمت بوسائل أخرى ، ويرجع ذلك إلى ظروف المغرب العربى فى ذلك الوقت .

لقد كان المغرب العربى يئن - فى نفس الفترة التى إمتدت فيها إنتصارات العثمانيين فى البلقان والمشرق العربى - من هزات واضحة أصابته فى الأندلس ، واصابته على سواحله الطويلة الممتدة جنوب الحوض الغربى للبحر المتوسط . لقد كان سقوط غرناطة فى أيدى المسيحيين سنة ١٤٩٢ نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذا الإقليم الإسلامى ، واضطر بعدها الاندلسيين إلى الإختيار بين القتل والتعميد . كانت معظم معاقل المسلمين فى الاندلس قد سقطت - الواحد تلو الآخر - فى أيدى جنود فرديناند وايزابلا . وأمرع عدد كبير من العرب بالخروج

(١) أنظر . د. جلال يحيى : مصر الحديثة ، الجزء الأول ١٥١٧ — ١٨٠٥ ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٠ .

من الاندلس فاراً بما تمكن من حمله ، ملتجئاً إلى موانى شمال إفريقيا . وكانت خطة إعادة الغزو تتلخص فى القضاء نهائياً على الحكم الاسلامى فى الاندلس ، بل حتى القضاء على الأهالى المسلمين هناك ، تمهيداً لإقامة دولة تعتمد قبل كل شىء على مواطنين اسبانيين مسيحيين . وتشتمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب العربى ، فإحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط ، وإحتلال أقاليم أفريقية السوداء الواقعة إلى جنوبه ، إن لم تتمكن الدول الكاثوليكية من إحتلال المغرب العربى نفسه ، وتحويله إلى المسيحية ، لقد كان صراعاً واضحاً بين نظامين اجتماعيين ، ظهر أحدهما فى صورة إقطاع قديم متفكك وضعيف ، ووضح أن الثانى كان واقعاً تحت تأثير ازدياد الأموال فى أيدى التجار ، وعملهم على إنتزاع التجارة الدولية ، بموادها وطرقها وأسواقها من أيدى العرب ، ومع إصرار الإسبانيين على اللون المسيحى لإعادة الغزو ، تبلور الموقف فى شكل حرب دينية عملت على زيادة (شخصية) كل من المعسكرين ، وظهرت وأنها لاتستند إلا إلى عوامل معنوية ، رغم أن جذورها وأصولها كانت اقتصادية اجتماعية .

لقد شهدت هذه الفترة العصيبة حرباً بحرية طاحنة بين الجانبين ، تلخصت من جانب الاسبانيين فى تعقب سفن الاندلسيين المقلعة صوب المغرب العربى ، وفى الهجوم على السفن الحربية العربية ، والهجوم على موانى ومراسى شمال إفريقية كلما أمكن ذلك . أما من الجانب الإسلامى فقد حاول أبناء شمال إفريقية الدفاع عن سفن المهاجرين ، ووقف هجمات سفن المسيحيين على أساطيلهم وموانيهم ، وعملوا — أكثر من ذلك — على الثأر والإنتقام من المسيحيين وسفنهم ، بعد كل حادثة تقع . إنها الفترة المعروفة فى التاريخ باسم القرصنة ، ولكن إسمها الحقيقى هو الجهاد البحرى . وإذا كانت القرصنة هى صفة كل عمل بحرى تقوم به أية سفينة لعزقلة الملاحة ، رغم القوانين ، وانتهاك حرمة علم الدولة الأخرى ، أو

الاعتداء على أراضيها ورعاياها وممتلكاتها ، فلا يمكننا أن نصف أحد الجانبين بالقيام بالقرصنة فى هذه الفترة دون أن يمتد الوصف إلى الجانب الآخر . وعلينا أن نذكر أكثر من ذلك أن المفهوم الحديث للقوميات والدول لم يكن قد تبلور بعد فى هذا العهد ، كما أن القانون الدولى لم يكن قد زاد عن بعض التقاليد والعرف والعادات بين أبناء الحرفة الواحدة ، سواء فى ظل الصداقة أو الخصومة، وأخيراً فان عدداً كبيراً من سفن أبناء شمال افريقية كانت تخضع للسلطة التى تدير أو تحكم أحد اقاليم هذه المنطقة . ولذلك ، فلا يمكننا - إستناداً لهذه المسببات - الا أن نصف الدور الذى قامت به السفن العربية بأنه جهاد بحرى ، من أجل العروبة والإسلام ، وكفاح ضد استعمار متزايد الأخطار ، ودفاع عن حرية موانى المغرب العربى ، وأبنائه ، وأرزاقه .

احتل البرتغاليون بعض الموانى فى المغرب الأقصى ، وبدأ الاسبانيون فى احتلال مليله وطرابلس . وكان البرتغاليون قد احتلوا سبته سنة ١٤١٦ ويبدأ الاسبانيون ينفذون وصية الملكة ايزابلا باحتلال شمال افريقية ، وتحويل أهلها الى المسيحية ، فاحتلوا المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ثم هجموا على وهران حيث قتلوا ٤٫٠٠٠ مسلم وأسروا ٨٫٠٠٠ واحتلوا احدى الجزر الصغيرة المواجهة للشاطىء الافريقى ، واتخذوها قاعدة حربية ، للهجوم على ذلك الشاطىء ، ولضربه منها بالقنابل . ولم تكن هذه الجزيرة تبعد عن الساحل الا بمسافة ٣٠٠ متراً وهى التى أصبحت فيما بعد نواة لبناء مدينة الجزائر .

« ولم يكن الاسبانيون فى موقف يحسدون عليه ، اذ أن الأهالى كانوا فى عداء مستمر معهم ، مما اضطر الى احضار امداداتهم وتموينهم بل وحتى ميـاه الشرب اللازمة لهم من اسبانيا . حقيقة أن استيلاءهم على هذه القواعد سهل عليهم عملياتهم الحربية ضد سفن المسلمين ، ولكن طول خطوط مواصلاتهم كان نقطة

ضعف واضحة . وعلاوة على ذلك فان وجودهم فى المدن الساحلية أمام شعب معاد كان يصعب موقفهم ، بالرغم من أن أسطولهم كان يحميهم من ناحية البحر. وقد ظهر ضعف مركز الاسبانيين وفشل خطتهم من الناحية الاستراتيجية حين بدأت البحرية الإسلامية تتقوى فى مدن شمال افريقية ، وتقوم منها بهجماتها على الموانى المحتلة.وكان الأسطول الإسلامى يرتكز على قواعد قريبة،تحميهاشعوب موالية ان لم تكن مكافحة ضد المحتل الكاثوليكى.فكان فى استطاعته أن يشن الغارة، وأن يعود بسرعة الى قواعده ، أو أن ينظم العمليات الحربية بطريقة تسمح بهجوم الأهالى برياً على القواعد المحتلة فى نفس الوقت الذى يقوم هو فيه بمهاجمتها من الناحية البحرية » (١) .

ووسط هذا الصراع بين الشرق والغرب ، تطلعت أنظار أبناء المغرب العربى الى قادة بحريين ، يمكنهم الدفاع عن سفنهم ومهاجريهم ، ومموانيهم وتجارتهم ، وتوحيد صفوفهم فى كفاحهم من أجل الاحتفاظ باستقلالهم أمام الخطر المتزايد. وعمل هذا الكفاح بين أبناء المغرب العربى وبين القوى الاوربية النامية والمتوسعة المعتدية ، على زيادة التقارب بين أبناء المغرب العربى وبين اخوانهم فى المشرق العربى فى نقط متعددة ،ونتيجة لوحدة العدو ،ووحدة المصالح،ووحدة المعركة، ووحدة المصير .

ولقد لمعت من بين أسماء رجال البحر المسلمين فى القرن السادس عشر أسماء سجلها التاريخ بكل فخر واعتداد ، مثل بابا عروج وأخيه خير الدين . وكان الاول قد ذاق الأسر فى سفن المسيحيين ، ولكنه هرب وعمل فى سفن الدولة

---

(١) أنظر د. جلال يحيى : السياسة الفرنسية فى الجزائر ١٨٣٠ ـ ١٩٦٠ القاهرة . دار المعرفة ١٩٦٠ ص ١٦ ـ ١٧ .

جربة ، إتخذاها قاعدة بحرية ، جمعا فيها المتطوعين ، وأعدا فيها السفن . وطلب رجال القبائل الجزائريين من بابا عروج حمايتهم ضد الاسبانيين، فأرسل أسطولا محملا بالمجاهدين ، ومسلحا بالمدفعية ، لتهديد الحصون التى أقامها الاسبانيون أمام الساحل والهجوم عليها ، وسار هو بطريق البر على رأس ثمانمائة جندى نظامى ، وحوالى خمسة آلاف متطوع جزائرى ، وتمكن من أقامة حكمه على الشاطىء المواجه للجزيرة الخاضعة للاسبانيين ، ومن تهديدها تهديداً واضحا . ووصل حكمه إلى تلمسان ، حيث قضى على حكم أسرة بنى زيان . وخشيت إسبانيا من ان يقوم بالهجوم على وهران . فأرسلت ضده حملة تبلغ ١٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكنه تمكن من أن يمر من خطوط الاسبانيين ، وبواصل فراره إلى أن وقع أسيراً فى أيديهم ، حيث قتلوه سنة ١٥١٨ . وكان قد نجح فى ضم صفوف الشعب الجزائرى، وقرب بينه وبين غيره من الشعوب العربية والاسلامية ، وفى وحدتها أمام العدو المشترك . وخلفه أخيه خيرالدين المعروف باسم بربا روسا، أى ذى اللحية الحمراء، الذى طلب حماية السلطان سليم . ولقد منحه السلطان لقب بك بكوات افريقية وأرسل له عدداً من جنود الانكشارية ثم سمح له بتجنيد الأهالى فى الدولة العثمانية نفسها لمساعدته فى عملياته الحربية فى غرب البحر المتوسط . ولقد تمكن خير الدين من أن يستولى على المنطقة الساحلية فى الجزائر ويستولى على القلعة التى بناها الاسبانيون على جزيرة مواجهة للساحل ، ووصل هذه الجزيرة بالبلاد سنة ١٥٢٩ وأصبحت نواة لمدينة الجزائر الحالية، وبنفس الطريقة التى كان الاسكندر قد أنشأ بها مدينة الاسكندرية.

ولقد عمل خير الدين على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة ، وأصبح أسطوله مرهوب الجانب فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ومنحه السلطان لقب قبودان باشا وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية .

وقام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال إفريقية ، فاحتل تونس وطرد منها مولاى الحسن ، حليف الاسبانيين ، ولما استعادها الاسبانيون منه قام بهجوم مضاد على جزيرة ميورقة . وحينما كان خير الدين مشغولا بعملياته البحرية وترك قيادة الجزائر لحسن باشا ، وانتهز الامبراطور شارل الخامس، أو شارلكان الفرصة فى سنة ١٥٤١ وجمع اسطولا قويا بلغت عدد وحداته المحاربة ٦٥ سفينة صحبتها ٤٥١ سفينة نقل يديرها سبعة آلاف بحار ، وشحنها بتسعة وعشرين ألف مقاتل من الألمان والايطاليين والاسبانيين وعددا من فرسان مالطة وقادها الامبراطور بنفسه وبمساعدة قادة مشهورين مثل أندريا دوريا وفرناند كورتيز وهجم بها على الجزائر . وتمكنت الحملة من النزول بسهولة على الساحل ولكن سرعان ما قامت عاصفة هوجاء استمرت أيام عديدة وأفسدت الأمطار البارود واقتلعت الرياح الخيام وهددت السفن وحطمت الكثير منها . وحاول الاسبانيون رغم ذلك مهاجمة المدينة إلا أنهم فشلوا فى عملياتهم فأضطروا الى الانسحاب على ما بقى لهم من سفن .(١)

وكان خير الدين قد أصبح أكثر من مجرد أمير للبحر ، فلقد أصبح رئيسا لدولة ، وإن كانت غير تامة السيادة ، دولة متحدة مع الامبراطورية العثمانية ، وأصبح الحارس الأمامى للامبراطورية العثمانية فى غرب البحر المتوسط، وكانت تسنده جميع قوات هذه الامبراطورية فى صراعه مع الغرب . ولا ننسى أنه قام بدور هام للتقريب بين فرنسا والدولة العثمانية ولعقد معاهدة الامتيازات الاجنبية وكانت فرنسا فى عداء مع اسبانيا ، وجاءت هذه المعاهدة لزيادة التبادل التجارى ولاقامة تحالف عسكرى بين البلدين .

---

(١) لزيادة الاطلاع انظر: د. جلال يحيى ، المغرب الكبير، الجزء الثالث، الاسكندرية الدار القومية، ١٩٦٦

وعلينا أن نذكر من رجال الجهاد البحرى درغوت باشا ومراد أغا والعلج على الذين قاموا بدورهم كاملا فى تحرير الجزائر ، رغم إستماتة شارل الخامس فى تجميع القوى الأوربية للاحتفاظ بها ، ونجحوا فى تحرير تونس وفى طرد الاسبانيين من طرابلس ، ووقفوا مع الدولة العثمانية فى كفاحها ضد الغزوات الاستعمارية الأوربية ، وشاركت سفنهم مع سفن هذه الدولة، فى معركة ليبانتو سنة ١٥٧١ التى قتل فيها درغوت باشا ، أمير البحر ، والتى شارك فيها العلج على كقائد لميسرة الاسطول العثمانى . ولقد تمكن هذا الأخير من قطع يد الأجانب فى تونس ، بعد أن قطعوا لحية تركيا فى موقعة ليبانتوا . وإن اللحية تنمو ، أما اليد المقطوعة فتظل دائما بتراء كما قال الصدر الأعظم لسفير البندقية ، معلقاً على ذلك الموقف .

وعلينا أن نذكر كذلك صالح رئيس، الذى كان من أبناء الاسكندرية وحاول أن يمد الحركة الاتحادية فى المغرب العربى حتى المحيط الاطلسى ، والذى زحف على فاس ، وعين فيها سلطانا جديدا مواليا له ، وحسن ريس بن خير الدين باشا، الذى واصل المجهود فى نفس الاتجاه ، ولم يتراجع بعد إقترابه من فاس ، إلا لخوفه من أن تتحرك القوات الاسبانية المرابطة فى وهران وتقطع عليه خط الرجعة ، ويحيى ريس الذى اتخذ من أحد خلجان شمالى المغرب ، قرب الحسيمة قاعدة له ، وكون أسطولا له بأن يفرض كلمته على الملاحة ، حتى عرف باسم «سيد المضيق»

إن هذا التحالف بل الإتحاد ، بين رجال البحر العرب فى غرب البحر المتوسط مع الدولة العثمانية فى المشرق العربى ، قد سمح بقيام دولة هامة ، وجبهة عربية إسلامية موحدة ، فى كل من المشرق والمغرب العربيين . ولقد كانت قوة هذه الدولة فى المشرق برية تعتمد على الجنود والاسلحة النارية والمدفعية ، وكانت فى

المغرب العربى بحرية ، تعتمد على السفن السريعة ، والكفاءة فى التدريب، والجرأة الفائقة . ورغم استخدام الدولة العثمانية للسيف وسيلة لتوحيد المشرق العربى ، فقد وجدت أن رجال البحر من المغرب العربى يأتون إليها ويطلبون الإتحاد معها فتكونت بذلك جبهة كفاح وتحرير ضد قوى الغزو والاستعمار المتزايدة ، إمتدت إلى غرب الجزائر ، وكاد المغرب الأقصى أن ينضم إليها ، لولا وجود عوامل خاصة فى هذا القطر ، منعت من السير فى هذا الطريق.

نظام الحكم العثمانى :-

لقد اعتمدت الدولة العثمانية منذ أول نشأتها على طريقة خاصة بها فى الحكم والإدارة والتنظيم ، وأثرت هذه الطريقة على تكوين هذه الامبراطورية ، وتطورها ونموها فى أوقات معينة، وإن كانت قد أثرت كذلك فى أوقات الضعف فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية للأهالى، وتعاونت عوامل أخرى لكى تؤدى بالبلاد إلى حالة واضحة من التخلف . ولقد كانت نفس هذه النظم ، وهذه العوامل سببا فى ثورات وفتن وحروب مستمرة بين الإقليم والإقليم، أو بين هذه القيادة وتلك ، وساعد كل ذلك على تفكك أقاليم الدولة، وإن كانت هذه العملية قد استمرت عبر ثلاثة قرون .

وكانت الدولة العثمانية قد اعتمدت على الجيش، كقوة عسكرية فعالة فى ضم بلاد المشرق العربى وتمكنت بعد استيلائها على سوريا فى سنة ١٥١٦ من الإستيلاء على مصر سنة ١٥١٧ . ثم استولت على العراق فى سنة ١٥٣٤ وعدن فى سنة ١٥٤٧ ومنطقة الإحساء فى سنة ١٥٥٥ . ولقد سيطرت الدولة العثمانية بهذا الشكل على جميع بلدان المشرق العربى ، فيما عدا وسط الجزيرة العربية الذى صعب عليها أمر احتلاله .

أما بلدان المغرب فان الدولة العثمانية قد اعتمدت على سلطة أمراء البحر

الجزائريين النامية لكي يدافعوا عنها ضد الأعداء الاسبانيين ويطردوا منها القيادات المتحالفة معهم ويضمنوا هذه الأقاليم أن ينضموا بها إلى مجموع بلدان وأقاليم الامبراطورية .

وكانت الدولة العثمانية قد ضمت البلاد العربية بعد أن اجتازت فترةشبابها ، ومنذ القرن الثالث ، فى حروب طويلة فى البلقان وآسيا الصغرى ، ووصلت إلى بلدان العالم العربى وهى فى دور النضوج الذى يسبق دور الضعف والشيخوخة . وكانت شخصية الدولة قد اكتملت ، ومنعها ذلك من التجاوب مع البلاد العربية والانصهار معها ومع أهلها فى شكل وحدة قومية ، وأثر ذلك على اللون العام للحكم العثمانى للبلاد العربية إذ أنه ظهر وكأنه قد جاء من الخارج وعجز عن الاندماج مع الأهالى العرب .

كما ان العثمانيين قد اعتمدوا على الجيش أداة فعالة تقوم عليها الدولة قبل أى جهاز آخر من أجهزة الحكم ، ولذلك فان حكمهم قد ظهر فى بعض الأقاليم وكأنه يتلخص فى احتلال عسكرى يقوم على حامية من الجنود تقيم فى البلاد باسم الدفاع عنها ضد الاخطار الأجنبية . ومع اختفاء هذه الأخطار ظهرت هذه الحامية العثمانية فى بعض البلاد العربية وكأنها جيش احتلال أجنبى ، وخاصة بعد أن بدأت الدول العربية فى الظهور ، نتيجة لنشأة روح القومية العربية.

ولقد أثرت نشأة العثمانيين الأوائل فى الطريقة التى كونوا بها جيوشهم ، ذلك أنهم قد نموا بين إمارات وولايات مسيحية، اختلفت عنهم وناصبتهم العداء ، فاعتزوا بالإسلام كدعامة لشخصيتهم قبل أى دعامة أخرى . واحتفظوا بهذه الدعامة أساسا لدولتهم قبل نزولهم إلى ميدان توحيد العالم العربى معهم . ووجدوا أن هذا العامل الإسلامى أكثر أساس لبقائهم فى هذه الأقاليم العربية بعد فتحهم لها ، خاصة وأن الإسلام كان هو دين الاغلبية العظمى فى البلاد العربية . ولقد اعتمد

العثمانيون على الإسلام أساسا لنشأة جيشهم، وأساسا لنشأة دولتهم ثم امبراطوريتهم وكانوا يشترون الأطفال الصغار من المناطق المسيحية المجاورة ، أو يأسرونهم فى الحرب ، ثم يقومون بتعليمهم وتدريبهم لكى يصبحوا جنودا مسلمين ولقد استخدم العثمانيون هذه الطريقة فى انشاء فرق الانكشارية ، وهى التى تعنى « ينى تشرى » أى النظام الجديد. وكان جنود هذا الجيش ينسون أصلهم وأسرهم وينشأون نشأة اسلامية مبنية على روح الجهاد من أجل الاسلام ، كفرض من الفروض الأساسية المفروضة على كل الرجال . ولقد أعطتهم هذه التربية المعنوية قوة روحية فائقة جعلتهم يتشبثون فى طلب النصر أو الاستشهاد . ولقد اعتمد العثمانيون على جيش الانكشارية فى فتح كثير من البلاد سواء فى أوربا أو فى العالم العربى ، واعتمدت عليهم فى العودة بعناصر جديدة من ميادين الحرب تلزمها لتزويد جيشها بانكشارية جدد .

ولقد ظهرت نزعة الجهاد الإسلامى واضحة جلية فى كل العمليات العسكرية التى قام بها العثمانيون خلال عصور تاريخهم ، وخاصة فى جهادهم ضد المسيحيين ، وفى دفاعهم عن بلاد المسلمين .

ولكن الدولة العثمانية رغم ذلك لم تكن قد وصلت إلى مستوى رفيع من الثقافة التى تلزمها لإنشاء إدارة تفوق الإدارة الموجودة فى البلاد العربية فى ذلك الوقت ، ولذلك فان هذه الدولة قد اعتمدت على جيوشها لكى تدعم بها النظم الموجودة فى البلاد العربية ، ودون مساس بهذه النظم ، وعلى أن يسير الجميع على بركة الله وباسم السلطان .

وكان العثمانيون يبدأون بعد دخولهم كل اقليم من الاقاليم فى حصر القرى الموجودة فيه ويقسمونها إلى مقاطعات يمنحون الصغير منها للجنود المحاربين ، والكبير منها للقواد والأمراء ، ويخصصون طائفة من المقاطعات الكبيرة للسلطان

وكان هذا النظام يهدف جمع الضرائب والرسوم ، ووصول جزء منها للدولة، كما كان يقوم على أساس امداد الدولة بما يلزمها من قوات محاربة في فترة الحروب، سواء أكانت من القوات البرية ، أو من القوات البحرية إن كان الإقليم يشتمل على الجزر أو الموانى ، وتمكنت الدولة العثمانية بهذه الطريقة على ما يلزمها من قوات محاربة ، كان أشدها قوات الفرسان ، والحصول على ما يلزمها من أموال لإدارة شئون البلاد .

ولقد قسم العثمانيون الاقاليم التى انضمت إليهم إلى يالايات ، أو ولايات ، تنقسم بدورها إلى ألوية أو سناجق ، وتشتمل كل منها على عدد من المتصرفيات وكانت الدولة تعين أحد الباشوات أو بكلربك ، أى بك البكوات ، على الولاية وكان يحمل رتبة مير ميران ، أى أمير الامراء ، وهى التى تعادل رتبة الفريق الحالية ، أما اللواء فكانت تعهد بحكمه إلى أحد أمراء اللواءات ويسمى ميرلوا ، كما كانت تعهد بالمتصرفية إلى قائمقام أو أمير أحد الولايات ، ويشرف هذا الأخير على المنطقة المعينة له ويدافع عنها فى الحرب ويجمع الضرائب ويخضع لرئاسة اللواء أو الباشا .

ولم يكن هؤلاء الحكام يتقاضون فى أول الامر رواتب معينة بل كانوا يأخذون نصيبا من الضرائب التى يجمعونها ، ولذلك فانهم قد اهتموا اهتماما خاصا بعملية جمع الضرائب ، وزاد نشاطهم فى هذه العملية التى كانت تعتبر موردا خاصا لهم فى نصيب معين منها . كما انهم قد استغلوا سلطة جمع القوات والفرسان اللازمين للدولة لكى ينشأوا لانفسهم قوات يعتمدون عليها إن تطلب الأمر ذلك وأفادوا من أموالهم التى جمعوها فى شراء أعداد من المماليك استخدموها كضباط لقيادة هذه القوات .

وهكذا نرى أن الادارة الحربية كانت تختص نفسها بالإدارة المدنية كذلك

وتشرف عليها وبشكل جعل من ولاة الحكم رجال إدارة ورجال جيش فى نفس الوقت .

ولقد قسمت الدولة السلطة القضائية بين قضاة ونواب قضاة يعينون فى المدن ويشرفون على المناطق المحيطة بها . وكان هؤلاء القضاة يخضعون لقاضى القضاة، أو قاضى عسكر ، الذى يخضع بدوره للمفتى ولشيخ الاسلام .

واعتمدت الدولة العثمانية فى حكمها للبلاد العربية على فكرة التضامن الإسلامى وسيلة معنوية تضاف إلى قوة الوالى للمحافظة على وحدة العالم الشرقى فى ذلك الوقت . وكانت هذه الفكرة والسلاح المعنوى الوحيد الذى يسمح لغير العرب بحكم العرب فى ذلك الوقت .

ولقد قسم العثمانيون بلاد الشام إلى ثلاث ولايات ، الأولى هى باشوية الشام أو دمشق ، والثانية هى باشوية حلب فى الشمال ، والثالثة هى باشوية طرابلس وتشرف على الساحل وجبل لبنان . وأضافوا إليها باشوية رابعة فى سنة ١٦٦٠ هى باشوية صيدا التى أصبحت فيما بعد ولاية عكا . أما العراق فقد قسم إلى أربع ولايات هى باشوية بغداد ، وباشوية الموصل ، وباشوية شهرزور فى المناطق الكردية ، وباشوية البصرة . واحتفظ العثمانيون بالوضع القائم فى الحجاز كما كان عليه فى عصر المماليك ، وتركوا حكم مكة فى أيدى شريف يختاره بقية الاشراف ، إلا أنهم أنشأوا ولاية فى جدة أصبحت هى قاعدة الحكم العثمانى فى الحجاز والبحر الأحمر وسموها ولاية الجيش . اما اليمن فقد أصبح ولاية بعد أن فتح سنان باشا صنعاء فى سنة ١٥٧٠، وإن كانت الإدارة العثمانية قد اضطرت إلى الإنسحاب منه فى سنة ١٦٣٥ وتركته فى أيدى الأئمة الزيدية إلا أنها عادت إليه من جديد فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . أما بالنسبة لبلدان المغرب العربى فان السلطة كانت مركزة فى أيدى بك بكوات أفريقية الذى يقيم فى الجزائر

والذى يشرف على شئون ولاية تونس ويعتبر البك المقيم بها مندوبا عنه هناك . وأما طرابلس فقد كانت ولاية قائمة بذاتها إلى أن بدأت فى الحصول على استقلالها تحت حكم أسرة القرمانلى.

وكانت الدولة تعين الوالى أو الباشا لمدة عام واحد ، وإن كان هذا العام قابل للتجديد فى بعض الحالات ولقد أدى ذلك أن يحرص الولاة على جمع ما يمكنهم جمعه من الأموال فى هذه الفترة القصيرة التى يقضونها فى ولاياتهم خاصة وأنهم أصبحوا يشترون هذه المناصب قبل توليتهم اياها . كما أنهم اضطروا فى نفس الوقت الى الانصراف عن المشروعات العمرانية والانتاجية ،والتى تتطلب متابعة وموالية خاصة لإتمامها .

ولما كان الوالى هو ممثل السلطان فى الإقليم فان الدولة قد زودته بسلطات كبيرة وجعلته حاكما مطلقاً فى ولايته واعطته حق الحكم بالإعدام وتنفيذه وفصل هذا الحكم المطلق بين الحاكم والمحكوم ، فى الوقت الذى خضع فيه الحاكم لسلطات أعلى موجودة فى عاصمة الامبراطورية ، وخضع فى نفس الوقت لمراقبة الديوان له ولعملياته .

ومع خوف الدولة من أن يعلن الولاة استقلالهم انشأوا إلى جانبهم ديوانا يستشيرونه فى الامر ويتألف من كبار ضباط الفرق العسكرية علاوة على عدد من الموظفين والعلماء والاعليان ، وأصبح من الصعب على الوالى أن يتصرف ضد رغبة الدولة ومصلحتها ، ولكن قواد الفرق العسكرية بدأوا فى الاهتمام بالسياسة وفى التدخل فى ادارة الاقليم . وكثيراً ما اعتمدوا على قوتهم لكى يعلنوا عصيانهم عن تنفيذ أوامر الباشا أو يعتدون على الاهالى دون أن يتمكن الوالى من كبح جماحهم ، بصفتهم العسكرية ، ما دامت لهم صفة سياسية داخل الديوان . وأدى هذا النزاع على السلطة على الإحتفاظ بالولايات خاضعة للدولة العثمانية إلا أنه

أنهك أجهزة الحكم فى الكفاح والتنافس كل منها ضد الأخرى بدلا من تعاونها من أجل الصالح العام . وأدى ذلك بالبلاد الى حالة واضحة من التقهقر .

أما فى الأقاليم التى وجد العثمانيون فيها عدداً من المماليك ، فانهم قد احتفظوا بهذه القيادات فى أماكنهم لمساعدتهم فى حكم البلاد ، وظهرت هذه الحالة فى كل من مصر وسوريه ، وامتدت بعد ذلك الى العراق بعد زيادة عدد المماليك فيه . وأضاف بذلك العثمانيون قوة جديدة الى قوتهم ، وقوة ثالثة الى كل من الوالى والديوان ، وكانت هذه القوة تخضع للوالى وتساعده فى الحكم فى نفس الوقت الذى تعمل فيه على مساعدته فى جمع الضرائب ، وتعمل فيه على منع استقلاله بالبلاد . والمهم هو أن هذه السلطات الحاكمة أصبحت تمثل طبقات منفصلة عن الشعب وتعمل على استغلاله والعيش على كدحه .

وكما قامت الدولة العثمانية على فكرة التضامن الإسلامى قامت هذه الدولة باحترام الطوائف الدينية غير الاسلامية الموجودة فيها ، وتركتهم تحت قياداتهم الخاصة ، كما أنها تركت أصحاب العصبيات ورجال العشائر خاضعين لقياداتهم وحاولت فى نفس الوقت إخضاع هذه القيادات لسلطة ولاتها . فأصبحت الدولة تمثل خليطا من نظم الحكم ، جاء الواحد منها لكى يضاف الى النظم السابقة وفى صالح الدولة والحكام . ومع هذا التبلور الطبقى بين الحاكم والمحكوم احتفظ الأهالى العرب بشخصيتهم واضحة سليمة وان كانت الروابط المعنوية والإسلامية هى التى ظهرت كرابطة عامة تربط بين الجميع فى ظل حكم السلطان . وأدى ذلك بالبلاد الى التقهقر وأدى بأحوالها الى التخلف .

التقهقر وزيادة التخلف :ـ

كان تحول طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب سبباً أساسياً أدى الى فقر

البلاد العربية والوصول بها مراحل التقهقر والتخلف . وجاء نظام الحكم العثمانى لكى يتم هذه العملية ويصل بالبلاد العربية الى حاله يرثى لها .

لقد أخذ الولاة يهتمون بجمع الاموال ، وأخذوا مع الزمن بالاهتمام بمظاهر الحكم أكثر من اهتمامهم بجوهره ، كما أن أعضاء الديوان قد فقدوا صفاتهم الحربية نتيجة لبقائهم فترة طويلة فى الأقاليم التى يعيشون فيها ، وظهر هذا بوضوح فى مصر التى يمكننا أن نأخذها مثلا لما حدث فى غيرها من بلدان العالم العربى .

ولقد كان المماليك يعيشون فيها معيشة ترف وبذخ ويستغلون معظم الاراضى الزراعية . ووصل بعضهم الى إستغلال مئات القرى لحسابه . ورغم ذلك فانهم قد اهملوا الزراعة نتيجة لقلة خبرتهم وعدم تخصصهم ، فقلت المحصولات وارتفعت الأسعار واجتاحت البلاد مجاعات متعددة من وقت لآخر . وكان هم المماليك والحكام هو جمع الأموال حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بنوع معين ومستو معين للحياة ، وأدى ذلك بهم إلى إرهاق الزراع والصناع بالضرائب . أما المصريون فكانوا يمثلون فى واقع الأمر الطبقة المنتجة أو الكادحة ، التى تدفع لغيرها من الطبقات الطفيلية دون عائد واضح لها ، وكانت هذه الطبقة لا تحصل من عملها الا على الضرورى للمأكل والملبس والمسكن .

وكانت الثروة المستغلة فى البلاد قليلة وجاء الاهمال لكى يقلل من قيمة الانتاج سواء فى الزراعة أو الصناعة أو المكسب فى التجارة . وجاء ضعف الحكومة وانشغال الحاكين بمصالحهم الشخصية سببا فى قلة الإنتاج وفى زيادة الظلم فى توزيع الثروة مادام فى وسع الحاكين أن يزيدوا من ثروتهم وممتلكاتهم ، وعلى حساب الشعب . ويمكننا إعتبار كل نقص فى مستوى الانتاج ، مع احتفاظ الحاكين بمستوى معيشتهم قد جاء على حساب الشعب . كما أن كل زيادة فى حيازة الملكية

والثروة لدى الطبقات الحاكمة ، ودون زيادة فى مساحة الأراضى المزروعة أو فى قيمة المصنوعات والتجارة ، كان كذلك على حساب الشعب .

ولقد اضطر الفلاح الى أن يعيش أجيالا طويلة وهو يرتدى ملابساً من الأقمشة الرخيصة ، ويسكن أكواخا صغيرة ، ويشارك فيها بهائمه ، ويعيش فيها معها على حد الكفاف . وكانت المجاعات والأوبئة تلاحقه من وقت لوقت، وخاصة مع قلة التغذية وقلة العلوم وانعدام الخدمة الطبية التى كان أكبر خبير فيها هو حلاق القرية . ولقد رضى الفلاح بمصيره وانكمش على نفسه محترما تلك القوة التى سيطرت عليه وحكمته . لقد أطاع الله والرسول واولى الأمر منهم ، وكانوا يمثلون خليفة المسلمين ، وظل الله على الارض . كان الفلاح عاجزاً عن اعلان الثورة ، وعاش فى هذا المستوى من الجهل ، أو قام بطلب المعونة من الأوقاف الخيرية ، ومع اضمحلال التعليم وقلة الكتاتيب وضرورة الاستمرار فى الكدح أصبح الفلاح يعيش فى عالم آخر ، أحلك ظلمه من ظلمات العصور الوسطى، وفى الوقت الذى أخذ نور العلم والمعرفة والتجارب يسود فيه العالم ، وكان الحاكم أو المملوكى يرى أن هذا المستوى هو مستوى طبيعى للفلاح ، الذى خلق للعمل، وبهذه الطريقة.

وكم من حاكم تركى أو مملوكى سام الاهالى صنوف العذاب مما أدى الى عجزهم عن دفع الضرائب ، ووجد فى نفس الوقت من العلماء الخائفين من الحكام من نشر الدعوة للتواكل والخضوع للقضاء والقدر . وأدى كل ذلك إلا قلة الانتاج والى سيادة عامل الخوف وعدم الشعور بالمسئولية والافتقار الى الشجاعة الادبية .

ورغم ذلك فقد كان هناك من بين الأهالى من يتمتع بالثروة والغنى وخاصة من بين التجار والعلماء . وأفاد التجار من ذلك المناخ لتحقيق أكبر ربح ممكن

فى أقل وقت ممكن . أما علماء الدين فكانت الدولة دولتهم ، الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الإسلامية ، وكانوا هم المدافعين عن الدين ، وكانت لهم منزلة كبيرة عند الأهالى والعامة ، وفى عصر انحطت فيه العلوم وقلت فيه المعارف وجدت حتى فى حلقات الجامع الأزهر ، وكم من عالم أفاد من ذلك لكى يثرى من نظر الاوقاف ، والنظارة عليها ، وباسم الدين .

ولقد أبقى السلطان سليم على الاراضى الزراعية فى مصر بصفتها ملكا للحاكم يوزعها على أتباعه أو يقسمها على الزراع الذين يفلحونها نظير دفعهم الضرائب. وكان من حق الفلاح توريث الارض التى يفلحها أو يستثمرها لابنائه ماداموا يدفعون عنها الضرائب كذلك . وكانت كل الأراضى تدفع الضرائب ما عدا أراضى الاوقاف ، وكانت الحكومة توزع الاراضى على الملتزمين الذين يتعهدون بتحصيل الضرائب نظير حصولهم على ثمن الالتزام ، وأصبح الملتزم مع الزمن يورث هذا الحق لذريته فى نفس الوقت الذى أصبح الفلاح يورث حق العمل فى الارض لابنائه . ومع تدهور الاحوال أصبحت الدولة لاتهتم إلا ببيع الالتزام لمن يتعهد بتوريد مبلغ معين للخزانة . وبهذا أصبح النظام المالى على الثروة العقارية هو أساس النظام الادارى . ومع الزمن أصبح الملتزم يجبر الاهالى على العمل فى أراضيه الخاصة والتى لايدفع عنها ضرائب ، وتسمى أراضى الوسية . ثم أصبح الملتزم مسئولا عن سيادة الامن وادارة القرى فى دائرة التزامه ، وأخذ يعين الموظفين الذين يعاونونه فى أوامر مهمته مثل شيوخ البلد والصرافين والكلافين والخفراء ، وحتى الأئمة والنجارين والحلاقين .

ولقد أهمل هذا النظام وسائل الرى وساد فى مصر نظام رى الحياض الذى يسمح بزراعة محصول واحد فى السنة ، فيما عدا بعض قطع من الأراضى المجاورة للنيل والتى كانت تروى بآلات رافعه بدائية ، وتتمكن من زراعة بعض المحاصيل

النيلية ، وكان نظام الزراعة يقوم أساسا على المجهود الفردى ويستخدم آلات بدائية ومتخلفة . فظهر ثقل العبء الذى ألقى على كاهل الفلاح وجعل منه آلة سخرت فى خدمة المستغلين .

أما الصناعة والحرف فقد ظلت قائمة على نظام الطوائف الذى ساد فى العصر السابق لدخول العثمانيين . ولكن تدخل الأتراك فى نظام هذه الطوائف أدى إلى تحولها عن التخصص ومحاولة الارتقاء بالحرفة ، وهدف التحكم فى الصناع وتسخيرهم لجمع الاموال اللازمة للحكومة . وأصبح عمل شيخ الطائفة ينحصر فى جمع الضرائب التى لم تكن موزعة توزيعاً عادلا بين الصناع . وأصبح شيخ الطائفة يهدف إرضاء رجال الحكم ، وعن طريق جمع الضرائب التى تزيد مع زيادتها من تقدير الحكومة لها . وأصبحت وظيفة شيخ الطائفة تباع لمن يدفع فيها أغلى ثمن ، فأدى ذلك إلى دخول عناصر غير مهنية فى الطائفة ، وأدى بالتالى إلى تأخر الصناعة وإغلالها . وقلت بهذه الطريقة مراقبة شيخ الطائفة لصناع ، ومراقبته لجودة الصناعة ، ومد العثمانيون نظام الطوائف على كل أصحاب الحرف ، مثل الخدم والحمالين والحلاقين والسقايين ، وبشكل أثر على الصناعة وقلل من قيمتها . وكانت نظرة الدولة إلى الطوائف نظرة استغلال مجردة ، وتتلخص فى الحصول على أقصى ما يمكنها أن تحصل عليه من أموال ، فأرهقت الصناعة وأدى ذلك إلى قلة الانتاج ، وبالتالى إلى قلة الضرائب التى تصل إلى الدولة .

ووصلت الصناعة إلى مرحلة يرثى لها من الانحطاط ، وخاصة بعد ترحيل أمهر الصناع إلى القسطنطينية . ومع تشجيع الحكومة لدخول الواردات الأجنبية اضمحلت المصنوعات المحلية أمام هذه المنافسة الواضحة . ولا ننسى أن الجيش والاسطول فى عصر المماليك كان يتطلب كثيراً من الصناعات كالاسلحة والدروع والخيام والسفن ، واضمحل كل ذلك بعد أن تحولت مصر إلى مجرد ولاية ،

وانتقل مقر الحكم إلى القسطنطينية . ورغم ذلك فقد بقيت عدة صناعات مثل طحن الغلال وضرب الارز والتفريخ وصناعة السكر وإستخراج الخـــل وغزل ونسيج الأقمشة القطنية والصوفية وصناعة التطريز وغيرها من منتجات المقادين، ودباغة الجلود وصناعة الطوب وصنع الجير . وبقيت بعض الصناعات مثل صناعة البسط وقلوع المراكب والصبغة . وكان الاهالى يفضلون هذه السلع ، فتمكنت من أن تبقى فى الميدان أمام المنافسة الاجنبية . وكانت الصناعات مركزة فى المدن الكبيرة وفى المدن الساحلية مثل القاهرة والاسكندرية ودمياط وأسيوط وقنا . وهكـذا نجد أن سياسة الحكم العثمانى التى قامت على التدخل فى نظام الطوائف وعلى فرض أكبر ضرائب ممكنة على الحرف والصناعات قد أدت إلى تدهورها وانحطـاط شأنهـا ، وخاصة فى القطاعات التى خضعت فيهما لمنافسة الواردات الاجنبية .

وأما التجارة الداخلية فكانت تقوم أساساً على نظام الأسواق الاسبوعية فى القرى ، أو الأسواق السنوية التى كانت تعقد فى الموالد العامة ، هـذا علاوة على الأسواق التى كانت مستمرة فى المدن الكبيرة ، وكانت تشتمل على عمال متجاورة لمن يتعاملون فى نفس السلع ، مما أدى إلى نشوء أسواق المقادين والنحاسين والفحامين والصاغة . وكانت الأسواق تشتمل على المنتجات المحلية علاوة على بعض المنتجات المستوردة من الخارج . وكثيراً ما كانت المبادلات الداخلية تتعرض للفوضى نتيجة لاختلال نظام النقد ، وأنظمة المقاييس والموازين والمكاييل، التى لم يكن لدى الدولة الوقت الكافى للاهتمام بها .

أما التجارة الخارجية فلقد تأخرت تأخراً كبيراً نتيجة لتحول طرق التجارة، ونتيجة لضعف الحكومة وتعسفها فى جمـع الضرائب . فقلت حصيلة الجمارك فى نفس الوقت الذى قل فيه الانتاج الزراعى والصناعى وكان هناك بعض الاجانب

الذين يقيمون فى المدن الرئيسية ويعملون بالتجارة ، ويسكنون فى أحياء خاصة بهم ولهم فنادقهم أو وكالاتهم . ورغما عن الامتيازات التى حصلوا عليها من الدولة العثمانية ، والتى كانت تسمح بحرية المعاملة وإقامة الشعائر الدينية وعدم الخضوع للأنظمة المالية والقضائية ، فانهم كانوا يخضعون لسوء معاملة الدولة ولاستبدادها ولاضطهاداتها . وكانت هناك بعض العلاقات التجارية الضعيفة مع الأقاليم المجاورة فى فلسطين والحجاز واليمن والسودان والهند والحبشة وبلاد المغرب العربى ، ومع تركيا . وكانت هناك طرق القوافل التى تصل سنويا أو فى مواسم خاصة كما كانت السفن تأتى إلى الموانى بمنتجات الأقاليم والبلدان الاخرى . وكانت التجارة الخارجية بسيطة فى حجمها وفى قيمتها إذ أن الغالبية العظمى من أبناء الشعب كانت تكفى حاجاتها بنفسها .

ولقد انحطت مالية البلاد وبشكل مستمر ، خاصة وأن الحكام كانوا يستغلونها لمصالحهم الشخصية ، وللأغراض الاستهلاكية . ولم يكن الدخل السنوى للحكومة كبيراً ولم يزد على مليون جنيه فى السنة بالنسبة للولاية المصرية فى أواخر الحكم العثمانى . ولقد زاد الاسراف والتبديد ، بشكل زاد من ثقل العبء الملقى على كاهل رجال الطوائف المنتجة من أهل الفلاحة والصناعة والتجارة . ولقد أثر هذا الظلم وهذا الكبت فى الأهالى وجعلهم ينصرفون عن الشئون العامة ، ويزيد من انطوائهم على أنفسهم ، وبشكل يساعد على بقائهم جميعا فى هذه الأحوال المتخلفة .

ولقد عاشت مصر وغيرها من بلدان العالم العربى هذه القرون المظلمة من حياتها وهى ترسف تحت ثقل الظلم والاستغلال والتحكم ، ودون أن تتمكن من أن ترفع صوتها بالاحتجاج . وساعد صبر العرب ، وهو من صفاتهم ، على أن يسيروا دون مبالاة ، وأدى بهم الامر إلى سلبية جعلتهم يسلمون كل شىء ، وفى تواكل ، إلى أولى الأمر ولكن إذا كان الفلاح والصانع قد عجز عن رفع صوته بالاحتجاج

أو الثورة على الظلم فإن هذا النظام قد اشتمل على ثورات قام بها الحكام من أجل زيادة امتيازاتهم وعلى حساب قيادات أخرى أو على حساب الشعب . وكانت طبيعة النظام الاقطاعى ، مع تشكيله الهرمى العسكرى توجه الحكام الطموحين أو المشاغبين صوب الفتن والثورات .

الفتن والثورات :-

ساعدت طبيعة الأرض مع طبيعة النظام الادارى الموجود فى الدلة العثمانية على قيام عدد من الحكام الاقوياء بفتن وثورات ،هدفوا من ورائها الانفصال عن الدولة العثمانية ، أو تدعيم استقلالهم الاقليمى ، وتدعيم زعامتهم وعصبياتهم فى المناطق التى يحكمونها ، أو التى ولدوا فيها . وظهرت هذه الحركات بشكل واضح فى الأقاليم الجبلية . وبخاصة فى لبنان وشمال فلسطين ، كما ظهرت فى الاقاليم البعيدة عن سلطة الدولة ومركزها ، فظهرت فى مصر والعراق واليمن وطرابلس ولايات المغرب العربى .

وكانت هذه الحركات ترتبط بقيادات معينة ، ولذلك فان أوقات ظهورها كانت تختلف من منطقة إلى منطقة ، وترتبط بشخصية قائد الفتنة أو الثورة أكثر من ارتباطها بأى عامل آخر . وإن مرورنا على أهم هذه الحركات يعطينا صورة واضحة عن نوع البنيان الاجتماعى - والاقتصادى الذى أصبح يمثل الدولة العثمانية وقيمة التفكك الموجود بين الوحدات الادارية التى تكون هذه الإمبراطورية ، وتمركز الحكم فى عاصمة الدولة ، فى القسطنطينية .

أما بالنسبة للبنان فان الزعامات والقيادات القبلية ظلت موجودة وقوية بعد دخول العثمانيين المنطقة ، ولم يحاول العثمانيون القضاء عليها ، أو اخضاعها بالقوة بل تعاونوا معها فى الحكم ، وعلى أساس التضامن أكثر من الوحدة أو الإتحاد ، ولقد ظلت منطقة لبنان خاضعة لسلطان آل عساف وسيفا ، كما ظهرت فيها قوة

الشهابيين الذين حكموا إقليم الجبل حتى منتصف القرن التاسع عشر . وكان هناك المعنيون الذين ثبتت أقدامهم فى الاقليم باستنادهم إلى عصبيات قوية. ولقد حدث فى سنة ١٥٨٤ أن هاجم رجال بنى سيفا فرقة من الانكشارية كانت تحمل جزية مصر وفلسطين إلى القسطنطينية ، مما أدى الى اصدار الأمر إلى ابراهيم باشا ، والى مصر فى ذلك الوقت ، بالهجوم عليهم ومعاقبتهم . واذا كانت هذه الحادثة قد ساعدت على تثبيت أقدام الحكم العثمانى فى لبنان ، الا أن هذا الحكم قد استعان بأمراء محليين للاستمرار فى المنطقة ، وساعد ذلك بالتالى على نمو قيادات محلية ؛ وعلى حساب السلطة العثمانية . ومن أشهر هذه القيادات الأمير فخر الدين الثانى، أمير أمراء لبنان ، الذى بدأ حكمه فى منطقة الدروز ، وظهر بعد فترة من الزمن كعدو للعثمانيين ، وصديق للأجانب والمسيحيين . ولقد قام هذا الأمير بمحاولة لإنشاء دولة مستقلة فى لبنان ، وعمل على قطع علاقاته بالأتراك ، وحاول أن يسير فى طريق ادخال الحضارة والمدنية الغربية فى البلاد . وكان هذا الأمير من أقوى أمراء الجبل وأشدهم بأسا فى عهد الحكم العثمانى للمنطقة، وبدأ عمله بالتحالف مع الشهابيين السنيين ، ومع عناصر الشيعة التى تسكن شمال لبنان ، وتزوج من امرأة من الدروز ، ثم تمكن من استعادة سنجق صيدا من السلطان ، وأضاف الى أمارته بيروت ، مما سمح له بسهولة الإتصال بالعالم الخارجى، والعالم الأوربى. ولقد تحالف الأمير فخر الدين كذلك مع الجنبلاطيين ، وهم من أصل كردى ، وأصبحوا من زعماء الدروز ، كما تحالف مع مشايخ العربان فى البادية وفى فلسطين (١) .

ولقد سمح هذا التوسع السلمى للامير بالإشراف على مناطق غنية منتجة ،

---

(١) أنظر : فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، وترجمة الدكتور كمال اليازجى . بيروت . دار الثقافة . ١٩٥٩ الجزء الثانى ص ٣٢٥ — ٣٣٢ .

والاشراف على مراكز تجارية هامة ، وسمحت له الأموال التى جمعها بأن يقوم بتكوين جيش حديث من المحترفين . وصل عدده إلى أربعين ألفا . ولقد شجع الأمير على تحسين أحوال الزراعة ، وشجع التجارة مع الخارج ، وخاصة البندقية وفلورنسا . وظهرت لبنان فى هذا الوقت وعلى أنها اقليم يتجاوب مع الغرب ومع أوربا أكثر من تجاوبه مع الشرق ومع الامبراطورية العثمانية .

ولقد تنبه السلطان الى الخطر المعنى فأرسل القوات الى حافظ باشا والى دمشق كما أرسل أسطولا لمهاجمة لبنان من البحر فى صيف سنة ١٦١٣ . وأصبحت لبنان محاصرة من جانب البحر فى الوقت الذى زحفت عليها فيه الجيوش من ناحية البر واضطر الأمير الى أن يستقل أحد السفن الراسية فى ميناء صيدا واتجه بها الى ميناء ليجهورن فى إيطاليا ، مصطحبا معه أسرته وما تمكن من نقله . وعاش الأمير فى إيطاليا مدة خمس سنوات ، أعجب فيها بالمستوى الحضارى الذى وصلته أوربا فى القرن السابع عشر ، والذى كان مختلفا اختلافا واضحا عن الأحوال التى وصل فيها الشرق الأدنى فى ذلك الوقت . وزار الأمير فخر الدين جزيرة صقلية ، ويقال أن ملك اسبانيا عرض عليه حكم احدى الولايات إذا ما أعلن دخوله فى المسيحية ، ثم زار جزيرة مالطة ، وكان يبحث عن معونة يقدمها الاوربيون له لإستعادة ملكه من العثمانيين . ولكن الأحوال تغيرت فى الدولة العثمانية، بشكل سمح للامير بالعودة الى بلاده ، نتيجة لتغيير الصدر الأعظم فى القسطنطينية وبدأ الأمير يحكم من جديد فى ظل السيادة العثمانية ، ولكن سرعان ما أخذ فى الإعتماد على السياسة وعلى القوات المحاربة . لتوسيع ملكه ولتثبيت دعائم حكمه . وتمكن من هزيمة باشا دمشق فى سنة ١٦٢٣ ، فاضطر السلطان مراد الرابع إلى التغاضى عن هذه العملية ، خاصة وأن قواته قد انهزمت فى بغداد والموصل ، فاعترف بالأمر الواقع . وتلقب الأمير بلقب «أمير جبل لبنان

وصيدة والجليل ، وأصبح سيد المنطقة بلا منازع . ولقد ساعدته زيادة الايرادات الناتجة عن زيادة الإنتاج وزيادة حجم التبادل التجارى على أن ترسل الجزية السنوية إلى القسطنطينية ، ويحتفظ لنفسه بفائض كبير ، إستغله فى تحسين أحوال البلاد ، وبنا عصره الفخم ، والقيام بكثير من المشروعات .

ومرة جديدة نجد أن السلطان يخشى من نمو سلطة الأمير فى لبنان ، ولذلك فانه أصدر الأوامر إلى باشوات سورية ومصر بالزحف ضده فى سنة ١٦٣٣ ولم تتمكن قوات الأمير ، بقيادة ابنه من وقف هذا الزحف ، وأرسل الأمير إلى القسطنطينية أسيراً مع أسرته . وكانت صناديق الذهب التى حملها معه الأمير فخر الدين هدية إلى السلطان ، إلى جانب فصاحته ، سبباً فى نجاته من الاعدام الا أنه خنق فى أحد المساجد بعد فترة من الزمن ، وبعد أن أصبح من المقربين من السلطان ، وأثار الحسد فى صدور كثير من رجال الدولة(١) وتعتبر قصته ، وقصة نمو سلطته فى منطقة الجبل ، دليلا على أهمية الفرد فى النظام الإقطاعى ، وإرتباط الحركة به ، وتأثير ذلك على البنيان السياسى للدولة .

وكما حدث فى لبنان حدث فى اليمن ، التى كانت بعيدة عن مقر حكم الدولة العثمانية ، وتمكن فيها الزيديون من الاستقلال باقليمهم ، وعجزت الدولة عن اخضاعهم حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، واستمرت أسرة حميد الدين تحكم اليمن ، وبشكل مستمر ، لمدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، وإن كانت هذه القيادة الإقطاعية قد أقفلت على نفسها الابواب ، وبشكل أدى إلى تجميد الأوضاع ، والانصراف عن العمل ، وتجميد الفكر حتى أصبحت اليمن تعيش

---

(١) أنظر : فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريحة . بيروت . دار الثقافة ، ١٩٥٩ ص ٤٥٤ — ٤٦٧ .

عيشة العصور الوسطى ، حتى فى الاوقات الحديثة . وكان ضعف الدولة العثمانية وضعف امكانياتها ، وبعد اقليم اليمن عنها يمنعها من التدخل وتغيير الاوضاع .

وأما بالنسبة لمصر فلقد قام على بك الكبير بمحاولة للاستقلال بالبلاد ، ومكنته الظروف العالمية فى ذلك الوقت من أن يسير فى حركته ، خاصة وأن الروسيا كانت تهدد الدولة العثمانية ، وكان الاسطول الروسى قد خرج إلى البحر المتوسط ، وعمل على تأييد كل الحركات الانفصالية ، التى تضعف الدولة العثمانية ، وتساعد الروسيا بالتالى على التوسع صوب البحر المتوسط . ولقد ساعدت الروسيا كل من على بك الكبير فى مصر والشيخ ظاهر العمر فى فلسطين ، وأعلن هذين القائدين استقلالهما بالمناطق التى يحكمونها عن الدولة العثمانية . ولكن سرعان ما إنتهت الحرب بين الروسيا وتركيا ، واستعدت الدولة العثمانية للتفريق بين رجالهما ، فألبت محمد بك أبو الذهب على سيده فى مصر ، وتمكن هذا المملوك من محاربته والقضاء عليه . كما أن الدولة أرسلت أسطولها لمهاجمة عكا وصيدا فى الوقت الذى استعدت فيه لشراء رجال الشيخ ظاهر العمر ، وتأليب أبنائه عليه ولقد قتل هذا الشيخ فى سنة ١٧٧٥ ونشأت قيادة جديدة فى الاقليم هى قيادة أحمد باشا الجزار .

وإذا كانت هذه الشخصية السابقة قد أعلنت الثورة أو الفتنة ضد الدولة العثمانية فإن أحمد باشا الجزار كان من الشخصيات القوية التى احتفظت بالنفوذ والسيادة العثمانية على المنطقة . ولقد تمكن أحمد باشا الجزار ، نتيجة لهمته ولقسوته فى معاملة الاهالى ، وهى القسوة التى أعطت له اسمه ، من أن يسيطر على الاقاليم الساحلية فى لبنان وأقاليم الجبل ، وساعده النظام الاحتكارى الذى أقامه فى الاقليم ، على إنشاء قوات من المغاربة والالبانيين ومسلمى البلقان . ولقد كافأته الدولة على همته بأن أنعمت عليه سنة ١٧٨٩ بولاية دمشق ، وظل يحكم الشام

بأكلها مدة وربع قرن (١) .

ولقد امتاز عصر هذا الحاكم القوى بصده لقوات الحملة الفرنسية حينما زحفت من مصر صوب الشام ، ويعتبر من كبـار القادة الإقطاعيين الذين احتفظوا بولائهم للدولة العثمانية . وستنمو فى عهده سلطة الأمراء الشهابيين فى لبنان ، وبشكل يساعد على تحالفها مع محمد على فى مصر بعد ذلك .

أما بالنسبة للعراق فإن قوة المماليك قد أخذت فى النمو فيه ، وبشكل جعلها تهدد سلطة الدولة فى أثناء القرن الثامن عشر فى العراق . ولقد اشتهر من بين الباشاوات المماليك فى العراق سليمان باشا الذى تحدى سلطة الدولة ،وامتنع عن إرسال الجزية للقسطنطينية. ولقد تمكن من زيادة عدد المماليك وتدريبهم وبشكل مكنهم من الإحتفاظ بالحكم ما يقرب من قرن من الزمان.ورغم أن المماليك قد أخذوا يتنافسون فيما بينهم على الوصول إلى منصب باشاوية بغداد إلا أن سليمان باشا الكبير « ١٧٨٠ — ١٨٠٢ » تمكن من وضع حد لهذه المنافسات ،وأخضعهم لسلطانه . ووصل حكم هذا الباشا إلى الفترة التى هاجمت فيها قوات الوهابيين العراق فى أوائل القرن التاسع عشر .

هذا بالنسبة للشرق العربى ، وأما بالنسبة للمغرب فنجد أن الصلة التى قامت بين رجال البحر الجزائريين والدولة العثمانية قد أخذت فى التفكك مع مضى الزمن. وكانت الجزائر قد تحولت إلى ما يشبه الجمهورية العسكرية ، ما دام رجال البحر أو قواد الجيش يجتمعون فى شكل ديوان ، وينتخبون من بينهم دايا على البلاد. وكان داى الجزائر يحصل على كسوة أو خلعة وسيف شرف من القسطنطينية، ولكنه أصبح حاكما شبه مستقل فى اقليمه ، ولا يعترف إلا بالسيادة العثمانية ،

---

(١) المرجع السابق ٤٧٩ — ٤٨١ .

وينفذ سياسة التضامن الإسلامى ، مع استقلاله فى تصريف كل الشئون الداخلية . وكان داى الجزائر يرسل أحد البكوات أو رؤساء البحر نائباً عنه فى حكم تونس، وظلت الأحوال كذلك دون أن تتمكن الدولة العثمانية من تدعيم الروابط الادارية التى تربطها بشمال افريقية أو تجد سببا هاما للقيام بذلك . ومع زيادة ضعف الدولة العثمانية ، وضعف نيابات شمال إفريقية أصبح الرباط الدينى والمعنوى هو الرباط الأساسى بين الجميع(١). وإذا كانت الجزائر قد ظلت تنتخب الدايات فيها ، فان تونس قد خضعت لحكم أسرة الاسطى مراد ، ثم خضعت بعد ذلك لحكم أسرة الكتخدا حسين بن على ، الذى أصبحت تعرف بالأسرة الحسينية ، وظلت تحكم تونس حتى إعلان الجمهورية التونسية فيها .

أما بالنسبة لليبيا فانها قد خضعت فى أول الامر لحكم رؤساء البحر العثمانيين، مثل مراد أغا وطرغوت ، ولكن سرعان ما انحصرت فيها سلطة الدولة صوب الساحل ، وأخذت بعض الزعامات الاقليمية فى السيطرة على الداخل . ومع ضعف الدولة زادت المؤامرات والفتن والمعارك بين رؤساء الجند والحاميات ، حتى تمكن أحمد باشا القرمانلى فى سنة ١٧١١ من الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها فى أسرته حتى سنة ١٨٣٥ .

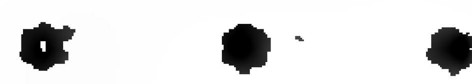
وكان أحمد باشا من أصل تركى ، ويقيم فى الولاية ، وأختاره الجند والأهالى للولاية ، وتمكن بسياسته من أن يستند اليهم فى إرجاع الوالى الذى أرسلته القسطنطينية لحكم البلاد من حيث أتى . وسار على طريقة تشبه الطريقة التى سار بها محمد على فى مصر فيما بعد ، وهى أنه قد شعر بخطر قواد الجنود غير النظاميين عليه وعلى سلطته ، فعمل على التخلص منهم بطريق الغدر ، فى إحدى الولائم ، ثم

(١) لزيادة الاطلاع أنظر د. جلال يحيى : المغرب الكبير الجزء الثالث ، الأسكندرية ، الدار القومية ، ١٩٦٦ .

عمل على إخضاع الأقاليم لحكمه ، والقضاء على أصحاب العصبيات ، وظل يحكم حتى سنة ١٧٤٥ . ولقد تمكن هذا الباشا من أن ينشىء أسطولا قوياً ، إلا أنه لم يتخذه وسيلة للدفاع عن البلاد ، بل وسيلة لإجبار السفن الأجنبية التى تمر قريبا من سواحل ليبيا على دفع إتاوات خاصة له . وأوصلته هذه العملية إلى إستقلال تام عن الدولة العثمانية ،إذ أنه أخذ فى عقد المعاهدات الخاصة بالملاحة ، وبدفع الاتاوة ، مع الدول الأجنبية ، والتفاض معها مفاوضة الند للند .

ولا شك أن إرتباط مثل هذا النظام بمنشئه وبشخصيته كان يهدد بزواله ، أو ضعفه وتفككه عند إختفاء هذا الشخص القوى . وأخذت الدول الغربية فى الشكوى من دفع هذه الاتاوة ، وأخذت تستعد لإجبار حكام ليبيا على إحترام حرية الملاحة ، فقلت إيرادات الباشاوية ، فى الوقت الذى تهيىء فيه الغرب لمهاجمتها (١) .

ولقد ظهر استقلال القرمانليين عن الدولة العثمانية حينما سكتوا عن مهاجمة الحملة الفرنسية التى جاءت إلى مصر ، وفى الوقت الذى استعدت فيه الدولة العثمانية لإرسال جيوشها ضدها من الشام . وازد ضعف هذه الأسرة وضوحا مع إزدياد التنافس بينهم . وخاصة حينما نمت سلطة دولة محمد على فى مصر ، وأخذت تهدد الإمبراطورية العثمانية ، وزاد وضوح الخطر الغربى على البلاد الإسلامية ، بهجوم الفرنسيين على الجزائر سنة ١٨٣٠ . ولذلك فإن الدولة العثمانية قد أرسلت أسطولها إلى طرابلس ، منتهزة فرصة الخلافات الأسرية ، وأعادت طرابلس إلى سلطتها المباشرة فى سنة ١٨٣٥ .



(١) راجع: رودلفو ميكاكى، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي ، ترجمة طه فوزى، ومقدمه كمال الدين عبد العزيز الخربوطلي . القاهرة ، معهد الدراسات العربية ١٩٦١ .

لقد كانت هذه الفتن والثورات تدل على ضعف الدولة العثمانية ، وضعف سلطتها فى الوصول الى ولاياتها ، كما كانت تدل على تزايد ظهور المتناقضات داخل المعسكر الاقطاعى ، وبدئه فى التفكك والتحلل . وتدل من ناحية أخرى على ظهور شخصيات قوية كان فى وسعها تغيير الأوضاع ، وإن كان ذلك فى جو من التفكير الإقطاعى ، الذى يدور حول الفرد ، وإمتيازات الفرد والأسرة . وبلغ العالم العربى آخر مراحل ضعفه وتخلفه وتقهقره ، خاصة وأن هذه الفتن والثورات كانت لاتخدم إلا مصالح أفراد معينين ، ولا تساعد على استتباب الأمن أوزيادة الاستثمار . فهل كانت هناك عوامل تدل على قرب إصلاح الأحوال ؟ أو على زوال النظام الاقطاعى ونمو النظام الرأسمالى ؟

الفصل الثاني

الحملة الفرنسية على مصر

حاولت فرنسا النزول إلى الميدان الإستعماري بإرسال قواتها إلى كندا ، وإلى بعض الجزر فى الهند الغربية ، وسايرت فى ذلك الحركة الإستعمارية العامة التى اجتاحت كل أوربا ، وانتقلت من اسبانيا والبرتغال إلى دول غرب أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولكن بريطانيا نافست فرنسا فى الميدان الاستعمارى فى العالم الجديد ، وتمكنت من الاستيلاء على كندا ، ومن مضايقة فرنسا فى مستعمراتها ومراكزها الاستعمارية فى الهند والمحيط الهندى (١) . إلا أن قيام الثورة الفرنسية قلقل الأوضاع والنظم السياسية والاقتصادية فى العالم ، ودخل بالتنافس البريطانى الفرنسى إلى ميدان جديد .

وكان البريطانيون قد قاموا بعدة محاولات لاستخدام طريق البحر المتوسط الذى يمر عبر مصر من الاسكندرية إلى القاهرة فالسويس . لكى يواصلوا السفر فى البحر الأحمر ثم المحيط الهندى . وكانوا قد واجهوا صعوبات متعددة أمامهم فى هذا الطريق ، أولها الباب العالى ، ثم البكوات المماليك فى مصر ، والأهالى العرب بصفة عامة ، إذ أنهم كانوا لا يوافقون على حضور السفن الأوربية إلى البحر الأحمر (٢) لأن تجارب العرب مع البرتغاليين الذين هاجموا موانىء البحر الأحمر جعلت العرب يفكرون كثيراً قبل أن يسمحوا للأوربيين بالملاحة فى

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى — الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٢٢

(٢) أنظر د. جلال يحيى : العالم العربى الحديث ـ المدخل ص ٨٤.

البحر الأحمر (١).

ورغم كل ذلك فقد تمكنت الشركات الاستعمارية البريطانية من عقد اتفاقيات مع البكوات المماليك للمرور عبر مصر ؛ ومن هذه الاتفاقيات الاتفاقية التجارية التى عقدتها انجلترا مع محمد بك أبو الذهب - الذى كان قد تطلع الى الانفصال عن الباب العالى — وذلك من أجل تأمين سير السفن البريطانية فى البحر الأحمر (٢) . وهذا يوضح أهمية العلاقات الودية - من وجهة النظر البريطانية - مع مصر ، وذلك بالنسبة لمواصلاتها مع الهند .

وكان لتقارير وكتابات رجال السياسة الفرنسيين ، الذين خدموا فى القسطنطينية او القاهرة ، وكذلك الرحالة الذين زاروا مصر ، أكبر الأثر فى كشف القناع عن حالة الإمبراطورية العثمانية من جهة ، وتوجيه أنظار مواطنيهم الى مصر إحدى ولايات هذه الإمبراطورية من جهة أخرى . وقد أقبل السياسيون على دراسة هذه التقارير وقراءة هذه الكتب باهتمام كبير ، عندما تجددت الرغبة فى الاستعمار (٣) .

قد اختارت حكومة الثورة الفرنسية الجنرال بونابرت قائد لحملتها على مصر ، وزودت هذه الحملة القوية بكل ما يلزمها ، وأعطت قائدها سلطات واسعة فى التصرف . وقد وصل الأسطول الفرنسى الى شواطىء مالطة فى ٩ يونيو ١٧٩٨ ، وفى صبيحة يوم ١٩ يونيو غادرت الحملة مالطة فى طريقها إلى الشواطىء المصرية . ولما كان بونابرت يخشى من مهاجمة الأسطول الانجليزى للأسطول الفرنسى أثناء

---

(٣) Hunter F M.—An account of the British settlements of Aden in Arabia p. 162.

(١) Carl Brockimen —History of Isalamic peoples p. 347.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٤٢

تقدمه ، فقد عمد إلى تغيير اتجاهه ، وأبحر صوب كريت بدلا من الابحار مباشرة صوب الإسكندرية ،وفى مياة كريت علم بونابرت أن نلسن Nelson أميرالبحر الانجليزى كان لايزال يجد فى أثره ،فاستمر فى سيره بكل سرعةالىالاسكندرية(١)، وتمكن من احتلالها ، ثم زحف بحملته عبر الدلتاحتى وصل إلى القاهرة التى لم يصمد المماليك طويلا للدفاع عنها أمام قواته (٢) . وهكذا أصبح بونابرت فى موقف يهدد منه المواصلات البريطانية مع الهند (٣) .

ولم يقف الأمر عند حد التهديد، بل إن بونابرت أمر المسيو لسكاريس بالسفر إلى بلاد العرب ليتفاوض مع القبائل العربية المختلفة حتى تسهل تقدم جيوشه إلى الهند (٤) .

ورغم أن محاولات بونابرت هذه لتأمين طرق تقدم القوات الفرنسية إلى الهند لم تسكن لها من نتيجة ، فإنها أوضحت خطورة الموقف حينذاك بالنسبة للمصالح البريطانية ، ونتيجة لذلك ، قامت قوة بريطانية باحتلال جزيرة بريم فى مضيق باب المندب بين خليج عدن والبحر الأحمر(٥) وذلك باسم شركة الهند الشرقية ، وذلك حتى تعرقل هذه القوة أى تقدم فرنسى نحو الهند .

إلا أن الفرنسيين لم يظلوا فى مصر فى موقف يهددون منه المواصلات البريطانية

---

(١) المصدر السابق ص ٨٤ — ٨٦ .

(١) Harold Ingrams—The Yemen p. 49.

(٢) H. Dodwell—The Founder of Modern Egypt, A Study of Mohamed Ali p. 56.

(٣) سيديو — خلاصة تاريخ العرب (مترجم) ص ٢٨٢—٢٨٣ .

(٤) Playfair R.L., A History of Arabia Felix or Yemen p.p. 122—123.

مع الهند ، فقد جعل انتصار نيلسون فى أبو قير فى أول أغسطس ١٧٩٩ موقفهم فى مصر صعبا ، كما أرسل السلطان العثمانى سليم الثالث فى نفس السنة سفنا عليها قوات تركية إلى مصر (١).

وهكذا تمكن نلسون بإغراقه لسفن الأسطول الفرنسى من قطع خطوط مواصلات الحملة الفرنسية مع فرنسا ؛ إلا أن بونابرت واصل حملته التى حضر من أجلها ، وأمر قواته بالزحف على سوريا مبتدئا بفلسطين ، واتصل فى نفس الوقت بالوهابيين فى الجزيرة العربية . وقد تصدت بريطانيا بمساعدة الدولة العثمانية لهذا التقدم الفرنسى ، مما اضطر بونابرت فى النهاية إلى العودة إلى فرنسا ، وقد اضطرت الحملة الفرنسية نفسها إلى الانسحاب من مصر والعودة إلى أوربا بعد ذلك .

ولقد فشلت الحملة الفرنسية على مصر من ناحية فاعليتها فى ضرب بريطانيا فى الهند ، كما فشلت فى اقامة مستعمرة فرنسية فى مصر ، أما من حيث تأثير هذه الحرب الاستعمارية على المصريين كجزء من الشعب العربى ، فإن النتائج كانت إيجابية وكانت هامة . فالواقع أن الحملة الفرنسية على مصر فتحت حقبة جديدة فى تاريخ العرب ، فقد أوضحت هذه الحملة أن سياسة العزلة التى فرضها العثمانيون على العالم العربى لاتصلح أن تكون دائما خطا دائما للمقاومة يحمى الوطن العربى من أطماع أوربا ، كما كانت خطورة الحملة أنها كانت تحمل معها تقدم ثلاثة قرون عاشتها أوربا يقابلها تخلف ثلاثة قرون عاشتها البلاد العربية نتيجة لأسلوب العثمانيين الراكد فى الحكم ، وما اتسم به من عزلة وجمود ، ومن هنا كان اللقاء بين الشرق والغرب حافلا ، يحمل معه الكثير من المتناقضات ، مما أدى إلى كشف

(١) Carl Brockelmann p. 348.

الأوضاع على حقيقتها ، فأضحت البلاد العربية منـذ ذلك الوقت مطمعـا وهدفا للطامعين .

وعلى أية حال ، فقد خضعت القاهرة للاحتلال الفرنسى الذى وطد سلطتـه بها ، ولكنها لم تكن فى يوم من الأيام راضية عن هذا الاحتلال ، وعبثـا حاول بونابرت بعد انتصاره الحربى أن يجتذب إليه قلوب المصريين .

الثورات المصرية ضد الاحتلال الفرنسى:

فى يوم ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ثارت القاهرة فى وجه الفرنسيين ، وكانت هذه الثورة عنوانا لنفسية جديدة فى الشعب المصرى[١] ، ومن الواجب قبل أن نسرد وقائع تلك الثورة أن نتساءل ... لماذا ثارت القاهرة ؟

ذكر الجبرتى أن تقرير الضرائب الفادحة التى فرضهـا الفرنسيون هو الذى أدى إلى نشوب الثورة ، وهذا صحيح ، اذا اعتبرنا تلك الضرائب كالشرارة الاولى التى أشعلت النار ، ولـكن فكرة الثورة كانت مختمرة فى الرؤوس من قبل. ولاشك أن سلوك بونابرت مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعـدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم وقسوتهم ، فإذا به أشد منهم قسوة وظلما . فقد روى الجبرتى أنه فى يوم ٢٨ يوليو ١٧٩٨ - أى عقب أن استقر بونابرت فى العاصمة ببضعة أيام - « اجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال (مائة ألف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الافرنج أيضا ،فسألوا (أى أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا، فأخذوا فى تحصيلها » [٢] .

ومما زاد الامر سوءاً أن الفرنسيين أخذوا يخرجون الـكثير من أصحاب

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦

(٢) الجبرتى — المختار من تاريخ الجبرتى ص ٢٥٧

البيوت ويحتلونها أو يهدمونها بحجة تحصين القاهرة (١) . وقرنوا أعمال السلب والنهب بأعمال الإرهاب وسفك الدماء لإخضاع الشعب وحمله على الطاعة والإستسلام .

كما قام الفرنسيون بهدم أبواب الحارات ، فاشتد قلق الناس من هدمها (٢) ، وتظننوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين فى ظنونهم ومخاوفهم ، فان الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الأبواب إخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة . وقد قال الكولونيل دتيروا Detroye فى مذكراته بتاريخ ٤ أغسطس ١٧٩٨ « أن شوارع القاهرة مفصولة بعدد كبير جدا من الأبواب الكبيرة التى تفصل الحارات والأحياء بعضها عن بعض ، ولقد رأى القائد العام أن هذه الأبواب قد تعطل انتقال الجنود فى حالة الفتنة أو الهياج لذلك أمر بهدمها » .

ومن الأمور التى أثارت نقمة الناس ، اعتقال الفرنسيين حاكم الاسكندرية الوطنى والحكم عليه بالإعدام ، وكذلك وصول أخبار الفظائع التى ارتكبها الجنود فى المديريات .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الثورة تختمر فى الاذهان ، وجاءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركانها . وهكذا تكونت للثورة لجنة تديرها وتنظم صفوفها ومقرها فى الأزهر . وفى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ، احتشدت الجموع فى الجامع الأزهر تهتف بالقتال ، وامتلأت الطرق بالناس وهم يحملون معهم أسلحتهم قاصدين أحياء الفرنسيين لمهاجمتها .

ولم يقدر الجنرال ديبوى Dupuy — حاكم القاهرة الفرنسى — فى مبدأ

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٢٧٢ .

(٢) الجبرتى ص ٢٥٧

الأمر خطورة الحالة ، فاكتفى بارسال بعض ذوريات من الجند ، إلا أنه لم يلبث أن تبين خطورة الموقف ، فمضى فى كتيبة من الجند قاصدا مركزا الثورة ، إلا أن الثائرين أطبقوا عليه من كل جانب وقتلوه (١) .

وهنا حضر بونابرت إلى القاهرة ، وأمر بضرب الأزهر بالمدفعية ، وفى الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة إلى الأزهر ، بحيث أصبح الثوار محصورين بين نارين ، نار المدفعية من فوقهم ، ونار الجنود من حولهم . وهكذا تغلبت قوة الحديد والنار على مقاومة شعب أعزل لاسلاح معه. وهكذا دخل الفرنسيون إلى الجامع الأزهر «وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ... وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه » .

ولم تمض بضعة شهور على هذه الثورة حتى هب الشعب الأصيل بانتفاضة أخرى تعرف بثورة بولاق ، ففى ٢ مارس ١٨٠٠ قام المصريون بالهجوم على معسكرات الفرنسيين ومستودعاتهم وقد اشترك الأتراك والمماليك فى ثورة القاهرة الثانية ، وهذا هو الفرق بين الثورتين الأولى والثانية ، ولكن الثورة الثانية جذبت إليها عددا من زعماء الأتراك والمماليك ، وكان من زعماء الثورة الثانية السيد عمر مكرم من المصريين ، واشترك فيها من الأتراك والمماليك ابراهيم بك والألفى بك ونصوح باشا وناصف باشا وغيرهم .

وقد امتدت الثورة من القاهرة إلى مختلف المديريات ، إلا أن الفرنسيين

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ــ المصدر السابق ص ٢٧٣ ــ ٢٧٩ .

نجحوا قبل أن يوجهوا للشعب ضربتهم من تصفية موقف الأتراك والمماليك بعد التفاوض معهم ، وتفرغوا بعد ذلك لضرب ثورة الشعب المصرى (١) .

وفى الواقع كان هناك فارق هائل فى التسليح بين القوتين ، فالقوات الفرنسية التى قهرت أوربا ، والتى كانت مسلحة بأحدث الاسلحة فى ذلك الحين ، كانت تهاجم جموع الشعب المسلح بالرماح والسيوف وبعض البنادق القديمة ، والواقع أن هذا الفارق الهائل بين تسليح القوتين أدى الى انكسار الثوار (٢) .

ومن ناحية أخرى ، فقد أثبتت الحملة الفرنسية للمصريين أن هناك أمما أكثر تقدما ، واكثر عملا وإنتاجا ونشاطا وتفكيرا من البلاد العربية ، أثبتت أن هناك صناعة وبحث وتنظيم . وجاءت الحملة ومعها عدد كبير من العلماء قاموا بدراسة الآثار والعادات والتقاليد . كما قضت الحملة على عدد كبير من المماليك . وشتتت شملهم ، وأظهرت أن فروسيتهم لاتجدى كثيرا أمام التسليح الحديث .

ولاشك أن هذا الصدام بين حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف ، وتتفاوت درجة ارتفاع كل منهما على السلم الحضارى .قد ساعد على إيقاظ عدد من المصريين ، وعلى دفعهم إلى العمل والإنتاج حتى يعوضوا ما فاتهم . ولقد أنشأ بونابرت المجمع العلمى المصرى ، وأعطى بذلك نموذجا للعمل أمام الوطنيين كما أنه عمل على تشجيع الطبقة الوسطى ، فى نفس الوقت الذى وجه فيه ضربات قوية إلى الإقطاع ،فأنشأ نظاما استشاريا فى البلاد ، وأخذ يستمع بنفسه الى وجهات نظر الشيوخ والعلماء ، فشعر المصريون أن من حقهم الاشتراك فى مناقشة أمورهم . وكان كل ذلك بمثابة التمهيد لبناء مجتمع يسود فيه حكم الطبقة الوسطى ، كما هو الحال فى أوربا ، فعلاوة على ضرب القوى العسكرية للمماليك نجد أن الفرنسيين

---

(١) الجبرتى ــ المصدر السابق ق ٢٧٤ — ٢٧٥

(٢) الجبرتى ــ المصدرالسابق ص٣٠٤ — ٣٠٥

يحاولون وضع نظام حكم مركزى للبلاد ، كما أنهم حاولوا توحيد نظام الضرائب الموجودة فى ضريبة واحدة على الأطيان الزراعية ، وبدأوا فى تسجيل عقود الملكية والمبانى والحوانيت ،ووضعوا مشروع ميزانية لها إيراداتومصروفات. وبدأوا فى الاهتمام بالمشروعات الزراعية والصناعية .

وكان بمجيء الحملة الفرنسية إلى مصر تمهيداً لاصلاحات ستظهر بعد ذلك فى مصر وفى عدد من أقاليم الوطن العربى ، كما أنها مهدت لظهور قيادة جديدة فى مصر .

الفصل الثالث

عصر محمد على

كانت الفترة التالية لخروج الحملة الفرنسية من مصر مليئة بالفوضى والإضطراب، ذلك أن الدولة العثمانية حاولت اعادة سلطتها على مصر، وتدعيم نفوذها فيها، ومنع الدول الأوربية من العودة إليها، وكان المماليك منقسمين على أنفسهم، بينما بريطانيا كانت قد شعرت بأهمية مصر، وخشيت من عودة النفوذ الفرنسى إليها. ومن قيـــام أى سلطة ـ فيها يمكنها أن تتحكم فى أى يوم من الأيام فى طريق مواصلاتها مع الهند. وهكذا أصبحت هذه القوى المتنافسة تهدد كل منها الأخرى.

ومنذ الحملة الفرنسية، شعر المصريون بأنهم يختلفون عن الأتراك، وشعروا أكثر من ذلك أن مصالحهم تختلف عن مصالح تركيا ومصالح المماليك وتتعارض معها، وشهدت مصر نمو زعامة وطنية أصيلة، حاولت أن تأخذ مقاليد الأمور فى يدها، إلا أن هذه القيادة الوطنية شعرت بضرورة اختيار أحد العسكريين لتولى مقاليد الحكم، فوقع اختيارها على أحد ضباط الحامية العثمانية توسمت فيه القدرة والكفاءة لتولى أمور مصر، وكان هذا الضابط هو محمد على.

ولقد أفاد محمد على من هذه الزعامة الشعبية المتمثلة فى الشيوخ والعلماء والتجار لتثبيت دعائم حكمه، وفى الابقاء عليه واليا على البلاد، رغم محاولات الباب العالى نقله من مصر، كما أفاد منها فى الدفاع عن البلاد أمام هجوم حملة الجنرال فريزر على السواحل الشمالية. إلا أن محمد على عمل فى الوقت نفسه على التخلص من نفوذ القيادة الشعبية التى كانت قد أوصلته إلى الحكم واختارته واليا على البلاد، فأخذ يبث الفرقة بين أفرادها، وتمكن بهذه الطريقة من أن يعزل قطب المعارضة

السيد عمر مكرم ، ثم وجه الضربة النهاية بنفيه للسيد فى عام ١٨٠٩ خارج القاهرة (١) . كما اضطر محمد على إلى أن يأخذ موقفا صارما مع المماليك حين طلبت منه الدولة العثمانية إرسال قواته لمساعدتها فى القضاء على الحركة الوهابية فى بلاد العرب ، ورتب محمد على المذبحة الشهيرة فى القلعة سنة ١٨١١ ، والتى مكنته من التخلص من المماليك دفعة واحدة والانفراد بحكم مصر .

محمد على والحركة الوهابية :

ظهرت هذه الحركة فى إقليم نجد ، وهو إقليم عربى بعيد عن سلطة الدولة ، ويمتاز أهله بحب الحرية والاستقلال ، وقد رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتشار البدع والمنكرات ، وتعظيم الناس للقبور والأضرحة والأحجار والأشجار ، وابتعادهم عن روح الإسلام الصحيحة وعن الوحدانية السليمة التى جاء بها ، إذ كانوا يستغيثون بالأولياء ويقدمون لهم النذور ، ويتشفعون بهم لجلب منفعة أو لدفع ضرر (٢) .

والواقع أن من بين العوامل التى أثرت فى تكوين شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، شخصية تقى الدين بن تيمية الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، ورغم طول الفترة الزمنية التى تفصل بينهما ، فأن الشيخ عكف على آثار ابن تيمية من كتب ورسائل فدرسها وتفهمها ، وأخذ عنها ونسخ بعضها لنفسه ، بل إن المبادىء التى نادى بها الشيخ كانت هى نفس المبادىء التى سبقه إليها ابن تيمية بأربعة قرون ، فكلاهما نادى بالعودة إلى الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح

---

(١) د. محمد أنيس ـ مصر من الإقطاع إلى الرأسمالية ـ مجلة الكاتب ـ عدد ٥٢ يوليو ١٩٦٥ ص ١١٦ .

(٢) د. جمال الدين الشيال ـ الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ص ٥٠ .

ومقاومة البدع والخرافات التى ألصقت بالإسلام ، فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعتبر تطوراً تاريخيا لدعوة ابن تيمية .

ويطلق بعض الكتاب على هذه الدعوة السلفية اسم المذهب كما يطلق عليها البعض الآخر اسم الوهابية الذى اشتهرت به . والحقيقة أن استعمال هذين الوصفين للدعوة غير دقيق ، فهى ليست بمذهب جديد فى الإسلام حتى يصح إطلاق لفظ المذهب عليها ، بل إن صاحب الدعوة نفسه كان حريصا على أن يؤكد للناس أنه لايدعوهم إلى مذهب جديد فى الإسلام ، ولذا نرى أن وصف الدعوة بالمذهب فيه مغالاة ،لأن الشيخ لم يأت بمذهب جديد ،بل دعا إلى تخليص سلوك المسلمين مما علق به من بدع وخرافات .

أما وصف الدعوة بالوهابية ، فقد أطلقه عليها خصوم الشيخ حتى يبرهنوا للناس أن المبادىء التى يدعو إليها بدعة جديدة خارجة على مبادىء الإسلام . أما أتباع الدعوة فأطلقوا على أنفسهم الحنابلة أو الموحدين أو السلفيين .

وقد أثارت هذه الدعوة السلفية - ولا تزال تثير - جدلا كثيراً ، والحقيقة أنها لم تأت بجديد فى الدين الإسلامى ، ولم تكن خارجة على مبادئه ، بل إنها دعوة سلفية سنية ،فصاحبها وأتباعها يؤمنون بمذهب أهل السنة والجماعة. والواقع أن المبادىء التى نادى بها الشيخ كانت كلها مبادىء قديمة وجديدة فى الوقت نفسه، قديمة لكونها لم تخرج عن تعاليم الإسلام ولم تأت فيه بجديد ، وجديدة لأن الإسلام الصحيح أصبح غريبا على النفوس فى ذلك الوقت ، فرأى الناس أن إنكار أفعالهم التى يقومون بها ، ودعوتهم إلى أصول الدين التى أصبحت بعيدة عن نفوسهم ، رأوا فى ذلك شيئا جديداً عليهم . ولم تكن رغبة الشيخ تستهدف تعديل العقائد التى جاء بها الإسلام أو إعطاء التعاليم الإسلامية تفسيرا جديدا ،

وإنما هدف أولا وقبل كل شيء إلى محـاربة البـدع والعودة بالإسلام إلى أصله الصادق .

ويعتبر دخول الأمير محمد بن سعود فى عام ١٧٤٥ فى الدعوة السلفية النواة الأولى فى صرح الدولة السعودية الأولى (١) ، التى تمكنت من السيطرة على الحجاز ومدت سيطرتها إلى الحرمين الشريفين (٢) ، وتطلعت إلى ضم الشام والعراق.

وكان العثمانيون منذ أن استولوا على الحجاز فى القرن السادس عشر قد اتخذوا من جدة قاعدة لحكمهم هناك ، واستمر الحجاز تابعـا لهم الى أن استولى عليه السعوديون . ولما وصلت الأمور عند هذا الحد ، أيقن السلطان العثمانى سليم الثالث أنه ينبغى القضاء على حركة الوهابيين التى أظهرت عداءها الصريح تجاه السلطة العثمانية (٣).

وقد اضمر محمد على طويلا رغبته فى الاستيلاء على الجزيرة العربية ، إلا أن الباب العالى الذى كان يشك فى الأطماع الكامنة وراء هذه الرغبة ، لم يشجع تحقيق هذا المشروع على يد هذا الوالى الطموح (٤) .

إلا أن خطر الوهابية أخذ فى التزايد ، فبعد أن استولوا على مكة والمدينـة ، تقدم السعوديون إلى أرض اليمن ، وانضمت إليهم بعض القبائل التى خرجت عن طاعة الإمام المنصور (٥) مما دعاه إلى طلب معاونة السلطان العثمانى والى مصر لصد

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ــ الدولة السعودية الأولى ص ٣٠ ــ ٤٠

(٢) Playfair R.L. Op. cit p. 127

(٣) Richard H. Sanger, The Arabian Peninsula p. 27

(٤) H. St. Philby. Arabia p. 92

(٥) عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى ــ تاريخ اليمن ص ٢٠٥ .

هجوم السعوديين قواعده بالمساعدة (١) .

وقد تبين السلطان العثمانى محمود الثانى أهمية إعادة الاستقرار إلى الحجاز والقضاء على تلك الحركة الخارجة على الخلافة الاسلامية . وكحقيقة واقعة ، فإن الجزيرة العربية لم تكن فى ذلك الوقت من المناطق الغنية . التى يجب على السلطنة أن تضحى بالكثير من أجلها ، إلا أن بقاء هذه البلاد فى يد الخليفة العثمانى كان أمرا مرغوبا فيه حتى تتحقق الناحية الروحية لخلافته، وحتى لا يكون هناك مجال للشك فى قدرته على حماية الحرمين الشريفين . إلا أن الدولة العثمانية كانت تقاسى فى ذلك الوقت من مشكلات داخلية خطيرة (٢) ولم يجد السلطان تحت يده القوة اللازمة للقضاء على تلك الحركة المناوئة للخلافة ، مما اضطره إلى أن يلجأ إلى والى مصر ، وكلفه بالقيام بتلك المهمة سنة ١٨٠٧ ، ثم كرر طلبه فى العامين التاليين (٣) .

وقد قاسى الإمام على منصور فى عام ١٨٠٤ من وطأة السعوديين الذين سلبوه بضعة من خيرة الأقاليم التابعة له (٤) ، كما نهبوا الحديدة واللحية وحموا دخول بيت الفقيه ، وأرسلوا عملاءهم إلى المخا ليخبروا أهلها بأنهم سوف يكونون هناك فى مدى أشهر قليلة ، إلا أنهم عندما قدموا إليها لم يتمكنوا من دخولها ،

(١) د. أحمد فخرى ـ اليمن ، ماضيها وحاضرها ص ١٥٩

(٢) ساطع الحصرى ـ صفحة من تاريخ العرب ص ٤٨

(٣) Bury, G. Wyman, Arabia Infelix or the Turks in Yemen P. 13

(٤) C.,U. Aitckison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neigbouring countries Vol. XI P. 111

واستعصت عليهم أسوارها ، وبذا لم يتحكم السعوديون من التسلط على الساحل اليمنى كله وبالتالى على تجارة المنطقة(١) .

ونحن لن ندرس بالتفصيل معارك السعوديين الكثيرة والتى انتهت بهم إلى تلك السيطرة على مناطق شاسعة من الجزيرة العربية ، بل إننا تعرضنا لها بإيجاز شديد فقط لكى نوضح الأسباب التى أدت بالسلطان إلى أن يكرر طلبه إلى محمد على فى ١٠ سبتمبر ١٨١٠ بأن يجرد حملة لمحاربة هذه الدعوة الخارجة على الخلافة (٢)

وقد اضطر السلطان إلى طلب تنفيذ هذه العملية من محمد على رغم شكوكه فى نوايا هذا الوالى الطموح ـ لأن التهديد الوهابى كان قد اتخذ شكلا خطيرا حتى أنه أصبح من الضرورى اتخاذ اجراءات فعالة لتلافى حدوث أية نتائج أشد خطورة ، وفى نفس الوقت ، فأن محمد على كان قد شيد لنفسه فى مصر مكانة راسخة ، والباب العالى لن يضيره أن يقحم هذا الوالى القوى فى مشروع يستحوذ على كل مجهوداته ويبعده عن طريق الخيانة . كما أن هذا الوالى إذا منى بالهزيمة،فإن ذلك سيكون فى مصلحة السلطة العثمانية التى يمكنها إخضاعه بعد ذلك ، ومن ثم تطورت الأمور ، وصدرت إليه التعليمات باتخاذ الخطوات اللازمة لسحق الحركة الوهابية . وقد اهتم محمد على بذلك المشروع بعزيمة صادقة (٣) ، إلا أن الأمر من جانبه لم يكن مجرد طاعة منه لسيده السلطان للقضاء على تلك الحركة الخارجة على الخلافة ، بل إن المسألة كانت أعمق بكثير ، فإن ذلك الوالى كان همه الاكبر موجها نحو زيادة الدخول المصرية ، وبصفة

---

(١) Playfair R.L. Op. cit P· 128

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ـ عصر محمد على ص ١١٥

(٣) H. Et, Philby. op. cit. p.p. 92 - 93



الحروب الوهابية

رئيسية عن طريق التجارة ، ولما رأى أن انجلترا هى الدولة البحرية الكبرى التى تمر أساطيلها وتجارتها فى كل البحار فأنه تقرب منها وأمد النقط الانجليزية فى البحر المتوسط بالقمح اللازم لها أثناء الحروب النابليونية . ووصل محمد على إلى أبعد من ذلك بأن قدم اقتراحات إلى حكومة الشركة فى الهند للعمل على تشجيع التجارة معها . وقد كانت هذه الاقتراحات من الاهمية بمكان ، حتى أنها كانت كافية لان يرسل بلزونى كبعوث بريطانى إلى القاهرة ، حيث وقعت معاهدة بين الطرفين فى عام ١٨١٠ . وقد نصت هذه المعاهدة على أنه يجب أن تشكل أسس المعاملة مع الهند ، وأنه فى حالة حدوث حرب بين انجلترا وتركيا ، فإن الباشا لن يقدم تحت أية ظروف بإهانة الرعايا البريطانيين أو الاستيلاء على ثروات بريطانية ، وأن يقوم الباشا بإعادة الهاربين من السفن البريطانية حتى ولو كانوا عن يعتنقون الإسلام ، وأن يمر المسافرون ومعهم أمتعتهم الشخصية فى الاراضى المصرية دون دفع ضرائب ، وأن تمر القوافل التجارية بسلام ، وتحت الحراسة من وإلى السويس ، وأن الضرائب الجمركية لا تزيد عن ٣٪ إلا أنه لم يستم التصديق على هذه المعاهدة ، وليس من شك فى أن ذلك حدث خوفا من أن يؤدى عقدها إلى تدهور العلاقات البريطانية مع تركيا (١) .

فمحمد على بدون شك لم يقم بهذه الحملة إرضاء للباب العالى فقط بل لانجاز أهداف أخرى ، فقد رأى أنه إذا ما نجح حيث أخفقت السلطنة ، واستطاع بقوة جيشه أن يقضى على السعوديين ، وأن يستخلص منهم الأراضى المقدسة ، فإن ذلك سوف يؤدى إلى توطيد مركزه وعلو مكانته حيال العالم الإسلامى والباب العالى فلا يفكر فى عزله أو تغييره .

وفى سبتمبر ١٨١١ شقت الحملة المصرية طريقها إلى الجزيرة العربية، فتقدمت

---

(١) H. Dodwell op. cit. p. 57

قوات الخيالة بالطريق البرى عبر العقبة إلى ينبع(١) ميناء المدينة ، حيث وصلت قوات المشاه بقيادة طوسون نفسه بالطريق البحرى فى أكتوبر من نفس السنة . وتم الاستيلاء على ينبع بلا مجهود كبير ، وتابع الجيش المصرى زحفه نحو الداخل. وواجه الجيش أول مقاومة له فى بدر ، وبدأ يعانى من الاقامة فى منطقة قاحلة ، وتقدم الجيش فى الوادى حيث تجمع البدو فى واحة لمواجهته ، وكان ضيق الوادى و بالاعلى المصريين، وسيطر السعوديون على الموقف، وانسحب طوسون وجيشه إلى ينبع ، ولم يكن أمامه سوى البقاء فيها فى انتظار وصول إمدادات جديدة(٢) .

وعلى أية حال ، فعندما شعر طوسون مرة أخرى بقوته ، تقدم إلى المدينة وحاصرها مدة شهرين إلى أن سلمت فى النهاية سنة ١٨١٢(٣) كما أن عبد الله قائد الجيش السعودى فى الحجاز قام بالانسحاب من مكة التى سقطت فى أيدى المصريين بقيادة مصطفى بك صهر محمد على . وهكذا خرجت المدن المقدسة من سيطرة السعوديين ، وظلت كذلك أكثر من قرنين من الزمان .

وبدا أنه من الصعب على الدولة السعودية أن تحافظ على تماسكها ، كما أن الزعيم نفسه كان مريضا ، وكان الوقت ملائما لأعدائه كى يبذلوا مجهودا مضاعفا ضده ، فخرجت مدن الحدود السورية عن السلطة السعودية ، وتشجعت القبائل الواقعة فى الجزيرة العربية ، وانتشرت الاضطرابات فى تخوم نجد نفسها. وعندما بدا أن نهاية السعوديين قد أصبحت قريبة ، قرر محمد على أن يدير العمليات بنفسه فى الحجاز ، وبعد أن ترك مسئولية الحكم لولديه اسماعيل وإبراهيم ، ترك

(١) H. Et. Philby op. cit p. 93

(٢) H. Dodwell p. 43

(٣) H. St. Philby p.p. 93-94

القاهرة إلى السويس ومنها إلى جدة(١) .

إلا أن نفوذ محمد على لم يكن آمنا تماما فى الجزيرة العربية . حقيقة لقد احتلت قواته المدن الساحلية فى الحجاز والعسير بلا صعوبة كبيرة ، إلا أن المناطق الداخلية كانت لاتزال فى أيدى السعوديين . إلا أنه فى أول مايو ١٨١٤ مات سعود فجأة فى الدرعية ، ومات معه الأمل الأخير فى بقاء الدولة السعودية التى بذل الكثير من أجل إقامتها والتى استطاع هو وحده السيطرة عليها (٢). ولم يتفق أبناؤه الثلاثة فيما بينهم على كيفية حكم دولتهم (٣) .

وهاجم طوسون نجد إلا أن مواصلاته مع المدينة كانت تقطعها إغارات السعوديين ، وبقى طوسون على غير اتصال بوالده الذى كان فى الواقع قد عاد إلى مصر . وتحت هذه الظروف وافق طوسون على إجراء مفاوضات ، وتم توقيع معاهدة وافق فيها عبد الله بن سعود على الاعتراف بسلطة السلطان العثمانى ، وتعهد بزيارته زيارة ودية ، وكان على طوسون فى مقابل ذلك أن ينسحب من كل أراضى الوهابيين ، وأن يكون لنجد اتصال حر مع الحجاز (٤) .

وقد هاجم محمد على هذه المعاهدة ، إلا أنه فى نفس الوقت أرسل تهديداً بأنه سوف يهاجم الدرعية نفسها ، إلا إذا تقدم عبد الله إلى الآستانة حسب شروط المعاهدة ، إلا أن عبد الله تغاضى عن هذا التهديد وكرس نفسه لتأكيد سيطرته على قبائله وتقوية عاصمته بالأسوار والمدافع والمؤن لمواجهة الحصار (٥) .

(١) Playfair R. L. p.p. p 130

(٢) Philby p.p. 95—96

(٣) H. Dodwell p. 45

(٤) Philby p: 98

(٥) H. Dodwell p. 46

وعند وصول محمد على إلى مصر عين ابراهيم باشا لقيادة الجيش فى الجزيرة العربية (١) . وبعد عدة معارك ظهر ابراهيم بقواته فى ٦ أبريل ١٨١٨ بالقرب من عاصمة السعوديين ، وارتفع الستار عن الفصل الأخير من نهاية الدولة السعودية الأولى . وتوجه عبد الله بن سعود بنفسه إلى ابراهيم باشا طالبا انهاء القتال كى يحمى أتباعه ، وقد استقبله ابراهيم باحترام كبير كبطل منافس ساعة الهزيمة ، وأرسله إلى العاصمة العثمانية حيث ضربت عنقه فى سانت صوفيا ، وضاعت بذلك الدولة السعودية (٢) .

محمد على وبناء الدولة الحديثة

ساعدت الأوضاع الداخلية والقوى الخارجية على إقامة دولة مصر الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر . ونجحت هذه الدولة فى توطيد الأمن وضرب الإقطاع ، ومد نفوذها على كل منطقة الشرق الأدنى .

وكان بعض البكوات المماليك — من الذين نجوا من مذبحة القلعة — قد تمكنوا من الفرار إلى شمال السودان ، ومن تدعيم نفوذهم فى جنوب مصر ، فنظرت اليهم كخطر يهدد أمنها وسلامتها . ولقد تمكنت مصر بفتحها للسودان من القضاء نهائيا على قوة المماليك ، واستعدت بعد ذلك لوضع أسس جديدة لبنيانها الاجتماعى والاقتصادى .

وقد انتهت الحروب ضد الحركة الوهابية بإسناد ولاية الحجاز إلى ابراهيم الإبن الأكبر لمحمد على ، وأصبح أبناء الجزيرة العربية يجندون فى القوات المصرية ، وساعد ذلك بالتالى على زيادة الاندماج بين أبناء هذين الإقليمين داخل وحدة إدارية واحدة .

---

(١) Playfair R. L. p. 133

(٢) Philby p.p. 98—102

أما تجربة السودان ، فقد سارت مع حملات توغلت فى هذه البلاد وضمتها الى مصر . وكما حدث فى الجزيرة العربية ، بدأ السودانيون يشتركون فى وحدات الجيش المصرى ، وزاد التقارب بين أبناء هذين الإقليمين العربيين ، وسهلت الإدارة الموحدة شئون التجارة .

أما تجربة سوريا ، فقد دعمت هذه الوحدة الإدارية الجديدة فى منطقة الشرق الأدنى ، وأصبحت حدود الدولة الجديدة تمتد من جبال طوروس إلى أعالى النيل ، ومن حدود ليبيا إلى أعالى الفرات . وبدت هذه الامبراطورية فى شكل عربى واحد من ناحية السكان على الأقل . وكان بالمرستون يعتقد أن محمد على له أطماع واسعة فى بناء امبراطورية عربية تضم كل البلاد التى تتكلم العربية ، والغالب أن الوالى كان يعتنق مثل هذه الرغبة ، فإن الاستيلاء على سوريا والحجاز والسودان يجعله فى موقف قد يسمح له بتنفيذ هذا المشروع الضخم ، وبقيت فقط العراق والخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية كى يمكنه أن يحقق مثل هذا التوسع فى المشرق العربى (١) .

ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن أهداف الباشا كانت تتلخص فى أن يرسل فرقة من قواته من اليمن للاستيلاء على عدن وميناثها العظيم الذى يتحكم فى مدخل البحر الأحمر ، وبعد ذلك تتقدم القوات المصرية إلى حضرموت المقسمة بين العديد من الامراء والشيوخ الضعاف ، وبعد ذلك تتقدم قواته إلى عمان ، وأخيراً إلى مسقط والمنطقة الواقعة فى الجانب الجنوبى الغربى من الخليج العربى ، بحيث يصبح بعد ذلك سيداً على كل شبه الجزيرة العربية ، وبعد أن يتم له ذلك ، فإن الاستيلاء على بغداد سوف يكون أمراً سهلا (٢) . والواقع أن وثائق عابدين لم

(١) H. Dodwell op. cit p. 125

(٢) =India Office Library, Political & Secret Library B.8,

تؤكد هذا التصور البريطانى، إلا أنه بالنسبة لهذا الوالى الطموح ، فإن هـــذا التصور قد يبدو أمرا محتملا .

إلا أنه من وجهة نظر أخرى ، فإننا إذا تتبعنا الخطوط التى سار عليها محمد على ، لوجدنا أنها كانت تهدف القسطنطينية عاصمة الدولة ومقر الخلافة الاسلامية، بدلا من محاولة اتمام الوحدة العربية بالسير صوب بغداد مثلا.

ولقد كانت تجربة الدولة المصرية الحديثةفى العالم العربى تجربة عميقة، وخاصة بالنسبة للسياسة التى انتهجتها تجاه الرغبة من جهة ، ونظرا لما حققته من جهة أخرى فى الميادين الثقافية والفكرية . أما السياسة التى سارت عليها الادارة ، فكانت تتلخص فى المساواة بين كل سكان الامبراطورية فى الحقوق والواجبات أمام القانون .

وقد سار محمد على على أسس حديثة فى بنائه لدولته ، فأخذ فى فتح المدارس وإنشاء المطابع وارسال البعثات التعليمية فى مختلف فنون المعرفة إلى أوربا ؛ والحقيقة أن الأصل فى تلك البعثات وأسبابها ترجع كما ذكر أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم إلى أن محمد على أخذ عن أوربا علومها ونظمها التعليمية والاقتصادية وفنونها الحربية والبحرية، واستدعى فيها المدرسين والنظار لمدارسه، والضباط والمدرسين لجيشه وأسطوله والصناع والمهندسين لمصانعه، ومن ثم اضطر

— Confidentiel. Memorandum on the Turkish Claim to Lovereignty over the Eastern shores of the Read Sea and the whole of Arabia, and the Egyptian Claim to the whole of the Western shores of the same Sea, including the African Coast from Suez to Cape Guardafin. Printed for the use of the Foreign Office. Hertslet. March, 1874 p. 2

محمد على إلى الاعتماد على الأوربيين الذين أصابوا فى ذلك الوقت قصب السبق فى التطور الصناعى . إلا أن محمد على كان يرى أنه من الحكمة عدم استمرار الاعتماد على الأجانب ، وإبقاء أهل البلاد من المصريين والأتراك بمعزل عن الاشتراك فى إنهاض بلادهم ،فبدأ يرسل إلى أوربا نفرا من التلاميذ الأتراك والمصرين ليأخذوا مباشرة من علوم الغرب وفنونه . ويحذقوا لغاته وتجاربه ، حتى إذا عادوا إلى مصر ، كانوا له أعوانا ومساعدين يقلدهم إدارة المصانع والمدارس والدواوين ، ويجلسهم بمجالس التعليم ، ويطلب منهم ترجمة الكتب النافعة ، وبعبارة أخرى ، يطلب منهم أن يكونوا — كما أصبح كثير منهم فعلا — قادة النهضة الحديثة فى البلاد(١). ولاشك أن هذه البعثات كانت لها انطباعاتها العميقة على المجتمع المصرى ، فقد صحبها نشاط كبير فى نواح ثقافية مختلفة كبدء ظهور الصحافة المطبوعة(٢) . ولقد نبغ كثيرون من أعضاء هذه البعثات ، فمنهم على مبارك الذى نستطيع أن نلقبه بأبى التعليم ، وكذلك رفاعة رافع الطهطاوى الذى يمكننا أن نلقبه بأبى الترجمة وغيرهم كثيرون .

ولقد قدم أعضاء البعثات هؤلاء خدمات جليلة للدولة،ولا شك أن الثمرة الحقيقية التى جناها المجتمع المصرى من هذه البعثات هى الاستغناء عن الأجانب وإحلال أعضاء البعثات فى أماكنهم ، لأن محمد على لم تكن تعنيه كثيرا ثقافة المبعوثين وجنسياتهم وأعمارهم بقدر ما كانت تشغله فكرة الاستغناء عن الأجانب(٣).

ولكن سرعان ما خبا سنياء هذه البعثات على يد عباس الذى استدعى الطلبة المبعوثين فى بعثات خارجية فور توليه السلطة مباشرة(٤) . وجاء سعيد ليطفىء

---

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم فى مصر محمد على ص ٤٢٢ ص ٤٢٣

(٢) H. Dodwell p. 239

(٣) د. أحمد عزت عبد الكريم — المصدر السابق ص ٤٢٣.

(٤) أمين سامى . تقويم النيل — المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٧٢

الشعلة التى أضاءت على المجتمع المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر ، فأبدى عدم اهتمام لشئون التعليم ، وألغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) (١) وزاد الطين بلة باعتماده بصفة أساسية على الأجانب فى كل المجالات .

على أن التعليم فى مصر نال نصيبا كبيرا من العناية والاهتمام على يد اسماعيل . فقد أعاد تأليف ديوان المدارس ، كما اهتم بإنشاء المدارس ، وخصوصا المدارس العليا كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق وغيرها . ولم يكتف اسماعيل بذلك بل أرسل عددا ضخما من البعثات التعليمية إلى أوربا وخصوصا إلى فرنسا ، فضلا عن السماح لعدد كبير من المدارس الأجنبية بممارسة نشاطها التعليمى فى مصر .

وليس من شك فى أن مجهودات محمد على فى التعليم والبعثات قد دفعت اللغة العربية ولو قليلا إلى الأمام ، فقد صدرت الكتب والجرائد ، وتداولتها أيدى العرب أكثر من ذى قبل . وقد وجدت هذه البذور أرضا صالحة لها فى كل منطقة الشرق الادنى .

وإذا كانت الاطماع الاستعمارية قد عملت على هدم الكيان السياسى الذى شمل هذه المنطقة العربية ، فانها قد عجزت عن القضاء على هذه البذور التى أخذت فى الإنبات فى أرض صالحة هى أرضها ووطنها ، بل لقد وجد العرب شخصيتهم مرة أخرى ، فاستمرت هذه الشخصية العربية فى النمو ، واستقرت لإعطاء الثمار رغم فشل التجربة السياسية وانهيار النظام الاقتصادى الذى نشأ فى المنطقة .

هذا ما كان من أمر سياسة محمد على فى النواحى التعليمية والثقافية ، أما بالنسبة لسياسة الباشا الاقتصادية فإنه صمم من أول الأمر على السيطرة على كل امكانيات مصر الزراعية والتجارية والصناعية ، حتى يتمكن من تنفيذ مشروعاته ، ويساعد

(١) عبد الرحمن الرافعى — عصر اسماعيل — الجزء الأول ص ٤٤ — ص ٤٥ .

على سيادة الاكتفاء الذاتى ، وحتى يضمن استغلال كل الامكانيات الاقتصادية للبلاد . ولكننا نلاحظ أن محمد على قد وضع هذه الامكانيات فى خدمة مشروعاته ، ولتحقيق سياسته بدلا من وضعها فى خدمة الشعب ، ولذلك فانه يصعب وصف هذا النظام الذى نشأ فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بالاشتراكية ، بل إنه يدخل تحت عنوان رأسمالية الدولة التى احتكرت كل شىء لنفسها ، وسارت على تخطيط رأسمالى بحت .

أما فى ميدان الزراعة ، فقد وجد الباشا الاهمال واضحا فى وسائل الرى والصرف ، فاضطرت الدولة الحديثة إلى الاهتمام بالمشروعات المختلفة ، فكان للباشا على ما يذكر القنصل الانجليزى بارنت Barnett الفضل فى انشاء ٣٨٫٠٠٠ ساقية جديدة ، ومن أعماله أيضا إقامة الجسور على شاطىء النيل لمنع طغيان المياه على حفتى النهر ، وخاصة فى وقت الفيضان ، كما تم شق العديد من الترع فى مختلف المديريات (١) .

وتدخلت الدولة كذلك فى الملكية العقارية للاراضى الزراعية : وألغت نظام الالتزام على مراحل ، وبمضى الوقت انتقلت ملكية الأراضى الزراعية فى مصر إلى محمد على أو إلى الدولة ، وتمكن الباشا بهذه الطريقة من وضع سياسة لتنظيم الرى وشق الترع وتقوية الجسور وإقامة القناطر ، وسمح ذلك لمحمد على بادخال محصولات جديدة فى مصر ، وخاصة محصول القطن ، الذى أخذت مصر تتوسع فى زراعته بطريقة مستمرة . وكذلك اهتمت الدولة بزراعة قصب السكر فى الوجه القبلى . وسارت الدولة على سياسة فرض محاصيل معينة على أقاليم بعينها ، ومنعت المزارعين من التصرف فى المحصول . وكانت الحكومة تشترى المحصول بأثمان محددة ، وتقوم بعد ذلك ببيع هذا المحصول لحسابها ، محققة بذلك أرباحا

(١) د. محمد فؤاد شكرى — بناء دولة مصر محمد على ص ٤٠

ضخمة ، ولذلك فأن هذا النظام هو نظام رأسماليــة الدولة ، مادامت الأرباح مركزة فى يديها ، وتستخدم احتكارها لأهداف ليست بالضرورة متطابقـة مع تلبية احتياجات الشعب .

وكان من نتيجة احتكار الدولة للزراعة احتكارها للتجارة . ووصل محمدعلى إلى مرحلة أصبح فيها هو الزارع الوحيد والتاجر الوحيـد والصانع الوحيد فى مصر .

ويمثل نزول الدولة إلى ميدان الصناعة مرحلة هامة فى تاريخ تطـور النمو الاقتصادى فى مصر فى تلك الفترة ، حقيقـة إن حاجات الجيش إلى الأسلحـة والذخائر والسفن وغيرها كانت هى الأساس الأول لنشأة مثل هذه الصناعة ، ولكن علينا أن لا ننسى أنها كانت نقلة بعيدة لمصر للمرور من نظام اقطاعى يعتمد على الزراعة، إلى مرحلة تسيطر فيها الدولة على وسائل الانتاج , وتنزل فيهـا إلى ميدان الصناعة . ولقد وجدت الدولة أن التصنيع يفرض نفسه عليها ، مادامت ترغب فى التحرر من النفوذ الأجنبى ، ووجدت أنه يعمل على تزويدها بما يلزم من معدات وأسلحة ومهمات ، وحاولت الاعتماد على هذه الصناعة لمد حدودها وإيجاد أسواق لها فى منطقة الشرق الأدنى .

إلا أن نظام الاحتكار أو نظام رأسمالية الدولة الذى أنشأه محمد على ، كان يتضارب مع مصالح الرأسمالية الغربية ، ويتعارض مع نظام حرية التجارة ، الذى كان يسمح لها بتحقيق أرباح خيالية . ولذلك فان الدول الغربية الرأسمالية بصفة عامة ، وبريطانيا بصفة خاصة عملت على القضاء على هذا النظام والتخلص منه للعودة إلى أسواقها والحصول على المواد الخام اللازمة لصناعتها .

وربما شعر محمد على بخطورة هذا النظام الذى أنشأه فى مصر على علاقاته مع بريطانيا ، وخشى من التصادم معها فى الوقت الذى أصبح فيه فى حرب معلنة ضد

الدولة العثمانية ، وربما كان هذا الشعور أساسا لذلك التعديل الذى أدخله على نظامه وخاصة فى ملكية الأراضى ، والذى أدخله على علاقاته مع بريطانيا ، فى الوقت الذى رتب فيه أمر الزحف على الشام . لقد أخذ محمد على فى منح مساحات من الأراضى الزراعية لكبار رجال الدولة ، ولكنها كانت قابلة للاستصلاح وبعيدة عن العمران، وكانت مساحتها تتراوح بين مائة وخمسمائة فدان . وهدف محمد على من وراء ذلك إرضاء كبار الموظفين والضباط ، وكذلك زيادة الأراضى المستصلحة وزيادة أراضى الدولة فى المستقبل . ولكنه وضع أيضا سابقة هامة وخطيرة تتعارض مع النظام الذى سار عليه حتى ذلك الوقت . والظاهر أن هذا النظام كان يتمشى مع سياسته المقبلة فى بلاد الشام، والتى تحالف فيها مع الزعامات الاقطاعية القديمة هناك .

كما وافق محمد على - فى محاولة منه للتقرب إلى بريطانيا - على إقامة خط السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة ، وكان قد مهد الطريق من القاهرة إلى السويس، وعهد بتنفيذ هذه العملية إلى الانجليز ، ووصلت المعدات والأدوات اللازمة لذلك فعلا إلى الاسكندرية ، إلا أن المشروع لم ينفذ بعد ذلك .

ولم يكن هذا التغيير فى نظام الدولة وعلاقاتها مع بريطانيا كافيا للقضاء على عداء بريطانيا للمشروعات المصرية . وكانت بريطانيا هى صاحبة المصالح والاطماع المتفوقة على غيرها فى منطقة الشرق الأدنى، ورأت أن الدولة المصرية أصبحت تسيطر على الطرق المؤدية إلى الهند ، وأن نظام الاحتكار يتعارض مع مصالحها. ولقد سارت بريطانيا فى عملياتها الهجومية على خطوط اقتصادية ثم حربية لكى تصل منها إلى نتائج سياسية .

أما من الناحية الاقتصادية ، فقد قامت بريطانيا بعقد اتفاقية « بلطة ليمان » التى اعترف فيها السلطان بحرية التجارة نظاما فى كل الامبراطورية . وكانت هذه

الاتفاقية سارية على مصر باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية .

أما من الناحية الاستراتيجية والحربية . فإن بريطانيا احتضنت إمام مسقط حتى لا يصل نفوذ دولة محمد على إلى مياه الخليج العربى والى مياه الهند ، ثم استعدت للهجوم على الدولة المصرية • من ناحيتين من الهند صوب البحر الاحمر ومن البحر المتوسط صوب سوريا ، فاحتلت عدن سنة ١٨٣٩ ، وتهيأت بذلك لإقفال البحر الاحمر من الجنوب *

أما من ناحية البحر المتوسط ، فإن الاساطيل البريطانية كانت مستعدة ، واستغلت الصعوبات التى نشأت أمام المصريين فى سوريا لكى تبث الدسائس وتثير الاهالى ضد الحكومة ، ثم تحرشت الجيوش العثمانية بالجيوش المصرية ، وما أن ظهر تفوق المصريين فى الميدان ، حتى عمدت بريطانيا إلى تكتيل كل من الروسيا والنمسا وبروسيا إلى جانبها ، ثم هاجمت سوريا وأجبرت مصر على العودة إلى حدودها القديمة . وإذا كانت معاهدة لندن فى عام ١٨٤٠ واتفاقية لندن فى عام ١٨٤١ قد ضمنتا لمصر شخصية قائمة بذاتها بين الولايات العثمانية ، فإن هــذا الوضع الجديد قد وضع حدا لهذه التجربة الهامة التى قامت بها مصر فى أرضها ، والتجربة التى قامت بها فى بقية أقاليم الشرق العربى .

* سوف نناقش هذه النقطة بالتفصيل عند كلامنا عن الاحتلال البريطانى لعدن فى الفصل التالى .

الفصل الرابع

بريطانيا واحتلال عدن

إن السياسة البريطانية المرنة التى أجبرت الفرنسيين على الانسحاب من مصر عندما رأت فى وجودهم فيها خطرا على مصالحها فى الهند ، تلك السياسة لم تقف مكتوفة الأيدى أمام هذه التهديدات الخطيرة التى شكلها والى مصر ضدها . فقد هال الانجليز تقدم المصريين فى الجزيرة العربية والسودان ومساهمة محمد على فى تجارة الهند ، وكان اعتماد الانجليز فى البحر الأحمر على موانىء السودان واليمن، فلما أصبح السودان فى يد محمد على زاد اعتمادهم على موانىء اليمن ، فلما استحوذ الباشا على اليمن ، أحس الإنجليز أن البحر الأحمر خرج من أيديهم وأنه أصبح بملكية مصر (١) .

وهنا استعدت بريطانيا لتنفيذ سياستها المرسومة فى المنطقة ، تلك السياسة التى كانت تقصد منها تحقيق هدفين . الأول إبعاد أى ظل للمنافسة المصرية فى مداخل البحر الأحمر ، والهدف الثانى : تأمين مواصلاتها مع الهند من أية أخطار قد تتهددها فى المستقبل . ومن ثم بدأت بريطانيا بمقدمات الاستيلاء على عدن... ذلك الميناء الخطير المتحكم فى مدخل البحر الأحمر .

ولم يقع إختيار انجلترا لعدن لتكون قاعدة حربية وبحرية وتجارية عفوا ، بل إن لعدن من الصفات والمزايا ما أغرى انجلترا على تفضيلها على أية نقطة أخرى ، ذلك لأن موقع عدن يعتبر فى غاية الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، إذ أنها ميناء كان من السهل تحويله إلى قاعدة بحرية . وتزداد أهمية عدن بالنسبة

---

(١) د. حسين مؤنس ــ الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص ١٩٦ .

السلطات الاستعمارية البريطانية فى الهند ، تلك السلطات التى كانت تتصل بأوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وطريق البحر الأحمر ، وأخيرا طريق الخليج العربى والعراق إلى موانىء البحر المتوسط . وكانت السلطات البريطانية فى الهند تسعى إلى السيطرة على جميع أنحاء المحيط الهندى ، وفى سبيل تحقيق ذلك ، كان عليها أن تقيم قواعد قوية فى أركانه المتعددة ومنها عدن التى هى المفتاح الجنوبى للبحر الأحمر .

وإن نظرة واحدة لخريطة هذا المحيط لتدل على أهمية عدن التى تقع فى منتصف المسافة تقريبا بين بومباى والسويس ، ويمكن للبريطانيين منها السيطرة بسهولة على مداخل الخليج العربى من ناحية ، وفرض نفوذهم على زنجبار وشرق أفريقية من ناحية أخرى . ويمكن القول بصفة عامة أن موقع عدن يجعل منها قلعة تسيطر على المحيط الهندى ، ونقطة ارتكاز فى طريق الملاحة صوب البحر المتوسط ، هذا علاوة على كونها مركزا هاما للتوسع فى جنوب الجزيرة العربية وفى بلاد الصومال وشرق أفريقية (١) .

لكل هذه الأسباب كانت انجلترا تفضل عدن على أية نقطة أخرى فى المنطقة، إلا أن الأمر لم يكن بهذه السهولة ، إذ كان لابد لانجلترا من سبب يمهد لها الاستيلاء على عدن ، وكان لابد لها أيضا من دعائم ترتكز عليها فى ادعاءاتها بأحقيتها فى الحصول عليها . وساقت الظروف حادثة لبريطانيا استغلتها هى من جانبها إلى أقصى حد ، وكانت هذه الفرصة هى حادثة غرق السفينة دوريادولت Doria Dowlut على مقربة من ميناء عدن .

ومن المفيد أن نذكر ـ بالنسبة لحادثة غرق السفينة والملابسات التى أحاطت

---

(1) India Office Library-India Board-Indian Papers F. 23 Correspondence Relating to Aden No. 16 P. 18 Minute by The Governer of Bombay 23 September 1837.

جنوب اليمن

مقياس الرسم ١ : ٢,٥ مليون

المملكة العربية السعودية

الربع الخالي

اليمن

صنعاء

حضرموت

المهرة

عمان

خليج عدن

عدن



بها - ما أورده المؤرخ العربى أحمد فضل بن على محسن العبدلى فى كتابه (١) من أنه «فى صباح يوم ١٤ رمضان سنة ١٢٥١هـ غرق المركب دوريا دولت بالقرب من عدن ، ويستمر العبدلى موضحا أن السفينة كانت تحمل «بضائع وحجاجا إلى جدة ، فتهافت الأعراب على بضاعته الثمينة ،فنهبوا حمولته ، ولم يحترموا نساء ولا حجاجا ، ونزل الركاب على الأخشاب فغرق منهم أربعة عشر شخصا،وقبض الأعراب على الباقين حتى أسعفهم السيد عيدروس من كبار رجال عدن ومن عائلة العيدروس ، ثم اقتسم العرب الغنائم » .

ونحن نرى أن تحطم السفينة قد حدث إما لإهمال بحارتها وسوء شحنهم للبضائع كما جاء فى شهادة ناخودا السفينة السيد نور الدين (٢) ، وإما أن يكون بفعل الأحوال الجوية والأمواج والصخور . أى أن غرق السفينة قد تم دون تدبير أو افتعال ، إلا أن بريطانيا استغلت فرصة وقوع هذه الحادثة واعتبرتها نقطة البداية فى تنفيذ أولى أدوارها المرسومة فى منطقة جنوبى الجزيرة العربية .

وقد بدأ لأول وهلة أنه من المطلوب إرجاع البضائع المنهوبة من السفينة ، وكذلك تقديم نوع من التعويض عما لحق بالسفينة والمسافرين عليها ، فكما جاء فى مذكرة حاكم بومباى فى ١٤ أغسطس ١٨٣٧» ... إن الاعتداء الشائن الذى ارتكبته سلطات عدن ضد الأشخاص والممتلكات فى سفينة ترفع العلم البريطانى وتتمتع بالحماية البريطانية يحتاج إلى اهتمام سريع واجراءات حاسمة (٣) ووضح

---

(١) هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ١٤٣ .

(٢) I. O. L. I. B. I. P. F. 23 C. R. T. A. No. 9. P.P. 10-12 Affidavit of Syed. Nouradeen. 1 August 1837.

(٣) I. O. L. I. B. I.P. F. 23. C. R. T. A. No. 12 P. 16 Minute by the Governer of Bombay, subscribed by the Commender in Chief 14 August 1837.

منذ أو وهلة أن أية ترضية يمكن الحصول عليها من سلطان عدن لن تكون إلا بالقوة التى تقدم على طلب التعويض (١) .

وحتى ذلك الحين ، كانت المسألة تقف عند حد طلب التعويض عما لحق بالسفينة والمسافرين عليها ، إلا أنه بمذكرة حاكم بومباى فى ٢٣ سبتمبر ١٨٣٧ بدأ أول ربط بين المطالبة بالتعويض والمطالبة بالاستيلاء على عدن ، فقد جاء تلك المذكرة « ... أن إقامة اتصال بحرى بخارى شهرى فى البحر الاحمر ، وتكوين أسطول صغير من السفن البخارية المسلحة ، يجعل من الضرورى الحصول على محطة لنا على الساحل العربى مثلما لدينا على الخليج الفارسى (العربى) وأن الإهانة التى وجهت للعلم البريطانى على يد سلطات عدن ، أدت إلى عدم وجود أى شك فى مخيلتى بأننا يجب أن نستولى على ميناء عدن » (٢) .

وقد توجه الكابتن هينس Haines ـ أحد ضباط البحرية البريطانية فى الهند ـ إلى عدن فى ٢٨ ديسمبر ١٨٣٧ لإنجاز هدفين: الاول المطالبة بتعويض مناسب لما لحق بالسفينة دوريا دولت وشحنتها وركابها ، والهدف الثانى لكى يسعى لشراء عدن حتى يؤمن التجارة البريطانية فى البحار الشرقية فى المستقبل ، ولضمان إقامة مخزن الفحم للسفن المارة بذلك الميناء . وبدأت المفاوضات فعلا بين هينس وسلطات لحج وعدن فى ٤ يناير ١٧٣٨ (٣) .

والواقع أن سلطات لحج وعدن ظل يماطل الكابتن هينس فهو عالم بقسوة

---

(١) I. O. L. I. B. I. P. F. 23 C.R.T.A. No. 15 P. 18
The Secretary to The Bombay Government to the Secretary to The Government of India 15 September 1837.

(٢) I. O. L. I. B. I. P. F. 23 C. R. T. A. No. 16 P. 18
Minute by The Governer of Bombay 23 September 1837.

(٣) Playfair R. L. Op. cit P. 162

الانجليز، ولا يستطيع محاربتهم ، وهو كذلك لايستطيع بيع أرضه وأرض أجداده . ويبدو أن صبر الكابتن هينس كان قد نفذ، وبدأت منذ ٢٦ مارس ١٨٣٨ مرحلة التفكير فى الاستيلاء على عدن بالقوة المسلحة طالما أن سلطانها لايوافق على بيعها للحكومة البريطانية (١) .

ويجب أن لاننسى هنا أن محمد على والى مصر قد مضى يبنى تلك الامبراطورية الواسعة ، وأمكنه أن يستولى على الساحل اليمنى كله ، بل إن الانباء تواترت بالفعل إلى لندن بأن الباشا لديه مخططات واسعة ترمى الى الاستيلاء على عدن ومسقط وبغداد ، وكذلك على سواحل مدخل البحر الأحمر وخارج مضيق باب المندب (٢) . ولذا بدا من الاهمية بمكان - من وجهة النظر البريطانية - الاسراع فى الاستيلاء على عدن ، وأن تبذل بريطانيا جهدها حتى تقتضى هذه النقطة الاستراتيجية الحاكمة من هذا الوالى الطموح .

ويبدو أن الكابتن هينس كان قد أفرغ كل ما فى جعبته سواء بالترغيب أو بالتهديد لاقناع سلطان لحج وعدن بقبول بيع عدن الى الحكومة البريطانية ، فقد وجد منهما أصرارا وصلابة وعدم رغبة فى تنفيذ هذا البيع ، ووجد هينس أنه لا مناص من سلوك سبيل القوة للاستيلاء على عدن، ومن ثم أبلغ حكومة بومباى بأنه يجب ارسال القوات اللازمة لاحتلال عدن بأقصى سرعة ممكنة. . . وقد يحاول سلطان عدن ورجاله القيام ببعض الأعمال المعادية ، وعندئذ ستكون هذه القوات الضخمة بالاضافة الى السفن الحربية قادرة على الاستيلاء على عدن بدون

I. O. L. I. B. I. P. F. 23 C. R. T. A. No. 49 pp. 37 (١)
Minute by the Governer of Bombay 26 March 1838.

I. O. L. I. B. Political & Secret Library B. 8 Confidential (٢)
Memorandum P. 5

خسائر كبيرة (١) .

وهكذا تطورت الأمور سريعا الى حافة الحرب، وفى يوم ١٦ يناير ١٨٣٩ وصلت القوات البريطانية للقيام بتنفيذ عملية الاستيلاء على عدن ، ومن ثم أرسل هينس انذارا نهائيا الى السلطان محسن فضل وجميع رؤساء قبيلة العبدلى (٢) . الا أن السلطان محسن اجاب على هذا الانذار بطلب امهاله ستة أيام كى يبحث الامر مع شيوخ قبيلته على أن يبعث باثنين من لدنه فورا الى هينس للتفاوض معه (٣) . ويبدا أن السلطان يحاول أن يكسب بعض الوقت ؛ فهو مستمر فى اقامة الاستحكامات ويحصن القلاع ويحشد الرجال، أى أنه كان يعد نفسه لحرب ضروس ولم تكن تلك المهلة التى طلبها سوى فترة يستكمل فيها تدعيم خطوط دفاعاته .

وهكذا هاجم البريطانيون عدن، ولم يواجهوا سوى مقاومة ضعيفة، وانسحب السلطان وبعض أتباعه من المدينة ، وارتفع العلم البريطانى فوق قصر السلطان . وتم القبض على السلطان محسن حيث أودع مسجد العيدروس تحت حراسة قوية (٤) .

واهتم هينس بعد احتلاله لعدن بتشجيع السكان على العودة إلى أعمالهم وبث الثقة بينهم وبين الانجليز ، وقد نجح هينس فى ذلك إلى حد كبير ، فقد استمرت

(١) I. O. L. I. B. I. P. F. 23 C. R. T. A. No. 61 p.p. 48-50 C. Haines to the Secretary to the Bombay Government 6. November 1838.

(٢) I.O.L. I.B. I.P. F. 23 C.R.T.A. No 128 P. 82 C. Haines to the Secretary to the Bombay Government January 25 1839.

(٣) I.O.L. I.B. I. P. F. 23 C.R.T.A. No. 130 P. 84 Sultan Mohsain on the part of Ali to C. Haines January 16. 1839.

(٤) I.O.L. I.B. I.P. F. 23 C.R.T.A. No. 12[illegible] P. 82 C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, January 25, 1839.

تلك السياسة المرنة تؤتى أكلها ، وأرسل هينس خطابات إلى السلطان محسن وابنه السلطان أحمد ورؤساء القبائل المختلفة أوضح لهم فيها استعداده لتقديم الدعاية الطبية لجرحاهم ، كما سمح لهم بحرية التنقل من وإلى المدينة . وكانت لهذه السياسة آثارها المرجوه من وجهة النظر البريطانية ، فقد وافقـــه الرؤساء على السلام والاتصال الودى(١) .

وهكذا أصبحت انجلترا سيدة على كل شبه جزيرة عدن ، ولم يرتفع صوت واحد بالمعارضة من جانب الحكومات الاوربية الأخرى ، حقيقة أن تلك الدول لم تكن فى ذلك الوقت تقدر مدى الاهمية الحيوية لهذه الزاوية أو لهذا الركن المستولى عليه من أرض شبه الجزيرة العربية ، ومدى ما يمكن أن يكون له من تأثير فى مستقبل هذه المنطقة ، إلا أن الانجليز كانوا على العكس من ذلك يعرفون ويقدرون تماما قيمة هذا الانتصار الجديد(٢) .

كان الكابتن هينس أول مقيم سياسى فى عدن بعد احتلالها(٣) . وكان هدفه الأول وضع أسس الدفاع الدائم عنها حتى يمكن مقاومة أى هجوم مفاجىء عليها ، وكذلك كان عليه أن يجعل القبائل العربية فى حالة هادئة حتى يمكنه تشييد التحصينات اللازمة للدفاع . وقد نجح هينس فى تحقيق هذين الأمرين ، وبدأت سلسلة من الأعمال الإنشائية على طول الخليج(٤) .

كما بادر هينس إلى عقد معاهدة الصداقة مع السلطان محسن فضل وأبنائه فى

---

(١) I.O.L. I.B. I.P. F. 23 C. R. T. A. No. 133 P. P. 85-86
C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, January 28, 1839.

(٢) M.L. Simonin, La Presque' ile d'Aden et la Politique daus les Mers Arabiques, P. 18

(٣) Richard H. Sanger, The Arabian Peninsula P. 204

(٤) Playfain R.L. op. cit p. 164

٢ فبراير ١٨٣٩ ، تعهد فيها السلطان محسن وأبناؤه بتأمين الطرق وعدم القيام بأى نوع من أنواع المقاومة ضد الدولة البريطانية ، وأن تكون مصلحة الطرفين واحدة .(١) . كما أنه كان على بريطانيا أن تدفع راتبا سنويا للسلطان محسن قدره ٦٥٠٠ ريال(٢) . اعتبارا من يناير ١٨٣٩ . وأن الأرض من خور مكسر إلى لحج وإلى جميع حدود قبيلة العبدلى المعروفة هى تحت سيطرة السلطان . وعند حدوث أى هجوم على لحج أو على قبائل العبادل التى هى تحت سيطرة السلطان أو على الجنود البريطانيين ، فأن السلطان محسن والدولة البريطانية يكونا يدا واحدة، كما أنه إذا دخل أحد رعايا السلطان عدن فعليه إطاعة قوانين الدولة البريطانية ، وعلى البريطانيين إطاعة أحكام السلطان عند دخولهم لحج، وأن السلطان وأولاده معافون من العوائد والرسوم عند دخولهم وخروجهم من عدن (٣) .

وكان من المتوقع بعد توقيع ارتباط ١٨٣٩ ، أن تهدأ الأمور فى عدن وتصفوا للانجليز ، خصوصا وقد منحوا السكان راتبا سنويا ، إلا أن الأمور سارت على غير ما يشتهى الانجليز فقد تجاهل السلطان محسن ارتباطه (٤) ، وقام بمهاجمة عدن ثلاث مرات فى عامى ١٨٤٠ ، ١٨٤١ إلا أنهم ردوا عنها ومنوا بخسائر فادحة (٥) . وفى عام ١٨٤٦ بدأت حركة من الحماس الدينى ضد الانجليز

---

(١) C. U. Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and sanads relating to India Vol. XI P.P. 123-124

(٢) J. C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. 1 p. 126.

(٣) C. U. Aitchison op. cit. p. 124

(٤) F. M. Hunter op. cit. p. 165

(٥) Playfair R. L. op. cit. p. p. 164—165

فى عدن(١) فقد نادى أحد الدعاة وهو الشريف اسماعيل بن حسن بالجهاد والحرب الدينية ، وتقدم من مكة إلى ضواحى عدن يرافقه جمهور كبير من المؤمنين به(٢).

وفى ٢٦ أغسطس ١٨٤٦ بدأ الشريف هجومه على عدن ، فتقدمت قوة من ألفى رجل تجاه عدن ، إلا أنهم ردوا عنها نتيجة للنيران المركزة عليهم من الخطوط الدفاعية البريطانية ، وكذلك للضرب المؤثر عليهم من السفن الحربية الراسية فى الميناء ، فقتل من العرب عدد كبير ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تفشت الكوليرا بينهم وفتك هذا الوباء بالكثيرين ، فكانوا يموتون فى الطرقات، وأخذتهم المجاعة وباعوا سلاحهم بالخبز (٣) . وهكذا ذاب جيش الشريف سريعا وكأنه لم يكن له وجود .

وكان اليهود ينقلون أنباء هذه الهجمات العربية إلى الانجليز فى عدن . ولا شك أن وجود هذا الطابور الخامس بين العرب، كان يضعف من هجماتهم ويقلل من تأثيرها ، فان المفاجأة هى من مبادىء الحرب ، وإذا ما تحققت فى الهجوم فإن تأثيرها يكون فعالا على الطرف الآخر . والكابتن هينس نفسه يعترف بأن اليهود عاونوه معاونة فعالة فى التجسس على العرب ومعرفة نواياهم منذ بدء احتلال عدن فيقول ... إن أحسن من ينقلون الأنباء الينا هم اليهود ، وقد وظفتهم معى سرا وخصوصا اليهود الذين يقطنون عدن ، وهم يعملون فى خدمة الحكومة ، وقد أعطونى معلومات تضم حقائق هامة ، وقد قمت باستغلال فرصة وجودهم فى أماكن متفرقة ... فى صنعاء ومقطبة وتعز ولحج والمناطق المجاورة لعدن ، وقد كافأتهم بمبالغ تافهة ... واليهود الذين يعملون معى هم كذلك منذ

(١) Hunter F. M. op. cit. p. 166

(٢) Playfair R. L. p. 167

(٣) أحمد فضل بن على محسن العبدلى — هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص ١٥٠ — ص ١٥٩ .

بداية احتلالنا لعدن ، وهم بصفة عامة كاتبو الحسابات وصيارفة الشيوخ العرب، وبذلك أمكنهم الإدلاء بمعلومات صحيحة . . .(١) نظرا لاحتكاكهم اليومي بهم ومعرفتهم لأمورهم المالية ونواحي صرفها، وخصوصا تلك الأموال التي أنفقت على الاستعدادات للهجوم على عدن ».

ولم يكن الاستيلاء على عدن هو غاية ما تبغيه بريطانيا من منطقة جنوبي الجزيرة العربية ، وإنما كان هذا الاستيلاء بمثابة نقطة للتوسع وبداية للانطلاق لتأكيد النفوذ البريطاني في منطقة جنوبي الجزيرة العربية وفي البحر الأحمر وعلى الساحل الشرقي الأفريقي ، وكذلك لإبعاد أي ظل لقوى أخرى في الخليج العربي. وقد اتخذت بريطانيا من السبل ما حققه لها سيطرتها على كل هذه الأنحاء سواء بالتهديد أم بالترغيب .

ولكي نوضح أبعاد السياسة البريطانية في المنطقة، نتذكر ما قاله لويد جورج مرة من أن المبدأ المرن في السياسة هو أصلح المبادىء لحل المشكلات الخارجية والاستعمارية. وإن من يمعن النظر في بلاد العرب وأحوالها الجغرافية والسياسية المتباينة ، يرى بعض الدهاء في خطة سياسية تمتد في كل مكان دون أن تنقطع أو يعتريها شيء من الضعف « مدها من عدن فتصل إلى صنعاء، ومطها من الكويت فتصل إلى ما وراء الدهناء، ومن شرق الأردن فتصل إلى الجوف فتداعب أطرافها الوهابية وتتملق بأنامل ابن سعود ».

وإن أجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع في دار الإقامة بعدن من الأعمال السياسية بينما كلها درجات في الضغط والإرخاء ، في الربط والحل

---

(١) I. O. L. Secret letters from Bombay, No. 37 of 1845, C. Haines to the Chief Secretary to Government of Bombay, April 25, 1845.

توجبها أحوال اليمن الأسفل والعشائر القاطنة فى تلك الانحاء ، كيف لا وهناك تباين كبير بين سلاطينها ، فمنهم الشديد الفقر ومنهم الشديد الغنى ، ولا يمكن للحاكم الذى لا يهمه من الامر غير الحكم والمصلحة أن يشملها كلها بنفوذه إلا إذا عمل بقاعدة لويد جورج السياسية .

ولهذه القاعدة مظاهر شتى ... أولها المعاهدات الولائية ثم الرواتب الشهرية أو السنوية التى تختلف باختلاف مكانة كل أمير ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجىء إلى عدن من السلاطين أو يسافر منها ، ثم منح الألقاب والنياشين ، وكذلك تخصيص الهدايا الموسمية لهؤلاء السلاطين ، والتدخل فى السياسة المحلية عند انتخاب أو تعيين أحد الحكام ، والتحزب لبيت طامع فى الملك على بيت مالك أو عكس ذلك ، وأخيرا وإن كان يصح أن يكون الاخير أولا ... المحافظة على استقلال كل سلطان وأمير عملا برغبتهم وبمصلحة بريطانيا . وفى الواقع فإن كل سلطان أو أمير أو شيخ قبيلة يبغى الاستقلال التام ، ولا بأس إذا ما قيد براتب شهرى وبهدية كل عام .

وقد عقدت بريطانيا هذه المعاهدات الولائية مع غالبية هؤلاء السلاطين والأمراء والشيوخ بعد احتلالها لعدن مباشرة . ومن الملاحظ أن المعاهدات الولائية ــ أو معاهدات الصداقة كما تحلو لبريطانيا أن تسميها ــ والتى عقدتها بريطانيا مع هؤلاء السلاطين تكاد تكون متشابهة ، وتنحصر فى تعهد بريطانيا بحماية القبيلة ضد أى عدوان خارجى فى مقابل التعهد السابق .

وكانت سياسة الكابتن هينس أو مقيم سياسى فى عدن مبنية على قاعدة فرق تسد ، لأن الحكومة أو بالأخرى إدارة شركة الهند حينذاك لم تشأ أن تمده بما يحتاج إليه من الجنود لحماية عدن ، فإذا ثارت إحدى القبائل على الانجليز ، كان

الحاكم البريطانى يثير قبيلة أخرى عليها (١) . وقد جاء فى كتاب أرسلته إدارة شركة الهند إلى الكابتن هينس المقيم السياسى فى عدن : «... حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تحتاج إلى قوات بريطانية ... وإنه وإن كان هدر الدماء مما يؤسف له ، فمثل هذه السياسة تفيد الانجليز فى عدن لأنها توسع الثلمة بين القبائل (٢)».

وقد تبين للانجليز عند احتلالهم عدن أنه يجب لحمايتها وجود جيش كبير يقيم فيها ، وقد يعجزون مع ذلك عن حمايتها إذا لم يكن لعدن منطقة كالدرع يصونها من تعديات العرب الذين يحيقون بها من الجهات الثلاث أى من الشرق والغرب والشمال ، ويحاربون بشراسة ويعتصمون بالجبال المنيعة ، فاتخذت بريطانيا لذلك سياسة لين تدعمه الشدة ، وبدأت المفاوضات ، وابتاع الانجليز من الاراضى ما لم يستطيعوا أخذه بالسياسة ، ولم يشاءوا أخذه بالقوة ، فتم لعدن الدرع الذى تحتاج اليه ، وهو خط يمتد من الغدير على البحر غربا إلى دار الأمير شمالا ، ومنها شرقا بشمال إلى أم العمد على البحر ، ثم أقام الانجليز فى هذه المنطقة الانجليزية الاستحكامات العسكرية ، ونقلوا إليها الجنود من الهند ، وظلت مع ذلك فى خطر دائم من العرب المحيقين بها من كل جانب .

وقد يتكلف الدفاع عن عدن ألف ريال على الأقل يوميا ، إذ فرض أنه يتعين أن يقيم بها عشرة آلاف جندى بريطانى ، كما يتطلب الدفاع عن المنطقة التى قدرت أنها درع منيع ألف ريال أخرى ، ونفترض أن حكومة الهند كانت قادرة على أن تسيطر على العرب فى المنطقة فأنها ستضطر إلى مضاعفة قواتها العسكرية فتضاعف النفقات لتدفع عن هذه القبائل غارات عرب الجبال ، والنتيجة أنهم كلما

---

(١) أمين الريحانى — ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية ج١ ص ٣٣٩ — ص ٣٤٠

(٢) Jacob; Kings of Arabia p. 45

ثوغلوا فى المنطقة زادت النفقات والأخطار ، فالولاء إذا خير من العداء ، على أنه لابد للانجليز هناك من قوة ترهب الزعماء فى المنطقة ، وبعد ذلك تمنحهم انجلترا الرواتب الشهرية ، ويكون لها من الصداقة والإذعان ما تريد .

وإذا كان كل أمير يتقاضى من الانجليز نحو أربعمائة ريال كل شهر باستثناء سلطان لحج ، وأن فى كل إمارة زعماء يتقاضون مثل هذه القيمة ، فان مقدار ما تدفعه بريطانيا ضمانا لولاء الأمراء التسعة ورجالهم يبلغ نحو ٧٨٠٠ ريال كل شهر ، أى أنها توفر نحو ضعفها كل يوم (١) ، وبمعنى آخر أن عشرين ألف جندى بريطانى للدفاع عن عدن ويتكلفون مبالغ طائلة ، يقوم مقامهم عشرة من الامراء والسلاطين ويتكلفون مبالغ تافهة .

كما أن موقع عدن الاستراتيجى الهام ، كان يحتم وجود هدوء نسبى كى تستفيد بريطانيا منه فائدة محققة . وعلاوة على ذلك فأن عدن كانت فى غاية الأهمية بالنسبة للتجارة بين الشرق والغرب ، وإن الطريق التجارى الذى تمر منه خلاله منتجات انجلترا والهند سوف يحقق التبادل التجارى مع اليمن وحضرموت هذا بالاضافة إلى أن التجارة مع الشاطىء الأفريقى الشرقى سوف تتركز فى سوق عدن (٢) . لكل ذلك كان لابد من هدوء الأحوال فى عدن ، ولن يتحقق ذلك الاستقرار مع وجود القوات البريطانية فقط ، ومن ثم تبدو واضحة أهمية العلاقات الودية مع الحكام العرب فى المنطقة ضمانا لولائهم وربط هذه العلاقات بالمشاهرات المالية .

فالسياسة البريطانية هى ذلك الجسم الحى الذى يتعهده الساسة الانجليز بالتربية

(١) أمين الريحانى ـ المصدر السابق ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠

(٢) I. O. L. I.B. I.P. F. 23. C.R.T.A.

No. 16 Minute by the Governer of Bombay, September 23, 1837

ويساعد فى نموه الزمان . و كما كان الانجليز فى بعض الأحايين يتدخلون فى شئون أصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلا بين صديقين متخاصمين من أصدقائهم، فيورثهم التدخل مسئولية توجب عليهم الاستمرار ، فيستمرون مصلحين ، ويكتسبون ما لابد منه من عداء أحد المتخاصمين. ويقيمون الحدود بين الفريقين، وينصبون العمد البيضاء الفاصلة ، فيجيء من لا يرحم بتدخلهم ، ويرفع تلك العمد بل يكسرها ، فيقوم جاره الذى رضى بالصلح ... صلح الانجليز ، ويدافع عنها ويستنصر الانجليز فينصروه بالمال والسياسة وبالرجال أيضا ليعززوا على الأقل كلماتهم ويثبتوا نفوذهم » (١).

وكان هذا هو دور الولاء والعطاء ، واتخذت العلاقات طابعا واحدا بين بريطانيا والقبائل المجاورة لعدن أى تلك المعاهدات الولائية المتشابهة .

إلا أنه منذ بداية التدخل العثمانى فى منطقة جنوبى الجزيرة العربية فى سبعينات القرن التاسع عشر، أصبح النفوذ البريطانى مهددا تهديدا خطيرا ، وبدا واضحا أهمية الانتقال من دور الولاء والعطاء ، أى من دور المعاهدات الولائية إلى دور جديد يؤمن النفوذ البريطانى ويدعم بقاءه ، ولم يكن هذا الدور الجديد سوى الحماية التى تمت مع الرؤساء العرب بموجب معاهدات بينهم وبين الحكومة البريطانية . ولم يكن القصد بطبيعة الحال حماية العرب من الاتراك ، بل كان عقد هذه المعاهدات أساسا للدفاع عن عدن (٢) .

وهكذا يبدو واضحا أن الحماية التى فرضتها بريطانيا على القبائل الواقعة فى منطقة جنوبى الجزيرة العربية لم تكن من مقاصدها السياسية الأولى ، أى أنها اضطرت لعقدها درءا للاخطار المحيطة بعدن نتيجة للتدخل التركى فى المنطقة .

---

(١) أمين الريحانى ـ المصدر السابق ص ٣٨٠ ص ٣٨٢

(٢) H. Ingrams, The Yemen p. 58

وهكذا انتقلت القبائل العربية فى تلك المنطقة من دور الولاء إلى دور الحماية ، فأصبح الانجليز حلفاء اصدقهم السلطان أو الأمير العربى والمسئولين عن استقلاله وسلامة ملكه(١) . كما تعهد هؤلاء السلاطين والامراء فى مقابل ذلك بعدم الاتصال أو الاتفاق أو التعاقد مع أية قوى أو دول أجنبية إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية ، كما تعهدوا أيضا بعدم التنازل أو بيع أو رهن أو تأجير أية أراض من أراضيهم لأية دولة عدا الحكومة البريطانية(٢) .

وتعتبر هذه المعاهدات التى فرضها الاستعمار البريطانى من أغرب المعاهدات التى فرضها طيلة تاريخه الطويل فى استعمار الشعوب(٣) ، فهى لم تكن معاهدات بالمعنى المفهوم ، وكذلك تكاد تكون هذه المعاهدات نسخة طبق الأصل ، أى أنه ليس هناك أى تغيير فى بنودها عند عقدها مع القبائل المختلفة .

ولم تكن علاقات بريطانيا بهذه السلطنات والمشيخات تعنى السيطرة الإدارية عليها ، بل إن الأمر لم يتعد فى بعض الأحيان سوى عقد المعاهدات ودفع المشاهرات دون ما تدخل فعلى فى شئون هذه السلطنات ، أى أن القصد الفعلى من هذه المعاهدات ومن هذه العلاقات لم يكن سوى تأمين عدن والمحافظة عليها وكذلك تأمين الطرق الممتدة بين عدن والداخل ، ضمانا لانتظام التبادل التجارى ووصول المؤن من المناطق الداخلية إلى عدن .

---

(١) أمين الريحانى ـ المصدر السابق ص٣٨٢

(٢) C. D. Aitchison op. cit. p. 158

(٣) قحطان محمد الشعبى الاستعمار البريطانى ومعركتنا العربية فى جنوب اليمن (عدن والإمارات) ص ٣٤

الفصل الخامس

فرنسا واحتلال الجزائر

كانت فرنسا تعلم الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية للجزائر بالنسبة لها، مما جعلها تطمع فى احتلالها. وكانت أولى الذرائع التى تذرعت بها فرنسا لمهاجمة الجزائر هى القضاء على القرصنة، وضرورة تأمين المواصلات البحرية والتجارية فى البحر المتوسط.

وقد اهتم مؤتمر فينا الأول فى سنة ١٨١٤ بالحالة القائمة فى شمال افريقية، وطلب من الدول التى يعنيها الأمر أن توقع على معاهدة تتعهد فيها بتقديم القوات اللازمة لحراسة سواحل البحر المتوسط ومراقبة وتعقب وتحطيم سفن قباطين شمال إفريقية (القراصنة).

ولقد بحث مؤتمر لندن سنة ١٨١٦ مسألة القضاء على القراصنة إلا أن المندوب الفرنسى لم يوافق على قرارات المؤتمر، لأن المشروع الذى قام المؤتمر بدراسته كان يؤكد السيادة البحرية لانجلترا. كما بحث مؤتمر إكس لاشابل نفس المسألة، ولكن الأعضاء لم يتفقوا كذلك على سياسة خاصة، بل أنهم أوصوا مندوبى كل من انجلترا وفرنسا بلفت نظر أمراء شمال أفريقيا إلى خطورة الموقف فى البحر المتوسط. وقد أرسلت الدولتان أسطولا مشتركا إلى الجزائر سنة ١٨٢٠ لبحث الأمر مع الداى، الا أن الداى أصر على حقه فى القيام بعملية تفتيش السفن كوسيلة من وسائل المحافظة على سلامة الدولة، خصوصا فى مياهها الاقليمية.

ولقد شاركت الجزائر فى حرب المورة إلى جانب السلطان، فأرسلت بعضا من قطعها البحرية التى انضمت الى الاسطول المصرى فى نفارين، وشاركت لنفس

مصيره . وكان هذا اصفاف بحرى واضح للولاية ، كما كان سببا فى أن تعمل دول الغرب على القضاء نهائيا على خطر البحرية الجزائرية فى البحر المتوسط ، متذرعة بضرورة القضاء على القراصنة ، وضرورة تأمين المواصلات والتجارة فى ذلك البحر .

تلك هى الذريعة الأولى التى تذرعت بها فرنسا لمهاجمة الجزائر أما الذريعة الثانية، فكانت مطالبة الجزائر لفرنسا بدفع مبلغ من المال قيمة مشترياتها من القمح الجزائرى ، وما تمخضت عنه هذه المسألة من سلسلة من التعقيدات السياسية والقضائية والإدارية ، وأخيرا من الاهانة المعروفة بضربة المروحة .

وتفصيل القصة ، أن الجزائر سمحت لاثنين من اليهود بتصدير القمح من الجزائر إلى فرنسا فى أثناء الثورة الفرنسية ، وقد ساهم الداى نفسه فى هذه العملية، مثله فى ذلك مثل الخزانة العامة للولاية . وبدأ مصطفى داى منذ عام ١٨٠٠ تقريبا تلك السلسلة الطويلة من الرسائل التى بعث بها هو وخلفاؤه ملحين فيها على فرنسا بسداد ديونها ، وظهر منذ البداية الخلاف على تقديرات الديون من ٣ إلى ٨ مليون فرنك . وقضى الداى مصطفى فى عام ١٨٠٥ دون أن تسوى المشكلة، ثم انقطع الحديث عنها بسبب توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا فى عهد خلفه الداى أحمد . فلما انتهت المنازعات الدولية سنة ١٨١٥ ، وانقطعت بذلك أسباب الخصومة الرئيسية ، أرسلت فرنسا قنصلا جديدا الى الجزائر هو بيير ديفال الذى عاصر جميع الحوادث التى انتهت بالاحتلال سنة ١٨٣٠ . وكان يحمل معه تعليمات بتسوية جميع أسباب الخلاف ومن بينها مسألة الديون، إلا أن مجلس النواب الفرنسى وافق فقط على دفع المبالغ المستحقة للوسيطين اليهوديين وحجز الباقى حتى تصدر المحكمة الفرنسية رأيا بالمبلغ الذى يستحقه جميع المدعين (١) . وفى يوم ٣٠

(١) د. صلاح العقاد ـ المغرب العربى ٨٧ ـ ٨٨

أبريل ١٨٢٧ ، وبمناسبة الاحتفال بعيد الأضحى ، انتهز الداى حسين فرصة وجود القنصل الفرنسى لكى يسأله عن السبب الذى دفع بملك فرنسا وبوزارتها إلى عدم الرد على خطاباته ، فما كان من القنصل إلا أن أجاب بأن الحكومة الفرنسية لن ترد عليه ، مما أثار الداى وجعله يدفع القنصل الفرنسى أمامه ، طالبا منه الخروج من حضرته ، وأشاح بمروحة كانت فى يده فمست وجه القنصل .

وكانت فرنسا قد قررت استخدام القوة ضد الجزائر قبل مقابلة ٣٠ أبريل ، ولكن تقارير ديفال عن هذه المقابلة أثارت نفرة الحكومة الفرنسية ، فقررت ضرب حصار فعال على ميناء الجزائر ، وظل الحصار البحرى مفروضا على الجزائر لمدة ثلاث سنوات (من ١٦ يونيو ١٨٢٧ إلى ١٤ يونيو ١٨٣٠) .

تلك هى الذرائع التى تذرعت بها فرنسا للهجوم على الجزائر ، وانتهى الأمر بأن اتخذت الحكومة الفرنسية قرارها الخاص باحتلال الجزائر فى شهر يناير سنة ١٨٣٠ ، وأعطى الملك القيادة البحرية للأميرال دوبريه ، وأعطى قيادة الحملة البرية للجنرال بورمون .

ووقعت عملية إنزال الجنود إلى الساحل يوم ١٤ يونيو فى الخليج الغربى من شبه جزيرة سيدى فروج ، واستطاع الفرنسيون الإستيلاء على قطع المدفعية الجزائرية المنصوبة إلى الداخل من شبه الجزيرة ، ثم أخذوا فى تحصين شبه الجزيرة ، وذلك لكى يتخذوها قاعدة عامة لهم . وبعد عدة معارك عنيفة ، واصلت القوات الفرنسية زحفها صوب مدينة الجزائر . ويبدو أن الداى كان فى موقف لا يسمح له بالمقاومة ، خصوصا وأن الاسطول كان يحاصر المدينة من البحر ، ومدفعية الجيش كانت مصوبة على المدينة ، فطلب مفاوضة الفرنسيين الذين أرسلوا شروطهم لتسليم المدينة . وقد قبلها الداى يوم ٥ يوليو ووقع عليها ، وهى تشتمل على تسليم كل حصون مدينة الجزائر ، وتعهد من القائد الفرنسى إلى الداى

بضمان حريته وكل ممتلكاته الشخصية ، وحرية الداى فى ترك المدينة مع أسرته وممتلكاته الى أى مكان يختاره . وفى حالة بقائه فى مدينة الجزائر ، فان القائد الفرنسى يتعهد بحمايته وتعيين حرس له ولأسرته ، ويتعهد القائد العام بشرفه بأن تظل حرية إقامة الشعائر الإسلامية مكفولة ، وكذلك حرية جميع الطوائف فى العبادة ومزاولة التجارة والصناعة .

واستولى الفرنسيون على الخزانة . وأبلغوا باريس أنهم قد وجدوا بها ما قيمته ٤٨٫٧٠٠٫٠٠٠ فرنك من الذهب ، وكان هذا يكفى بطبيعة الحال لتغطية نفقات الحملة التى بلغت ٤٣٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك. إلا أن الجنرالات بدأوا يتهمون بعضهم بعضا بسرقة مبالغ من أموال الخزانة الجزائرية قبل إعلانها لباريس .

وكانت خسائر الفرنسيون قد بلغت حتى ذلك الحين ٤٠٠ قتيل و ١٩٠٠ جريح ، أما الداى حسين ، فانه ترك الجزائر الى نابولى مصحوبا بأفراد أسرته وخدمه ، وما خف حمله وغلا ثمنه من ممتلكاته الشخصية .

لم يكن بورمون يعرف حقيقة الحال فى الجزائر ، واعتقد أن احتلاله لمدينة الجزائر سيجعله يسيطر على كل القطر فى مدة أسبوعين وبدون مقاومة. فأرسل قواته لاحتلال المرسى الكبير ووهران ، كما أرسل قوة أخرى استولت على عنابة، الميناء البحرى لقسطنطينية ، واعتقد بأن هذا الاحتلال سيجبر قسطنطينية على التسليم ، ولكنه أخطأ فى تقديره ، إذ أن الأهالى فى الداخل كانوا مصممين على مقاومة الاحتلال الفرنسى رغم أن السلطات التركية فى المدن الساحلية لم تكن قد أبدت كثيرا من المقاومة .

وكشفت الحملة التى أرسلها الفرنسيون إلى بليدا حقيقة الموقف بجلاء أمام المحتلين ، فقد وصلت هذه الحملة سالمة إلى بليدا عند سفح الاطلس وعلى بعد ٤٨ كيلو متراً جنوب مدينة الجزائر ، ولكن رجال القبائل هاجموا هذه الحملة عند

عودتها ، وأنزلوا بها خسائر فادحة ، وكشفت هذه الهزيمة الساحقة وما تلاهـا من إخلاء عنابة ووهران بعد احتلال لم يدم إلا بضعة أيام عـن أن الفرنسيين ليسوا سادة الموقف ، وشعر الفرنسيون بأن تحطيم الحكم التركى فى الجزائر لن يسهل عليهم السيطرة على الولاية فى شىء .

لم يكن من السهل على فرنسا إذا عند احتلالها لمدينة الجزائـر أن تفرض نفوذها على داخل البلاد وخاصة مقاطعتى وهران وقسطنطينية ، فاكتفت فرنسا فى تلك الفترة باحتلال النقط الساحلية وقد ساعدت الظروف السائدة فى ذلك الوقت على ظهور شخصية من أقوى الشخصيات التى ظهرت فى شمال أفريقيـة فى العصر الحديث ، ألا وهى شخصية الأمير عبد القادر الذى قاد حركة المقاومة ضد الفرنسيين ، وأصبح أكبر عدو لهم فى غزوهم للجزائر .

وقد حاول أهالى غرب الجزائر الاستناد إلى سلطان المغرب فى مقاومتهم للتوغل الفرنسى فى بلادهم ، ولكنهم رأوا أن الضغط الفرنسى على المغـرب من ناحية ، والحالة السائدة فيه فى تلك الفترة من ناحية أخرى يقللان من أهميـة المعونة التى يستطيع المغرب اسداءها لهم . فكان أن وقع اختيارهم على الامير عبد القادر لقيادة صفوفهم فى حربهم ضد الفرنسيين .

والأمير عبد القادر هو ابن الشريف محيى الدين شيخ الطريقة القادرية والمنتسب إلى الاشراف الهاشميين . وكان الأب يميل الى سلطان المغرب العلوى أكـثر من ميله إلى سلطان دولة آل عثمان . وذهب الى الحج فى عام ١٨٢٧ مصطحبـا معه ابنه عبد القادر الذى أعجب بكل ما قام به محمد على فى مصر . وما أن عاد إلى الجزائر حتى أتى الفرنسيون واحتلوا مدينة وهران ، وقد حاول الجزائريون تحرير تلك المدينة ، ولكنهم فشلوا بعد محاصرتهم لها مرتين ، فطلبوا الى الشريف محيى الدين قيادة صفوفهم فى سنة ١٨٣٢ ، ولكنه رفض نظرا لكبر سنه ، وأشار عليهم

بالالتفاف حول ابنه عبد القادر . وهكذا بايعت القبائل الهاشمية عبد القادر أميرا عليها ، ولم يكن له من العمر الأربع وعشرين عاما . وقد أرسل عبد القادر ممثلين له لإدارة شئون القبائل ، واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين أو خليفة سلطان المغرب . ونجح عبد القادر فى الإستيلاء على تلمسان ، وشعر الفرنسيون بأنهم محاصرين فى مدينة وهران ، وأن نفوذ عبد القادر يزداد مع مرور الأيام . وساءت الحالة فى تلك المدينة بعد أن منع عبد القادر الاهالى العرب من التعامل تجاريا معها . وكان هذا الحصار التجارى سببا فى أن قرر الجنرال ديميشيل التفاوض معه لتخفيف الأزمة الاقتصادية السائدة فى مدينته .

وتم بالفعل توقيع معاهدة فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٤ مع مندوب عبد القادر، ولم يشر أى نص فى تلك المعاهدة إلى السيادة الفرنسية بطريق مباشر أو غير مباشر ، بل بالعكس اعترفت رسميا باستقلال الأمير ، إذ أنه فاوض الجنرال ديميشيل ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق التصديق على المعاهدة ، مثله فى ذلك مثل ملك فرنسا .

وقد أبلغ الجنرال ديميشيل حكومة باريس أن التوقيع على هذه المعاهدة يعتبر نصراً دبلوماسيا لفرنسا . وكانت فرنسا قد اعترفت بأن تجارة الحبوب هى احتكار لعبد القادر ، وبأنه ليس لها الحق فى شراء أى كميات منها إلا عن طريقه، وذلك فى اتفاقية خاصة ملحقة بالمعاهدة ، إلا أن فرنسا عادت وادعت أن هذه الاتفاقية تتنافى مع شروط المعاهدة الودية . كما أن الحكومة الفرنسية خشيت من نشوء حركة عربية توحد قوى الشعب ضد الفرنسيين ، واستندت فى ذلك إلى أن عبد القادر لم يعترف بالسيادة الفرنسية .

ولقد عمل القائد الفرنسى فى مدينة وهران على استمالة بعض الرؤساء حول المدينة ، وعقد معهم معاهدة « التينة » فى ١٦ يونيو سنة ١٨٣٠ وضعتهم تحت

السيادة الفرنسية . فما كان من عبد القادر إلا أن رفض الاعتراف بصحة هذه الاتفاقية ، ثم زحف بقواته وأنزل بالفرنسيين هزيمة كبيرة، حيث قتل منهم ٢٠٠ وجرح ٣٠٠ واستولى على معدات حربية كثيرة ، واضطرت فرنسا إلى تغيير قائدها فى وهران ، وحاكمها العام فى مدينة الجزائر ، واختارت الماريشال كلوزيل مرة ثانية لذلك المنصب الأخير .

وأراد كلوزيل أن يقضى على قوة عبد القادر العسكرية وحكومته، وأن يخلق مركز مقاومة له فى تلمسان ، ولكن الأمير ترك عاصمته بمجرد اقتراب الفرنسيين منها، آخذا معه كل الاهالى ومدمرا إياها حتى لا يستفيد منها الأعداء، ودخل الفرنسيون مدينة المعسكر لكى يجدوها مهجورة محترقة . وزاد هطول الأمطار ، مما اضطرهم إلى الجلاء عنها بعد ثمان وأربعين ساعة . وما أن خرج منها الفرنسيون حتى عاد اليها العرب ، وكان هذا فشلا واضحا للماريشال .

ولم يكن فشل كلوزيل فى حملة معسكر هو الضربة الوحيدة التى تلقاها الفرنسيون فى ظل حكومته . فقد شهد عام ١٨٣٦ هزيمة ساحقة لحقت بقواتهم فى الجانب الآخر من الجزائر ، حيث قام كلوزيل بمحاولة للتخلص من أحمد بك حاكم قسنطينة الذى استطاع طوال هذه الفترة أن يحتفظ باستقلال الإقليم الشرقى. وفى أكتوبر ١٨٣٦ أعد كلوزيل حملته للاستيلاء على مدينة قسنطينة ،ولكنه وقف عاجزا حتى عن الصعود إلى الهضبة التى تقوم عليها المدينة ، فقد تلقته مدفعيتها بنيران حامية(١)، مما اضطره إلى إصدار تعلياته بالانسحاب، إلا أن الجزائريين هاجموا الفرنسيين المتقهقرين وأنزلوا بهم خسائر فادحة . وهكذا فشل كلوزيل فى تنفيذ سياسة الاحتلال الشامل حيث لم تؤد إلا إلى وقوع تلك الكوارث .

وبينما كان كلوزيل منهمكا فى إعداد حملة قسنطينة ، وصل إلى وهران أحد

---

(١) د. صلاح العقاد ـ المصدر السابق ص ١١٥

العسكريين الذين سيلعبون فيما بعد دورا هاما فى الجزائر ، وهو الجنرال بيجو فى مايو ١٨٣٦ ،وكانت مهمته قاصرة فى ذلك الوقت على إيجاد وسيلة لتخليص القوات الفرنسية المحاصرة فى تلمسان . وقد لاحظ الفرنسيون أنه من الصعب عليهم أن يحاربوا الجزائريين فى جبهتين مختلفتين : وهران وقسنطينة ، لذلك فكروا فى مهادنة الأمير حتى يتفرغوا لمحو هزيمتهم فى قسنطينة التى كادت أن تطيح بسمعتهم العسكرية فى شمال أفريقيا . وقد حفزهم أيضا على الإسراع فى مفاوضة الأمير تردد الإشاعات بوجود مراسلات بين عبد القادر وبين الحكومة الانجليزية. أما الظروف التى جعلت عبد القادر مستعدا لقبول المفاوضة فى الصلح ، فهى رغبته فى التفرغ لبسط نفوذه على الجزء الأكبر من الجزائر حتى الصحراء الكبرى ، وهو شىء أقرب إلى التحقيق من طرد الفرنسيين إلى البحر ، ولكن يؤخذ عليه أنه لم يكترث بالهدف الرئيسى للفرنسيين وهو اتخاذ الصلح مع الأمير وسيلة للتفرغ لاحمد بك حاكم قسنطينة وقيامهم بحملة قوية على المدينة أمكنهم بها الإستيلاء عليها بعد مجزرة كبيرة بين الطرفين. إلا أن الأمير لم يقرر التفاوض فى الصلح إلا بعد أن جمع مجلس شوراه وأقره على ذلك . وقد تولى بيجو الذى عاد حاكما لوهران فى أوائل سنة ١٨٣٧ مهمة التفاوض ، ومثل الأمير عبد القادر فى هذه المفاوضات وزير خارجيته مولود بن عراش (١) . وقد انتهت هذه المفاوضات بالتوقيع على معاهدة تافنا فى ٣٠ مايو ١٨٣٧ ، وهى المعاهدة التى تركت لفرنسا مدن الجزائر ووهران ومستغانم ومزاجران ومنطقتى الساحل ومتيجا قرب مدينة الجزائر ، أما بقية الإقليم فقد ظل فى يد الأمير ، واعترفت فرنسا بسلطته على تافنا وتلمسان وتتيرى .

---

(١) المصدر السابق ص ١١٦ — ١١٧ .

وتمتاز هذه المعاهدة بإثبات سوء نية الحكومة الفرنسية وممثلها، ورغبتها فى ترك الباب مفتوحا للطعن فى هذه المعاهدة من جديد، والمطالبة بمالم تستطع الوصول إليه عن طريقها . ذلك أن النص الفرنسى لهذه المعاهدة اعترف بسيادة فرنسا على الجزائر أما النص العربى فلم يذكر إلا أن « أمير المؤمنين يعرف أن السلطان كبير » وأمير المؤمنين هو عبد القادر والسلطان هنا هو ملك فرنسا . وعلى أى حال، فإن مسألة عدم المطابقة بين المعاهدات وترجمتها شائع فى المجال الاستعمارى.

وهكذا وافقت فرنسا على التوقيع على معاهدة تافنا حتى تأمن جانب عبد القادر فى المغرب ، إلى أن يتم لها الاستيلاء على قسنطينة فى الشرق ، أما الأمير فإنه استغل هذه المعاهدة لكى يعمل على تثبيت أركان الحكومة الجزائرية التى كان يبنيها . ولم يكن لدى عبد القادر سوى عامين ونصف (٣٠ مايو ١٨٣٧ - ٢٠ نوفمبر ١٨٣٩) لكى يظهر فيها مقدرته على خلق تلك الدولة ، وعلى تكوين جيش نظامى ، وعلى بسط سلطته وتحطيم أعدائه ، وتوحيد صفوف الأهالى وقيادتهم ضد الغزاة . ولقد نجح الأمير الجزائرى فيما قام به من تنظيم، رغم قصر مدة السلم ، ورغم صعوبة العقبات التى اعترضته .

ولقد بدأت المشاكل بين فرنسا والأمير عبد القادر بمجرد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة ، لأن احتلالهم لهذه المدينة يعد خرقا لمعاهدة تافنا التى لم تسمح الفرنسيين بالتوسع إلى الشرق من متيجا، وكان احتلال الفرنسيين لقسنطينة توسعا فى خارج هذا الخط . فما كان من الأمير إلا أن احتل المناطق المتنازع عليها فى مقاطعة تتيرى ، ثم احتل وادى الزيتون وبسكرة ومنطقة الأغواط . كما أصدر الأمير أمره بالهجوم على إقليم متيجا من الغرب والجنوب الشرقى فى نفس الوقت، وعمل المجاهدون على إحراق أكواخ المستعمرين وتخريبها وأسر ماشيتهم، واحتلوا كل الإقليم ، مما نشر الرعب فى قلوب الفرنسيين فى مدينة الجزائر . وجعل الحكومة

الفرنسية تعتقد أن مدينة الجزائر ستقع من وقت لآخر فى أيدى قوات عبد القادر الوطنية . وظهر جليا أن الماريشال «الى ليس هو الرجل الذى يستطيع السيطرة على الموقف - من وجهة النظر الفرنسية - فقررت فرنسا تغييرة ، وعينت بوجو حاكما عاما على الجزائر . ويعتبر هذا القرار فى غاية الأهمية ، إذ أنه كان الحد الفاصل بين سياسة الاحتلال الجزئى والاحتلال الكلى للجزائر .

محاربة عبد القادر :

وصل بوجو إلى مدينة الجزائر فى ٢٢ فبراير ١٨٤١ ، وظل محافظا على منصبه كحاكم عام حتى ١١ سبتمبر ١٨٤٧ ، مما سمح باستقرار فى القيادة الفرنسية فى شمال أفريقية ، إذ أن من سبقه من الحكام لم تسمح لهم الظروف بمثل هذا الوقت الطويل نسبيا . وتعتبر فترة حكم بوجو هى فترة الصراع ضد الأمير عبد القادر ومحاربته.

ولم يكن بوجو غريبا عن شمال افريقية ، إذ أنه هو الذى وقع على معاهدة تافنا مع ممثل الأمير عبد القادر ، وكان من أعداء الحرب الجزائرية ، ولكنه غير موقفه وأصبح من كبار المنادين بغزو الجزائر واستعمارها . وطلب من الحكومة أن تضع تحت تصرفه مائة ألف جندى ومائة وخمسين مليون فرنك ، ثمانين منها للقوات المحاربة وسبعين للاستعمار ، وذلك لمدة ست سنوات ، حتى يستطيع أن يقيم حكم فرنسا فى الجزائر على أسس ثابتة .

وقد غير بوجو تكتيك واستراتيجية الحرب فى الجزائر عما كانت عليه منذ سنة ١٨٣٠ ، فألغى نظام المواقع العسكرية الصغيرة والمواقع المحصنة ، وأنشأ بدلا منها طوابير سهلة الحركة ، وألغى نظام الحملات الثقيلة حتى يسمح للجند بالمقدرة على الصراع مع العرب السريعى الحركة.

وقد تميزت الحرب التى شنها بيجو بالوحشية والعنف ، إلى حد أن سكان

الجزائر تناقصوا حسب تقرير أحد الضباط الفرنسيين من ٤ إلى ٣ مليون فى مدى سبع سنوات .

ويصف أحد معاونى بوجو وهو سنت أرنو بعض الأعمال الوحشية مع كثير من الإعجاب والسخرية فى نفس الوقت فى مذكراته فيقول فى خطاب بتاريخ ٤ مايو ١٨٤٢ ... « لقد كانت حملتنا تدميرا منظما أكثر منها عملا عسكريا . ونحن اليوم فى وسط جبال مليانة ، لانطلق إلا قليلا من الرصاص ، وإنما نمضى وقتنا فى حرق جميع القرى والأكواخ . إن العدو يفر أمامنا سائقا أمامه قطعان غنمه »

وفى خطاب آخر يقول « إن بلاد بن مناصر بديعة جدا لقد احرقناها كلها. آه أيتها الحرب كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلوج فماتوا هناك من الجوع والبرد : وليس من جيشنا سوى خمسة من القتلى وأربعين جريحا (١) » .

وقد أثار بعض النواب فى المجلس الفرنسى مسألة هذه الحرب الوحشية ، وذلك على أثر حادثة ولد رياح التى ذهب ضحيتها ألف من الأنفس ، وكانوا قد التجأوا إلى الكهوف فرارا من الغزاة إلا أن الفرنسيين أوقدوا النار على أفواه الكهوف ، فمات كل من فيها اختناقا(٢) .

وكانت خطة بوجو تتلخص فى احتلال المواقع التى حصنها عبد القادر وفى استباحة القبائل التى رفضت الخضوع لفرنسا . وإجبارها بالقوة على التخلى عن ولائها للأمير . ووصل الامر بالفرنسيين إلى تخريب الاقليم الذى ولد فيه عبد

(١) Saint-Armand — Souvenir, de l'Armée d'Afrique

انظر د. صلاح العقاد . ص ٢٧ .

(٢) د. صلاح العقاد المصدر السابق ص ١٢٧

القادر وهدم الزاوية التى تعلم فيها ، واستباح دماء بنى هاشم فى كل مـــكان . ولم يذق الجنود طعم الراحة وانتشروا فى كل مكان تاركين وراءهم الخراب والدمار، وأثبتوا أنهم يطلبون الخضوع التام ، أو اجبار الاهالى على الجوع أو استلام البلاد بغير سكان .

واتجهت فرقة فرنسية إلى قاعدة الأمير عندمنبع « الطاجين » وهاجمتهـــا بالفرسان ، وتم أسر ثلاثه آلاف أسير مع الاستيلاء على كمية كبيرة من الغنائم، كما نجح الفرنسيون فى قتل مبارك القائد الجزائرى الشهير والساعد الأيمن للأمير عبد القادر ، وذلك فى المعركة التى وقعت عندسيدى يحيى يوم ١١ نوفمبر ١٨٤٣ وكانت هذه الضربة أقوى على الأمير من فقده لقاعدته ، واضطـــر بعدهـا إلى الالتجاء إلى المغرب .

ولقد أثار التجاء عبد القادر إلى المغرب المشاكل أمام فرنسا ، وهددهـــا بقيام حـركـــة تحررية كبرى فى شمال أفريقية . وكانت فرنسا تعرف أن المولى عبد الرحمن سلطان المغرب يؤيد عبد القادر ويعطيه الإمدادات اللازمة ، ولكنها كانت تعرف كذلك أن السلطان يخشى ازدياد نفوذ الأمير فى المغرب . وسارت القوات الفرنسية غربا مدعية البحث عن قوات عبد القادر ووصلت إلى للامغنية وأقامت هناك نقطاعسكرية، ولكن هذه المواقع كانت داخل حدود الإمبراطورية الشريفية ، مما اضطر السلطان إلى إرسال قوة عسكرية إلى جوار وجدة .

ويعتبر زحف القوات الفرنسية حتى للامغنية تحرشا سافرا بالمغرب ، وعملا لا يقصد من ورائه إلا البحث عن المشاكل .ووقع اشتباك بين المغاربة والفرنسيين فى ٣٠ مايو ١٨٤٤ بالقرب من سيدى عزيز فى الشمال الغربى لمغنية . ولم ينجـــح المؤتمر الذى عقد بين ممثلى الطرفين فى ١٥ يونيو على ضفاف نهر المـــولوية فى الوصول إلى نتيجة . فصمم بوجو على الزحف على وجدة واحتلالها وكان هذا

الاحتلال يدخل فى نطاق خطة عامة قامت بها الحكومة الفرنسية للضغط على المغرب وإجباره على تسليم الأمير عبد القادر ، إذ أن فرنسا كانت قد أرسلت فى نفس الوقت قطعا من أسطولها لضرب طنجة . وما أن طلبت حكومة المغرب الصلح، حتى قامت المفاوضات بينها وبين ممثلى فرنسا وجاءت مشاهدة طنجة نتيجة لهذه المفاوضات ، وقد تعهد فيها السلطان بأن يسجن عبد القادر فى إحدى المدن المغربية فى حالة وقوعه فى يديه . أما تحديد الحدود الغربية للجزائر ، فكان موضوع اتفاقية أخرى وقعت فى للامغنية فى ١٨ مارس ١٨٤٥ . وقد ادعت فرنسا أنها لا تطالب إلا بالحدود القديمة للولاية الجزائرية فى أيام الحكم العثمانى . والواقع أن مسألة الحدود لم تكن تهم فرنسا فى تلك الفترة ، ولكنها كانت تهدف قبل كل شىء إلى الحصول على الاعتراف بسيادتها على الجزائر ، وعلى تعهد من سلطان المغرب بالامتناع عن مساعدة عبد القادر .

وقد ظهر فى جنوب الجزائر وغربها أثناء غياب الأمير بضعة زعماء عليين اشهرهم بومعزة . وقد ظهر بومعزة فى وادى الشلف فى أواخر سنة ١٨٤٥ ، وظل يقاوم الفرنسيين حتى أبريل ١٨٤٧ . وقد حارب الفرنسيون بومعزة بوحشية وعنف ، ولا نستطيع إلا أن ندهش لبقائه مع قلة قليلة من أتباعه أكثر من سنتين يدوخ الجيوش الفرنسية .

وقد أحدثت عودة الأمير إلى الجزائر انقلابا مفاجئا فى الموقف ، فقد ازداد حماس الجزائريين للقتال ضد الفرنسيين . وقد استطاع الأمير أن يقضى على قوة فرنسية كبيرة بالقرب من سيدى ابراهيم بكل ما اشتملت عليه من ضباط وجنود فى ٢٣ سبتمبر ١٨٤٥ ، وحاصر قوة أخرى فى نفس المنطقة وضيق عليها الحصار حتى سلم من بقى منها . وقد كان من أثر هذين الانتصارين أن سلبت القوة الفرنسية

المرابطة فى سيدى موسى بالقرب من عين تمو للأمير عبد القادر ، دون أن تحارب ، وبمجرد أن طلب منها التسليم .

ازدادت نيران الثورة الجزائرية اشتعالا فى كل مكان ، فامتدت الى جبال الظهره ووادى الشليف ومنطقة الحدود المغربية وإلى تيترى . وعين عبد القادر « بومعزة » خليفة له مما اضطر بوجو إلى أن يعود بسرعة من فرنسا إلى الجزائر ويرسم سياسة جديدة تقوم على أساس تشكيل ١٨ فرقة تكون نصف دائرة تمتد من وادى تافنا إلى منطقة القبائل ، وتمنع توغل المجاهدين فى منطقة التل ، وتهجم على قوات عبد القادر وتحاول تطويقها . ولكن سرعة حركة المجاهدين أذهلت الفرنسيين ، إذ أنهم كانوا يمرون من خطوط الدفاع الفرنسية ، ويظهرون خلفها ، ويأخذون الفرنسيين من الخلف ، وكانوا يتوغلون فى الصحراء ، ثم يظهرون بعد أيام فى وادى الشليف . وقد حاولت القوات الفرنسية أن تطبق عليهم ، ولكنها وجدت دائما أن حركة الالتفاف كانت تتم غالبا بعد خروج المجاهدين من منطقة العمليات .

ويمكننا اعتبار عامى ١٨٤٥ و ١٨٤٦ من أصعب السنوات التى أمضتها القوات الفرنسية فى الجزائر ، ولولا وجود القيادة فى يد الماريشال بوجو ، واجباره لجنوده على سرعة الحركة فى الهجوم والانسحاب والالتفاف ، ولولا ضخامة عدد المقاتلين الفرنسيين تحت إمرته وحسن تدريبهم وتسليحهم وتفوقهم فى كمية النيران والإمداد والتموين ، لما تمكنت فرنسا من البقاء فى الجزائر .

إلا أن قسوة الفرنسيين فى حربهم ضد الجزائريين أنهكت قوى المجاهدين ، ونشرت الفقر والخراب فى اركان الجزائر ، مما قلل من مقاومة الجزائريين . وكان الحصار البحرى المفروض على سواحل الجزائر مع الحصار البرى المفروض

على الحدود الغربية والشرقية يقلل من وصول الأسلحة والامدادات إلى المجاهدين، مما أجبر « بومعزة » على التسليم للقوات الفرنسية .

ومرة أخرى يضطر عبد القادر إلى الانتقال إلى المغرب ، والإقامة هناك مع بقايا القبائل التى ظلت موالية له .إلا أن فرنسا عملت على بث الفتنة فى صدر السلطان ضد الأمير ، موعزة له بأن الأمير يرغب فى إنشاء سلطنة مستقلة فى فاس أو القيام بثورة عاتية والاستيلاء على الحكم من أسرة العلويين لصالح الهاشميين . وقامت فرنسا بالضغط السياسى على سلطان مراكش ، وأبلغته أن قواتها ستدخل حدود المغرب لتعقب الأمير عبد القادر والمجاهدين الجزائريين سواء سمح هو بذلك أو لم يسمح ، فما كان من السلطان إلا أن أمر عبد القادر بتسريح قواته والحضور بنفسه إلى مدينة فاس . ولما رفض الأمير هذا الأمر ، مستندا إلى تعضيد رجال الدين له ، أرسل السلطان قوة لتنفيذ أمره فى نفس الوقت الذى وضع فيه الفرنسيون خمسة آلاف جندى على الحدود عند الامضية لانتظار خروج عبد القادر من الاراضى المغربية ، وحارب عبد القادر قوة المغاربة ، وأنزل بها خسائر فادحة ، ولكنه اضطر الى التقهقر صوب الحدود، ثم عبر الملوية، ولكنه اضطر إلى أن يحارب من جديد وإلى أن يتخلى عن مدفعيته ، ثم نصح رجاله بأن يسلموا أنفسهم للفرنسيين ، وتابع هو سيره جنوبا محاولا الدخول فى الأراضى الجزائرية .

وكانت القوات الفرنسية تعلم كل حركات الأمير ، وكانت قد اقامت له النقط العسكرية على طول الحدود ، مما اضطره الى أن يطلب التسليم على أساس وعد بالسماح له بالسفر الى الاسكندرية أو عكا . ولقد قبل الفرنسيون هذا الشرط واستقبلوه استقبالا يليق بخصم شجاع .

أما الجزائر فانها أصبحت فريسة سهلة أمام رجال الإدارة الفرنسية ورجال الاستعمار ، فاستخدموها حقلا لتجاربهم دون أن يلقوا معارضة فعالة أومقاومة تستطيع أن توقفهم عند حدهم .

الفصل السادس

تونس والحماية الفرنسية

كان لموقع تونس الجغرافى فى وسط البحر المتوسط ، واقترابها من صقلية وايطاليا أهمية استراتيجية خاصة ، تسمح لها بالتحكم فى خطوط الملاحة التى تسير فى هذا البحر وبين الحوضين الشرقى والغربى منه . وساعد هذا الموقع الجغرافى على أن تصبح تونس محط أنظار الدول التى حاولت زيادة نفوذها فى هذا البحر أو التحكم فيه . وكانت امكانيات تونس الاقتصادية وصلاحية اراضيها للزراعة أكثر من بعض أقاليم الدول الأوربية الطامعة نفسها ، سببا فى تفكير هذه الدول فى السيطرة عليها واستغلالها واستعمارها . وكانت مجاورة تونس للجزائر ، وعدم إمكان وضع حدود معينة بين الإقليمين سببا ثالثا يدفع بفرنسا بعد أن احتلت الجزائر ، إلى محاولة السيطرة على تونس، وتأمين حدود ممتلكاتها الاستعمارية فى شمال أفريقية ، ومنع الدول الأوربية المنافسة من السيطرة عليها .

وكما قامت الدول الأوربية بعد سنة ١٨١٥ بالضغط على الجزائر باسم القضاء على القرصنة ، قامت هذه الدول بنفس الضغط على تونس واستنادا على نفس الادعاء . فنجد أن الأسطول البريطانى الذى قام بحملته التأديبية على الجزائر سنة ١٨١٦ قد وصل إلى تونس ووجه اليها نفس التهديدات التى وجهها للجزائر . وكذلك وجهت تونس إنذار الحملة البريطانية الفرنسية المشتركة التى أوصى مؤتمر إكس لاشابل بارسالها الى نيابات شمال أفريقية ولكننا نلاحظ أن باى تونس كان أكثر رضوخا للضغط الأوربى من داى الجزائر ، فأسرع بالتعهد بمنع سفن التونسيين من فرض الاتاوة على السفن الاوربية . والواقع أن هذا الاستسلام

أثر تأثيراً كبيراً على قوة تونس البحرية . وأثر هذا الضعف على موقف تونس من احتلال فرنسا الجزائر ، خاصة وأنها رأت انهزام الأساطيل الإسلامية وتحطمها فى موقعة نوارين ، فساد شعور بتفوق أوربا البحرى ، وبشكل جعل بايات تونس لايفكرون كثيراً فى مقاومة النفوذ الأوربى . وربما كان هذا هو السبب أساسا فى عدم ترحيب الباى بمندوبى الجزائر الذين طلبوا منه فى سنة ١٨٣٠ معاونتهم فى حربهم ضد فرنسا ، وإن كان هذا السبب لايفسر لنا أمر محاولة الباى مساعدة الحملة الفرنسية ضد الجزائر ، وارسال التموين اليها ، ثم تهنئته الفرنسيين حين انتصروا على الجزائريين .

ولقد خضع باى تونس بسرعة للشروط التى أملتها الحملة الفرنسية البحرية ، وتعهد بوقف التعرض للسفن الأوربية وإلغاء القرصنة وحماية السفن الأوربية فى المياه التونسية ، وخضع بسرعة لهذه الشروط رغم أن غيره من حكام الاقاليم الإسلامية قد رفضها ، مثل يوسف باشا القرمانلى حاكم طرابلس ، الذى أصر على عدم الرضوخ أمام القوة .

ولقد أوضح بعض المؤرخين العلاقات التى سادت بين حكام الجزائر وحكام تونس ، وكيف أن دايات الجزائر كانوا فى بعض الأوقات يفرضون الجزية السنوية على البايات فى تونس . ولكن مثل هذا العامل لايكفى لتفسير اتخاذ البايات لموقف يتعارض مع مصالح المغرب العربى ، وخاصة أن العلاقات التونسية الجزائرية قد سويت فى سنة ١٨٢١ وبعد توسط الباب العالى بين حكام الإقليمين المغربيين .

ولا نقبل أيضا القول القائل بأن بايات تونس كانوا يحاولون الاستناد إلى فرنسا لكى يقللوا من درجة ارتباطهم بالدولة العثمانية ، لأن الدولة لم تفرض

نفسها على تونس بالقوة ، بل اكتفت باتحاد هذا الاقليم سياسيا ومعنويا مع بقية الامبراطورية .

وعلى أية حال فإننا نجد البايات يتجهون صوب فرنسا من أجل الاستعانة بها فى إنشاء إدارة حديثه فى البلاد ، والاستعانة بها فى إنشاء المدارس ، وإنشاء الجيش التونسى . وأصبحت هذه العوامل أسسا للتدخل الفرنسى بعد أن ركزت النفوذ الفرنسى فى قطاعات هامة من الولاية .

وقد ازدال نفوذ الأجانب فى تونس بصفة عامة مع ازدياد حاجة الدولة للأموال اللازمة لتنفيذ مشروعاتها،مع زيادة نمو الحركة الرأسمالية فى أوربا . ولم يكن معنى ذلك أن معاملة الأجانب فى تونس كانت معاملة حسنة ، فكثيرا ما كان الباى ورجاله يسيئون معاملتهم ، ويرفضون تنفيذ تعهداتهم حيالهم . وكانت هذه الطريقة التى يعامل بها الباى وسلطاته الأجانب المقيمين فى إقليمه سببا فى تدخل الحكومات الأوربية لديه ، وقيامها بالضغط عليه ،ومحاولتها حماية رعاياها ، والعمل على تغيير الأوضاع الموجودة فى تونس ، حتى يتمكن الرعايا الاجانب من العيش فى ظل نظم معقولة . وقد أصر الأجانب على الاحتفاظ بامتيازاتهم الأجنبية ،مع كل ماتمنحه لهم هذه الامتيازات من حقوق لايتمتعون بها فى بلادهم نفسها .وكانت الامتيازات الاجنبية تعفى الاجنبى من الخضوع للقضاء الوطنى فى الجرائم التى يرتكبوها لكى يحاكموا أمام قناصلهم وطبقا لقوانين بلادهم ، وأدى هذا النظام بالتالى إلى اشاعة الفوضى والارتباك فى تونس .

وقد وجدت الرأسمالية الاوربية الناهضة ، والناتجة عن سرعة دورة رأس المال وتكدس الارباح الناتجة عن الصناعة فرصة لها فى تونس ، وبدأت بذلك مسألة الديون التونسية التى كانت تشبه إلى حد بعيد مسألة الديون المصرية فى أسبابها وعملياتها ونتائجها .

وحاول أحمد باى أن ينشىء جيشا حديثا ، وعلى النظـام الفرنسى وبأيدى ضباط من الفرنسيين . وكلف هذا الجيش الدولة التونسـية الـكثير ، دون أن يتمكن من القيام بأى عمل أكثر من الاستعراضات العسكرية . وحينما انصرف خلفاء هذا الباى عن الاهتمام بهذا الجيش ساءت حاله ، بعد أن كبد الدولة الكثير.

وكذلك كان الحال بالنسبة لإنشاء أسطول تونسى حديث ، فقد حضرت السفن ، وظلت باقية فى الموانى حتى تلفت . وبالاضافة إلى ارهاق مالية تونس بنفقات الجيش والاسطول ، اضطرت النيابة الى معاونة الدولة العثمانية بمبلغ من المال فى حرب القرم . كما كان انهيار النظام الاقطاعى ونمو النظام الرأسمالى ، وحاجة الباى والامراء إلى الحصول على مبالغ من المال تساعدهم على الاحتفاظ بمستوى معين من المعيشة يدفعهم دفعا الى الاقتراض ، ويدفع الدولة بالتالى الى الاستدانة ، خاصة وأنه كان يصعب الفصل فى ذلك الوقت بين ميزانيـة الدولة وميزانية الامير .

وعمدت الحكومة التونسية الى الاقتراض محليا من التجار الاجانب المقيمين فى تونس ، ولكن الحالة ازدادت ارتباكا يوما بعد يوم .وزاد من ضيق الاهالى حدوث كوارث وأوبئة مختلفة ، ثم انتشار المجاعة سنة ١٨٧٦ . وقد عجزت الحكومة التونسية عن دفع أقساط أرباح الديون،فاحتج الدائنون لدى حكوماتهم التى تدخلت فى الامر للدفاع عن مصالح رعاياها ، وللاستفادة من الموقف .

وكان الدائنون الرئيسيون لحكومة تونس من المموليين والتجار، ومن الايطاليين والفرنسيين والانجليز . وحينما أعلنت الخزينة التونسية عجزها عن دفع التزاماتها للدائنين ، اعتبر القناصل الاوربيون أن تونس فى حالة افلاس . واستقر الرأى على تكوين بعثة مالية مختلطة لإصلاح المالية التونسية .

وكان واجب هذه البعثة المالية الاساسى هو تنظيم الامور المالية ، وبشكل

يضمن للدائنين حصولهم على فوائد وأقساط ديونهم . وكان عليها أن تعمل على تنظيم مصروفات النيابة حتى تدافع عن مصالح الدائنين. فزادت الأزمة استحكاما بين الأمراء والموظفين والوطنيين ، مادامت ميزانية الإمارة قد وضعت فى خدمة الدائنين . وعلى أى حال ، فقد نجحت هذه البعثة فى تحويل مجموع الديون التونسية، والتى كانت قد بلغت ما يقرب من ١٦٠ مليون فرنك ، وبفائدة تزيد عن ١٢٪ فى السنة إلى دين موحد بلغ ١٢٥ مليون فرنك فرنسى وبفائدة تبلغ ٥٪ كما أنها وضعت مشروعا لتنظيم المالية التونسية ، ووافق الباى على تطبيقه ، وبضمان الدول العظمى .

وكانت هناك مشكلة إصلاح وسائل الحكم، وإشراك الاهالى فى تقرير أمورهم وأمور بلادهم بأنفسهم ، وكان معنى إعطاء سلطات دستورية ظهور الباى بمظهر المتحرر ، وبمظهر المستجيب لمطالب العصر. والمستجيب لمطالب القناصل وعرف أول قانون أساسى فى تونس باسم « عهد الأمانة » وكان يتعلق بضمان حريات الأفراد . ثم صدر الدستور التونسى فى سنة ١٨٦١ ؛ وأعلن المساواة بين السكان، ونص على إنشاء مجلس شورى يشارك فيه كل من التونسيين والأجانب المقيمين فى البلاد . ولاشك أن الباى محمد الصادق كان يحاول فى ذلك الوقت ، وباصداره للدستور ، إرضاء الأجانب عامة والفرنسيين خاصة . ذلك أنه انتهز فرصة زيارة الإمبراطور نابليون الثالث للجزائر فى ذلك الوقت لكى يعرض عليه هذا الدستور قبل إصداره . ثم أعلن الباى بعد ذلك الدستور فى بلاده .

ولقد ساعد إعطاء هذا الدستور على قدوم عدد من الأجانب إلى تونس ، فازداد نجاحهم فى عملياتهم الرأسمالية ، فى الوقت الذى زاد فيه الضيق على الأهالى، مما أدى إلى قيام بعض الثورات ضد الباى.

وقد حاولت الدولة العثمانية أن تستفيد من هذا الموقف ، وتستعيد نفوذها

فى النيابة ، وأرسلت أسطولها إلى المياه التونسية ، ولكن الأساطيل الفرنسية والإنجليزية والايطالية منعت الاسطول العثمانى من الوصول إلى الساحل ، ومن القيام بأى عمليات . ولكن المندوب العثمانى تمكن من التوفيق بين الثوار وبين الباى . وعرف الباى أن الدولة العثمانية لا تتربص به الشرور ، وأنه يمكنه الاعتماد عليها ، خاصة وأن الدول الاوروبية كانت تحاول العمل على محاصرته ، وتتأهب للافادة من الموقف . كما اعتقد الباى أن بلاده لم تكن مستعدة بعد لكى تتقبل حكما دستوريا ، خاصة وأنه كان يمهد السبيل أمام الأجانب دون أن يتمكن الوطنيون من الإفادة منه . فألغى الدستور فى العام التالى (١٨٦٥) وبعد أن عمل به لمدة أربع سنوات .

وكانت هذه المشكلات المتتالية تهدد بفقد البلاد لهدوئها بل واستقلالها ، خاصة وأن الحالة قد بلغت بالدولة التونسية إلى العجز عن دفع رواتب الموظفين. ولولا تولى خير الدين باشا زمام الأمور فى ذلك الوقت لتقهقر أحوال تونس بسرعة ، ووصلت إلى مرحلة الانهيار بأسرع مما وصلت إليه .

وكان خير الدين مملوكا من أصل شركسى ، انتقل من القسطنطينية إلى قصر أحمد باشا باى تونس وأصبح ضابطا فى الفرسان . وكان الباى مسرفا فى نفقاته ، كما كان يترك أمور الدولة لمصطفى الخزنة دار ، الذى كان لايتورع عن السرقة واستمر مصطفى الخزنة دار مسيطرا على الوزارة فى تونس ما يقرب من خمسة وثلاثين سنة ، أثقل فيها كاهل الاهالى بالمظالم والضرائب واختلاس الاموال . وقد توسم مصطفى الخزنة دار الذكاء والكفاءة فى خير الدين ، وتنبأ له بحسن المستقبل ، فزوجه من ابنته .

وكان مصطفى الخزنة دار يعتمد على محمود بن عياد فى الشئون المالية وجمع الضرائب ، وعمليات التوريد وما إليها مما يدر عليه الربح والمكاسب . وبلغت الأموال التى جمعها ما يقرب من ثمانين مليونا من الفرنكات ثم فر إلى فرنسا ،

وأخذ معه وثائق تثبت قيامه بشراء أدوات لحكومة تونس بمبلغ أربعين مليون فرنك . وكلف الباى خير الدين لكى يذهب إلى باريس ويدافع عن حقوق تونس تجاه ابن عياد . وبعد قضايا استمرت ثلاث سنوات ، انتهى الأمر بتشكيل لجنة تحكيم برئاسة الامبراطور نابليون الثالث خفضت مطالب ابن عياد إلى أقل من ثلاثة ونصف مليون فرنك ، فى نفس الوقت الذى الزمته فيه برد مبالغ أخرى إلى الحكومة التونسية . وكسبت تونس من هذه القضية مبلغا يقترب من ٢٤ مليون فرنك . وكلف الباى خير الدين باشا بعمليات أخرى وهو فى أوربا وأفاد خير الدين من احتكاكه برجال السياسة ورجال الاعمال فى أوربا، وعاد إلى بلاده لكى يصبح وزيرا للحربية ، ويشغل هذا المنصب لمدة ست سنوات ، وقد قام فى هذه الفترة بإصلاح ميناء حلق الوادى ، وإنشاء مصنع لبناء السفن، وحاول تغيير نظام حكم الدولة بإنشاء مجلس لشورى القوانين . ويعتبر إنشاء مجلس شورى القوانين من أهم المشروعات التى عمل فيها خير الدين باشا . وحاول خير الدين أن يسير بالامور فى طريق الإصلاح ، ولكن كل مسعاه ذهب سدى ، ولم يشأ أن يخدع وطنه الذى تبناه، ورأى أن الباى وعلى الاخص وزيره الرهيب مصطفى خزنة دار ، لا يلجآن الى التشريعات الإصلاحية الا لتبرير أعمالها غير المشروعة تبريرا قانونيا ، فقدم استقالته من رئاسة المجلس ومن وزارة الحربية ، وعاد الى حياته الخاصة .

ولم يتمكن خير الدين باشا من الثورة على الاوضاع، خاصة وأن الباى كان ولى نعمته ومصطفى خزنة دار صهره . فأمضى وقته بين حياته الخاصة وبين سفره بصفته سفيرا للباى الى مختلف الدول الاوربية ، وفى مهمات خاصـــة . وبقى تسع سنوات بعيدا عن السلطة ، ولكنه تمكن من دراسة الاسس التى قامت عليها

المدينة الغربية وساعده ذلك على كتابة كتابه «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك».

والواقع حاول خير الدين أن يشرح فى كتابه ضرورة ادخال الإصلاحات فى الدول الاسلامية ، فبحث فى المقدمة فى حالة البلاد الإسلامية، وأسباب انحطاطها بعد ازدهارها ، ثم تعرض فى صلب الكتاب لتاريخ الممالك الاوربية، ووصف كل دولة وادارتها وجيوشها، ونظام الحكم فيها وماليتها وقوتها البرية والبحرية. وبصفة عامة يعتبر كتابه وثيقة هامة آراء رجال الاصلاح المستنيرين من المغرب العربى الاسلامى فى هذا العصر.

وفى أثناء ابتعاد خير الدين عن الوزارة وتفرغه للكتابة اغتنم مصطفى خزنة دار الموقف، وألغى المجلس النيابى، ثم استدار الى الاستدانة من أوربا دون وازع أو رقيب، فوصلت البلاد الى مرحلة الافلاس ومع تشكيل اللجنة المالية لتوحيد الدين أصبح خير الدين رئيسا لها. ولم تكن رئاسة هذه اللجنة بالأمر الهين خاصة وأن الدول الاوربية كانت ترغب فى ضمان حقوق رعاياها قبل أن تفكر فى التونسيين. كما أن بقاء مصطفى خزنة دار فى رئاسة الوزارة لم يكن يسهل الامر على اللجنة، ولكن خير الدين تمكن من العمل، وتمكن من ضبط احدى أخطاء الخزنة دار فعزل من منصبه، وتخلصت منه البلاد، وأصبح خير الدين هو الوزير الاول.

وكان عهد خير الدين باشا عهد اصلاح فى كل نواحى القطر، وفى جميع القطاعات السياسية والاقتصادية والادارية والقضائية. وحتى فى الزراعة والتعليم. وتمكن خير الدين من وقف القناصل عند حدهم، وقلل العبء على الفلاح، وألغى كثيرا من الضرائب، وأنشأ المدارس العصرية، ونظم الوظائف الحكومية، وحدد مرتبات القصر، ونظم السجلات ودور المحفوظات. ولكن الموقف الدولى كان يهدد تونس وخاصة نتيجة لهزيمة فرنسا فى حرب السبعين، ومحاولة

إيطاليا سبقها فى الولاية. فحاول خير الدين أن يضرب الدولتين الطامعتين إحداهما بالأخرى ، ويقوى صلات تونس بالدولة العثمانية . وسافر خير الدين نفسه إلى القسطنطينية ، ونجح فى اقناع السلطان بإصدار فرمان يحدد العلاقة بين الدولة العثمانية وتونس ، ويقرر بأنها أيالة عثمانية ، لواليها الحق فى التعامل مع الدول الأجنبية . إلافى الشئون السياسية التى تمس حقوق الدولة العثمانية من معاهدات وحروب وتغيير الحدود . وكان هذا الفرمان يبشر بعهد جديد بالنسبة لتونس، إلا أن كلا من فرنسا وايطاليا رفضت الموافقة عليه ، مادام لا يعوقها عن التوسع فى تونس .

وتكاثفت العقبات ، كما تكاثرت الصعاب ، وتجمع الأعداء ضد خير الدين ومشروعاته الإصلاحية ، وزاد تبرم أعوان الخزنة دار ، وزاد صفة الاجانب. واتهم خير الدين بأنه لم يعمل على إعادة نظام الشورى واصلاح حكم البلاد ، وأنه حكم البلاد حكما استبداديا . وعلى أى حال فلم يكن فى وسع أحد أن يطمس ما قام به من إصلاحات . والمهم أن الباى ترك الاشاعات تسرى حول خير الدين متهمة إياه مرة بأنه يريد تسليم البلاد للدولة العثمانية ، ومتهمة إياه مرة أخرى بأنه يريد تسليم البلاد لفرنسا . وساءت العلاقات بين الباى وخير الدين، وزادت سوءا حينما نشبت الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٠ ، وطلب البـاب العالى المعونة من الممالك العثمانية ، ومنها تونس ، فتراخى الباى فى إجابة الطلب ، فى الوقت الذى تحمس فيه خير الدين ، وجمع المتطوعين ، وأرسل الأموال إلى الباب العالى . إلا أن خير الدين اضطر بعد ذلك إلى الاستقالة ، ثم تمكن بعد ذلك من السفر إلى القسطنطينية واحتل منصب الصدر الاعظم هناك .

لقد كان خير الدين باشا مصلحا سياسيا واجتماعيا ، دون أن يسمح لنفسه بالثورة ، وكان يعمل فى هدوء وفى صمت وفى احترام للولاة والحكام ، وأعطى

لتونس تجربة فريدة فى نوعها ، ولكن التجاوب كان قليلا بينه وبين حكام ذلك العصر ، وفشلت تونس فى الافادة من مجهوداته الاصلاحية إفادة لها قيمتها ، وفى وقت احتاجت فيه تونس إلى هذه الاصلاحات وهذه المجهودات ، خاصة وأن الأطماع الاستمارية كانت واضحة ومهددة ، فان تجربة فرنسا فى احتلال الجزائر أصبحت أساسا هاما للتوسع الاستعمارى الفرنسى فى كل بلاد المغرب الكبير. وأخذت فرنسا تهتم بكل حركة تظهر فى تونس أو فى المغرب الأقصى ، حتى ولو كانت هذه الحركة دينية ، وأخذت الاطماع الفرنسية ترسم لها طريقها فى تلك الاقاليم ، وأصبحت تونس مهددة بالنفوذ الفرنسى ، وبدرجة أكبر من المغرب الأقصى ، وذلك لصغر مساحتها وإمكانياتها المتعددة ، فظهرت تونس على أنها فريسة سهلة للنفوذ الفرنسى .

وكان من الطبيعى أن تتطلع فرنسا إلى تونس التى لا يفصل بين سكانها وسكان الجزائر أى حاجز أو فاصل فى الجنس أو اللغة أو الدين . ويشرح لنا التاريخ تلك الروابط العديدة التى قامت بين الإقليمين المغربيين ، وكان الأهالى فى الإقليمين يعتبرون أنفسهم شعبا واحدا ، وكانوا ينتقلون من اقليم إلى اقليم وبشكل يصعب معه وضع حدود واضحة بينهما.

ولقد رأى الفرنسيون النفوذ العثمانى فى تونس فصمموا على وقفه ولو بالقوة. وأخذت فرنسا فى إقناع الباى بأن يعتبر مصالحه متميزة على مصالح تركيا، وأوضحت له بأنها تعتبره حاكما مستقلا . ولما زار الباى أحمد باريس قابلته الحكومة الفرنسية مقابلة الأمراء ، وذهبت احتجاجات السفير العثمانى فى الهواء . ثم جاءت حرب السبعين لكى تفقد فرنسا تفوقها فى تونس ، وتسمح بالتالى بزيادة نفوذ كل من إيطاليا وانجلترا . ولكن فرنسا عينت قنصلا جديدا لها فى تونس ، كان قد تمرن على العمل فى القاهرة والاسكندرية وبيروت ، وهو القنصل روستان الذى كان

يعتبر البحر المتوسط بحيرة فرنسية . ورغم انهزام فرنسا فى أوربا ، وقيام الثورة ضدها فى الجزائر ، فانها صممت على الاحتفاظ بالجزائر . وحينما حاولت إيطاليا فى نفس السنة الهجوم على تونس بحملتها التأديبية، أصرت فرنسا على أن تمد حدودها إلى جوار بنزرت . ولكن ايطاليا تراجعت فى أمر احتلال تونس ؛ وأصدرت تركيا فرمانا فى عام ١٨٧١ اعتبرت فيه تونس أحد أقاليم الدولة العثمانية ، فلم تعترف فرنسا بهذا الفرمان . وقد شهد عام ١٨٧٤ ازديادا للنفوذ الفرنسى فى تونس ، مع الحصول على امتياز لمد الخط الحديدى من تونس إلى الحدود الجزائرية ، وكان هذا الامتياز فى غاية الأهمية إذ أنه وضع أهم المناطق التونسية وأخصبها تحت النفوذ الفرنسى الفعلى ، وأصبح فى وسع فرنسا أن تصل بسهولة الى عاصمة تونس ، ولقد سيطرت فرنسا على البعثة المالية الدولية التى كان وكيلها فرنسى ، كما كان معظم الدَّيْن التونسى فى أيدى الفرنسيين واحتكرت فرنسا الخطوط التلغرافية وخطوط السكك الحديدية الهامة ، وكل ذلك جعل لفرنسا مركزا ممتازا ومتفوقا فى تونس .

وكانت مصالح ايطاليا وأطماعها فى تونس لاتقل عن مصالح فرنسا وأطماعها فى ذلك الإقليم . وقد بدأ الايطاليون يقيمون فى تونس فى القرن التاسع عشر . وكان دستور سنة ١٨٦١ يشجع الهجرة ، مما زاد من عدد الايطاليين فى تونس . ولما كانت الجالية الانجليزية فى تونس تتكون فى غالبيتهـــا من المالطيين الذين يتكلمون ويكتبون الايطالية ، فقد أصبحت اللغة الايطالية هى أولى اللغـــات الأوربية فى تونس .

وقد اهتمت ايطاليا بالشئون الاستعمارية حتى فى أثناء عملية توحيد ايطاليا ، واعتبر ماتزينى أن مستقبل ايطاليا هو فى البحر المتوسط ، كما اعتبر أن تونس هى أفضل مستعمرة لايطاليا . وكانت الحكومة الايطالية لا تنظر بعين الرضـــا

إلى الاصلاحات التى قام بها الباى أو نمو حركته الاستقلالية. وحلول الايطاليون المقيمون فى تونس فى ذلك الوقت أن يدفعوا حكومتهم الى احتلال السواحل التونسية . إلا أن الوقت لم يكن يسمح لايطاليا بمعاداة فرنسا . وكان من الصعب على ايطاليا أن تحتل تونس وما زالت البندقية وروما خارجة عن حدود دولتها. كما كانت المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمنع ايطاليا من البحث عن مشكلات جديدة وتصطدم فى سبيلها بالدول الكبرى المجاورة .

وكان القنصل الإيطالى فى تونس يعمل على زيادة نفوذ دولته وباستمرار فى الولاية . وتمكن هذا القنصل من عقد معاهدة فى عام ١٨٦٨ مع تونس ، وهى المعاهدة التى أعطت للايطاليين الحق فى امتلاك الأراضى والعقارات واستغلال المناجم ، وأدت بالتالى الى ازدياد عدد أفراد الجالية الإيطالية وبشكل واضح ، وأصبحت هذه الجالية تشتمل على التجار ورجال الأعمال وعلى مستوطنين يعيشون فى أملاكهم وأراضيهم .

وكانت ايطاليا فى ذلك الوقت تعانى من الفقر أكثر مما تعانى من كثرة السكان، وكانت ولايات الجنوب تعتبر عبئا ثقيلا على ولايات الشمال بعد الوحدة . وأخذ الأهالى يشعرون بضرورة الهجرة إلى مناطق جديدة يجدون فيها الرزق دون أن تخسرهم بلادهم ؛ فأخذ الساسة الايطاليون يوجهون أنظارهم إلى السواحل المغربية القريبة منهم ... أى إلى تونس . وكانت تونس فى ذلك الوقت مشغولة بمشكلاتها الداخلية من فتن وثورات وسوء إدارة ومجاعات وأوبئة . وازداد عدد المهاجرين الايطاليين فى تونس مع تقدم الملاحة فى البحر المتوسط ، وأخذ أصحاب رؤوس الأموال يفكرون فى ايجاد ميادين جديدة لاستغلال أموالهم. وقد انتهزت ايطاليا فرصة اعتداء الشرطة التونسية على أحد الرعايا الايطاليين لفرض نفسها على تونس ، وضربت باعتذارات الباى عرض الحائط ، واضطر

الباى إلى أن يطلب مساعدة تركيا . ولولا تدخل تركيا وانجلترا لأبحرت الحملة الايطالية إلى تونس . ولقد صرح السفير البريطانى لوزير خارجية إيطاليا بأن الضغط يمكن أن يقع بوسائل أخرى غير الاساطيل والبنادق ، وأعلن زميله التركى أن أى هجوم على تونس معناه الهجوم على تركيا ، فرأت إيطاليا أن الوقت لم يسمح لها وهى ما زالت مملكة صغيرة بأن تلقى بنفسها فى تلك المعمعة .

وبالرغم من أن أحوال إيطاليا فى ذلك الوقت لم تكن تسمح لها بالبدء فى استعمار تونس ، فإن سياستها كانت تدور حول العمل على منع فرنسا من إعلان حمايتها على تونس ، وكانت ترى ضرورة الاستعانة بمساعدة انجلترا لها فى تنفيذ هذه السياسة . إلا أن الانظار انتقلت بعد ذلك مع مسرح الحوادث من وسط البحر المتوسط إلى الشرق والبلقان مع أزمات سنتى ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ ، وتمهد الأمر للوصول إلى مؤتمر برلين .

وكانت الدول ذات المصالح والأطماع فى تونس هى إنجلترا وإيطاليا وفرنسا ، ولكن انجلترا تمكنت من الحصول على قبرص بعد الحرب التركية الروسية ، فبقيت المنافسة واضحة بين كل من إيطاليا وفرنسا على تونس . ولم يكن من السهل على أى من هاتين الدولتين أن تحصل على تونس دون الحصول على موافقة بقية الدول العظمى .

وكانت بريطانيا تنظر إلى الدولة العثمانية على أنها سد منيع يقف أمام التغلغل الروسى فى الشرق الأدنى . واضطرت انجلترا نتيجة لذلك إلى أن تقف فى جانب تركيا التى ظهرت وكأنها أفضل حارس يحمى طريق الهند ويجب مساعدته للقيام بهذه المهمة . ولقد حاولت انجلترا أن تساعد تركيا على أن تقوى نفسها عسكريا واقتصاديا وإداريا . وكانت الروسيا من ناحية أخرى تعارض كل تقدم يحدث فى الدولة العثمانية وقد أدى امتداد النفوذ الروسى مع نمو القوميات فى البلقان إلى الشعور بتفكك الدولة التى تحرس لبريطانيا طريق الهند ، ومن ثم

نادى الورد دربى بضرورة احتلال انجلترا لكريت أو لمصر حتى تؤمن خطوط المواصلات الامبراطورية مع الهند ، كما عزمت انجلترا على احتلال قبرص المفتاح الغربى لآسيا ، وجبل طارق الجديد ، وعلى أساس أن تترك فرنسا تستولى على جزء آخر من الامبراطورية العثمانية ، وليكن تونس . ويمكن لبريطانيا أن تعتمد على قبرص كى تزيد نفوذها فى آسيا الصغرى ، وتمنع تقدم النفوذ الروسى فى سوريا والعراق. وكانت تركيا فى حاجة إلى مساندة بريطانيا لها، فوافقه السلطان فى ٢١ مايو سنة ١٨٧٨ على إعطاء قبرص لبريطانيا ثمنا لحماية دولته فى المستقبل.

وكان حصول بريطانيا على قبرص يقلب التوازن الدولى فى البحر المتوسط ويدفع فرنسا وإيطاليا إلى المطالبة بتعويض.

وعلى أية حال ، فقد استعادت فرنسا مكانتها بسرعة بعد حرب السبعين ، وارتفعت الأصوات تنادى بضرورة استعادة الألزاس واللورين ، والانتقام من ألمانيا . ودعمت فرنسا علاقتها مع الروسيا ، مما جعل ألمانيا تخشى من امكانية حدوث حرب ضدها على جبهتين ، بعد أن خشيت من تكتل العناصر الكاثوليكية الألمانية مع فرنسا وتدخل بسمارك لإبعاد الروسيا عن فرنسا ، فى الوقت الذى وجه فيه انظار النمسا الى البلقان ، وفى الوقت الذى كان مستعدا فيه لكى يترك مصر لبريطانيا . أما فرنسا فإن بسمارك قد أشار عليها بالاتجاه صوب تونس ، خاصة وأنه كان يعتقد بانها ستجد فى اقاليم المغرب العربى وفى الاقاليم الشرقية من الدولة العثمانية ميدانا واسعا لنشاطها السياسى وعلى أى حال فان هذا العرض كان يعنى بذر بذور الشقاق بين فرنسا من جهة ، وانجلترا وايطاليا من جهة أخرى . وبعد تولى الحزب الجمهورى الحكم فى فرنسا ، اقترح على ألمانيا تدعيم علاقات السلم بين البلدين ، وغض النظر مؤقتا عن التحالف مع الروسيا ومع تعقد المسألة الشرقية ، اضطرت الروسيا الى أن تميل الى ألمانيا ، بعد أن

وجدت صعوبة اعتمادها على فرنسا ، وعداء انجلترا لأطماعها فى البلقان . وهكذا أصبحت ألمانيا فى مركز متفوق يؤثر على سياسة كل الدول الأوروبية ، وأصبحت السياسة التى تشير بها ألمانيا هى السياسة التى تبشر بالنجاح. وظهر أن ألمانيا تحاول تعويض فرنسا عن الألزاس واللورين ، وكانت سوريا وتونس أحسن تعويض لفرنسا فى هذا الميدان .

ويبدو أن انجلترا كانت مستعدة قبل مؤتمر برلين لكى تقبل اقتراح بسمارك وتحتل مصر ، وتترك فرنسا تعلن حمايتها على تونس . وكان فى وسع انجلترا أن تحصل على تعضيد فرنسا لسياستها فى المسألة الشرقية فى نظير اعطائهـا تونس ، وهكذا تجمعت لفرنسا عوامل قوية تسمح لها بزيادة نفوذها فى النيابة التونسية، وفى مقابل تحسن علاقاتها مع ألمانيا وانجلترا، وموافقتها على عدم التحالف مع الروسيا ، واتخاذ الجانب الغربى وجهة النظر البريطانية فى المضايق وقبرص وشرق البحر المتوسط .

وقد انعقد مؤتمر برلين فى عام ١٨٧٨، وقبلت فرنسا المشاركة فيه، وكانت فرنسا ترغب فى المحافظة على السلام العالمى ، فدخلت المؤتمر على أساس المحافظة على الاوضاع القائمة ، وخاصة فى البحر المتوسط . ولكن الاتفـاق الانجليزى التركى بشأن قبرص أثر على التوازن الدولى فى هذا البحر. وكانت فرنسا تأمل فى أن ينجح مؤتمر برلين ، الا أنه عندما سمع مندوب فرنسا فى المؤتمر باتفاقية قبرص السرية ، اعتبر انها إذلال جديد لفرنسا ولنفوذها فى البحر المتوسط . ولما أظهر رغبته فى الانسحاب من المؤتمر ، كان الانجليز والالمان على استعداد لذلك، الا أن الانجليز أفهموه رغبتهم فى اطلاق يد فرنسا فى تونس ، وانهم لن يغـيروا الوضع القائم فى الشرق الادنى دون موافقـة فرنسا . وقد وافق بسمارك تمـام الموافقة على ذلك . لم تكن فرنسا فى ذلك الوقت ترغب فى الحرب مع ايطاليا، الا أنها كانت ترى ضرورة وضع يدهـا على تونس ، حتى تعمـل على تأمين

مستعمراتها المغربية . كما كان اشتراك انجلترا وألمانيا فى تقديم هذه الهبه يقلل من أهمية معارضة ايطاليا للاستيلاء الفرنسى على تونس .

على أية حال ، رحبت فرنسا بقبول المنحة التى منحت إياها فى مؤتمر برلين، خاصة وأن ذلك سيؤدى - من وجهة النظر الفرنسية - إلى إعادة التوازن إلى البحر المتوسط ، بعد أن كان قد اختل باتفاقية قبرص السرية ، كما أن الرأى العام الفرنسى كان قد بدأ فى الاستعداد للحصول على تعويض ، نظير احتلال انجلترا لقبرص . ووجدت فرنسا أنه يمكنها الحصول على موارد جديدة وميدان لنشاطها وعظمتها فى تونس .

ولم تكن فرنسا فى ذلك الوقت ترغب فى الحصول على مستعمرات لتصريف الزائد عن حاجتها من السكان ، ولكنها كانت تحتاج إلى أسواق خارجية، ومناطق لإنتاج المواد الاولية والمواد الغذائية ، وكان أسطولها يحتاج إلى قواعد بحرية، ويمكنها أن تجدها على سواحل تونس ، ورغم ذلك فإن فرنسا لم تكن مستعدة للإسراع فى تنفيذ هذه الخطة ، خاصة وأن الآراء قد انتشرت بأن التضحية بأى جنود جدد خارج حدود فرنسا، يعتبر إهانة لأرواح القتلى فى معارك سنة ١٨٧٠ ، والتى لم تتمكن فرنسا من الانتقام لدمائهم ، وللاراضى التى فقدتها فى الشرق .

وكان غموض وجهة النظر الألمانية لا يشجع فرنسا على السير فى سياسة جريئة ، خاصة وأن فرنسا كانت لا تعلم إن كان بسمارك يحاول خلق مشكلة بينها وبين إيطاليا ، أو يحاول توجيه أنظارها بعيدة عن الالزاس واللورين . وكانت فرنسا تعلم أن إيطاليا ستثور من استيلائها على تونس ، فأدى كل ذلك إلى تردد فرنسا فى اتخاذ موقف محدد من هذه المسألة .

وعلى أيه حال ، فإن فرنسا اتصلت بعد مؤتمر برلين بقنصلها العام فى تونس، وطلبت منه استشارة وزارة الخارجية حول بعض النقط، فهل يمكن للباى أن يوقع على معاهدة تحالف مع فرنسا ، يعترف فيها بالحماية ، ويسمح لجنودها باحتلال

بعض المواقع وخاصة بنزرت ، وفى حالة الرفض ، فما هى المقاومه التى يمكن للباى أن يقوم بها ، وكم من الجنود تكفيه لتنفيذ أغراض فرنسا ، وهل هناك أى خطر من احتلال ايطاليا لطرابلس ، وقد وصلت آراء القنصل العام الفرنسى فى تونس شارحة أن الباى قد يقبل الحماية الفرنسية ليأسه من الحالة المالية ، وأن مقاومته لن تكون شديدة . وأن المقاومة الوحيدة ستكون من جانب القبائل فى الداخل وعلى الحدود . ووصل هذا التقرير المتفائل إلى فرنسا فى الوقت الذى قابلت فيه انجلترا اتفاقية قبرص مقابلة حماسية ، والذى أعلن فيه الانجليز حسن العلاقات الانجليزية الفرنسية . وحاولت فرنسا أن تستفيد من هذه الصفقة ، على وعد من انجلترا ، وبشكل رسمى وكتابى بشأن تونس ، فشرحت المحادثات الخاصة التى جرت بين المندوبين فى مؤتمر برلين ، وأشارت إلى تونس،ومقاصد بريطانيا حيال مسألتها ،والى أن الممثلين البريطانيين قد أدلوا بتصريحات شفهية من الواجب تسجيلها بوضوح وإيجاز فى صيغة مكتوبة ، حتى لا تتعثر العلاقة بين البلدين .

إلا أن انجلترا كانت عاجزة عن إعطاء أى شىء لا تمتلكه ، كما أن سالسبورى أشار إلى بعض تفصيلات محادثاته فى برلين بشأن تونس ، وأجاب رسميا على طلب فرنسا ، ولكنه راوغ فى نفس الوقت فى إعطاء الوقت الرسمى ، بعدم الاعتراض على فرنسا هناك ، وعمل على فرنسا أن تعمل على حل مسألة تونس مع إيطاليا ، دون أن تنتظر مساعدة انجلترا . أو تدخلها فى جانبها .

وقد انتشرت الأخبار حول اتفاق انجليزى فرنسى ، واستفهم القنصل العام البريطانى فى تونس من حكومته ، واستلم ردا بأن انجلترا لم تمنح تونس لفرنسا، وكان هذا صحيحا من الناحية الدبلوماسية ، رغم أن حكومته لم تحطه علما بما حدث بالفعل . فتشجع القنصل البريطانى ، وترجم برقية وزيره إلى اللغة العربية،وزاد عليها عبارات منمقة وبعيدة عن الواقع ، ونشرها فى الجريدة العربية فى تونس، ذاكرا أن الوزير البريطانى يعترف بالسيادة العثمانية على الولاية ، ويؤيدها ،

وأن مثل هذه الشائعات عن الحماية لاتستند على أى أساس ، وسلم خطابا شخصيا للباى أكد فيه المصالح التى تراها الحكومة البريطانية فى رفاهيته وحسن إدارته للولاية » . وذكر الباى أن حكومته قد كلفته بأن ينفى عن ذهنه أى فكرة عن الاعتداء الفرنسى أو الايطالى على بلاده . ولم تحتمل فرنسا كل ذلك ، فشرحت للندن موقف القنصل البريطانى المداثى تجاهها . ويبدو أن القنصل لم تكن لديه تعليمات تفصيلية عن العلاقة بين فرنسا وانجلترا ، ولكن فرنسا أصرت على أن أقل عمل لإرضائها هو سحب ذلك القنصل . ولم تكن انجلترا راغبة فى سحب قنصلها الذى كان قد خدم الإمبراطورية لفترة طويلة ، كما أنها لم تكن تهتم كثيرا بصداقة فرنسا . وكانت ترى وجوب اطلاق يد انجلترا فى مصر نظير إطلاق يد فرنسا فى تونس . فاضطرت فرنسا أمام ذلك إلى أن تتجه صوب ألمانيا فى مسألة تونس. وكانت ألمانيا تخشى من أن تتجه فرنسا صوب الروسيا ، فأعلنت أنها مستعدة لمساعدة الجمهورية الفرنسية ، إذا ما سارت باعتدال ، وأنها تعضد الاتجاه الفرنسى الذى يتخذ البحر المتوسط مجالا طبيعيا للتوسع . وبعد أن حصلت فرنسا على هذا التأييد ، اتجهت ثانية صوب لندن ، وطلبت منها سحب قنصلها فى تونس ، بعدما حدث فى تلك الأزمة ، وأشارت إلى أنها قد سحبت البارون دى ميشيل قنصلها فى مصر لأنه لم يكن منسجما مع القنصل البريطانى هناك . ورأت بريطانيا أخيرا أن العلاقات بين الدولتين أهم من شخصية أحد القناصل ، كما خشيت بدورها من إمكانية التقارب بين فرنسا وروسيا ، فقررت انجلترا إجابة طلب فرنسا وأحالت قنصلها فى تونس الى المعاش ، وانتهت بذلك المناقشات بين انجلترا وفرنسا بالنسبة لهذه المسألة ، وبقى على فرنسا بعد ذلك أن تتغلب على معارضة إيطاليا .

كانت إيطاليا هى العقبة الوحيدة الباقية أمام الآمال الفرنسية للحصول على

تونس ، وقد فكرت فرنسا فى تحويل أنظار إيطاليا الى ولاية طرابلس الغرب ، وإن كانت هذه الولاية تعتبر جزءاً من الممالك العثمانية . وقد حاولت فرنسا توسيط بريطانيا لكى تتدخل لدى الباب العالى حتى يسمح بازدياد النفوذ الايطالى فى طرابس ، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، فاضطرت فرنسا الى أن تظهر لحكومة روما أنها لن تحتل تونس بسرعة ، وأنها لن تحتلها إلا بعد التفاهم مع ايطاليا ، ودرس مسألة التعويضات الناتجة عن ذلك . وفى نفس الوقت أوضحت حكومة باريس لحكومة روما أهمية تونس بالنسبة للجزائر ، وتصميم فرنسا على استخدام القوة أمام اعتداء أية دولة على تونس ، فظهر أن ايطاليا لن تتمكن من احتلال تونس دون المخاطرة بالصدام مع فرنسا .

وحينما أبرق القنصل الإيطالى فى تونس الى بلاده بأن فرنسا تحاول فرض حمايتها على النيابة فى سنة ١٨٧٩ ، ثارت ثائرة الرأى العام فى ايطاليا ، واضطرت الحكومة الألمانية الى أن تصرح بأن تونس تقع فى منطقة النفوذ الفرنسى ، وأنه يمكن لايطاليا أن تأخذ طرابلس كتعويض لها . على أية حال فقد ازداد التنافس بين فرنسا وايطاليا بشكل قد يؤدى إلى الصدام بينهما .

وقد بدأت عملية التصادم حينما طلبت احدى الشركات الفرنسية بناء ميناء حلق الوادى ، ورفض هذا الطلب ، كما تقدمت شركة ايطالية بطلب آخر لمد خط تلغرافى بين صقلية وتونس ، ولإقامة محطة تلغراف ايطالية فى عاصمة النيابة ، فاحتج القنصل الفرنسى على هذا المشروع ، مستندا الى أن الاتفاقيات التلغرافية الثلاث السابقة مع تونس قد أعطت لفرنسا احتكار الخطوط التلغرافية فى الاقليم ، وحينما عارضت ايطاليا ، قامت فرنسا بتحذيرها من أنها لن تسمح بتدخل أى فرد فى اتفاقيات وقعت بينها وبين الباى ، ولازالت سارية المفعول .

ثم جاءت عملية مد الخط الحديدى الى ميناء حلق الوادى . وكان هذا الخط

بين حق الوادى ومدينة تونس فى ملكية شركة انجليزية فقدت رؤوس أموالها، دون أن تحصل على ربح يذكر . وكان هذا الخط مهما لفرنسا ، إذ أنه سيعتبر مخرجا بحريا للسكك الحديدية فى كل تونس والجزائر . وشعرت ايطاليا كذلك بأهمية هذا الخط . وحاولت شراءه ،حتى تقاوم احتكار فرنسا الخطوط التلغرافية والتليفونية فى الولاية . فتقدمت شركة روباتينو للتفاوض مع الانجليز ، فاسرع الفرنسيون ، وزادوا على العروض الايطالية . ولم يكن فى وسع الشركة الايطالية وحدها أن تنافس الشركة الفرنسية التى نزلت مصممة على الحصول على هذا الخط، فحاولت الحكومة الايطالية نفسها أن تتدخل لتعضيد شركة روباتينو ، وأعلن القنصل الايطالى ضرورة تصديق لندن على العقد الاصلى ، إلا أن لندن صممت على استخدام المزاد العلنى وسيلة للبيع ، فوافقت حكومتا باريس وروما على ترك الشركتين تتنافسان ، وحصلت الشركة الايطالية على الخط ، ثم فضحتها الحكومة الفرنسية ، بأن حكومة روما قد عضدتها ، ووعدتها بربح ثابت على رأس المال المدفوع ، . وإذا كانت ايطاليا قد نظرت الى هذه العملية وكأنها انتصار لها فى تونس ، فإن فرنسا قد عدها الاستياء والاستنكار ، واعتبرتها عملا هجوميا ضدها، وقامت بالفعل بحشد بعض القوات على الحدود التونسية ، وأرسلت بعض القطع البحرية إلى حلق الوادى ، وطلبت إلى الباى أن يمنحها امتيازات لإنشاء السكك الحديدية من تونس إلى بنزرت والى سوسة ، وأن يسمح لإحدى الشركات الفرنسية ببناء ميناء على بحيرة تونس ، وأن يعد بعدم منح أى امتياز لمد الخطوط الحديدية فى بلاده للايطاليين . ووافق الباى على هذه الشروط بدون أدنى معارضة. وهكذا أصبحت الظروف ممهدة أمام فرنسا لضم تونس ، ولكن كان أمامها بعض العقبات الاخيرة قبل هذا الضم ، وتمثلت هذه العقبات فى ايطاليا وحركة الجامعة الاسلامية ، وموقف بريطانيا ومصالحها فى تونس .

أما بالنسبة لايطاليا ، فقد خشيت فرنسا من أن تستمر ايطاليا تعتبر تونس ميدانا كافيا لنشاط الايطاليين والفرنسيين فى نفس الوقت . وخشيت فرنسا من أن تحاول ايطاليا خلق مشكلة تونسية ، وخاصة عندما زار ملك ايطاليا صقلية، وبعد أن شرح للسفير الفرنسى أنه يفكر فى تونس ، وقامت الجالية الايطالية ، فى تونس بالمظاهرات ، وأرسلت وفدا خاصا برئاسة القنصل الايطالى ، لتقديم فروض الولاء للملك ، وألقيت الخطب التى تردد فيها ذكر قرطاجنة وروما ، وضرورة عودة مجد الأسلاف ، وشاعت الشائعات بأن ايطاليا ستدافع عن كيان تونس ، وأنها حشدت قواتها على الحدود الفرنسية .

وكان البرلمان الايطالى لايخفى عداوته تجاه الأطماع الايطالية فى تونس ، وكانت فرنسا لاتعلم تماما طبيعة العلاقات الايطالية الانجليزية، وامكانية تعضيد بريطانيا لايطاليا فى البحر المتوسط . فوجدت فرنسا أن فرصتها للحصول على تونس تتأخر يوم بعد يوم ، وأن الوقت قد أزف لاتخاذ سياسة نشيطة قبل أن يتغير الموقف ، خاصة وأن الاشاعات قد انتشرت عن بدء مفاوضات بين ايطاليا وألمانيا . وكانت فرنسا محتاجة لتأييد ألمانيا لها فى مشروعها التونسى ، حتى تبطل أهمية التقارب الايطالى الانجليزى .

وأما بالنسبة للجامعة الاسلامية ، فقد نظرت اليها كل أوربا على أنها حركة خطيرة ومهددة للمصالح الأوربية . والواقع أن الجامعة الاسلامية لم تكن تعتمد على أسس عنصرية أو لغوية ، ولم تكن واضحة الأهداف . وعلى أية حال ، فقد كان الهدف الرئيسى والواضح لهذه الحركة هو التخلص من تسلط الدول الغربية على البلاد الإسلامية ، وكانت تعتمد على الدين ، والشعور بالمهانة تحت حكم الغرب، وقد اعتمدت هذه الحركة على نشاط السيد جمال الدين الأفغانى فى ايران والهند ومصر وتركيا ، ونادت بضرورة الوصول الى التحرر الديـــنى ، كخطوة أولى

تؤدى الى التحرر الفكرى . وسار من بعده الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على نفس الطريق ، وحاول أن يفهم الاسلام فى ضوء الحضارة الحديثة . وكان السلطان عبد الحميد هو القوة المحركة لهذه الحركة الضخمة ، وخاصة بعد إذلال أوربا لامبراطوريته فى مؤتمر برلين . ورأى السلطان أنه يمكنه الاعتماد على الدول الاسلامية ، خاصة وأن دولته قد فقدت معظم أملاكها المسيحية ، ووجد هذا الاتجاه تجاوبا من الدول الاسلامية التى كانت تخشى من الأطماع الاستعمارية الغربية أكثر مما تخشاه من الدولة العثمانية دولة الخلافة الاسلامية ، وكان الانهيار الاقتصادى والمالى الذى انتشر فى الشرق الادنى وبلاد المغرب ، ووضع مالية هذه الأقاليم تحت اشراف ومراقبة الدول الأوربية ، يساعد على تقرب أبناء الأقاليم الى الدولة العثمانية ، للتخلص من هذا النفوذ الجديد . وكان الحكم البريطانى فى الهند ، وتحكم الفرنسيين فى الجزائر ، وحكم الروسيا لاواسط آسيا ، والأخطار التى تهدد الفرس وبلاد العرب ونيابات المغرب ، من العوامل التى دفعت بالمسلمين الى الالتفاف حول الدولة العثمانية . وكان السلطان الخليفة هو صاحب أقوى الجيوش فى العالم الاسلامى ، وكان له من الأسباب ما يسمح له بتولى مثل هذه الزعامة . ورأى السلطان عبد الحميد أنه يمكنه أن يعيد مجد الخلافة الاسلامية التى فقدت قواتها ، وينشىء دولة إسلامية عظمى ، تضم المسلمين المنتشرين من الصين إلى المحيط الأطلسى . فعمل على احياء التقاليد الاسلامية ، وأرسل المبعوثين الى أنحاء العالم الاسلامى ، وأصبحت القسطنطينية مكان التقاء كل المسلمين .

وقد خشيت فرنسا من أن تعمل الجامعة الاسلامية على تغيير توازن القوى فى البحر المتوسط ، وتمد نفوذ السلطان إلى المغرب الكبير ، وزادت خشية فرنسا حينما شعرت بنداءات السلطان لأهالى تونس ، ومفاوضته مع بعض القبائل الجزائرية ، وارساله لبعثة تحمل الهدايا إلى المغرب الأقصى . واعتمد السلطان

على الاخوان السنوسيين ، وغيرهم من رجال الطرق الاسلامية ، لنشر الشعور بعدم الرضا أمام توغل النفوذ الأوربى عامة ، والفرنسى خاصة فى كل أقاليم شمال أفريقية . وإذا كانت فرنسا قد حاولت أن تقسم الجزائريين إلى عرب وبربر ، فأن حركة الجامعة الإسلامية على عملت على التوحيد بينهم ، وبشكل يهددها فى الجزائر نفسها ، ويهدد بالتالى أى توسع فرنسى من الجزائر فى تونس .

وكانت تونس مركزا ممتازا لحركة الجامعة الاسلامية ، ولنشر دعايتها ضد الاستعمار ، مادامت فى موقع متوسط من أقاليم المغرب الكبير ، ونظرت فرنسا إلى تونس على أنها منطقة مؤامرات ضد النفوذ الفرنسى فى كل شمال أفريقية ، كما نظرت إلى اختيار السلطان عبد الحميد لخير الدين باشا صدرا أعظم ، على أنه محاولة لزيادة السلطة المباشرة للدولة العثمانية على تونس .

وقد حاولت فرنسا أن تستخدم الباى فى الوصول إلى أهدافها،دون الالتجاء للقوة العسكرية ، التى قد تغير المشكلات أمامها ، فحاولت أن تبين له المزايا التى تحصل عليها تونس من الموافقة على وضع نفسها تحت الحماية الفرنسية،وأن تشرح له خطر الأطماع التركية على عرشه وعلى حياته ، وأنه لايمكنه أن يعتمد بعد ذلك على التوازن بين النفوذ الفرنسى والايطالى ، وأنه يتحتم عليه السير فى الطريق الوحيد ، ويبقى مواليا لفرنسا ، ويوقع معها على معاهدة تضمن استقلاله وأمنه شخصيا وسلامة ممتلكاته ، وذلك قبل أن تتطور الأمور ، وبشكل قد يجبر فرنسا على التدخل بالقوة لحماية مصالحها ، ودون أن تهتم بحقوقه الشخصية .

لقد حاولت فرنسا أن تصل إلى الحماية على تونس عن طريق المفاوضة مع الباى ، ولكنها وجدت أن الباى لايمكنه قبول الحماية عن طريق المفاوضة فقط ، وأنه من اللازم استخدام القوة معه .

أما الخطر الثالث ، فكان النفوذ الانجليزى ، والمعارضة البريطانية لامتداد

الحكم الفرنسى على تونس . ولقد وضح ظهور هذا العامل فى مسألة الانفيدا ، وموقف انجلترا منها . وكانت الانفيدا مزرعة كبيرة ، تبلغ مساحتها ٦٦ ألف هكتار من أجود الأراضى التونسية ، وكان الباى قد منحها لخير الدين باشا حينما كان فى حاشيته ، ولما عزم على السفر إلى القسطنطينية ، قرر بيعها لإحدى الشركات فى مرسيليا، فعارض الباى فى هذا البيع دون جدوى، وتدخلت الحكومة الفرنسية فى صف الشركة . وسجلت عقد البيع فى القنصلية الفرنسية ، وأعطت الشركة كل تأييد سياسى ممكن ، ودفعت حكومة الباى أحد اليهود ، وكان يمتلك مزرعة مجاورة للانفيدا ، لكى يطالب باستخدام حق الشفعة فى الاستيلاء على هذه المزرعة . وبمساعدة القنصلية الانجليزية وتقدم هذا اليهودى بالاحتجاج لدى السلطات القنصلية البريطانية ، ولدى حكومة الباى ، حينما جاءت الشركة الفرنسية للاستيلاء على المزرعة ، واعتبرت فرنسا هذا اليهودى ألعوبة فى يد الباى ، وأنه لايملك ما يسمح له بشراء مثل هذه المزرعة ، وبدأت المسألة تأخذ شكل مشكلة سياسية.

ولم تكن فرنسا تتوقع أن ترسل انجلترا بارجة حربية إلى مياه تونس ، لابطال عمل البارجة الفرنسية التى كانت قد أرسلتها هناك .

وشرح الانجليز أن احتلال تونس سيتبعه إثارة الأطماع الانجليزية فى مصر ، ولكن فرنسا كانت ترى أن تونس قد أصبحت من حقها ، وأنها لم تعارض انجلترا فى احتلال جبل طارق أو مالطة أو حتى قبرص ، وأنه ليس من حق انجلترا بعد ذلك أن تظهر وكأنها غير راضية عن احتلال فرنسا لتونس ، وخشيت فرنسا من أن تؤدى هذه المعارضة البريطانية إلى تقوية مركز إيطاليا فى تونس ، وربطت بين المسألة التونسية ومسألة الانفيدا ، فظهر اتجاه فى لندن للتخلى عن مؤازرة هذا اليهودى ، ولنفض انجلترا ليديها من المسألة .

وكانت هذه الأخطاء الثلاث ، والتى تتمثل فى الخوف من إيطاليا ، وخطر الجامعة الإسلامية ، وتدخل انجلترا فى مسألة الانفيدا ، تدفع فرنسا إلى اتخاذ سياسة جريئة ، وكان تأييد ألمانيا لفرنسا أدبيا يبطل خوف فرنسا من إيطاليا ومن انجلترا ، فصممت على عدم إضاعة الفرصة من أيديها .

وقد قامت فرنسا بالاستعداد العسكرى على الحدود التونسية حتى تضمن عدم وقوف الباى موقفا عدائيا تجاهها فى الأشهر الاخيرة من سنة ١٨٨٠ . وصدرت الاوامر إلى الحاكم العام فى الجزائر بالإسراع فى مد الخط الحديدى الذى يصل الجزائر بتونس ، حتى يسهل نقل الجنود ، وأخذت الصحافة الفرنسية تنشر المقالات عن الأخطار التى تحيط بمركز فرنسا فى الجزائر ، واستعد الرأى العام لإعلان تفوق النفوذ الفرنسى فى تونس بشكل واضح . واستخدمت فرنسا الدبلوماسية ، وأشارت على إيطاليا بضرورة توجيه أنظارها إلى طرابلس ، واستخدمت الضغط لإفهام إيطاليا أنها ستوقف القروض والمعونات إليها ، إذا لم تتراجع عن مناورة فرنسا فى شمال أفريقية ، وذكرت فرنسا بريطانيا بتصريحاتها الشفوية فى برلين والكتابية بعد ذلك والمتعلقة بتونس ، وأفهمتها أن موقفها فى الجزائر يشبه موقف بريطانيا فى الهند ، وأنه لا يمكن لأى دولة منها أن تسمح بوقوع الاضطرابات على حدودها . وكانت فرنسا مستعدة لعقد اتفاقيات مع انجلترا حتى لا تقوم هذه الدولة بوضع العراقيل فى طريقها ، وبعد أن كانت فرنسا تعتبر أن مصالحها فى مصر تعادل مصالح انجلترا فيها ، اعترفت بتفوق المصالح البريطانية فى وادى النيل وعلى قناة السويس ، وأن هذه المصالح أكثر من مصالح أى دولة أخرى ، ولكن على أساس اعتراف انجلترا بأن المصالح الفرنسية فى تونس أكثر من مصالح أى دولة أخرى فى هذا الاقليم كذلك ، وهدأ بال

فرنسا حينما علمت أن بريطانيا لا تنظر بعين الرضا لضم فرنسا لتونس ، ولكنها في نفس الوقت لن تقف موقفا معارضا لذلك .

واستندت فرنسا إلى مبررات اختلقتها لإتمام عمليتها، فذكرت أن الحالة على الحدود التونسية الجزائرية غير محتملة ، وأن الجرائم والاعتداءات ترتكب كل يوم ، مما يزيد الأعباء على كاهل السلطات الفرنسية في الجزائر . وادعت فرنسا أن اعتداء القبائل التونسية على الحدود لا تتوقف ، وأن هذه القبائل لا تخضع لعاصمة تونس إلا خضوعا إسميا ؛ وجاءت فكرة تأديب قبائل الحدود .ذرائع مناسبة لعملية البدء في الحملة ، واحتلال فرنسا لتونس .

ولم تعلن فرنسا نياتها الحقيقية ، لإعلان حمايتها على تونس،إلا لألمانياوالنمسا، ولكن فرنسا فضلت أن تطلب معاونة الباى لها ، في عملية غزو وتهدئة الحدود التونسية الجزائرية ، وذلك نظير إعطائه الضمانات والتأكيدات من صداقتها واحترامها لشخصه وامتيازاته . ويمكن لفرنسا بهذه الطريقة أن تضحى بأقل ما يمكن التضحية به من الرجال والأموال.

وجابهت فرنسا مشكلة تنظيم الحملة ، وكانت تفتقر إلى جيش مستعمرات . كما كان الاعتماد على الجنود الجزائريين أمرا غير مضمون ، نظرا لموقفهم من مشكلتهم الوطنية في الجزائر نفسها ، فأصبح على فرنسا أن تعتمد على قوات فرنسية ، أو فرنسية في غالبيتها للقيام بهذه العملية وكانت هناك صعوبات تتعلق بالتعبئة وإعلانها في فرنسا ، خاصة وأن هذه العملية كانت تتطلب موافقة البرلمان . وأيدت السلطات العسكرية الفرنسية فكرة التعبئة الجزئية ، وعلى أساس جمع الجنود من كل أنحاء فرنسا والجزائر، ومن الفرق التي خدم قادتها في شمال أفريقية، فبلغت القوة المعدة للغزو ١٧ ألف جندي . وأعلنت الحكومة أن هدف هذه الحملة

هو تأديب القبائل التى تسكن منطقة الحدود مع الجزائر ، وأن شهرا واحدا يكفى لإنهاء هذه العمليات .

وقبل أن يبدأ الفرنسيون أعمالهم العسكرية ، أحاطوا الباى علما بتصميمهم على عبور الحدود ، وطلبوا منه أن يعاون الجنود الفرنسيين على أداء واجبهم، ولكن الباى رفض هذا الطلب ، وشرح أنه يمكنه بمفرده أن يحافظ على النظام وأن التدخل الاجنبى سيثير عداء الوطنيين ومقاومتهم ، وحمل الباى الفرنسيين التبعات التى ستنتج عن عملياتهم .

ولم يكن فى وسع الباى إلا أن يحتج على الاعتداءات الموجهة ضد حقوقه ، وضد القانون الدولى وكانت فرنسا تعلم أنه سيتجنب أى صدام عسكرى معها، ولذلك فان استجداء الباى لم يجد أذنا صاغية فى فرنسا ، وانتهز القنصل العام الفرنسى فى تونس الفرصة ، لكى يشرح للباى محمد الصادق أن فرنسا مستعدة لإنزال جنود من البحر للعمل على المحافظة على الأمن والنظام فى العاصمة . ولما رفض الباى الاستماع إلى هذا الاقتراح ، أعلنت الحكومة الفرنسية أنها ستعتبره مسئولا مع رئيس وزرائه عن أى مقاومة تحدث .

وكانت القوات الفرنسية مستعدة على الحدود ، وعبرتها فى يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٨١ دون أن تلقى مقاومة تذكر ، واحتج الباى على أعمال فرنسا ، ولكن أحدا لم يستمع إليه . وظل الباى يرفض فكرة الحماية ، وكان يأمل فى تدخل الدول الاوربية إلى جانبه ، ويأمل كذلك فى أن يفى الباب العالى بوعده بارسال الأسطول العثمانى إلى حلق الوادى .

وكان الفرنسيون يعتقدون أن أعمال الحملة فى منطقة الحدود مع الجزائر ستكفى لإخافة الباى ، ولكنهم شعروا بأن الباى لا يوافق على الحماية ، فأرسلت فرنسا حملة ثانية إلى بنزرت فى أول مايو . احتلت المدينة ، وزحفت منها صوب

العاصمة . وفى ذلك الوقت طلب الباى توسط الدول بينه وبين فرنسا . ولكن الدول لم تستجب لندائه ، كما أن الامدادات لم تصل من الدولة العثمانية ، واستمر زحف القوات الفرنسية حتى وصلت فى يوم ١٢ مايو إلى مشارق مدينة تونس . وانتهى استقلال تونس الفعلى ، فى الساعة الثامنة من يوم ١٢ مايو ١٨٨١ بالتوقيع على معاهدة قصر البارود التى وضعت العلاقات الفرنسية التونسية على أسس جديدة أرضت فرنسا ، التى قررت إحاطة الباى بكل مظاهر الاحترام ، فى نفس الوقت الذى جردته فيه من سلطته الفعلية ، كما حاز القنصل العام الفرنسى على لقب المقيم العام فى تونس ، وأصبح يتمتع بكل سلطة حقيقية فى البلاد .

وقد عجزت فرنسا بعد التوقيع على المعاهدة عن وقف العمليات الحربية فى تونس ، وظهر أن القبائل فى شرق الولاية وجنوبها كانوا معادين للطريقة التى سلم بها الباى لمطالب الفرنسيين . وارتفعت درجة الحماسة والمطالبة بالبذل والتضحية بين التونسيين ، وحينما عادت معظم القوات الفرنسية إلى الجزائر وفرنسا شبت الثورة فى شرق البلاد وجنوبها بقيادة على بن خليفة فى شهر يونيو . وأعلن الفرنسيون استعدادهم لمعاونة الباى على إخماد الثورة ، ولكن معظم جنود الباى فروا من الصفوف ، وظهر العلم النبوى الأخضر فى كل مكان ، وأعلن المسلمون الجهاد ضد الفرنسيين ، وتمكن الثوار من قطع المواصلات ، فساد الخوف فى العاصمة ، خاصة وأن أبى أميمة كان يهدد بثورة عاتية فى الجزائر ، وامتلأت تونس بكثير من الفرسان العرب والبربر ، ومن كل الاقاليم المجاورة .

وبعد أن كانت فرنسا تفكر فى أنه يكفى لجيش صغير أن يعمل على استتباب الأحوال فى تونس ، وجدت أنها تواجه مشكلات غزو تونس كلها ، وكان ذلك يتطلب تعاون الأسطول مع الجيش ، وكونت فرنسا قوة حربية جديدة بلغت ٤٥ ألف جندى ، وضرب أسطولها قابس وسفاقص ثم احتلت تونس والتقط

الاستراتيجيه الهامة قبل أن ترحف على القيروان مركز الثـــورة ، وقد أظهر التونسيون شجاعة فائقة فى كفاحهم ضد الفرنسيين ، ولكن هذه الشجاعة لم تكن تجدى أمام وسائل الحرب الحديثة ، وانتهت الثورة فى أكتوبر .

أما من ناحية موقف الدول من الاحتلال الفرنسى لتونس، فنجد أن انجلترا وقفت على الحياد تجاه العمليات الفرنسية فى تونس ، ولكن هذا الحياد لم يكن كاملا،فقد ظهر النقد ضدها فى البرلمان والصحافة . أما إيطاليا ، فأنها ثارت عندما علمت بالحملة الفرنسية على تونس ، وانزعجت الوزارة الإيطالية ، واتهم حزب اليمين الوزارة بقصر النظر ، كما هاجمت الصحف الحكومة وطالبت بسقوطهـا ، ولكن فشل عملية تأليف وزارة جديدة اضطر الوزارة السابقة إلى البقاء فى الحكم. وساد شعور بأن إيطاليا قد أصبحت وحيدة فى القارة ، كما شعرت بالغبن حينما أصبحت فرنسا جارة جنوبية لها ، وفى موقع يهدد صقلية وجنوب إيطاليـا . ورفض القنصل الايطالى معاملة روستان بصفته مقيما عاما ، وحاول الاتصـال بالباى رأسا ، ووصل الأمر إلى وقوع مصادمات بين العمال الإيطاليين والفرنسيين فى مرسيليا .

أما تركيا ، فانها كانت غارقة فى مشكلاتها، مما منعها من وقف الغزو الفرنسى لتونس ، ولكنها أمرت الباى بأن يخمد الثورة حتى يقضى على كل سبب التدخل الفرنسى فى إقليمه ، ولقد احتج السفير التركى فى باريس على الحمـاية ، وطلب التفاوض مع فرنسا أو التوسط بينها وبين الباى ، إلا أن فرنسا رفضـت كل تدخل تركى فى المسألة . وكانت صدمة عنيفة للسلطان ، حين رأى أحد الأقاليم الاسلامية قد أقتطع وخضع لاستعمار دولة أوربية . وقد فكر بعض الوزراء فى ضرورة إرسال الأسطول إلى تونس ، إلا أن فرنسا أعلنت أن هذه العملية ستعتبر اعلان حرب عليها . ولقد ظل السلطان عبد الحميد يعتقد فى قوات الجامعة الاسلامية

وفى إمكانية اتخاذ طرابلس مركزا لما يناوىء منه الحكم الفرنسى فى كل أقاليم المغرب ، وحينما قامت الثورة فى جنوب تونس ، حاولت بعض العناصر العثمانية التدخل فيها من طرابلس ، ولكن فرنسا حذرت تركيا من اى تدخل ، وحتى من زيادة عدد حامياتها فى طرابلس بدعوى العمل على استتباب الأمن والنظام . وعلى أية حال ، فإن تركيا كانت فى حاجة إلى أن تعمل مع الدول الاوربية لا ضدها ، مادامت أحوالها المالية والاقتصادية والعسكرية تحتاج إلى كل معونة ، وإلى كل تعاون مع الغرب ، مع ما فى ذلك من تناقض واضح .

وكانت ألمانيا هى أول من اعترفت بسلطة فرنسا فى تونس ، ووقفت من فرنسا موقف التأييد فى هذه المسألة ، وبشكل جعلها لاتأبه بنقد ومعارضة إيطاليا .

وعلى أية حال ، فإن ردود الفعل الخاصة باحتلال الفرنسيين لتونس ، ولوضعها تحت حمايتهم لم يؤثر تأثيرا إيجابيا فى هذا الاحتلال وفى هذه الحماية ، بل قامت فرنسا رغم ذلك بتدعيم مراكزها فى الولاية ، وتدعيم نظام الحماية فيها تمهيدا للبدء فى عملية الاستغلال المنظم .

وقد اختارت فرنسا لتوسعها الاستعمارى فى تونس نظام « الحماية » حتى لا تثير احتجاج الدول الاوربية نتيجة لتغييرها الأوضاع الدولية فى ذلك الإقليم ، وحتى تموه على أبناء تونس بأنها لم تقدم على ضم بلدهم أو النزول به إلى مستوى المستعمرات ، وحتى تحمل الجانب الوطنى نفقات قوات الاحتلال ، ونفقات الإصلاحات التى تشير بها ، وحتى تظهر أمام المعارضة الفرنسية نفسها بأنها قد نزلت إلى عملية تضمن لها المكاسب المادية والعسكرية والمعنوية ، دون أن تكلفها الأموال والتضحيات . ولقد تأثرت فرنسا فى ذلك بتطور الحكم البريطانى فيما وراء البحار ، وضمنت بهذا النظام الحصول على كل امتيازات الدولة المستعمرة ،

وسيطرت على الامكانيات المادية والبشرية والاستراتيجية وكأنها تتساوون مع السلطات الوطنية فى ذلك .

ورغم أن معاهدة الحماية تبدو وكأنها قد عقدت بين طرفين متساويين ، إلا أن الضغط العسكرى الذى صحب هذا التوقيع ، وسيطرة فرنسا وإشرافها على الشئون العسكرية و العلاقات الخارجية لنيابة تونس ، يظهر الأمر على حقيقته . ومعاهدة الباردو هى معاهدة صداقة وحسن جوار ، وظهرت وكأنها لاتمس تونس فى كرامتها وعزتها ، وإن كانت الخدعة فيها واضحة وفى كل نص ومادة من موادها .

وقد أصبح بول كامبون مقيما عاما فى تونس بعد روستان ، وتدخلت حكومة باريس فى ولاية الحكم عند موت محمد الصادق ، واختارت على باى ، أخا الصادق ، بايا على تونس ، وكان من أطوع البايات للسلطة الفرنسية ، كما أن فرنسا استندت إلى نشوب الثورة فى تونس ، لكى تعقد معها معاهدة جديدة فى سنة ١٨٨٣ هى معاهدة المرسى التى وسعت من سلطات الدولة الحامية ، فقدنصت المادة الأولى منها على تكفل الباى بادخال الاصلاحات الإدارية والقضائية والمالية التى ترى حكومة فرنسا فائدة إدخالها ، وذلك تسهيلا منه لها على إتمام حمايتها . أما المادة الثانية . فقد ضمنت فيها فرنسا قرضا يعقده الباى لتحويل أو لدفع الدين الموحد ، والبالغ ١٢٥ مليون فرنك ، والدين السائر الذى لا يزيد على ١٧٥ مليون فرنك ، ولكن على أساس اختيار فرنسا نفسها للوقت والشروط المناسبة لهذه العملية ، وتعهد الباى فى نفس المادة بأن لايقرض قرضا لحساب المملكة التونسية دون إذن سابق من الحكومة الفرنسية .

واستندت فرنسا إلى حق الباى فى التشريع ، وحقه فى التنازل عنه لمن يشاء ، لكى تسلبه إياه ، وتمنحه للمقيم العام الذى أخذ فى وضع المراسيم ، وتقديمها للباى

التوقيع عليها ، هذا بالنسبة للتونسيين ، أما بالنسبة للفرنسيين المقيمين فى تونس، فان مرسوم ١٨٨٤ احتفظ بحق إصدار التشريعات الخاصة بهم لحكومة باريس.

واستندت فرنسا إلى معاهدة المرسى لكى تتخلص من لجنة الدين والمراقبة الدولية بدعوى تعارضها مع اختصاصات فرنسا والتزاماتها فى هذه المعاهدة . كما أنها عملت على إلغاء القضاء القنصلى على مراحل حتى لا تصطدم بمعارضة الدول الأجنبية الأخرى. فأصدر الباى مرسوما يجيز تحول الأجانب المقيمين فى تونس إلى المحاكم التى أنشئت لتطبيق القوانين الفرنسية فى حالة عدم وجود قضاء قنصلى لهم ، وتمكنت فرنسا من إقناع بريطانيا بالتخلى عن بعض امتيازاتها . باعتبار أن رعاياها قد أصبحوا تحت إدارة فرنسية ، وتم ذلك فى أوائل عام ١٨٨٥ ، وتمكنت فرنسا مع الزمن من تقليل المعارضة الإيطالية لها ولنظام حمايتها فى تونس .

وكانت إيطاليا وتركيا هما الدولتان اللتان رفضتا الاعتراف بمركز فرنسا الممتاز فى تونس . وكانت الدولة العثمانية ضعيفة ، ولها مشكلاتها فى مصر مع بريطانيا ، وفى باقية بلدان المشرق العربى وفى البلقان ، فاضطرت فى سنة ١٨٨٨ إلى تحديد الحدود بين ولاية تونس وولاية طرابلس ، وبذلك اعترفت ـ ضمنا ـ بخروج تونس من بين أقاليمها وممالكها ، وإن كانت لم تتنازل رسميا عن سياستها على تونس إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

أما إيطاليا . فقد واصلت معارضتها لزيادة النفوذ الفرنسى فى تونس ، ومعارضتها لتغيير فرنسا للاوضاع الدولية والاقتصادية فى هذه الولاية حتى سنة ١٨٩٦ . إلا أن إيطاليا قامت بتجربتها الاستعمارية فى شرق أفريقية ، من البحر الأحمر وإرتريا صوب الحبشة ، وفى الصومال ، واستمرت فى معارضتها لفرنسا فى تونس حتى هزمت قواتها فى موقعة عدوة سنة ١٨٩٦ . وجاءت هذه

الصدمة النفسية والعسكرية لكى تزيد من حدة الأزمة الاقتصادية . فاضطرت إيطاليا لذلك تغيير سياستها مع فرنسا ، وأنهت الحرب الاقتصادية مع فرنسا ، وفتحت أمام سلعها أبواب الأسواق الفرنسية . واعترفت فرنسا بحق الإيطاليين فى بناء المدارس فى تونس والاحتفاظ بجنسيتهم ، ولكنها عملت من جانبها على فتح باب التجنس بالجنسية الفرنسية أمامهم .

ساعد نظام الحماية على سرعة وقوة عملية استغلال الفرنسيين لإمكانيات تونس ، خاصة وأنه قد جعل منهم رعايا الدولة المتفوقة فى البلاد ، وأعطاهم الحماية اللازمة للقيام بعملياتهم ، وعضدهم أمام أى منافسة يقوم بها أوربى آخر .

وكانت الثورة الصناعية قد قامت بدورها فى أوربا ، وساعدت الآلة على سرعة دورة رأس المال ، وبالتالى على سرعة وصول الأرباح وتكدسها فى أيدى رجال الأعمال ، مما دفع بهم إلى المغامرة فيما وراء البحار ، وخاصة المناطق القريبة من فرنسا أى فى شمال أفريقية ، فأصبح لهم السبق هناك على صغار المستغلين والمهاجرين والمستوطنين الفقراء . ولهذا فان عملية الاستغلال الاستعمارى الفرنسى لتونس ستظهر فى شكل شركات رأسمالية كبيرة تقوم باستغلال واستعمار مساحات واسعة من الأرض .

وقد تمكن الفرنسيون من الاستيلاء على مساحات واسعة من الارض ، وخاصة فى الوسط والجنوب ، وذلك لاستغلالها فى زراعة الزيتون ، وكذلك تمكنوا من استغلال الثروة المعدنية فى البلاد ، وخاصة بعد أن تمكنت سلطات الحماية من إعلان الأودية والغابات والمناجم ملكا للدولة التونسية تمنح حقوق استغلالها لمن تشاء ، ومهدت الحماية بذلك الطريق لمنح امتيازات استغلال الثروة المعدنية للفرنسيين ، مانعة بذلك الأجانب من النزول إلى هذا الميدان وواثقة من أن التونسيين لم يصلوا بعد الى المستوى اللازم لاستغلال الثروة المعدنية فى بلادهم.

وعملت فرنسا كذلك على اصدار التشريعات والقوانين اللازمة لرعاية مصالحها وازدياد تفوق نفوذها فى تونس ، وأعطت لنفسها ولوجودها ولعملية استغلالها لونا قانونيا يصعب الجدال فيه مادام قد صدر باسم الباى وبتوقيعه على المراسيم ،
واستمرت فرنسا فى عملية استغلالها لتونس ، كنتيجة حتمية لإعلان حمايتها عليها ، الى أن بدأت الحركات التحررية فى الظهور وعملت على تقوية المعسكر الوطنى ، والنزول به الى معركة ضد الاستعمار .

الفصل السابع

مصر والاحتلال البريطانى

تزايدت الأطماع الاستعمارية فى منطقة الشرق الأدنى بصفة عامة، وفى مصر بصفة خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ونتيجة لتحسين وسائل المواصلات واستخدام البخار ، عادت فكرة وصل البحرين المتوسط والاحمر إلى الظهور ، وكانت الفكرة فى حد ذاتها طموحة ولا غبار عليها ، تساعد على وصل الأسواق بالمصانع ، وتقرب بين الشعوب ، وتساعد على المزج بين الحضارات ، ولكن أخطارا عظيمة أطلت برأسها ، ذلك أن الدول الاستعمارية لم تكن لترضى بترك خطوط مواصلاتها تخضع لتصرف السفير . وكان من الطبيعى أن تتنافس هذه الدول على السيطرة على هذا الطريق المائى الهام ، وبالتالى على جزء من مصر أو على مصر كلها . والخطر الثانى هو تمويل مثل هذا المشروع وطريقة التعامل بين صاحب رأس المال وأبناء البلاد أو صاحب السلطة فيها ، حقيقة أن الأيدى العاملة كانت رخيصة فى مصر ، وخاصة فى ذلك الوقت ، وكان فى استطاعة الحاكم آنذاك أن يسخر العمال للعمل فى هذا المشروع ، ولكن النفقات الأخرى للإدارة، والإشراف الأوربى كانت باهظة . وهذان الخطران أهم من غيرهما ، يعرضان مصر من الناحية الاستراتيجية ومن الناحية الاقتصادية لصعوبات جمة قد لاتقوى البلاد على مواجهتها . وبرغم هذه الصعوبات ، وافق محمد سعيد على منح عقد امتياز حفر القناة لصديقه فرديناند ديلسبس ، وكان هذا الامتياز كريما سخيا على حساب المصريين ، ذلك لأنه منح الشركة الدولية للملاحة فى قناة السويس امتيازا لاستغلال منطقة القناة لمدة ٩٩ سنة مصحوبا بتسهيلات واسعة للعمل ،

وبشروط تجعل من هذه الشركة دولة داخل الدولة . ووضع محمدسعيدامكانيات مصر بأكلها تحت تصرف الشركة العالمية ، وأصبح على مصر أن تسخر أبناءهـا للعمل تحت سياط الأجانب بدون أجر وبدون قوت. وتعهدت الحكومة المصرية بحفر ترعة للماء العذب تصلها إلى منطقة القناة ، لكي تزودها بالمياه اللازمة للشرب، وتركت الحكومة للشركة الاستغلالية مساحة واسعة من الأراضى الزراعيـة على جانبي القناة ، والواقع أن هذه الشروط كانت مجحفة بحقوق البلاد .

منح والى مصر هذا الامتياز لصديقه الفرنسى ، فرأت بريطانيافيه خطريهدد مواصلاتها مع الهند ،لأن منح الامتياز لشركة دوليةواقعة تحت النفوذ الفرنسى، معناه أن الطريق الموصل بين الشرق والغرب قد وقع فى أيدى الفرنسيين ، وهذا ما لاترضاه بريطانيا أبدا . وبمعنى آخر فإنه مادامت فرنسا قد حصلت على الامتياز من الوالى فى الاسكندرية ، وكلمة هذا الوالى لاتتم دوليا إلا بموافقة الباب العالى فى القسطنطينية ، فإن بريطانيا تذهب رأسا إلى الصدر الأعظم والسلطان ، ومن الطبيعى أن تستند بريطانيا فى معارضتها للمشروع إلى كل الأسباب المنطقية والإنسانية والقانونية والدولية والاقتصادية التى تفيدها فى هـذا الموقف . فهى التى تثير مشكلة السخرة فى حفر القناة، وتثير مشكلة رؤوس الأموال والاكتتاب فيها ، وتثير مشكلة النفوذ السياسى لفرنسا . والسلطان ضعيف يحكم امبراطورية مشتتة الأرجاء ، مليئة بالطوائف والملل ، ولقـد رحب السلطان بالتدخل البريطانى ، ووجد فيه عاملا يستند إليه التعديل فى شروط الامتياز ، أو لتأخير إصدار موافقته عليه ، ولكن قوة السلطان لم تـكن بأقوى من الضغط الأوربى المستخدم ضده . وانتهى الامر بأن أصدر السلطان موافقته على الامتياز للشركة الدولية ، وكانت رئاستها فرنسية .

وبعد أن تولى اسماعيل ولاية مصر ، عمل على تعديل شروط عقد الامتيـاز

المجحفة ، وقبل تحكيم نابليون الثالث الفرنسى بين الشركة الفرنسية والحكومة الخديوية . وقد قلل هذا التحكيم من مساحة الأرض الزراعية الواقعة على جانبي القناة ، والممنوحة للشركة العالمية ،كما أنه أعاد ملكية ترعة المياه العذبة إلى حكومة البلاد ، وكل هذه شروط عادلة ،ولكن الحكم الفرنسى فرض على الحكومة المصرية فى نظير اعترافه بالحق أن تدفع للشركة الاستغلالية ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وكانت الشركة فى أشد الحاجة إلى هذا المال ، وجاءت هذه الغرامة الجديدة عملية لاستمرار تمويل الشركة ، بعد أن أشرفت على الإفلاس، وتهدد المشروع بوقف العمل فيه قبل أن يصل الحفر إلى نصف المسافة.

وتم حفر القناة سنة ١٨٦٩ ، واحتفلت مصر احتفالا دوليا بهذه المناسبة الهامة . وكانت الامبراطورة أوجينى امبراطورة فرنسا على رأس موكب الملوك والأمراء الذين مثلوا بلادهم رسميافى حفلات الافتتاح .لقد تم المشروع،وأصبحت لفرنسا — ولو بطريق غير مباشر — كلمة ونفوذ فى المنطقة ، وعلى الطريق المائى العالمى .

ولم تقف بريطانيا مكتوفة الأيدى أمام هذا التفوق الفرنسى فى المنطقة ، فانتهزت فرصة احتياج خديوى مصر إلى ثلاثة ملايين من الجنيهات فى عام ١٨٧٥ لدفع أرباح الديون المتراكمة وحصلت على نصيب مصر فى أسهم القناة نظير المبلغ الذى اضطر اسماعيل الى استدانته لدفع أرباح الديون . وهكذا أصبح لبريطانيا المركز الثانى فى إدارة الشركة ،أى أن نفوذها اقترب من النفوذ الفرنسى،وبذلك خضعت مصر لنفوذ خارجى فرنسى — بريطانى .

وإذا كان سعيد قد بدأ فى الاستدانة من أوربا ، وأعطى امتياز الشركة العالمية للملاحة فى قناة السويس ، فإن اسماعيل قد أضاف الجديد إلى هذين الموضوعين ، علاوة على استمرار تطور النظم والأوضاع المصرية فى عهده،

فقد زاد اهتمام اسماعيل بالزراعة ، وتوفير المياه لها ، فحفر ١١٢ ترعة كلفت مصر اثنى عشر مليونا من الجنيات ،وإن كانت قد زادت مساحة أرضها المزروعة من أربعة ملايين إلى أربعة ملايين وثمانمائة فدان . وجاءت الحرب الأهلية الامريكية ، ووقف تصدير أمريكا لأقطانها عاملا أساسيا فى رفع أثمان القطن من عشرة ريالات إلى خمسين ريالا ، واستتبع ذلك إقبال الفلاحين على زراعة القطن ، مما أدى بالتالى إلى ازدهار الاقتصاد القومى وانتعاشه. وزادت صادرات مصر سنة ١٨٦٤ من ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه إلى أربعة عشر مليونا ونصف مليون جنيه . وقد أدت هذه الزيادة فى الدخل إلى التوسع فى الإنفاق ، وإلى اعتقاد المصريين بأن أسعار القطن ستستمر فى تصاعدها ، فتمادى اسماعيل فى الانفاق ، واستدانوا من البنوك والمصارف الاجنبية ، إلا أن نهاية الحرب الأهلية فى أمريكا أعادت إلى سوق القطن العالمية أسعارها السابقة ،فأدى انخفاض الأسعار إلى أزمة مالية وضعت المصريين فى موقف لايحسدون عليه ، وخاصة تجاه البنوك والمصارف ، ومعظمها أجنبية، ونزعت مساحات واسعة من الأراضى الزراعية من أيدى ملاكها الاصليين لصالح البنوك والدائنين الأجانب .

وقد شجعت بيوتات المال الأوربية عمليات الاستدانة التى قام بها حكام مصر، نظرا للمكاسب الكبيرة التى كانت تعود عليها منها ، فالارباح باهظة ، وتخصم مقدما من الدين ، وشروط الدفع مجحفة ، ومادامت مالية الحاكم غير منفصلة عن مالية دولته ، فالحكومة والبلاد هى التى تضمن تسديد هذه الديون . وأدى ذلك بمصر إلى العجز التام عن تسديد الأرباح،فاضطرت إلى بيع بعض الممتلكات، ومنها نصيبها فى أسهم القناة ، ثم أصبحت أهم المنافع العامة فى الدولة محجوزا عليها ؛ ولا يمكن للحكومة أن تتصرف فى دخولها إلا بعد إذن من الدائنين وممثليهم .

وتوالت الأحداث بسرعة ، وأصبح التدخل الأجنبي فى شئون البلاد يتفاعل تفاعلا طرديا مع سوء أحوالها الاقتصادية . حتى أن اسماعيل نفسه اقترح حضور بعثة تحقيق انجليزية لفحص المالية المصرية ، وجاءت بعثة « كيف » بالعمل لإنجاز هذه المهمة ، ووضعت هذه البعثة تقريرا اقترحت فيه أن تخضع المالية المصرية للمشورة الأوربية ، وذلك بإنشاء هيئة رقابة يرأسها انجليزى على أن يحترم الخديوى قراراتها ، إلا أن فرنسا عطلت تنفيذ هذا الاقتراح بعد أن رأت فيه استئثارا من جانب انجلترا بالسيطرة على مصر .

ثم اشتدت الأزمة المالية ، ومن ثم أصدر اسماعيل نفسه مرسوما سنة ١٨٧٦ بإنشاء صندوق الدين ، وكان هذا الصندوق أول هيئة أوربية رسمية لفرض التدخل الأجنبى فى شئون مصر . واضطر اسماعيل تحت الضغط الانجليزى إلى قبول نظام المراقبة الثنائية ، وهكذا خضعت المالية المصرية للرقابة الأجنبية ، وأصبح هناك مراقبان أحدهما انجليزى للايرادات والثانى فرنسى للمصروفات .

رغم ذلك ازدادت الحالة المالية سوءا ، فاضطر إسماعيل إلى إصدار مرسوم بتأليف لجنة أوربية عرفت بلجنة التحقيق العليا لدراسة أسباب العجز ووسائل اصلاح المالية المصرية ، ورأت اللجنة أن يحل محل الرقابة الثنائية وزارة مختلطة فيها وزيران أوربيان أحدهما انجليزى للمالية والثانى فرنسى للأشغال ، وقد قبل اسماعيل هذا الاقتراح . وقد تقلد نوبار هذه الوزارة ، وهو أرمنى متمصر ، عرف بولائه للأجانب والسير فى ركابهم .

وقد استقبل الشعب هذه الوزارة بالسخط الشديد ، وقد ساعد على إذكاء شعور الاستنكار تلك التيارات الفكرية الواعية والخصبة ، وتلك الطائفة الفذة من قواد الرأى والفكر الذين شحنوا الأذهان بأفكار القومية والحرية ، ويكفى أن

نذكر أسماء جمال الدين الأفغانى ورفاقه رافع الطهطاوى والشيخ محمد عبده ، وغيرهم ، حتى نتبين شعور الشعب نتيجة لتشكيل هذه الوزارة الأجنبية .

الثورة العرابيه :

تميزت الفترة السابقة للثورة العرابية بسيطرة الأتراك والشراكسة على الحياة المدنية والعسكرية فى مصر ، بل إن رياض باشا رئيس الوزارة فى الفترة السابقة للثورة ، كان لا يميل إلى ترقية الضباط المصريين ليفسح المجال لأصدقائه من الأتراك والشراكسة للترقى إلى أعلى المناصب (١).

ويصف الزعيم احمد عرابى هذه الحالة فى مذكراته ، ... لقد تحملت مدة ولاية اسماعيل الجائرة بكل صبر وثبات تحت ضغط الظلم والاستبداد ، ومكثت برتبة القائمقام مدة تسع عشر سنة أنظر إلى صغار الضباط الذين كانوا تحت إدارتى فى عهد سعيد واسماعيل باشا وهم يترقون دونى ، فترقى بعضهم إلى رتبة أميرلاى وبعضهم إلى رتبة أمير اللواء وبعضهم إلى رتبة الفريق ، لا بعلم علوه من دونى ولا بفهم خارق العادة ، ولا بشجاعة أبرزوها فى ميادين القتال ، ولكن لكونهم من مماليك أو ابناء مماليك العائلة الخديوية ، فاصفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحسان والاراضى الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة ، وحباهم بالأموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين وعرق جبينهم (٢) .

ويتضح من هذا الوصف أمران ... أولها ما كان يلاقيه المصريين من عنت حتى أن ضابطا مصريا ظل تسعة عشرة عاما فى رتبة واحدة ، وثانيهما سوء توزيع الأرض الزراعية ، فقد كانت هذه الأرض توزع كما ذكر عرابى على المماليك ، أو ابناء مماليك العائلة الخديوية ، بينما كان المصريون يتضورون جوعا ، بل إنهم

(١) Newman, Great Britain in Egypt, p. 53

(٢) مذكرات احمد عرابى — الجزء الاول ص ٤٥

كانوا يروون الأرض بعرقهم ودمائهم لتنعم بخيراتها تلك الطبقة المسيطرة المستغلة.

وهكذا كان هناك المثير المباشر لحركة عسكرية ضد السلطة القائمة ، وإن كانت هذه الحركة العسكرية تمثل سخط الشعب كله على الوزارة الاوربية وعلى ازدياد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد . وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ عقد نحو ستمائة ضابط اجتماعا فى ثكنات العباسية ، وخرجوا فى مظاهرة ضخمة انضم اليها طلبة المدرسة الحربية ونحو ٢٠٠٠ من الجنود ،وساروا فى شوارع القاهرة بهذا الموكب قاصدين وزارة المالية ، وفى الطريق قاموا بالقبض على نوبار رئيس الوزراء ، وكذلك على وزير المالية البريطانى ، واتجهوا بهم إلى وزارة الخارجية ، وسجنوا رئيس الوزراء والوزير فى إحدى غرفها .

وقد قدمت الوزارة النوبارية فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ استقالتها بعد الإهانة التى لحقت بها ،وعهد الخديو إلى نجله محمد توفيق تأليف الوزارة الجديدة (١).

ولقد كانت مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ أول عصيان عسكرى من نوعه ضد السلطة السياسية (٢) . وقد استغل الأجانب نقمة الشعب المصرى على الخديوى فسموا الحلمه ، وكانوا أيضا ناقمين عليه لاعتقادهم بعدم إخلاصه للوزارة الاوربية وإسراعه فى قبول استقالتها وتأليفه وزارة برئاسة نجله تحل محلها . وهكذا أرسل الأجانب يقترحون عليه التنازل عن الحكم ، فأجاب اسماعيل بأنه مستعد لإعادة المراقبة الثنائية إلى ما كانت عليه ، فرفضوا وعرضوا عليه فى حالة التنازل مرتبا ضخما على أن يتولى السلطة ابنه توفيق ، فطلب اسماعيل مهلة يومين للتفكير ، وجاء القنصلان الانجليزى والفرنسى يطلبان الرد فى الوقت المحدد ، فأخبرهم اسماعيل بأنه نقل المسألة إلى السلطان .

---

(١) أمين سعيد — سلسلة كتب تاريخ مصر السياسى الحديث (١٢) ص ٤٤—٤٥.

(٢) د. محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان ص ١٦٧ .

وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ أصدر السلطان مرسوما بخلع اسماعيل وتولية توفيق بدلا منه ، ومن ثم غادر اسماعيل القاهرة فى ٣٠ يونيو إلى ايطاليا(٣).

وفى مدى ثلاثه أشهر توالت ثلاث وزارات هى وزارة شريف ، ثم الوزارة التى رأسها الخديو توفيق بنفسه ، ثم وزارة رياض باشا التى تألفت فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .

وقد تأكد لدى المواطنين أن حكومة رياض باشا قد قبلت المراقبة التى تحولت إلى أداة تفرض سيطرة انجليزية ـ فرنسية على مصر ، عندما شاهدوا التعاون الوثيق بين رئيس الوزارة والمراقبة . ومن ثم انتشر التذمر ضد « العهد الجديد » وكره الشعب نظاما اعتبره امتدادا للظلم الذى تحمله لصالح الأجانب ، وسار المصريون بخطى سريعة فى طريق الثورة ضد حكومة الخديو الضعيفة المستسلمة للنفوذ الأجنبى ، ونادى الساخطون بتأسيس الحكومة على قواعد الشورى ، ومنح بعض المنتخبين من الاهالى حق المشاركة فى « كليات أعمال الحكومة » . ومعنى هذا تقييد السلطة التنفيذية كإجراء ضرورى لإنهاء النفوذ الاجنبى المسيطر عليها ، وكان بسبب هذا التذمر أن نشأ حزب سرى من المثقفين والاغنياء سموا أنفسهم بالحزب الوطنى ، وجعلوا مركز حزبهم فى حلوان . ولم يكن هؤلاء هم الذين تذمروا فقط من الحكومة ، بل انتشر التذمر كذلك بين رجال الجيش نتيجة الغبن الواقع عليهم واستئثار الطبقة الجركسية التركية بالمناصب العليا فى الجيش(١). وهكذا ولد الإحساس بالظلم والشعور بالثورة .

ولاول وهلة ، توصف ثورة عرابى بأنها ثورة عسكرية ، وهذا صحيح لأن زعيمها والقائمين عليها هم من ضباط الجيش ، ولأنها قامت وتحركت بقوة

---

(١) أمين سعيد (المصدر السابق) ص ٩٦ــ٩٨ .

(١) د . محمد شكرى ـ مصر والسودان ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

الجيش ، ولكن مما لا ريب فيه كذلك أنها ليست ثورة عسكرية فحسب ، بل هى أيضا ثورة وطنية اشتركت فيها طبقات الأمة كافة ، وإذا أردنا أن نحلل أسبابها وجدناها على نوعين : أسباب خاصة مباشرة ، وهى المرتبطة بطبقة الضباط والجنود وموقفهم من الحكومة ، وموقف الحكومة منهم ، وأسباب عامة ، وهى التى تتصل بحالة الشعب والعوامل التى دفعته إلى مناصرة الثورة وتأييدها (١) .

أما الأسباب المباشرة ، فترجع إلى الشعور بالظلم بين ضباط الجيش نتيجة لاستئثار الجراكسة والأتراك - كما قلنا - بالمناصب العليا فى الجيش،ولاستئثار هذه الطبقة أيضا بالمرتبات الضخمة وبالترقيات ، فى حين ظل الضباط المصريون محرومين من هذا كله .

كما يرجع تذمر الضباط المصريين إلى أيام حملة الحبشة سنة ١٨٧٦ ، وذلك لسوء تصرف القيادات وإهمالها الذى أودى بحياة الألوف من الجنود ، فتكونت من هؤلاء عند عودتهم جمعية سرية، كان من رجالها أحمد عرابى وعلى فهمى وعلى الروبى ، وكان غرضهم فى هذا الوقت المبكر - إلى جانب التخلص من الطبقة الجركسية التركية فى الجيش ، وفتح باب الترقى للمصريين - القضاء على حكومة الخديوى اسماعيل وعزل الخديوى نفسه. ثم تعرف أحمد عرابى بالشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى ويعقوب سامى وغيرهم،وحدث أول تآزر بين العسكريين والوطنيين المدنيين فى حادث مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ . (٢)

ولاشك أن وجود عثمان رفقى وزيرا للحربية فى عهد وزارة رياض باشا - التى شبت الثورة فى عهدها - كان سببا فى حد ذاته من أسباب الثورة ، فقد كان

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى - الطبعة الثالثة ص ١٥ - ص ١٦

(٢) د. محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٠٠

شركسياً متعصباً للضباط الذين هم من أصل شركسي أو تركي . على أن المظالم التي عاني منها الضباط المصريون ، لم تكن تتوقف عند حد حرمانهم من حقوقهم في الترقي ، بل كانوا هدفاً للاضطهاد كذلك ، إذ كان يكفي أن تلصق بأحدهم تهمة ما ولو كانت كاذبة ليكون جزاؤه العزل أو النفي ، فالثورة العرابية كانت ثورة مشروعة للدفاع عن الحق وللدفاع عن الحياة . ولاجدال في أن ظهور أحمد عرابي على مسرح الحوادث ، كان من الأسباب المباشرة للثورة ، فهو الذي بث في نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بالحقوق المهضومة .

أما الأسباب السياسية فترجع إلى تذمر المصريين بصفة عامة من سوء نظام الحكم القائم ، ورغبتهم في التخلص منه ، فقد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم للمواطنين . وقد أدرك المثقفون من الامة أن إصلاح هذا النظام إنما يكون بقيام الدستور وإنشاء مجلس نيابي يوطد مبادىء العدل والحرية ، ويتحقق فيه معنى الرقابة على الحكام ، ويحول دون ارتكاب المظالم .

وبينما كانت الفئة المثقفة ترتقب إعلان الدستور على يد الخديوي توفيق ، إذا بهم يرون شريف باشا يستقيل لمعارضته توفيق تشكيل مجلس النواب وإصراره على الحكم المطلق ، ثم تكليفه رياض باشا تأليف وزارة كان من مبادئها الأساسية حكم البلاد حكما مطلقا ، وهكذا عارض رياض في إنشاء مجلس النواب وانحاز للنفوذ الاوربي ، وأصر على قمع كل معارضة بالشدة ، كما انذرت الصحف المعارضة ، وعطلت بعضها . ولقد كان للصحف المعارضة دورها البارز ، فيما كانت تبثه من روح التبرم بنظام الحكم ، والتطلع إلى الحرية والدستور ، وما لقيته من اضطهاد .

وكانت الأحوال الاقتصادية في ذلك الوقت شديدة الوطأة على المواطنين ، فان الديون التي اقترضها الخديوي اسماعيل . ألقت على البلاد عبئا جسيما من

الاثقال الفادحة ، واضطرت الحكومة إلى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الديون ، فكان ذلك سببا لتذمر المواطنين، لأن تخصيص هذا المبلغ الضخم الذى يجبى كل عام من عرق الفلاح وكده معناه حرمان المواطنين من ثمرة جهودهم وإضاعتها لحساب الدائنين ، هذا فضلا عن فداحة الضرائب فى مجموعها ، وعدم توزيعها توزيعا عادلا ، واقتضائها بوسائل العنف ، فانضم المواطنين الى الثورة وشايعوها آملين أن تخفف عنهم أعباء الضرائب .

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية ، إنقاص عدد أفراد الجيش توفيرا للنفقات ، وسواء كان هذا الانقاص بسبب الأحوال الاقتصادية ، أو لإضعاف الجيش عمدا ، فمما لا شك فيه أن إحالة الكثير من الضباط إلى الاستيداع ، قد أدى إلى مشاركة هؤلاء للموظفين الذين رأوا مظاهر ازدياد نفوذ الأوربيين فى دور الحكومة وتمييزهم بالرواتب الضخمة .

كما أن حالة المجتمع المصرى بصفة عامة ، كانت تؤهله فى ذلك الوقت لتلبية نداء الثورة ، وذلك نتيجة لشعور المواطنين بالمظالم الواقعة عليهم ، فانتشار التعليم فى عصر محمد على ، والبعثات التعليمية التى أوفدها هذا الوالى ، والنهضة الأدبية التى صاحبت النهضة العلمية ، والصحافة التى أدلت بدلوها فى ترقية الأفكار ، وتأثير جماعة من المفكرين فى المجتمع المصرى ، كل ذلك أدى إلى زيادة الشعور بالظلم وإلى ضرورة التغيير(١) .

احداث الثورة :

منذ مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ تفشى السخط والقلق فى صفوف الجيش المصرى ، وبعد خلع الخديوى اسماعيل ، أصرت لجنة التصفية على صدور مرسوم خديوى يخفض عدد الجيش ، وترتب على ذلك تسريح نحو ١٢٠٠ ضابط بحيث

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٣٠ — ص ٣١

لم يبق فى الخدمة سوى نحو ٥٠٠ ضابط، أما المسرحون فقد أصبحوا يتقاضون ما بين ربع مرتباتهم ونصفها ، ويضاف إلى ذلك أن وزير الحربية عثمان رفقى أصدر أمرا عسكريا بقفل باب الترقية فى وجه الضباط الوطنيين (١) .

وفى وسط هذه المظالم ، ظهر أحمد عرابى على المسرح كشخصية تستطيع أن تلعب دور الزعامة . ويمكن تحديد عام ١٨٨١ لبدء زعامته العسكرية على معظم ضباط الجيش ، وفى هذا العام أصدر عثمان رفقى وزير الحربيــة أمرا بنقل الأميرالاى (العميد) عبد العال حلمى ـ أحد زعماء الثورة العرابية فيما بعد ـ قائد آلاى طرة إلى ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وجعله معاونا بها ، وفى هذا إنقاص لدرجته ومركزه .

وكانت هذه الحادثة البسيطة هى القطرة التى أفاضت الإناء ، أو الشرارة التى أشعلت الثورة ، إذ سرعان ما اجتمع الضباط المصريون فى دار أحمد عرابى ، واتفقوا على كتابة « عريضة» إلى رئيس الوزراء رياض باشا يطلبون فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى . ويعد هذا الاجتماع فاتحة الثورة العرابية ، لأن تعاهد كبار الضباط على مقاومة تنفيذ الأوامر العسكرية ، والجهر بمناصبة وزير الحربية العداء ، والمطالبة بعزله واختيارهم عرابى زعيما لهم فى هذه الحركة... كل ذلك معناه الخروج على النظام وتحدى الحكومة (٢) .

وفى ١٧ يناير سنة ١٨٨١ قدم الضباط الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى العريضة إلى رياض باشا ، مطالبين بفصل عثمان رفقى من الوزارة (٣) وبعد أسبوع من هذه المقابلة ، ذهبوا إلى داره وقابلوه ثانية ، وسألوه عما تم

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ مصر والمسألة المصرية ص ١٣٥

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٣٢ ، ص ٣٣

(٣) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ مصر والمسألة المصرية ص ١٣٦

فى أمر العريضة ، فأجابهم مهددا متوعدا ، فلم يتراجع عرابى وصاحباه أمام هذا التهديد ، وأصروا على طلباتهم ،وانتهى الحديث بأن أخبرهم بأنه سينظر فى الامر ، وانصرفوا على ذلك .

وبينما كانت هذه المقابلات تدور بين الضباط الثلاثة من جانب ورئيس الوزراء من جانب آخر ، كانت هناك اجراءات أخرى تتم فى الخفاء للقضاء على روح الثورة التى أخذت تتأجج فى النفوس قبل أن تستشرى ويزيد خطرها ، فاجتمع مجلس الوزراء فى ٣١ يناير سنة ١٨٨١ فى سراى عابدين برئاسة الخديوى ، وبحث أمر هذه العريضة ، واستقر الرأى على وجوب محاكمة الضباط الثلاثة أمام مجلس عسكرى ، وتعهد عثمان رفقى بتنفيذ هذا القرار ، وأنى يكون مسئولا إذا حدث ما يخل بالامن . ولم يعرف الضباط الثلاثة ما قدره مجلس الوزراء فى شانهم ، ولم يخطرهم عثمان رفقى بأمر القبض عليهم ... بل نفذه بطريقة ملتوية لاتدل على شعور الحكومة بهيبتها وسلطانها ، وذلك أنه تحايل عليهم ، وأوسل إليهم مساء ذلك اليوم بطاقات يدعوهم فيها إلى الحضور لديوان الوزارة بقصر النيل — صباح اليوم التالى بحجة المداولة معهم فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوى (١) .

وفى أول فبراير سنة ١٨٨١ عقد مجلس عرفى فى ثكنات قصر النيل ولكن أنباء المؤامرة تسربت إلى الضباط الثلاثة عن طريق زوجة رياض — وكانت مصرية — ماستعد الجيش للموقف ، وحين بدأت محاكمة الضباط الثلاثة ، تصدت كتائب الجيش لإطلاق سراحهم ، ثم توجهت إلى ميدان عابدين حيث كررت المناداة بمطالب الضباط . وكان موقف الحكومة ميئوسا منه ، بعد أن انضم الجيش بأسره — باستثناء حفنة الأتراك والشراكسة إلى الضباط الثلاثة . وحين

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٣٦ .

اعترف الخديوى لقنصلى انجلترا وفرنسا بأنه لانصير له فى الجيش ، نصحاه بإقالة عثمان رفقى تفاديا لحدوث كارثة ، وتم تعيين محمود سامى البارودى — وكان قد قام بدور الوساطة أثناء هذه الحادثة ، وحصل على ثقة الضباط الوطنيين رغم أصله الشركسى — وزيرا للحربية ، بالإضافة إلى منصبه السابق كوزير للأوقاف (١) .

ولم يكن لواقعة قصر النيل أثرها فى الجيش فحسب ، بل كان لها أثر بالغ فى الأمة ، إذ جعلت لعرابى مكانة كبيرة فى البلاد ، والواقع أن الحادثة ، وما تنطوى عليه من الجرأة على الحكومة ، وإطلاق سراح المسجونين ، وعزل وزير الحربية وتعيين وزير يؤيد الجيش فى مطالبه ، كل هذه الأعمال جعلت من عرابى زعيما وطنيا اتجهت إليه الأنظار لتحقيق أمانى الشعب .

ولما اطمأن عرابى إلى أن الجيش فى قبضة يده ، والأمة تناصره ، شرع فى إحداث الإنقلاب الذى كان يرجوه فى نظام الحكم ، أو بعبارة أخرى ، أخذ يتأهب لمتابعة الثورة التى بدأها فى أول فبراير سنة ١٨٨١ .

وكانت الحكومة من ناحيتها تدفعه إلى الثورة دفعا ، بما بدا منها من الحركات العدائية التى قصدت منها تفريق شمل زعماء الجيش وضباطه تمهيدا للتنكيل بهم . وأخذ الخديوى ينفذ خطته وقوامها تفريق وحدات الجيش ، ونقل الفرق الموالية للحركة الثورية من العاصمة لكى يستبدل بها فرقا أخرى موالية للخديوى ... وهكذا قرر عرابى تحريك الجيش والسير به إلى سراى عابدين فى شكل مظاهرة عسكرية لإملاء إرادته على الخديوى ، ولكى يضع حدا للحالة المقلقة التى وصلت إليها البلاد ، ولإحداث الانقلاب الذى أراده (٢) . واستقر رأى العسكريين على

---

(١) د. احمد عبد الرحيم مصطفى — مصر والمسألة المصرية ص ١٣٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٥٣ .

التفاهم مع مجلس الأعيان ، واتفق الجميع على أن يطلبـوا من الخديوى (١) أن يقيل وزارة رياض باشا ، وأن يوافق على إنشاء البرلمان على أسس ديمقراطية، وأن يزيد عدد أفراد الجيش إلى ١٨٠٠٠ جندى (٢) .

وتقدم عرابى بالفعل إلى ميدان عابدين ، ومعه قوة من نحو ٢٥٠٠ جنـدى و ١٨ مدفعا ، وقدم هذه المطالب باسم الشعب (٣) .

وفى هذا اليوم المشهود ، دارت تلك المناقشة الشهيرة بين عرابى والخديوى، ووصلت المناقشة ذروتها ، عندما تساءل الخديوى عن مطالب الجيش والأمة ، فاجابه عرابى « هى عزل رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عـدد الجيش إلى العدد المعين فى الفرامانات السلطانية » . فقال الخديوى « كل هـذه الطلبات لاحق لكم فيها ، وأنا خديوى البلد وأعمل زى ما أنا عاوز» فقال عرابى جملته التاريخية المشهورة « ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم»(٤) .

وهكذا تراجع الخديوى . وأبدى موافقته على مطالب الجيش والأمـة ، وإن كان قد أفهم عرابى أنه سوف يرجع إلى الباب العالى بالنسبة لإنشاء البرلمان وإلى زيادة عدد الجيش . وبعـد بضع ساعات على هـذه المساومات سقطت وزارة رياض باشا ، وتم تعيين شريف باشا رئيسا للوزارة (٥) . وقدم

---

(١) مدام جوليت آدم — تعريب على فهمى كامل — انجلترا فى مصر ص ١٠٩ .

(٢) Newman (Major E.W Polson) Great Britain in Egypt P. 59.

(٣) Sir Valentine Chirol—The Fgyptian Problem P 39

(٤) عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٨٠—٨٥

(٥) Newman Op. cit. p. 59

عرابى والقواد العسكريون طاعاتهم لشريف(١).

وتعد وزارة شريف « وزارة الأمة » وقد ابتهجت الأمة ابتهاجا كبيرا بتأليفها . وفى مجال الإصلاح الدستورى ، عمدت وزارة شريف إلى إجراء الانتخابات العامة . طبقا لنظام مجلس شورى النواب القديم الذى يجعل انتخاب النواب موكولا إلى عمد البلاد ومشايخها فى المديريات ، وجماعة الأعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط . وتم افتتاح مجلس النواب فعلا فى يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ .

ومن أهم اصلاحات الوزارة بعد الإصلاح الدستورى هو إنشاء المحاكم الأهلية ، ووضع نظامها الجديد ، ففى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ صدر القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهى تتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى الحالى (٢) .

ثم أعد شريف اللائحة الأساسية أو الدستور لعرضه على مجلس النواب ؛ وكان هذا الدستور يتضمن مبدأ المسئولية الوزارية أمام المجلس ، ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية ، ويعطى للمجلس حق إقرار القوانين والميزانية والضرائب ، بحيث تعذر على الحكومة فرض أى ضرائب أو استصدار القوانين إلا بعد تصديق المجلس . وكان معنى هذا إعطاء مجلس النواب حق النظر فى الترتيبات اللازمة أو المتصلة بالتسوية المالية ، وذلك فى وقت اشتد فيه السخط على أعمال المراقبة الثنائية التى تأسست كما عرفنا سنة ١٨٧٩ بل على التدخل الاوربى بصفة عامة .

---

(١) لورد كرومر — ترجمة عبد العزيز عرابى — الثورة العرابية ص ٦١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى — المصدر السابق ص ٨٥ — ٨٧ .

وأزعج فرنسا إعداد هذا الدستور الجديد، وخصوصا لأن الصحف المصرية مثل الحجاز والمحروسة ومصر كانت تحمل آنئذ حملات عنيفة على التدخل الأجنبي، وعلى الانجليز والفرنسيين على السواء، فصار الخوف عظيما من أن تشتد المعارضة ضد هذا التدخل عندما يجتمع مجلس النواب (١).

وفى اليوم الثامن من يناير سنة ١٨٨٢، توجه السير إدوارد مالت معتمد انجلترا والمسيو سنكفكس المعتمد الفرنسى مجتمعين إلى قصر عابدين وقدما إلى الخديوى مذكرة مشتركة من الدولتين بتاريخ ٧ يناير سنة ١٨٨٢ قوامها أنهما حيال الحوادث الأخيرة قد اجتمعا على تأييد سلطة الخديوى، وفحوى المذكرة أن الدولتين انتحلتا لنفسيهما حق القوامة والرقابة على مصر وإقرار الأمن والنظام فيها، والتدخل فى شئونها الداخلية ... وظاهر من عباراتها أن فرنسا وانجلترا كانتا تنظران بعين الاستياء إلى تأليف مجلس النواب، وقيام النظام البرلمانى فى مصر ... ولم تكتما الإعراب عن هذا الإستياء صراحة فى المذكرة إذ جعلتا من الحوادث الموجبة للتدخل « صدور الأمر الخديوى باجتماع مجلس النواب »(٢)

ولقد ثارت ثائرة الرأى العام فى مصر على هذه المذكرة بسبب ما انطوت عليه من معانى التحدى لمجلس النواب أولا، أى محاولة تعطيل الحركة الدستورية، وثانياً تشجيع الخديوى على معارضة كل إصلاح. واعتبر المدنيون والعسكريون أن المذكرة تعبر عن خطة عدائية صريحة ضد مجلس النواب لأنها صدرت وقت انعقاده.

وكانت المذكرة تهديداً بالتدخل فى وقت لاتدعو فيه حالة البلاد الداخلية إلى اتخاذ أية خطوة من هذا القبيل، ما دام زعماء الحركة من مدنيين وعسكريين

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان ص ٢٠٥ — ٢٠٦.

(٢) عبد الرحمن الرافعى — الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٨٨ — ٨٩.

لا يبغون التعرض للاتفاقات الدولية التى حددت وضع البلاد السياسى ، أو تلك التى قامت على أساسها التسوية المالية ، وما دام الغرض من حركتهم الدستورية تقييد سلطة الحكومة بأن تصبح مسئولة أمام مجلس النواب .

ولم يلبث أن ظهر التآزر واضحاً بين المدنيين والعسكريين ، أو بين الحزبين الوطنى والعسكرى داخل مجلس النواب لمناوأة التدخل الإنجليزى الفرنسى ، واصطدم النواب مع وزارة شريف المتعاونة مع المراقبة المالية ، وذلك عندما أصر النواب على أن يكون لهم الحق فى تقرير الميزانية على أن لا يتعرضوا الجزء المخصص من الإيرادات للدين العام . وهذا على خلاف ما كان يراه محمد شريف من ضرورة التريث وإرجاء البحث فى الميزانية حيث أن هذه كان قد صدر مرسوم باعتمادها فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ أى قبل انعقاد مجلس النواب بأسبوع ولن يكون هناك بحث للميزانية إلا فى ختام عام ١٨٨٢ عند النظر فى إعداد ميزانية السنة الجديدة (١٨٨٣) .

وكان شريف قد ارتبط بوعد وعد به المراقبة المالية بعدم تخويل المجلس الحق فى تقرير الميزانية بسبب إصرار المراقب المالى الانجليزى والمراقب الفرنسى على حرمان المجلس من هذا الحق بدعوى أنه ولو كان مقصورا على المصالح التى لم تخصص إيراداتها للدين العام ، فإنه يضر بالضمانات المقررة للدائنين ، إذ أنه كنتيجة حتمية سوف يحل مجلس شورى النواب محل الوزارة فى ادارة شئون البلاد فيبطل بذلك عمل (المراقبة) وهو إبداء ملاحظات على تصرفات وزراء مسئولين أمام الخديوى وفى وسعه عزلهم إذا أساءوا التصرف ، بينما لا يكون لملاحظات المراقبة أية قيمة عملية أمام مجلس شورى النواب .

وخشى بعض المدنيين مثل الشيخ محمد عبده من أن يؤدى الصدام بين العرابيين وبين الوزارة إلى إصرار فرنسا على تنفيذ ذلك التعهد بتأييد الخديوية الذى ذكرته

المذكرة المشتركة ، مما يخشى منه احتلال البلاد . وكان الخوف من هذا الاحتلال منتشراً كأثر من آثار إرسال هذه المذكرة (١) .

وهكذا استقالت وزارة شريف فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ، وتألفت وزارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وكان من أعضائها أحمد عرابى وزيرا للجهادية والبحرية ، فجاء تأليفها انتصارا ظاهرا للحزب العسكرى (٢) ، وإقصاء تاما لسلطة الخديوى وتحديا سافرا للمراقبة الثنائية والتدخل الأجنبى .

ولاشك أن الثورة العرابية بدأت تسلك سبيلا بعيداً عن الحكمة من يوم أن اتفق عرابى وصحبه على اسقاط وزارة شريف وبدأت بذلك مرحلة الشطط ، فإن شريف كان بلا نزاع أقدر من البارودى على حسن تدبير الأمور فى تلك الأوقات العصيبة ، إذ كان له من ماضيه السياسى وثقافته ما يجعل له كفاية خاصة فى الاضطلاع بالمهام السياسية .

وقد عظم شأن عرابى بتقلده وزارة الحربية ، فإنها الوزارة الوحيدة التى كانت تتطلع إليها الأنظار فى ذلك الحين .. وفيها كانت تتمثل سلطة الحكم ، فأصبح عرابى الرئيس الفعلى للحكومة ، وزاد من مكانته تقلده رتبة اللواء ولقب الباشوية لما للألقاب والرتب من الأثر الكبير فى ذلك الوقت وصار له الأمر والنهى لا فى وزارة الحربية فحسب بل فى كل وزارات الحكومة .

وقد أقر مجلس النواب الدستور ، وصدر به المرسوم الخديوى فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ وكانت مدة انعقاد المجلس فترة تقدم ونشاط تمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة . ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهرجو الصفاء وأخذت الأحداث تتوالى على البلاد . فكأن انفضاض المجلس كان نذيراً بالانتكاس والرجعية .

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) John Marlowe, Anglo-Egyptian Relations, 1800-1953, p. 119.

وأولى الأحداث الداخلية التى انتابت البلاد بعد انفضاض مجلس النواب هى مؤامرة الضباط الشراكسة .. وهى حادثة خطيرة كان لها تأثير كبير فى التطور الثورة العرابية بل فى مصير البلاد قاطبة(١) فعندما زادت الوزارة مرتبات رجال الجيش ، ورقت عدداً كبيراً من الضباط الوطنيين ، استاء الضباط الأتراك والشراكسة فتآمروا على حياة أحمد عرابى ورؤساء الحزب العسكرى ومن ثم تم القبض على ٤٨ من هؤلاء المتآمرين ومن بينهم عثمان رفقى نفسه وحوكموا أمام مجلس عسكرى عاكمة سرية ، وفى ٣٠ أبريل سنة ١٨٨٢ صدر الحكم على أربعين منهم بالنفى إلى أقاصى السودان(٢) مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ورفع الحكم إلى الخديوى للتصديق عليه ، فرآه بالغاً منتهى القسوة ، فامتنع عن اقراره ، وحدث من أجل ذلك خلاف كبير بينه وبين الوزارة إذ أصر على تعديل الحكم وتمسكت الوزارة باقراره ، وانتهى الأمر بأن أصدر الخديوى (إرادة سنية) فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم إلى النفى من القطر المصرى والسماح للمحكوم عليهم بالتوجه إن شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم من رتبهم ونياشينهم ، وقد وقع الخديوى هذه الإرادة بحضور السير إدوارد مالت والمسيو سنفكس قنصلى بريطانيا وفرنسا .

على أن هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخديوى والوزراء ، فقد ذهب البارودى إلى الخديو عقب توقيعه أمر التعديل ، ولامه فى لهجة شديدة لنزوله على إرادة قناصل الدول وإهماله رأى الوزراء ، وطلب إليه إضافة عقوبة التجريد من الرتب العسكرية إلى أمر التعديل (٣)

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٩٥ — ٩٩ .

(٢) د. محمد شكرى ـ مصر والسودان ص ٢٣٣ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ـ الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٩٩ ـ ١٠١

وقد استاءت الوزارة أو بالاحرى العرابيين من تصرف الخديوى الذى أجاز تدخل الدول الأجنبية لمحاولة الاستفادة من تعهد فرنسا وانجلترا الذى تضمنته مذكرتهما المشتركة فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ بتأييد مسند الخديوية . وقررت الوزارة دعوة مجلس النواب للاجتماع لتعرض عليه الخلاف بينها وبين الخديوى.

وذاعت الانباء عن تصميم العرابيين على خلع الخديوى ... وأخيراً أمكن الوصول إلى تسوية ظاهرية فحسب وبعد جهد ومشقة . وذلك على أساس بقاء الوزارة وتعديل الاحكام العسكرية طبقا لما رآه الخديوى(١).

وكان يجمل بعرابى وصحبه أن يقبلوا هذا التعديل من بادىء الامر بغير حاجة إلى ايجاد هذه الأزمة ، وكان الانفع للبلاد ما داموا قد قبلوا التعديل فى النهاية ألا يثيروا من أجله حرباً بينهم وبين الخديوى فى وقت كانت الاخطار تكتنف مصر فيه من كل جانب، ولم يكن الخلاف الذى شجر بينهم وبين الخديوى مما يستوجب عقد مجلس النواب لأن عقد المجلس بصفة مستعجلة وبغير الاوضاع القانونية معناه إعلان الثورة على الخديوى، ولم يكن بقى من أوجه الخلاف بعد أن اتفقت وجهة نظر الفريقين على تعديل الحكم سوى تجريد الضباط المحكوم عليهم من الرتب العسكرية أو عدم تجريدهم ... والمجالس النيابية لا تعقد بصفة غير عادية من أجل خلاف صغير كهذا .

وفى أثناء الخلاف بين الوزارة والخديوى، تواترت الانباء عن اعتزام فرنسا وانجلترا إرسال أسطوليهما إلى الاسكندرية ، وقد تحققت هذه الأنباء..فقررت الدولتان على أثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف بين الخديوى والوزارة دعوة مجلس النواب بدون أمره ، إرسال أسطوليهما إلى مصر ، إذ عدتا هذه الحالة ثورة تستدعى التدخل ،وقد أفضى اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا بهذه الفكرة

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٢٣٤ — ٢٣٥

يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ إلى المسيو تيسيو سفير فرنسا فى لندن قائلا إن الحاجة ماسة إلى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية . وقد صادفت هذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية . وسوغت الدولتان هذا العمل بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الاخطار التى يستهدفون لها ، ولم يكن ثمة خطر ولا خوف من هذه الناحية وإنما هى حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستر الغرض الحقيق وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شئون مصر (١).

وقد هز تتابع وصول البوارج الانجليزية إلى الاسكندرية الرأى العام المصرى هزاً شديداً ، وقام القنصل الفرنسى فى يوم ٢٢ مايو أى بعد وصول الأسطول الانجليزى بيومين اثنين بزيارة محمد سلطان رئيس مجلس النواب حاملا إليه مطالب الحكومتين الانجليزية والفرنسية وهى .

١ — استقالة وزارة البارودى .

٢ — إخراج عرابى من القطر المصرى على أن تضمن له انجلترا وفرنسا راتبه ورتبته وأوسمته .

٣ — تحديد إقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى ريف مصر وتضمن الدولتان رتبهما ومرتباتهما .

٤ — تسريح الجيش المصرى فلا يبقى منه سوى عدد قليل للمحافظة على الحدود الجنوبية (٢) .

وقد رفضت الوزارة هذه المذكرة على أساس أنها قد تضمنت مطالب فيها اعتداء على الفرامانات والمعاهدات الدولية، ولأن الوزارة ترى أن هذه المطالب متعلقة بمسألة داخلية فإذا كانت الدولتان تريان أنها متعلقة بمسألة سياسة عمومية،

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ١٠٣ — ١٠٤.

(٢) أمين السعيد — تاريخ مصر السياسى (١٢) ١٤٤ — ١١٥ .

فالواجب عرض هذه المسألة على تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر (١) وقام رئيس مجلس النظار ومعه وزير الخارجية بزيارة الخديوى وأبلغاه قرار المجلس برفض المذكرة وطلبا منه أن يتضامن مع حكومته فى رفضها (٢) فأجابهما الخديوى أنه قد قبل مطالب الدولتين بالفعل، ومن ثم استقالت وزارة البارودى احتجاجاً على مطالب الدولتين وعلى قبول الخديوى إياها ، فقبل الخديوى استقالتها (٣) وقد أدى هذا الموقف بين الحكومة التى تدافع عن حقوق مصر ومكانتها وبين الخديوى إلى هياج الرأى العام واشتداد السخط على الخديوى، وارتفعت الأصوات فى كل مكان بالدعوة إلى خلعه (٤) .

وبالرغم من استقالة الوزارة، فإن عرابى بقى على اتصال دائم بضباط الجيش لكى يضمن أن لا يقبل الجيش وزيراً للحربية سواه.. وهذا ظاهر من الخطاب الذى أرسله بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ إلى أنصاره من الضباط ، فقد أخبرهم فيه أنه مع استقالته من وزارة الحربية ، فانه لم يستقل من رياسة الحزب الوطنى، ويطلب إليهم أن يأتمروا بأوامره وأن يحافظوا على الأمن ويقول عرابى فى مذكراته إنه أرسل هذه الرسالة تلغرافيا إلى جميع مراكز العسكرية . بعد أن قابله قناصل الدول وطلبوا إليه تأمين رعاياهم . ولم يكن من الميسور فى هذه الظروف تأليف وزارة جديدة تخالف الوزارة المستقيلة فى خطتها وتنال ثقة النواب والضباط (٥) واضطر الخديوى إلى إبقاء عرابى فى منصب وزير الحربية

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان ص ٢٥٤ .

(٢) أمين سعيد — المصدر السابق ص ١١٥ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٠٧ .

(٤) أمين سعيد — المصدر السابق ص ١١٥ — ١١٦ .

(٥) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٠٧ .

ورئاسة الجيش حتى يأمن على حياته (١) وأصدر أمراً إليه هذا نصه « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التي استعفت ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنيـة ، استصوبنا بقائكم على نظارة الجهادية والبحرية . وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكاملة لحفظ الأمنية العمومية على الوجه المرغوب كما هو مقتضى إرادتنا (٢) » .

وقد بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودي في ٢٧ مايو سنة ١٨٨١ ، ومنذ منتصف يونيو اتجهت الأنظار إلى وجوب تأليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم . وكان الخديوى قد بارح القـاهرة إلى الاسكندرية ، فسعى قنصلا النمسا وألمانيا لديه للتقريب بين الخديوى وعرابي وترغيبه في تأليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابي وزيراً للحربية . فأخذ الخديوى يستشير بعض رجـال الدولة في أمر تأليف الوزارة الجديدة ، فاستدعى شريف باشا ثم مصطفى فهمى باشا ثم عمر لطفى باشا وغيرهم وكلف كلا منهم بتأليف الوزارة فأبوا جميعاً لمـا كان بينهم وبين عرابي من جفاء . وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ، واتصـلا بعرابي وتفاوضا معه في هذا الشأن ، واستقر الرأى على النصح للخديوى باختيار اسماعيل راغب باشا لتشكيل الوزارة ، وعلى ذلك ألف راغب باشا الوزارة وفيها عرابي وزيراً للحربية كما كان . وقد قابلت السياسة الإنجليزية هذه الوزارة بجفاء وعدم ثقة ، وبارح السير ادوارد ماليت قنصل بريطانيا العـام الاسكندرية يوم ٢٧ يونيو ، وغادر المدينة أيضاً المستر كوكس القنصل البريطاني ، وأوعزت الحكومة البريطانية إلى السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الإنجليزى بالامتناع عن حضور جلسـات مجلس الوزراء ، وكانت هذه علامات تنـذر وتنبىء بما كانت تبيته

(١) د. محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٢٥٥.

(٢) عبد الرحمن الرافعي — أحمد عرابي ص ١٠٩ .

السياسة الانجليزية من إثارة الحرب والقتال(١) .

ومنذ ٢٩ مايو ١٨٨٢ بدأت انجلترا تعلن عن نيتها فى الانفراد بالتصرف فى شئون مصر ، ففى ذلك التاريخ أبلغ قائد أسطولها فى الاسكندرية حكومته بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه إحدى البوارج البريطانية . وطالب بارسال قطع بحرية بريطانية أخرى ، وقد أجابته الحكومة الإنجليزية إلى طلبه ، وكان هذا بالفعل إعداد لعمليه الاحتلال .

وقد أثارت هذه العملية شكوك فرنسا ، ومن ثم دعا المسيو دى فريسينيه رئيس الوزارة الفرنسية الدول الأوربية الكبرى إلى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية ، فلبى هذه الدعوة كل من إنجلترا وألمانيا والروسيا وإيطاليا والنمسا . أما تركيا ومصر فانهما رفضتا الاشتراك فيه ، وكان من المهازل السياسية أن يجتمع مؤتمر دولى فى الآستانة دون أن تشترك فيه حكومة الآستانة ذاتها ودون أن تشترك فيه مصر .

وليس هذا المظهر وحده الذى يدل على اضطراب السياسة العثمانية فى المسألة المصرية ، بل أن مسلكها كله كان مجموعة من المتناقضات ... فبينما كانت تتظاهر بتأييد سلطة الخديوى ، إذا بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفه على عرابى ويمنحه نيشاناً رفيعاً ، ثم إذا جد الجد ونشبت الحرب بينه وبين الإنجليز يطعنه فى الصميم بإعلان عصيانه ، فكان هذا الاعلان من أكبر أسباب هزيمته وخذلانه ، فهذا التناقض والاضطراب جعل السياسة التركية عامل فساد استخدمته بريطانيا لتحقيق أطماعها فى مصر .

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ أبرم المؤتمر العهد المشهور بميثاق النزاهة وقد وضعه المسيو دى فريسينيه وعرضه على اللورد جرانفيل فقبله وهذا نصه وتتعهد

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٢٦ — ١٢٧ .

الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لاتبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لايخوله لرعاياها الحكومات الأخرى . وقد وقع عليه أعضاء المؤتمر جميعا (١).

واستمر المؤتمر يعقد جلساته على غير طائل ، وانجلترا تعد المعدات للقتال . ولم يكن اسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لإثارة القتال . . . فقد أرسل الأميرال سيمور فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢ بلاغه الأول إلى طلبه عصمت قومندان موقع الاسكندرية بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون . فأجابه طلبه فى اليوم ذاته بانه لم يوضع أى مدفع جديد فى الحصون ولم يجر فيها أى عمل جديد (٢) . وقد ذاع بلاغ الأميرال سيمور فى المدينة وتناقله الناس، فأيقن العارفون بحقائق الامور أنه نذير الشر وأن الحرب واقعة لا محالة . وأوعز قنصلا انجلترا وفرنسا إلى رعاياها الباقين فى المدينة بالمبادرة إلى الرحيل عنها ، فتسابقوا إلى الهجرة والنزول إلى السفن الراسية بالميناء ، وبلغ عدد المهاجرين الاوربيين من الاسكندرية قبل ضربها نحو ٩٩٪ من عددهم الأصلى، وهاجر كثير من أغنياء المدينة إلى داخل البلاد على أن معظم الأهليين بقوا بها (٣).

وفى ٩ يوليو استمرت التحصينات المصرية فى الطوابى ، وركبت مدافع جديدة طابية السلسلة . وفى اليوم التالى أرسل سيمور إنذاراً نهائياً إلى طلبه عصمت بتسليم الطوابى المقامة على بوغاز الاسكندرية الجنوبى والاضربها بعد أربع وعشرين ساعة . وفى صبيحة ١١ يوليو ، عندما لم يجب سيمور إلى طلبه،

(١) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) د. محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٤٤ .

بدأ ضرب الاسكندرية (١) .

ويقول عرابي عن موقعة الاسكندرية ـ وفاجأتنا مراكب الإنجليز وأخذتنا على غرة منا وضربت المدافع على مدينة الاسكندرية ، ولما تم عدد الطلقات ٢٠ طلقة ، وكانت المدافعة واجبة شرعاً قابلناهم أيضاً بالضرب واستمرت الحرب بين الفريقين نحو ١٠ عشر ساعات دمروا فى غضونها أغلب طوابى الثغر المذكور وأحرقوا مساكنه ففر جميع الأهالى من المدينة ولما حصلت المخابرة على الاميرال فى الصلح والاكتفاء بما حصل أبى وتجبر وتوعدنا بحرق المدينة وتدميرها بعد ساعة ونصف إن لم تسلم إليه جميع الطوابى. هذا وقد حصل الخذلان ودب الفشل بين قلوب العساكر فتركوا مراكزهم وفروا إلى داخل البلاد ،ولذلك توجهنا بمن أمكن حجزهم من العساكر إلى كفر الدوار واتخذناه مركزا للدفاع عن البلاد ، وأمرنا بسرعة جمع العساكر الفارين فحضروا عاجلا بواسطة السكة الحديد . ثم أرسلت القطارات الخديوية لنقل الخديوى ومن معه إلى عاصمة البلاد فما كان منه إلا أن التجأ بمن معه من الخدم والذوات وعساكر الحرس إلى الإسكندرية . وعند وصولهم إلى رأس التين استقبلهم الانجليز بالترحاب ، وفى الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرسا على الخديوى من السلاح وأخذوا خيولهم واستخدموهم خدما لهم ومرشدين فى أنحاء المدينة التى ضربوها وكانوا يقتلون كل من قابلوه من الوطنيين ثم صدر أمر الخديوى إلى رئيس مخبز اسكندرية بإرسال الخبز إلى عساكر الإنجليز ومنعه عن العساكر المصرية (٢) .

وبضرب الإسكندرية انتقل تاريخ الثورة العربية إلى دور جديد هو الحرب، ففى ذلك الوقت تطلع عرابى إلى الاستعداد العسكرى، كما دعا إلى خلع الخديوى.

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ٢٦٤—٢٦٥.

(٢) أحمد عرابى — مذكرات عرابى الجزء الأول ص ١٨٨ — ١٨٩.

ولكن السياسيين خذلوه فى ذلك ، وكشفت هذه الفرقة عن ظهور القوى الرجعية تسير فى طريقها المرسوم إرضاء للقصر . وبادر عرابى فأرسل إلى جميع المديريات والمحافظات يخبرهم بانضمام الخديوى إلى الإنجليز ويحذرهم من إطاعة أوامره ويدعوهم إلى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال.

وعلى أثر ذلك أذاع الخديوى منشوراً علق فى شوارع الإسكندرية يقضى بعزل عرابى من منصبه وقد فصل المنشور الأسباب التى دعت إلى عزل عرابى، وأعاب عليه إخلاء الاسكندرية دون مقاومة ، ثم دافع عن نيات الإنجليز واحتلالهم الإسكندرية وسوغه أن الغرض منه المحافظة على الأمن . وكان عرابى مرابطاً فى معسكره بكفر الدوار حين أصدر الخديوى أمره بعزله من منصبه ، فلم يكترث له واستمر يعد عدة الدفاع ليصد تقدم الانجليز (١) .

ولم تحفل الأمة بأمر الخديوى توفيق القاضى بعزل عرابى وإنما زادها ذلك تمسكا به والتفافاً حوله . ومن المواقف المشرفة لشعب مصر حقاً تبرع البلاد لهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة التى وضعها المراقب المالى الإنجليزى كافن تحت تصرف الإنجليز فى الاسكندرية ، وانما قامت هذه الحرب على ما بذله الشعب من قوته وماله، وفى هذا يقول عرابى فى مذكراته « .. جادت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والدواب والفاكهة والخضروات ، وذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الأقمشة والأربطة اللازمة لتضميد جراح العساكر ، ومن الاهالى من تبرع بنصف ما يملكه ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته » .

ولقد وجه عرابى كل عنايته إلى تحصين مواقعه فى الميدان الغربى ، وأهمل الميدان الشرقى إهمالا تاماً مما كان السبب الأكبر فى الهزيمة ، وقد نصحه البعض

(١) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٦٥ .

استكمالا لأسباب الدفاع أن يردم قناة السويس ، إلا أن فرديناند دليسبس غرر بعرابى وأكد له أن انجلترا لن تستطيع استخدام القناة لانها دولية . وانخدع عرابى بوعود دليسبس ، هذا بالإضافة إلى أنه لم يشأ أن يردم القناة محافظة على حيدتها ولعدم إغضاب الدول الاوربية الاخرى . ولكن انجلترا لم تعبأ فى هذه الظروف بالقوانين الدولية ، وكانت القناة هى الجانب الذى دخلت منه الجيوش البريطانية وقد ساعدها فى ذلك بعض الرجعيين ممن أرادوا الإخلاص للقصر ، ودخلت القوات الإنجليزية القاهرة بعد عدة معارك . وبارك الخديوى توفيق عرضا عسكرياً لهذه القوات أقيم فى ميدان عابدين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وعلى هذا النحو احتل الانجليز مصر ليسطروا فى تاريخها صفحة مظلمة استمرت أكثر من سبعين عاماً .

أسباب اخفاق الثورة :

يرجع فشل الثورة العرابية إلى عوامل متعدد خارجية وداخلية وأول العوامل الداخلية هو الإنقسام الذى وقع فى الصفوف بين العرابيين والخديوى توفيق ، فان هذا الانقسام جعل من البلاد معسكرين متحاربين معسكر الثورة ومعسكر الخديوى فوقع الصدام بينهما وتفاقم أمره وانتهز الانجليز فرصة وجوده وتذرعوا الى هذا الاحتلال بدعوى تأييد سلطة الخديوى وحماية العرش(١).

وقد كان للعوامل الخارجية أثر كبير فى اخفاق الثورة العرابية ، وأهمها المطامع الاستعمارية الاوربية وبخاصة الإنجليزية . ففرنسا وانجلترا كانتا تطمعان فى توسيع نفوذهما فى مصر ، ومن هنا جاء سخطها على الثورة العرابية وكراهيتها قيام حكومة دستورية فى البلاد ، وأعقب ذلك انسحاب فرنسا من الميدان وانفراد انجلترا بالتدخل لتحقيق مطامعها الاستعمارية فى مصر . هذا بالاضافة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٦٥ .

الى سلبية أوربا حيال الاعتداء البريطانى ، وسوء نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة وسعيها الاخرق فى استرداى الاستقلال الذى نالته مصر ، وما ظهر منها من التذبذب والتظاهر تارة بمناصرة العرابيين وتارة بتأييد الخديوى ، وانضمامها أخيراً الى جانب الانجليز باعلانها عصيان عرابى والحرب قائمة .. فكان هذا الاعلان ضربة شديدة الثورة وعضداً كبيراً للحملة البريطانية .

الا أنه انصافا للحق ، فانه يمكن القول أنه لم يكن من السهل على أمة تثور الحرية أن تتغلب على كل هذه العوامل مجتمعة ، ما لم تؤت قوة الجبابرة ، فالثورة الامريكية لم تدرك ما نالته من النجاح ولم تحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد أن عاونتها فرنسا بجيشها وأسطولها . وايطاليا لم تحقق وحدتها وتتحرر من النير النمسوى الا بمعاونة فرنسا العسكرية ، واليونان لم تتحرر من النير التركى الا بمعاونة روسيا وفرنسا وانجلترا ، وكذلك الامم البلقانية عامة لم تنفصل عن تركيا وتحقق استقلالها الا بمساعدة أوربا .

أما مصر فانها لم تحرم المعونة الخارجية فحسب ، بل تألبت عليها العوامل الخارجية وعاونت انجلترا على تحقيق أطماعها الاستعمارية(١) .

النتائج التى ترتبت على فشل الثورة العرابية :

(أ) لقد كانت النتيجة الاليمة لفشل الثورة العرابية هى الاحتلال البريطانى الذى ظل جاثماً على صدر الامة أكثر من سبعين سنة ، ولاشك أن هذا الاحتلال كان نجاحاً للثورة المضادة الخارجية ضد الثورة التحررية وهكذا شهدت السنوات الاولى للاحتلال إلغاء الدستور وحل مجلس شورى النواب ، وشهدت فوق ذلك استسلام كبار رجال مصر والاعيان لادارة المعتمد البريطانى وتقرب أكثرهم اليه .

(١) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

وقد عملت بريطانيا على توطيد مركزها فى مصر بالنسبة للمصريين من ناحية وبالنسبة للدول الأوربية الأخرى من ناحية ثانية ، وساعدها على ذلك وجود جيش احتلال تستمد منه القوة الفعلية لتحقيق أغراضها .

وكانت مصر تعانى إفلاسا فى ماليتها ، ومع ذلك فقد تكبدت نفقات جيش الاحتلال واتجه الانجليز إلى السيطرة على مالية البلاد، وضمنوا لمصر قرضاجديدا يسد تلك النفقات ، كما اتجهوا إلى إلغاء المراقبة الثنائية ، واتبع اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر عدة وسائل لزيادة الميزانية ، منها تحريم صناعة التبغ، وزيادة العوائد الجمركية على الدخان الوارد والتوسع فى مشروعات الرى وتقرير البدل النقدى عن الخدمة العسكرية .

(ب) محاكمة العرابيين :

عقب الاحتلال مباشرة ، تم اعتقال زعماء الثورة العرابية ، واعتقل أيضا كثيرون من الضباط، وألقوا فى السجن رهن التحقيق والمحاكمة، وكثرت الوشايات حتى امتلأت السجون بالمتهمين، وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من ٢٩٠٠٠ شخص.

واستقر رأى الانجليز على أن يقدم عرابى وصحبه أمام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديوى، وحكم على عرابى وستة من رفاقه بالإعدام، مع صدور الأمر الخديوى ، بإبدال الإعدام بالنفى المؤبد. كما أصدر الخديوى أمراً آخر فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بمصادرة ممتلكات الزعماء السبعة وتجريدهم من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها (١) .

ونتيجة لأحكام النفى والتشريد أمنت بريطانيا من أى ثورة تتهددها فى مصر .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - أحمد عرابى ص ٢٠١ - ٢٠٢

(ج) سيطرة الانجليز على الجيش المصرى :

بادر الانجليز إلى إلغاء الجيش الوطنى منذ الساعات الأولى للاحتلال واستعاضوا عنه بجيش هزيل وضع تحت إشراف ضباط إنجليز ليكون أداة مسخرة فى أيدى الاحتلال . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل حرص الانجليز على أن يعرقلوا أى سبيل للنهوض بالجيش من جديد ، فبادروا إلى إلغاء المدارس الحربية العليا كما أغلقت المصانع الحربية وبيعت سفن الأسطول المصرى ، وهبط عدد الجيش إلى أقل من عشر آلاف جندى

وكان الضباط المصريون لا يضمنون البقاء فى مناصب الجيش إلا إذا أبدوا ولاءهم للاحتلال ، أما إذا بدت منهم روحا وطنية ، كان جزاءهم الإحالة إلى الإستيداع ، وبذلك مسخ الاحتلال روح الجيش ، ونزل به إلى مستوى شنيع من الضعف .

ومنذ عام ١٨٨٦ وضع نظام البدل النقدى للاعفاء من التجنيد . وأدى هذا النظام إلى امتهان الجيش واعتبار التجنيد تكليفا تختص به الطبقات الفقيرة التى لايستطيع الفرد منها أن يفتدى نفسه بدفع البدل العسكرى ، وهذا النظام خرج بالجندية فى عهد الاحتلال من معناها السامى فى أنها فرض واجب على كل مواطن الدفاع عن بلاده إلى اعتبارها عبئا يقع على كاهل الفقراء ، وبذلك حرمت البلاد طيلة عهد الاحتلال روح الجندية الأصيلة المبنية على الشجاعة والتضحية ، كما حرم الجيش من الفئة المثقفة التى تستطيع أن تنهض بالجيش.

(د) إلغاء الدستور وحل مجلس شورى النواب :

ألغت بريطانيا الدستور عقب الاحتلال ، وحلت مجلس النواب، وحرصت على تشكيل هيئات هزيلة مثل مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين، وكان

الغرض من إنشاء تلك المجالس مجرد التنفس ، إذ أن الحكومة لم تكن فى الواقع تلتزم بقرارات تلك المجالس .

أما فى الوزارات والمصالح الحكومية . فقد عينت الحكومة عددا من المفتشين الإنجليز ولم يكن هؤلاء من طراز ممتاز فى العلم أو فى الكفاية . وكانت كلمة المستشار البريطانى أقوى من كلمة الوزير المصرى ، وكان لكل وزارة مستشارها ، وقل نصيب المصريين فى الوظائف الكبيرة ، وأصبحت الوزارات المصرية تأتمر بأوامر الانجليز ، واستمر ذلك تقريبا بالنسبة لجميع الحكومات المصرية التى تعاقبت فى سنوات الاحتلال ، وذلك منذ أرسل اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية برقيته المشهورة فى عام ١٨٨٤ بشأن أزمة السودان وجاء فيها . مادام الاحتلال قائما فلابد من اتباع النصائح التى ترسلها حكومة جلالة الملك إلى الخديوى ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن الحكومة الإنجليزية تصر على اتباع السياسة التى تراها ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير يعارض هذه السياسة .

(هـ) انجلترا والاستغلال الاقتصادى :

كان من أهم أهداف الاحتلال البريطانى الاستغلال الاقتصادى فكان أول ما جاهر به أن مصر بلد زراعى ولا يمكن أن تنهض فيه الصناعة ، ومن أجل ذلك أغلق الانجليز المصانع التى كانت موجودة بالفعل ، حتى تظل مصر فى حاجة دائما إلى المصنوعات البريطانية . ونظرا لأهمية القطن بالنسبة لمصانع الغزل والنسيج فى لانكشير ، اهتم الانجليز بزراعته فى مصر حتى أصبح عمود اقتصادها القومى ، ثم جعلوه فى أيديهم باعتبارهم المستوردين له ، وبذا صار اقتصاد البلاد بين أيديهم تماما .

كما عمل الانجليز على إيجاد طبقة من الملاك ترتبط مصالحهم بمصالحهم وشجع

الانجليز إنشاء الملكيات الكبيرة ، وفعلا ارتبطت مصالح هؤلاء الإقطاعيين بالاحتلال لأن مصالحهم أصبحت فى أيدى سلطات الاحتلال . وكان يؤخذ من هؤلاء الملاك ممثلو البلاد فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعية العمومية، لأن هؤلاء الإقطاعيين كانوا هم المسيطرين على الحياة فى الريف ، وبذلك اختل البناء الاجتماعى فى الريف المصرى اختلالا شديدا، إذ أصبحت غالبية الأرض الزراعية فى يد قلة من كبار الإقطاعيين ، وهناك بعض الفلاحين ممن يمتلكون مساحات ضئيلة، بينما الغالبية منهم لايمتلكون شيئا.

(و) اضمحلال التعليم :

كان هدف التعليم فى عهد الاحتلال هو المحافظة على الأوضاع السياسية التى قامت ، ومعنى هذا إقرار الأمن وجعل النظام مستتبا بحيث لاتستشرى روح الوطنية فى النفوس ، ولذلك كان التعليم فى بداية عهد الاحتلال تابعا لنظاره الداخلية ، ولاشك أن هذه التبعية توضح ما كان يريده الانجليز من التعليم، وهو إبعاده تماما عن دائرة التعليم الوطنى الذى يرمى إلى تكوين المواطن الحر الصالح .

والهدف الثانى للسياسة التعليمية فى عهد الاحتلال ، كان تخريج الموظفين الصغار الذين تحتاجهم وزارات الحكومة ، وقد انعكس هذا الهدف فى السياسة التعليمية ، بحيث أننا نلاحظ أن المدارس كانت تفتح أبوابها وتغلقها بطريقة موسمية وحسب حاجة وزارات الحكومة إلى الموظفين .

أما الهدف الثالث فهو تعميق الفوارق الطبقية بين أبناء الوطن الواحد واتخاذ تعدد نظم التعليم وسيلة لتحقيق ذلك، فقد شجع الاحتلال قيام المدارس الأجنبية والخاصة لتحقيق هذا الهدف .

أما الهدف الرابع ، فكان نشر الثقافة الانجليزية وجعلها أداة من أدوات الاستعمار .

وكان مجموع ما أنفقه الانجليز على التعليم فى الخمسة وعشرين سنة الاولى لعهد الاحتلال لم يتجاوز من ١ — ٣٪ من الميزانية. وألغيت المجانية وزيدت مصروفات المدارس الثانوية ، وبذلك خلق الانجليز ما يسمى بالأرستقراطية العلمية ، بل جعلوا من التعليم فجوة بين المتعلمين وعامة الشعب وأصبحت اللغة الإنجليزية لغة الدراسة فى المدارس حتى فى المدارس الابتدائية ، أما الكتب الدراسية فكانت خالية من كل نزعة وطنية بل كان الاهتمام بتاريخ أوربا وجغرافيتها أكثر من الاهتمام بتاريخ مصر وجغرافيتها حتى يفصل الإنجليز بين حاضر البلاد وماضيها الثقافى .

ويتضح عدم تشجيع الإنجليز للتعليم من أنه لم يكن يوجد بمصر سنة ١٩١٤ سوى ٦٨ مدرسة ابتدائية وثانوية تنفق عليها الحكومة ، على حين كانت توجد ٧٣٩ مدرسة خاصة يتردد عليها ٩٩٠٠ تلميذ و ٣٢٨ مدرسة من مدارس الإرساليات وغير ذلك بها ٤٨٠٠٠ تلميذ .

ومما يدل على عدم اهتمام كرومر بالتعليم أنه حين أحس فى أواخل عهده بالمناداة باستعمال اللغة العربية والاهتمام بالتعليم العالى ، بدأت أبواقه تذيع أن لنشر التعليم الاولى بين طبقات الشعب أجدى على البلاد من إنشاء الجامعة وأن الحكومة حينئذ أخذت تشجع انشاء الكتاتيب وتعينها بالمال ، وترتب على هذا أن أبناء الأثرياء وحدهم هم الذين كان بوسعهم تلقى التعليم الفنى والعالى بالسفر الى الخارج (١)

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — تاريخ مصر السياسى ص ١٨

الزعيم مصطفى كامل :

بعد النتائج المؤسفة التى نجمت عن فشل الثورة العرابية ، وبعد أن استولى الإنجليز على مقدرات البلاد، لم يكن غريباً أن يمر العهد الأول للاحتلال الإنجليزى دون مقاومة تذكر، وكذلك فقد خضعت الحكومة المصرية خضوعا كاملا لأوامر المعتمد البريطانى .

وفى وسط هذه الظلمة الحالكة ، ظهر من بين المصريين طراز جديد من المثقفين الذين رفعوا راية الكفاح ضد الاحتلال .

وكان على رأس هذه الجموع الثائرة شاب متوقد الذكاء شديد الحماسة هو مصطفى كامل . درس المحاماة وتلقى المحاضرات فى مدرسة الحقوق المصرية — ثم أتمها فى مدرسة الحقوق الفرنسية وكان مصطفى كامل خطيبا مؤثرا يستطيع ببلاغته أن يخاطب قلوب الجماهير ، وأخذ يمىء شعور المصريين بالمقالات والخطب (١) .

ولاشك أن مصطفى كامل هو باعث الوطنية المصرية بعد الاحتلال ، وهو الذى أعاد إلى المصريين ثقتهم بأنفسهم بعد فشل الثورة العرابية . وكان أول ما واجهه من الصعاب هو اليأس الذى ران على نفوس الكثيرين من صدمتهم كارثة الاحتلال . لذلك كان أول مايجب أن يتجه إليه زعيم الحركة الوطنية فى تلك الآونة أن يذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم ومافعله أجدادهم فى القريب والبعيد من أيامهم(٢) ، فهو يقول « إن ثقة الأمة بنفسها هى الاساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد غدها وسؤددها . ترى الامة إذا اعتنقت الحرية والقدرة فى

---

(١) د. جاد طه ـ الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨١

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق ص ٣٠.

بمجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة (١) .

وكانت خطة مصطفى كامل فى العمل الوطنى تتلخص فى إيقاظ موجة الحماس الوطنى فى مصر . وكذلك فى بذله قصارى جهده للدفاع عن عدالة القضية المصرية أمام الرأى العام الأوربى مما يساعد على خلق رأى عام دولى مؤيد للجلاء .

وفى سنة ١٩٠٠ أصدر مصطفى كامل جريدة اللواء لمقاومة الانجليز ومطالبتهم بالجلاء . ولم تكن اللواء صحيفة سياسية محضة ، بل كانت تهتم أيضاً بالمسائل الاقتصادية والأدبية والاجتماعية والعلمية ، ففى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ — مثلا — ناشد مصطفى كامل الشعب المصرى أن يتوسع فى الصناعة ونشر التعليم الصناعى لما فيه من خدمة جليلة للبلاد ، بل اعتبره الأساس المتين الذى سيقوم عليه مستقبل وادى النيل (٢) .

كما أفاد مصطفى كامل من أخطاء العرابيين ، فحاول رأب الصدع الداخلى الذى نفذ منه المستعمر ، فهو من ناحية يلتصق بالخديوى عباس ، ويحافظ على صلته به حتى فى الأوقات التى تيقن فيها أن ليس ثمة مجال لحفظ الود بينهما .

وحرص مصطفى كامل على نشر التعليم إدراكا منه أن أداة نشر الوعى القومى الصحيح ولم يتوقف طيلة حياته السياسية القصيرة عن الإثارة والدعاية فى مصر وخارجها ، سواء فى خطبه أو مقالاته ومراسلاته، فهو يذكر الأنجليز بوعودهم المتكررة بالجلاء ، ويتهم كرومر بالإهمال المقصود للتعليم إذ لم تنشأ — فى ظل الاحتلال — أية مدرسة ، بل لقد أغلق الاحتلال عدة معاهد كانت مزدهرة قبل الاحتلال كمدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة الآثار المصرية .

---

(١) د. جاد طه — الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨٢

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق ص ٣٤

وفى عام ١٨٩٥ استطاع المستشار المالى الإنجليزى أن يقضى على البعثات بحجة أن الحكومة لا تطلب من المدارس سوى تخريج الموظفين ، وأن المدارس الموجودة بمصر كافية لهذا الغرض ، ومنذ ذلك الوقت لم يلجأ طالب مصرى إلى الحكومة لتكملة علومه فى أوربا . وروج مصطفى لتعليم البنت حتى تستطيع أن تلعب دورها فى تكوين المواطن الصالح ، وحث على تشجيع التعليم المهنى والفنى ، وأهاب بالأغنياء أن يبنوا المدارس ، وشن حملة واسعة للاكتتاب فى الجامعة التى اشتدت المطالبة بها فى والقرن العشرين (١) .

وأضاف مصطفى إلى نشاطه الداخلى نشاطا خارجيا يثير الرأى العام على انجلترا ، فاتجه إلى أوربا وألم بفرنسا والنمسا وألمانيا بل ولندن ذاتها ، وهو ينشر المقالات باللغات الأجنبية ، ويستخدم كل وسائل الإعلام بأنواعها المتيسرة حينذاك كى يؤلب الشعوب والحكومات على الاحتلال البريطانى لمصر ، ويتخذ من الضمير العالمى سندا له وعونا فى مقاومة هذا الاحتلال ، فنجده يتصل بكبار السياسيين والصحفيين والبرلمانيين ويحاول إقناعهم بعدم مشروعية الاحتلال البريطانى لبلاده .

وتدخل مصطفى فى النزاع التقليدى بين انجلترا وفرنسا ، واتخذ من صحافة فرنسا ونوابها وشيوخها وساستها وسائل لفضح الاستعمار البريطانى(٢). وفتحت له مدام جوليت آدم المجتمع الفرنسى ليدعو فيه إلى عدالة قضية الجلاء .

وواصلت انجلترا مساعيها السياسية حتى تم عقد الوفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ ، وبه حصلت على إطلاق يدها فى مصر على ألا تجرى أى تغيير فى نظام مصر السياسى . وأقرت ألمانيا والنمسا الاتفاق ، وبذلك انهار

---

(١) (المصدر السابق) ص ٣٦-٣٧ .

(٢) جاد طه — العصر الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨٢ .

ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار المجهود الذى بذله من قبل فى المجال الدولى حين كان همه التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى تضغط على انجلترا وتحملها على تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل . ويبدو أثر الوفاق الودى على مصطفى كامل من خطاب بعث به إلى جولييت آدم فى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ جاء فيه « ليس فى وسعى أن أتعزى أمام هذه الاتفاقية الإنجليزية - الفرنسية المشئومة التى ستجلب أسوأ النتائج على وطننا التعس .. كما أنه ليس فى وسع جميع مدارس المعمورة أن تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . إن مواطنى يكرهون اليوم فرنسا أكثر من إنجلترا نفسها . إنك لا تدرين مبلغ تعاظم الإنجليز فى الوقت الحاضر . إنهم يسخرون منا نحن ذو العقول الصغيرة ، الذين أعتمدنا على فرنسا ، ولهم الحق أن يسخروا . إن موقفى الشخصى يعد من أصعب المواقف وأخطرها . فإن جميع أصدقائى المصريين والفرنسيين الذى كانوا يناضلون بجانبى أصبحوا إما أصدقاء للانجليز أو يائسين من الكفاح »(١) .

وهكذا أصيب مصطفى كامل بخيبة أمل من مساندة فرنسا له فى صراعه مع الإنجليز وآمن أن المسألة مسألة مصالح وتتلخص وجهة نظره فى هذا الصدد فى قوله « إننا لم نيأس ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز ، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا . فإننا يائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوربا » .

وبعد ذلك وجه مصطفى كل همه فى مصر نفسها (٢) ، ففى عام ١٩٠٧ أصدر صحيفتين باللغتين الفرنسية والإنجليزية ، ثم أنشأ فى نفس السنة حزب الأمة ، هذا برغم أن مصطفى كان لا يؤمن بإنشاء حزب اعتقادا منه أن ذلك من شأنه

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى . المصدر السابق ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) د. جاد طه — الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨٢ — ٨٣ .

أن يؤدى إلى انقسام الامة . على أنه ما أن أسس حزب الأمـــة حتى أرسل إلى صديقه وصفيه محمد فريد يذكر له أن الحزب الوطنى الذى واصل العبء الرئيسى للنضال ضد الاحتلال طيلة ثلاثة عشر عاما يجب أن يظهر بصفة رسمية بحيث تعلم الدنيا جميعا أنه يوجد بمصر حزب يطالب بالجلاء الناجز . وكان الوقت مناسبا لظهور حزب متطرف فى عدائه للانجليز. فالوفاق الودى ترك الوطنيين المصريين أمام الإنجليز وجها لوجه ، كما أن محاكمات دنشواى سنة ١٩٠٦ أثارت الفلاحين ضد الاحتلال ، وأظهرت مدى كذب ما كان يتغنى به كرومر من السهر على رخاء الفلاحين وعدالة الإدارة الإنجليزية ، وأدت إلى توحيد مشاعر العامة والخاصة ضد الاحتلال (١)

وبصفة عامة ، يلاحظ على برنامج الحزب الوطنى رغم اتجاهاته الوطنية ومناداته بالاستقلال والحرية ، إنه لم يهتم اهتماما كبيرا بالمشكلات الاقتصادية ، وأهمل المشكلات الاجتماعية إهمالا يكاد يكون تاما . ومرجع ذلك أن تكوين الحزب الوطنى والأحزاب السياسية الأخرى التى عرفتها مصر كان تكوينا بورجوازيا، بحيث أن وسائلها كانت مقصورة فى أغلب الاحوال على التهييج والإثارة بحكم أن المشكلات السياسية لا الاقتصادية أو الاجتماعية هى التى خلقتها ، ولأن كبار رجالاتها كانوا من الأغنياء والمحامين والأدباء والصحفيين والأطباء والمهندسين. على أن الحزب الوطنى قد تنبه إلى هذا النقص حين انتقلت قيادته إلى محمد فريد ، فظهرت فيه الدعوة إلى إنشاء نقابات العمال ونشر الجمعيات التعاونية وتنظيم نشر الثقافة الشعبية فى مدارس الشعب الليلية التى كانت تعلم العمال القراءة والكتابة ومبادىء التربية الوطنية ، كما طالب محمد فريد بإعادة النظر فى القوانين الضريبية لإعفاء العمال والفلاحين والطبقات الفقيرة من الضريبة وتقرير التأمين الاجتماعى

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ــ المصدر السابق ص ٣٨ ــ ٣٩ .

للفئات العاملة وتحقيق مستوى لائق لهم من الناحية الصحية والتعليمية ، ويمايوسف له أن ما تنبه إليه محمد فريد لم يجد صدى لدى معظم ساسة الجيل التالى الذين شغلتهم شئون الحكم والتطورات السياسية والمفاوضات عن الالتفات إلى قضايا البلاد الاجتماعية والاقتصادية (١)

وحدث أن وقع فى يد محمد فريد مصادفة صورة من مشروع مد أجل امتياز قناة السويس أربعين عاما أخرى من عام ١٩٦٨ إلى عام ٢٠٠٨ ، ومن ثم نشر فريد هذا الموضوع مع التنديد بسياسة الحكومة ، وكان أن رفضت الجمعية التشريعية هذا المشروع على الرغم من أن سعد زغلول نفسه - الذى كان وزيرا للحقانية (العدل) فى تلك الحكومة - كان قد بذل جهدا كبيرا فى إقناع أعضاء الجمعية بالموافقة على المشروع ... إلا أنه نتيجة لما نشره محمد فريد لم يستطع سعد زغلول أن يقنع النواب بأن هذا المشروع وبال على البلاد (٢)

ونستطيع أن نضع تقييما للحركة الوطنية فى الفترة من ١٨٨٢ - ١٩١٤ ، فنقول إنه على الرغم مما حققته من بعث الوطنية فى النفوس بعد مرحلة اليأس الشديد ، فإنها قد أعوزها أهم مقومات نجاحها وهو الاعتماد على جماهير الشعب العاملة من الفلاحين والعمال ، ولم تتجه الحركة الوطنية إلى الشعب إلا بعد أن أدركت عبث سيرها فى غير هذا الطريق ، وعلى أية حال فلم يؤذن لتلك الحركة أن تواصل سيرها إذ حدثت هوة فاصلة عندما أعلنت الحرب العالمية الاولى وما ترتب على ذلك من اخماد الحركة الوطنية .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤ - ٤٦ .

(٢) د. جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨٤ - ٨٥

الفصل الثامن

حركات اليقظة العربية[1]

أولا ـ بداية اليقظة العربية :

كان الحكم المصرى فى الشام ثلاثينات القرن التاسع عشر قد حمل البـــذور الأولى لليقظة العربية فى تلك المنطقة . ولقد بدأت هذه البذور فى الانبـات مع الإتجاه العلمانى ومع فتح الابواب لنشاط الغربيين والمبشرين ، مما أدى إلىظهور شخصيات عربية يمكننا اعتبارها طليعة لليقظة القومية التى اعتزت بنفسها وبلغتها وبتراثهـــا .

الاحتكاك بالاراء الغربية :

كان التسامح الدينى أولى الصفات التى تميز بها حكم ابراهيم باشا فى الأقاليم السورية ، ويعنى التسامح الدينى عدم التفريق بين العربى المسلم والعربى المسيحى أمام الدولة وأمام القانون ، فالكل رعية ، وعليه أن يخدم وأن يخضع للدولة ، مهما كانت الطريقة التى يتصل بها بالخالق .

ولقد فتح هذا الاتجاه العلمانى أبواب الأقاليم الشامية أمام بعثات التبشير الغربية وخاصة البعثات البروتستانتية الامريكية والبعثات الكاثوليكية الفرنسية، وبشكل ساعد على نمو اليقظة عند العرب .

وكانت بعثات التبشير قد بدأت عملها فى سوريا منذ أوائل القرن السابع عشر ، ولكن عملها ظل مقصوراً على النشاط فى الاوساط المسيحية ، وكانت

---

(١) أنظر · د. جلال يحيى : العالم العربى الحديث . ج ١ : المدخل · دار المعارف ، ١٩٦٢ ، ص ١٧٩ .

كاثوليكية فى غالبيتها ، وحاولت خدمة العرب الذين يرتبطون بالكنيسة الرومانية.
ولقد قصرت مجهوداتها على نشر عدد من كتب العبادات ، وإنشاء عدد من المدارس والمعاهد ، وكانت فى ذلك الوقت تشعر بأنها أجنبية ، وأنها تعمل مع أقليـة ، فظهر تعصبها الدينى ، وحصرت مجهودها على الطوائف المسيحية ، كما حصرت نشر كتبها على اللغة الاوربية .

وكان اليسوعيون أو الجزويت من بين أنشط هذه الجماعات ، وقد ثابروا وعملوا منذ سنة ١٦٢٥ حتى سنة ١٧٧٣ رغم قلة مواردهم، ثم اضطروا إلى تسليم نشاطهم إلى العازريين لاتمام عملهم ، وإن كانوا قد عادوا إلى الشام فى سنة ١٨٣١ من جديد بعد أن نزلت بعثات التبشير الامريكية الى الميدان.

ولقد وصل رجال التبشير الامريكيون الى الشام فى سنة ١٨٢٠ ، وجاءوا من مالطة وحاولوا مد نشاطهم صوب الشرق ، وأقاموا فى بيروت واتخذوها قاعدة لعملياتهم . ولم يكن فى سوريا فى ذلك الوقت طوائف بروتستانتية . فعمد الامريكيون إلى تحويل الكاثوليك الارثوذكس إلى المذهب البروتستانتى. ولقد أثار نشاط التبشيرية شعور الاهالى ضدهم ، مما أدى إلى حصر مجهوداتهم فى دوائر محدودة وصغيرة . وظل الامريكيون يقصرون عملهم فى داخل أسوار مدينة بيروت التى لم يزد عدد سكانها عن ٩ آلاف نسمة فى ذلك الوقت ، أما الكاثوليكيون فانهم قد تمكنوا من تأسيس بعض المدارس فى دمشق وحلب ولبنان . ولقد قصر هؤلاء المبشرون نشاطهم على محاولة كسب الأهالى الى الدين المسيحى ، أو تحويلهم الى مذهب آخر ، وقاموا بذلك وبلغتهم الامريكية أو الفرنسية ، مما لايسمح بتشجيع اللغة العربية أو النهوض بها . وأدى ذلك بالتالى إلى ازدياد روح التنافس بين الطوائف المسيحية فى الاقليم بدلا من تجميعها والربط بينها .

وكان مجيء حكم المصريين إلى الشام يبشر بتغيير هذه الأوضاع ، والتأثير بالتالى فى الاتجاهات العامة الموجودة فى البلاد . لقد فتح الحكم المصرى المجال أمام البعثات التبشيرية فأدى ذلك إلى زيادة عدد المبشرين وإلى انتشارهم فى جميع أنحاء الاقليم . وجاءت أعداد هامة من اليسوعيين إلى الشام فى سنة ١٨٣٤ ، ثم جاء عدد من الامريكيين ، وبدأوا فى التنافس ، وبشكل ساعد على انتعاش اللغة العربية وإلى قيام حركة فكرية ظهرت فى الادب ثم انتقلت بعد ذلك الى السياسة .

ولقد ظهر الحكم المصرى فى الشام على أنه يحمل عوامل تساعد على ايقاظ القومية العربية، إذ سرعان ما أخذ الكاثوليكيون فى فتح كليتهم الخاصة فى عين طورة، ونقل الامريكيون أحد مطابعهم من مالطة إلى بيروت ، كما أنشأوا مدرسة التعليم الاناث فى هذه المدينة . تم ذلك فى سنة ١٨٣٤ ، وفى الوقت الذى قام فيه ابراهيم باشا بتطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائى على نفس الطريقة التى سار بها والده فى مصر . ولقد خرجت كلية عين طورة عدداً من الكتاب والمفكرين ، كما أن نظام التعليم الذى أدخله ابراهيم قد أثر فى تقدم الوعى القومى وخاصة بين المسلمين، وكان افتتاح الامريكيون لاحدى المدارس الخاصة بتعليم البنات أثراً كبيراً فى ذلك الوقت الذى أهمل فيه نصف المجتمع، كما أن إنشاء مطبعة لنشر الكتب باللغة العربية قد فتح آفاقا جديدة أمام التعليم ، رغم أن معظم الكتب المطبوعة كانت كتبا مدرسية . وكان كل ذلك تجربة أساسية دفعت بالاقاليم السورية دفعا إلى الأمام ، رغم أن العوامل أثرت فيها كانت متعارضة أو متنافسة ، وأدت بها إلى الحركة بعد زمن طويل من الركود ، وإلى التفكير والقراءة باللغة العربية بعد اهمال لها مدة قرون طويلة . وهكذا تعاون المصريون مع البعثات الامريكية والفرنسية على نشر الثقافة العربية ، وساعد ذلك على وضع الأسس الاولى للاهتمام بالتراث العربى ،ومع الإحتكاك بمصر وبالغرب ، فبدأ ظهور الشعور القومى فى المنطقة العربية .

ولقد أخذ المصريون فى فتح المدارس الابتدائية فى معظم أنحاء البلاد ، وأنشأوا عدداً من المدارس الثانوية فى بعض المدن الكبيرة . حقيقة أن ابراهيم لم يهدف نشر التعليم فى حد ذاته ، بل اتخذها وسيلة لتحقيق أهدافه السياسية والعسكرية ، فخدم بذلك فكرة القومية العربية بطريق غير مباشر . ولقد زاد شعور أبناء الاقليم السورى بعروبتهم ، وخاصة من توصل منهم إلى الدراسة فى مدارس دمشق وحلب وانطاكية . وهدف ابراهيم إلى اعداد الضباط اللازمين لجيشه فى هذه المدارس ، فاختار طلابها من المسلمين والبسهم الكساوى العسكرية وتكفلت الدولة بالإنفاق عليهم فى الإسكان والطعام ، كما كانت تمنحهم المرتبات فى أثناء دراستهم . وكانوا جميعا يتدربون على الفنون العسكرية . ولقد حقق هذا النظام الكثير ، وأخرج عدداً من الضباط العرب خدموا فى القوات المصرية ، واعتزوا بشخصيتهم العربية ، رغم أن النظام لم يدم فى سوريا إلا ست سنوات. كما أن خوف المسلمين من تجنيد أبنائهم فى مثل هذه المدارس العسكرية دفع بهم إلى إنشاء مدارس أخرى خاصة يرسلون اليها أبناءهم تخلصا من الخدمة العسكرية ، كما ذكرنا ، فأعطت السياسة المصرية نتيجتين تعاونتا على زيادة نشر التعلم بين العرب فى ذلك الإقليم ، ومهدت الطريق لازدياد قيمة هذه النتائج مع الزمن . وجاءت بعثات التبشير المسيحية لكى تدعم محققات المصريين فى نفس الميدان .

نشاط المبشرين :

كان نشاط المبشرين الامريكيين كبير الاثر فى إيقاظ روح القومية العربية فى الشام فى ذلك الوقت ، وقد أدركوا أن الاهتمام بالتعليم ، والاهتمام بالتراث العربى أخصب ميدان للعمل بعد فترات طويلة من الركود . ولقد بدأ الأمريكيون أنفسهم بتعلم اللغة العربية فى الوقت الذى كانوا ينقلون فيه مطبعتهم صوب الاقليم . وسرعان ما تمكنوا من طبع عدد من الكتب سدت حاجة المدارس التى أنشأوها .

وأدخل الأمريكيون تجديدا فى نظام سبك الحروف العربية وبشكل سمح لهم بمواجهة مشروعات كبيرة ، مثل إخراج الترجمة الجديدة للتوراة باللغة العربية .

ولقد اعتمد الامريكيون على اثنين من علماء العرب فى ذلك الوقت هما ناصيف اليازجى ، وبطرس البستانى ، لتأليف كتب مدرسية صغيرة ، ثم قاموا بطبعها وبتوزيعها وبشكل ساعد على سد نقص وعطش واضح فى السوق ، ظهر من تلقف الأهالى لهذه الكتب .

ولقد فتح المبشرون الامريكيون مدارس مختلفة فى بيروت والقدس ، ثم بدأوا فى محاولة لتخريج عدد من المعلمين المؤهلين ، فحولوا إحدى مدارسهم العالية إلى كلية للمعلمين ، ثم توجوا أعمالهم بانشاء الكلية البروتستانتية السورية فى بيروت سنة ١٨٦٦ . وكانت هذه الكلية السورية البروتستانتية تقصر عملها فى أول الأمر على بعض الدراسات الثانوية العليا وعلى الطب ، ولكنها كانت تدرس باللغة العربية ، وارتفع مستواها حتى وصل إلى المستوى الجامعى . وكان الاصرار على التعليم باللغة العربية ، ومواصلة إخراج الكتب العربية يجعل من الامريكيين رواداً فى هذا الميدان وفى تلك المنطقة ، وإن كانوا من الأجانب ويهدفون النشاط التبشيرى فى نفس الوقت .

أما بعثات التبشير الكاثوليكية فإنها قد زادت من نشاطها كذلك ، وأنشأوا المدارس فى بيروت وزحلة ثم فى دمشق وفى حلب . وأنشأوا جامعة القديس يوسف فى بيروت ، وهى التى ستقف إلى جوار الجامعة الامريكية فى هذه المدينة .

ولقد عمل اليسوعيون كذلك على تأسيس مطبعة لهم فى سنة ١٨٤٧ ، وكانت حجرية فى أول الأمر ، ثم استخدموا فيها الحروف بعد ذلك . وأخذوا فى طباعة كتب التراث القديم وبعض كتب التعليم .

ونشط إلى جانب ذلك عدد من رجال التبشير الآخرين مثل راهبات المحبة ،

ومثل العازريين وغيرهم وإن كانت مجهوداتهم ضعيفة . وساعد كل ذلك على النهوض بالتعليم وفى البدء فى حركة نهضة عربية ، حتى وإن كان ذلك فى الميدان الأدبى ، كما يظهر من نشاط الطليعة العربية التى بدأت فى العمل فى ذلك الميدان وفى ذلك الوقت .

طليعة الكتاب العرب :

امتازت هذه الفترة بظهور شخصيتين من أهم الشخصيات التى سيطرت على الحياة الفكرية فى الاقاليم السورية ، هما ناصيف اليازجى ، وبطرس البستانى .

أما ناصيف اليازجى فقد ولد فى إحدى قرى لبنان فى سنة ١٨٠٠ وتعلم فى المدارس الموجودة فى عصره فى ذلك الوقت، وكان تعليما جافا، إلا أنه لم يقض على رغبته فى زيادة القراءة والاطلاع والانتاج كان مسيحيا فدرس على القسس ثم أخذ فى البحث فى المخطوطات المخزونة فى مكتبات الاديرة . ولقد مكنه ذلك من الوصول إلى أعماق الأدب العربى القديم والاعتزاز بذلك التراث الهام الذى طمسه الزمن ، وشعر بجمال الاسلوب ورصانته وعمل على إعادة اللغة العربية الى مجدها القديم . ولقد اشتغل مع بعض رجال الدين ثم فى ديوان الأمير بشير حاكم لبنان حتى سنة ١٨٤٠ حين نفى هذا الأمير من البلاد ، فاتجه اليه الأمريكيون وطلبوا معونته فى إصدار عدد من الكتب فى علوم اللغة العربية تستخدم فى المدارس الخاصة ببعثات تبشيرهم ، فكتب فى النحو والمنطق والبلاغة والعروض .

ولقد أصبح داره فى بيروت مركزا يجتمع فيه عدد من المريدين، ويستمعون اليه . وكان لا يتحدث إلا عن اللغة العربية وعن تراث العرب ، خاصة وأنه لم يكن يعرف غيرها . وظهر أن المسيحيين لا يقلون عن المسلمين إعتزازا بلغتهم وعملا على احيائها واتخاذها الوسيلة الفعالة للتقريب بين أبناء الشعب دون التفات إلى عناصر التفرقة القديمة. وربى اليازجى كل أبنائه وبناته على هذه الآراء

وظهر من بينهم من عمل فيما بعد على رفع لواء البعث القومى العربى عاليا .

أما الشخصية الثانية فهى بطرس البستانى ، الذى ولد فى لبنان فى سنة ١٨١٦ . وكان مسيحيا كذلك ، وإن كانت ظروفه قد سمحت له بتعلم لغات أخرى غير العربية على العكس من اليازجى . ودرس لدى المبشرين ثم عمل فى التدريس ، وتحول إلى المذهب البروتستانتى ، مما قرب بينه وبين الأمريكيين . ولقد عمل على ترجمة الانجيل الى العربية بعد أن درس اللاتينية والسريانية والعبرية والآرمية واليونانية والانجليزية والفرنسية والايطالية . وكانت له قدرة عظيمة على هضم كل ما يقرأ ، وقدرة فائقة على الإنتاج . ووضع قاموس محيط المحيط ، ثم عمل له مختصرا باسم قطر المحيط حتى يسهل تداوله . وبدأ بعد ذلك فى عمل دائرة المعارف وتمكن من أن تتم ست مجلدات منها قبل وفاته .

ولقد نزل البستانى الى الميدان العام عندما وقعت حوادث سنة ١٨٦٠ التى هددت برجوع روح التعصب الدينى بين المسيحيين والمسلمين ، فأنشأ جريدة عربية اسبوعية فى بيروت اسمها نفير سوريا ، كانت أول جريدة سياسية تنشر فى هذا الاقليم ، ونادت بالتآخى بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وضرورة تعاونهم فى سبيل الدراسة والتحصيل . وهاجم التعصب وشرح الروابط التى توحد بين أبناء الاقليم الواحد ، وكانت هذه هى البذور السياسية الأولى لفكرة القومية العربية . وبعد ثلاث سنوات أنشأ المدرسة الوطنية ، التى سارت على نفس الآراء ، وسمح بدخولها لكل السوريين مهما كان مذهبهم . وأنصب نشاط هذه المدرسة على تخريج جيل وطنى يعتز بعروبته قبل أى شىء آخر . ثم أصدر جريدة الجنان ، وجعل شعارها « حب الوطن من الايمان » ، وشارك فى الكتابة فيها عدد من كتاب الشام والبلاد المجاورة ، كانت تحض على فكرة التسامح الدينى والنظرة الواسعة المتحررة .

وساعدت هاتان الشخصيتان على تقدم الحياة الفكرية فى سوريا ، خاصة وأنهما

قد فضحا حوادث سنة ١٨٦٠، وارجاعها الى الجهل الذى كان السبب الاول فى التعصب.

ولقد نشأت بعض الجمعيات الادبية فى هذا العصر، نتيجة لنشاط مثل هذه الشخصيات، ونتيجة لعملهم على رفع المستوى الثقافى واتصالهم بالثقافة الغربية. فأنشئت «جمعية الآداب والعلوم» فى بيروت سنة ١٨٤٧ وانضم اليهـا عدد من الامريكيين والانجليز علاوة على اليازجى والبستانى. وكانت هى الجمعية الاولى من نوعها فى الشام، ونشأت بعدها جمعيات أخرى ساعدت على نمو الفكرة العربية.

ولقد احتذى اليسوعيون حذو الامريكيين وأنشأوا «الجمعية الشرقيـة» سنة ١٨٥٠، ثم نشأت بعد ذلك جمعية أخرى فى سنة ١٨٥٧ امتازت على الجمعيتين السابقتين بأن كل أعضائها كانوا من العرب، ومن المسلمين والمسيحيين سويا. وكانت هى «الجمعية العلمية السورية» التى بلغ عدد أعضائها ١٥٠ عضوا. وكان هذا يدل على التطور الطبيعى لانتشار الثقافة فى الاقاليم الشامية، وعدم رفض المسلمين المشاركة فى هذا الميدان، ما دامت العناصر التبشيرية قد أبعدت عنها. ولقد أسهم فى نشاط هذه الجمعية الأخيرة كثير من الشخصيـات العربيـة التى تقيم فى القاهرة، وفى القسطنطينية. ونشأت آراء جديدة توحد بين أصحاب المذاهب المختلفة، الذين يسكنون نفس الاقليم، ويتكلمون نفس اللغة. وكان هذا الفهم الجديد لذلك الرباط القومى هو بداية اليقظة القومية العربية، والالتفاف حول راية العروبة، وستصدر منها الصرخات الاولى التى ستتحول مع الزمن الى ثورة تعتز بقوميتها.

ثانيا: الدولة ومحاولات الاصلاح.

كان الحكم المصرى قد قلب التوازن السابق الموجود بين المسيحيين والمسلمين والدروز، وذلك نتيجة التسامح الذى وضعه المصريون، والذى أغضب المسلمين ونتيجة لنشاط الدعاة الاجانب الذين جاءوا من انجلترا بنوع خاص لتحريك

التنافس القديم بين الدروز والمسيحيين . وحينما انسحب المصريون وجدت الطوائف الثلاث نفسها وجها لوجه وافتقدوا يد ابراهيم القوية اللازمة لوقف كل منها عند حده وإخضاعه ، كمواطن ، لسلطة الدولة . فلم تمض سنة واحدة على إنسحاب المصريين حتى بدأت المشكلات بين المسيحيين والدروز تظهر واضحة فى الاقليم الساحلى وفى مناطق الجبل وحاولت الدولة من ناحيتها ادخال اصلاحات ولكن النفوذ الأجنبي لكل من الروسيا وفرنسا أثر على الموقف ، وفى مراحل متتالية .

خطى شريف كلخانة :

حاول السلطان عبد الحميد الذى تولى الحكم فى سنة ١٨٣٩ أن يظهر نفسه كحاكم مصلح أمام الشعب وأمام الاجانب ، فبدأ ما يسمى بعهد التنظيمات الخيرية العثمانية . وأعلن وزيره الأول مصطفى رشيد باشا مرسومه الذى اشتهر باسم خطى شريف كلخانة ، والذى أعلن فى حديقة كلخانة ، وفى جو حافل بالصلوات وضرب المدافع . كان هذا المرسوم الذى بدأ به السلطان عهده عبارة عن وعد بادخال إصلاحات معينة ، وتعهد باحترام الحريات العامة والممتلكات والاشخاص ، دون نظر إلى المعتقدات الدينية أو العنصر . ولقد وعدت الدولة بعلانية محاكمة المتهمين ، وبعدم عقاب أى مذنب دون محاكمة ، كما وعدت بحسن توزيع الضرائب وتحسين طريقة جبايتها ، وتعهدت بتنظيم التجنيد وتحديد فترة الخدمة العسكرية . ولقد جاء فى هذا المرسوم : « إن الدولة كانت تراعى الأحكام الشرعية فبلغت قمة المجد ، ومنذ مائة وخمسين سنة اهملت الادارة الشرعية بسبب الغوائل وما عرض من حوادث ... فاقتضى مراعاة ما يجب لوضع قوانين جديدة لانكشاف القابليات فى الاهلين ، وحفظ نفوسهم وأموالهم واعراضهم ، وأن تقوم بحسن الادارة ، وتعيين الضرائب ، وتحديد مدة الجندية ، وتأكيد الثقافة » (١) .

(١) أنظر : سورية فى القرن التاسع عشر ، للدكتور عبد الكريم غرايبة — القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٦ .

وكان هذا الاتجاه يعنى بداية احترام الفرد والفردية ، والدفاع عن الملكية الشخصية ، وجاء فى عام ١٨٣٩ لكى يدعم المعاهدة الانجليزية العثمانية ، والتى عقدت فى العام السابق ، والتى نصت على إنهاء نظام الالتزام ، واعترفت بمبدأ حرية التجارة للجميع ، وفى جميع أنحاء الدولة العثمانية . لقد كان وعدآمن الدولة العثمانية باحترام الحريات،أى بفتح الباب أمام نمو الطبقة الوسطى ، وأمام زيادة النشاط الرأسمالى الاجنبى فى انحاء الامبراطورية . ولقد أيدت انجلترا هذا الاتجاه الذى أظهره السلطان ، واستندت اليه للقضاء على خطر محمد على ،ولاعادة سوريا إلى حكم الدولة العثمانية فى سنة ١٨٤١ .

ولقد عمل السلطان ، ووزيره مصطفى رشيدباشا،وبتأييد من السفيرالبريطانى على تنفيذ ما وعدبه ، فاعاد تنظيم الادارة حسب الطريقة الفرنسية، وألغى نظام الالتزام ، وشكل مجلسا للاحكام القانونية ، ومجلسا للتجارة ، وأصدر قانونا جديدا للعقوبات . ولكن الروسيا تعاونت مع النمسا فى الضغط على السلطان لاجباره على تنحية مصطفى رشيد باشا فى سنة١٨٤١ ، وظل بعيدا عن الحكم حتى سنة ١٨٤٥ . وكانت هذه الفترة كافية لكى يغير الرجل إتجاهه ، واكتفى بعد عودته باصدار قانون لالغاء الرقيق سنة ١٨٤٩ وقانونا آخر للتجارة ، وظلت أحوال الاهالى فى الامبراطورية كما هى بعد أن انصرف الاهتمام إلى مصالح الدول الاجنبية قبل غيرها .

لقد كان هذا الاتجاه يساعد على فتح أبواب الامبراطورية العثمانية فى وجه النشاط التجارى الاجنبى بشكل عام ، والبريطانى بشكل خاص . وكانت فرنسا مشغولة فى ذلك الوقت بحربها فى الجزائر ، وبعملياتها ضد الأمير عبد القادر . ولكن بريطانيا لم تكن بمفردها فى الميدان ، خاصة وأن أنظار الروسيا كانت قد بدأت فى التركز على الدولة العثمانية ، وأرادت الخروج من البحر الاسود إلى

المياه الحرة فى البحر المتوسط ، وحاولت أن تستند الى الحركات الاستقلالية فى البلقان ، والى الطوائف الارثوذكسية فى سوريا لكى تعمـل على تقسيم امبراطورية آل عثمان والحصول على نصيب هام منها .

خطى همايون .

خشيت بريطانيا من ازدياد النفوذ الروسى فى البحر المتوسط ومن تهديدها لخطوط مواصلتها الامبراطورية التى تمر فى المنطقة العربية من الشرق الأدنى صوب الهند ، فصممت على وقف الزحف الروسى ، والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية فى حرب القرم . أما فرنسا فقد حاولت أن تساند بريطانيا فى هذه العملية، خاصة وأن الروسيا كانت تنظر الى نابليون الثالث على أنه مغتصب للحكم فى بلاده ، وكانت المصالح الاقتصادية الفرنسية قد بدأت فى الوضوح فى شرق البحر المتوسط. ولقد اضطر السلطان قبل نهاية هذه الحرب الى إعلان برنامج لاصلاحات عامة، حتى يتمكن من الاشتراك فى مؤتمر الصلح فى باريس سنة ١٨٥٦ ، وكان هـذا البرنامج يسمى خطى همايون . ولقد نص على المساواة التامة بين المواطنين أمام القانون دون تمييز بين دين أو لغة أو جنس ، كما نص على منـح حرية العبادة للجميع ، والعمل على حماية أرواحهم وممتلكاتهم ، ووعد بادخال إصلاحات على إدارة الولاية وطرق جباية الضرائب ، وبوضع ميزانيات عامة للدولة ، والعمل على إنشاء البنوك ، وإن كان قد نص على الإبقاء على الامتيازات التى يتمتع بها رؤساء الطوائف والملل . ولقد كان هذا المرسوم نصرا للاتجاه العلمـانى الذى يعتبر أساساً للاصلاح ، وأساساً لنمو التجارة . وهذا هو نص منه :

« لايخفى أنه منذ إبتداء ظهور دولتنا العلية كانت الاحكام القرآنية الجليلة، والقوانين الشرعية المنيفة ، فى غاية المراعاة الكاملة ، ولذلك كانت قوة سلطنتنا السنية وثبوتها ، مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم ، وعمار البلاد، فى غاية مايكون

من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة ، لسبب ماطرأ عليها من الحوادث الكثيرة . ولهذا قد تحولت تلك القوة إلى ضعف ، والراحة إلى التعب ، والعمار إلى الدثار وأية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول إلى الاضمحلال .

« ومنذ جلوس سلطتنا على تخت الخلافة إتجهت أفكارنا الخيرية خاصة إلى عمار البلاد وراحة العباد . فنظراً إلى مواقع ممالك دولتنا العلية وأراضيها الخصبة وقابلية أهلها واستعدادهم إذا أخذ فى عمل الوسائط اللازمة ، يشاهد سرعة حصول المقصود بتوفيق الله تعالى فى برهة خمس أو عشر سنين .

« فاعتمادا على عون الله تعالى ، واستمدادا بروح نبينا (صلعم) قد شوهد من الأمور المهمة اللازمة وضع قوانين جديدة لحسن إدارة دولتنا العلية، وممالكنا المحروسة . ونتيجة خلاصة هذه القوانين هى عبارة عن أمنية الحياة وصيانة العرض وحفظ شرف الإنسان وأمواله وتعيين مال الويركو وطريقة أخذ العساكر ومدة استخدامهم . فلا يوجد شىء فى الدنيا أفضل من الحياة والعرض والشرف . فالانسان إذا نظر لهذه الأمور وكانت على خلاف رضاه ييئس من الحياة ويبادر إلى حفظ حياته وشرفه بأعمال يؤذى بها الدولة والبلاد وبخلاف هذا إذا كان مطمئنا على حياته وعرضه وشرفه لا يحيدعن طريق الاستقامة ويكون مجتهدا فى حسن الخدمة للدولة والملة . وإذا كان الانسان غير مطمئنا على ماله فتأخر عن الاهتمام فى كل ما يأول للنجاح الدولة وعمار البلاد بخلاف ما إذا كان مطمئنا عليه ، فيكون مهتما فى أعماله ومجتهدا فى توسيعها وتضاعف عنده الغيرة للدولة والملة وحب الوطن ويبذل نفسه دونها . فهذا الأمر يجعله أن يكون مستعدا لكل فعل جيد وأما ترتيب مال الويركو (أى المطالب الأميرية) فهو

من أهم الأمور لكون الدولة يقتضى لها نفقات كثيرة لتجهيز العساكر . وللدول أن تأخذ النفقات من الأهالى لصيانة المملكة .

« ولقد أمرنا برفع الحجز عن بيع كل صنف من البضائع والمحصولات بيد شخص واحد ، الأمر الذى كان الأقدمون يعتقدون أنه أصل كل سعادة، وتفرض الأموال الأميرية على كل إنسان بحسب قدرته بالمال والأملاك وأن لا يطلب منه شيء خلافه .

« ومن الأمور المهمة أيضا وضع قوانين لتعيين مصاريف عساكرنا البرية والبحرية . ومن حيث أن صيانة البلاد أمر واجب وفرض لازم فعلى الأهالى أن يندبوا أنفاراً للعسكرية . فقد أمرنا بوضع قوانين فى كيفيه أخذ الأنفار على قدر إمكان كل مكان ، ومدة إقامتهم فى سلك العسكرية أربع سنين أو خمس . لأنه إذا أخذ أنفار أكثر من طاقة الأماكن أو مكثوا مدة حياتهم فى العسكرية يكون ذلك ظلما وضررا على العباد والبلاد ، ويصير الانفار ييأسون من حياتهم إذا مكثوا مدة طويلة . ومن الآن فصاعدا لا يقاص أحدا لا سرا ولا جهرا بأى نوع كان من القصاص إلا بعد الفحص والتدقيق تطبيقا لشريعتنا الآلهية . ولا يسمح لأحد أن يهين شرف الآخر كائنا من كان ، ولكل واحد الحرية الكاملة أن يتمتع بأملاكه وأمواله دون معارض ، كما أن أقارب المذنب لا يقاصون بذنبه . ولا يحرمون من ميراثه إذا كانوا أبرياء .

« فلتعم هذه الترتيبات جميع رعايانا من أية ملة كانت، وليتمتع بها الجميع بدون استثناء ، وليكن اطمئنانا كاملا ممنوحا إلى جميع أهالى المملكة على حياتهم وشرفهم وأموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة . ولقد أمرنا بوضع مجلس للأحكام العدلية يكون فيه وزراؤنا ووكلاء رجال دولتنا يتكلمون فيه بالحرية التامة لأجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حياتهم وأموالهم ، وتعيين

الأموال الاميرية . وأما الشرائع المختصة بترتيب العساكر فتصير المفاوضة بهاقى المجلس العسكرى تحت نظارة السر عسكر . وكل مايرتبوه من الاشياء المستحسنة تعرض لسدتنا السلطانية ، فنشرفها فى أعلاها خطا بيدنا الملوكية لأجل المصادقة .

« ولما كانت هذه الترتيبات ليس لها غاية سوى تقدم الديانة والدولة والشعب وخير المملكة فعظمتنا الشاهانية تتعهد أن لاتفعل شيئا مخالفا لها . وتأكيدا على الإقامة بعهدنا هذا فنقسم بالله العظيم أمام كل العلماء ووكلاء رجال الدولة فى بيت الخرقة الشريفة ونحلفهم أيضا . وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير على قدر ذنبه مع قطع النظر عن رتبته وإعتباره . وبما أن للموظفين ماهيات كافية فيجرى القصاص الصارم على كل من يقبل الرشوة التى تحرمها الشريعة الإلهية ، وتكون سببا لسقوط المملكة . وبما أن هذه القوانين المتقدم ذكرها قد جعلناها عوضا عن القوانين القديمة فاتعلن إرادتنا الملوكيـة السنية فى الاستانة العلية وفى سائر ممالكنا المحروسة ، وتعطى صورها أيضا إلى سفراء الدول المتحابة الموجودين فى دار السفارة العلية ، لتكون دولهم شهودا على دوامها إلى ما شاء الله ، وعدا ذلك فليحفظنا الله بحفظه الإلهى ، وكل من خالف هذه الترتيبات فليكن موضوعا للعنة الإلهية إلى الأبد آمين »[١].

والواقع أن هذا المرسوم لم يقابل بالترحيب الكافى من المسلمين أو من المسيحيين ، ذلك أن المسلمين قد وجدوا أنه يعمل على مساواتهم بأهل الذمة « حتى صار إذا تشاجر نصرانى مع مسلم ، مثل ما يقول له المسلم يقول له النصرانى أزود » أما المسيحيون فانهم كانوا فى واقع الأمر لا يرغبون فى مجرد مساواتهم بالمسلمين ،

---

(١) د. عبد الكريم غرايبة : سورية فى القرن التاسع عشر ١٨٤٠ — ١٨٧٦ . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٢ ص ٢٨ — ٣١ .

بل يهدفون إلى الاستقلال عن الحكم العثمانى الإسلامى . فزاد التوتر بين الطرفين وأدى ذلك إلى فتنة ١٨٦٠ .

فتنة سنة ١٨٦٠ :

تكاتفت العوامل الداخلية مع العوامل الخارجية على جذب إقليم الشام ودفعه بقوة صوب حرب أهلية سنة ١٨٦٠ . ولقد اتخذ هذا الصراع شكلا طائفيا نظراً لمشاركة المسيحيين والدروز فيه ، وكانت هناك فرنسا وبريطانيا ، وتقف كل منهما وراء قوة من القوى الداخلية ، فرنسا وراء المارونيين ، وبريطانيا وراء الدروز .

ولم تكن هناك أسباب مباشرة لهذه الحركة ، مما يدفع إلى الاعتقاد بأنها كانت مدبرة . حقيقة أن خطى شريف همايون لم يهدىء النفوس ، وقامت حركة بين المارونيين سنة ١٨٥٨ ضد كبار ملاك الاراضى الاقطاعيين من الدروز والمسلمين ، ولكن هذه الحركة كان من السهل القضاء عليها .

وبدأت الحوادث بعد ذلك بمشاجرة بين صبيين ، مارونى ودرزى ، ثم استمر فى شكل معركة بين المسيحيين والمسلمين ، وعمت الحوادث بعد الشتاء لكى تشتمل عددا كبيرا من القرى ، وأخذ المارونيون يتهمون الدروز بالاتصال بالوالى العثمانى ، والحصول منه على الاسلحة ، ويتهمون الجنود العثمانيين باساءة معاملة الهاربين واللاجئين من المسيحيين إلى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه من ثياب وأموال (١) .

وبدأت قوات الموازنة تهجم على مناطق المسلمين بقيادة يوسف بك كرم

---

(١) أنظر فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ترجمة أنيس فريحة . بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٦ — ص ٣١ .

وطانيوس شاهين ، كما أخذ الدروز فى إعداد قوات لهم بقيادة اسماعيل الاطرش وسعيد جنبلاط . وقتل آلاف من الجانبين فى عدد من المدن . والواقع أن البريطانيين كانوا يعضدون الدروز ، فى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون يعضدون الموارنة . ويقال أن الكولونيل تشرشل الذى كان قد شارك فى الحملة الموجهة ضد قوات ابراهيم باشا فى الشام ، واستقر فى الاقليم بعد عودة الحكم العثمانى هو الذى رتب هجوم الدروز على زحلة . أما فرنسا فانها كانت فى صعوبات مع الباب العالى فى ذلك الوقت حول مسألة قناة السويس ، ورفض السلطان التصديق على عقد الامتياز الذى كان محمد سعيد قد منحه لفرديناند دى ليسيبس ، فاستندت إلى حمايتها الدينية للكاثوليكيين والمارونيين لكى تضغط على الباب العالى ، وتهدده بأنها تشجع استقلال سوريا ولبنان ، وإنشاء امبراطورية عربية يمكن للأمير عبد القادر الجزائرى أن يحكمها(١).

وجاءت الأنباء من المشرق لاوربا تعلن قتل ستة آلاف مارونى ، ورجلين من رجال الدين ، ثم تتالت وصول أنباء المذابح التى راح ضحيتها خمسة آلاف مسيحى فى دمشق ، ولم يتحدث أحد عن قتل المسلمين ، فاستندت فرنسا إلى عقد مؤتمر اشتركت فيه كل من بريطانيا وبروسيا وروسيا وتركيا ، وتقرر التدخل لوقف المذابح ، وارسال قوة تتكون من اثنى عشر ألف جندى . ولكن الدول تأخرت وانتهزت فرنسا الفرصة وأرسلت حملة قوامها سبعة آلاف جندى وكانت وسيلة واضحة للضغط على الباب العالى ، ولاشعاره بانها قد نزلت فى منتصف المنطقة التى توصل عاصمته بقناة السويس المقبلة ، ويمكنها أن تصعب أمر اتصاله بها .

---

(١) أنظر : *RENOUVIN, Pierre, Histoire des Relations Internationales, Paris, Hachette, 1954 Vol. V. p. 834*

وكان فؤاد باشا وزير الخارجية العثمانية قد وصل إلى لبنان قبيل وصول القوات الفرنسية ، وأخذ فى معاقبة المذنبين . وشكل لجنة لإقتراح إصلاح أحوال الحكم فى لبنان ، وكان ذلك أساسا للتنظيمات الأساسية التى صدر فى عام ١٨٦٤ .

وقسمت الدولة العثمانية سوريا إلى ولايتين ، ووضعت نظاما خاصا للبنان يمنحه بعض الاستقلال الذاتى ، بحكومة ، تحت رئاسة حاكم مسيحى ، يعاونه مجلس تمثيلى .

وكانت ثورة سوريا سنة ١٨٦٠ وتسوياتها سببا فى تقليل سلطة رجال الدين ورجال الاقطاع على الشعب السورى ، ولكنها سمحت للدولة الأوربية بالتدخل فى شئون سوريا ، وخلقت بذلك سابقة خطيرة لهذا الاقليم. وتمخضت هذه الثورة عن انشاء حكومة تمثل مصالح الشعب اللبنانى، وفتحت أنظار الأهالى إلى خطر الاستمرار فى حالة من الجهل والتعصب ، بينما يقف الأعداء المستغلين على الأبواب . وكانت سببا فى ازدياد حركة نشر التعليم بفتح المدارس وطبع الكتب وعقد الجتمعات الإدبية والعلمية كما أنها تسببت فى دفع عدد من شباب العرب إلى التفكير فى تخليص بلادهم من الحكم التركى . كانوا تلاميذ اليازجى والبستانى وبدؤا ينهلون من نبع الثقافة العربية ويعشقون الحرية ، وبدأت بذور الوطنية الأولى فى الإنبات ، واتخذت شكل الأمانى القومية التى ستزداد صلابة وتبلوراً مع الزمن ، رغم طغيان السلطة الحاكمة واستبدادهما ، بل إن الاستبداد والكبت كانت عوامل مساعدة على زيادة نمو روح القومية العربية وكان السير على نهج الدول العربية فى التفكير ، ومحاولة الوصول إلى نوع الحكم الدستورى الموجود فى بلادهم يعنى تطور قوى فى المجتمع العربى الشرقى ومسايرتها

للرأسمالية الغربية التى كانت قد أخذت تتغلغل فى الإقليم، وتغير من علاقة الطبقات الاجتماعية ببعضها .

ازدياد المصالح الرأسمالية الغربية :

لم تنجح الدولة فى القيام باصلاحاتها إذ أن هذه الاصلاحات كانت تعنى استعداد البلاد للتطور من النظام الإنطاعى إلى النظام الرأسمالى، ودون أن تتعاون الرأسمالية العالمية مع الدولة العثمانية فى هذه العملية ، بل إن الدول الأوربية حاولت الإفادة من هذه الاصلاحات لزيادة مكاسبها وزيادة عمليات استغلالها فى الدولة العثمانية التى عجزت عن صد هذه العملية ، ثم استسلمت لها .

واحتاجت الدولة للقيام بالاصلاحات إلى إيرادات جديدة ، فى الوقت الذى عجزت فيه وسائل الانتاج فيها عن التطور ، كما أنها عجزت عن فرض ضرائب جمركية جديدة على السلع الأوربية المستوردة. وكانت معاهدة «بلطة ليمان» التى عقدتها الدولة مع بريطانيا قد حدت من مقدرة الدولة فى الميدان الضرائبى وفتحت أسواق البلاد للتجار الأجانب. وأباحت لهم حرية الاستيراد والتجارة، وحرمت الدولة من حق حماية الإنتاج المحلى . فأقبل الناس على شراء المنتجات الأجنبية المستوردة مما أدى إلى كساد الإنتاج المحلى وتدهور الصناعات الوطنية وإختلال الميزان التجارى ، وأوقع الدولة فى عجز كبير ، لم تجد الدولة وسيلة لمعالجته سوى الإستدانة من الخارج .

ولقد اضطرت الدولة إلى عقد القروض لمواجهة حرب القرم ، فعقدت قرضا فى سنة ١٨٥٤ بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه وبفائدة قدرها ٦٪ وضمنت جزية مصر سداد هذا الدين ، كما أنها عقدت قرضا آخر فى العام التالى بمبلغ خمسة ملايين جنيه من بنك روتشلد . وتوالت القروض بعد ذلك بقرض جديد فى سنة ١٨٥٨ بمبلغ خمسة ملايين جنيه أخرى . ولقد عجزت الدولة عن دفع أقساط الأرباح فى

سنة ١٨٦٠ ، فحاولت عقد قرض جديد فى لندن ، إلا أن الحكومة البريطانية اشترطت لمنح هذا القرض ، أو السماح بطرحه فى أسواقها المالية ، أن تسمح الدولة العثمانية للاجانب بحق ملكية الأراضى والعقارات فيها وأن تقبل تشكيل لجنة دولية للاشراف على مالية الدولة ، وكذلك الغاء نظام الاوقاف . ولقد اضطر فؤاد باشا ، المفاوض العثمانى ، إلى رفض هذه المطالب وذهب إلى باريس ونجح فى أول الأمر فى عقد قرض بمبلغ ٤٠٠ مليون فرنك وبفائدة ٦٪ ويسدد على ستة وثلاثين سنة . وبيعت السندات الخاصة بهذا الدين فعليا بمبلغ ٣١٢ فرنك للسند فى الوقت الذى بلغت فيه قيمته الاسمية ٥٠٠ فرنك ، ثم اصدرت الحكومة الفرنسية بعد قليل أمرها بوقف بيع هذه السندات . ولقد بلغت مجموع ديون الدولة العثمانية ٢٧٦ مليون فرنك ، لم تستلم منها سوى ٣١٢ مليون ، وذلك عند وفاة السلطان عبد المجيد سنة ١٨٦١ .

وكانت الدولة فى ذلك الوقت تسير فى أموالها بدون ميزانية وحينما وضعت هذه الميزانية على الطريقة الأوربية سنة ١٨٧٥ ، وصلت إلى ٢٠ مليون جنيه استرلينى ، أى ما يقرب من ٥٥٠ مليون فرنك ، وكان نصفها مخصصا لسداد الديون . ورصدت نصف الباقى للجيش ، وربعه للموظفين و ١٠٪ للقصر(١).

حقيقة أن السلطان عبد العزيز قد أصدر قانون الولايات العثمانى فى سنة ١٨٦٤ مما أدى إلى تكوين مجالس تمثيلية فيها تشارك الولاة فى تحمل المسئوليات ، وأن بعض الولايات الخاصة مثل تونس ومصر قد أخذت خطوات أوسع فى اشراك الأهالى فى الحكم عندما شكلت المجالس التشريعية ووضعت الدساتير ، واعترفت بمسئولية الوزارة أمام ممثلى الأمة ولكن هذا الاتجاه تبلور من ناحية أخرى فى

---

(١) أنظر د. عبد الكريم غرايبة : سورية فى القرن التاسع عشر ص ٣٣ - ٣٤

عملية إصدار القوانين المختلفة المقتبسة من الغرب، ودون أن يؤدى ذلك إلى إبطال القوانين الشرعية السابقة، فنتج عن ذلك إزدواج فى التشريع وفى المحاكم.

ولقد اشتهر السلطان عبد العزيز بالتبذير وحبه للرحلات والبذخ، وزار مصر سنة ١٠٦٢ وباريس سنة ١٨٦٧، وأقام عدداً من القصور الفخمة. ولقد إعتمد على القروض الأجنبية فى الإنفاق على ترفه، ووصلت هذه الديون إلى ما يقرب من مائتى مليون جنيه استرلينى فى سنة ١٨٧٥. وتأسس فى عهده البنك العثمانى كشركة بريطانية فرنسية، اشتركت فى عملية استنزاف ثروات البلاد واستغلالها فى صالح الرأسمالية الاجنبية. وأعلن افلاس الخزانة العثمانية فى سنة ١٨٧٥.

وقامت المظاهرات ضد السلطان، وخلع من الحكم فى سنة ١٨٧٦ ثم انتحر وتولى مراد الخامس، ابن عبد المجيد الحكم، إلى أن ثبتت عدم صلاحيته الصحيحة فعزل وتولى عبد الحميد الثانى أمور البلاد، فى نفس السنة، وتعتبر فترة حكم السلطان عبد الحميد فترة قائمة بذاتها فى تاريخ الدولة العثمانية، وتاريخ الاقاليم التى ارتبطت بها فى ذلك الوقت.

ثالثا: الطغيان الحميدى:

حكم السلطان عبد الحميد الثانى الدولة العثمانية لفترة أربعين سنة متميزة بنفسها، واضطر إلى أن يمنح الشعب دستورين: أولها فى أوائل حكمه، والثانى عند نهايته. ولكن هذه الفترة كانت من أشد الفترات طغيانا وإستبدادا فى تاريخ الشرق الادنى.

دستور مدحت باشا:

كان السلطان السابق وهو عبد العزيز الذى تولى الحكم فى سنة ١٨٦١ وكان عهده يمتاز بالإسراف والسرقة، وعدم كفاءة كبار رجال الدولة، مما

جعل حكمه لايطاق ، وانتهى الأمر بعزله بعد خمسة عشر عاما . وامتاز عهده بقيام الثورات فى معظم الأقاليم الاوربية الخاضعة للدولة العثمانية وخاصة فى بلغاريا التى كانت مسألتها فى منتهى الاهمية بالنسبة للرأى العام العالمى ، وبالنسبة للمصالح الاستراتيجية للدول العظمى . أما فى البلاد العربية فان حكمه لم يشهد قيام ثورة علنية ، وإن كان الموقف يساعد على زيادة عدم الرضا ، وقلة صبر الاهالى على مساوىء الحكم . أما عن انتشار الآراء التحررية فكانت لاتزال فى أوائل سنواتها ، ولم تكن قد نجحت إلا فى ايقاظ بعض النفوس وسط هـــذه الملايين من العرب سكان الشرق الاوسط . ونرى أن الدولة العثمانية قد حاولت تثبيت أقدامها فى أنحاء الجزيرة العربية بأكملها ، فاحتلت الإحساء سنة ١٨٧١ ، واليمن فى العام التالى . ولقد اضطر عبد العزيز أن يتنازل فى ٣٠ مايو سنة ١٨٦٧ عن العرش لابن أخيه مراد الخامس ، ولكن هذا السلطان الأخير لم يبق على العرش أكثر من ثلاثة أشهر ، نظراً لاستعصاء مرضه العصبى ، وتولى أخوه الاصغر عبد الحميد الثانى السلطنة وخلافة المسلمين من بعده .

ولقد استمر عبد الحميد ثلاث وثلاثين سنة سلطانا الى أن أجبر فى عام ١٩٠٩ على التخلى ـ بدوره ـ عن العرش . وكانت مدة حكمه هى الفترة التى ترعرعت فيها الآراء التحررية العربية فى الأقاليم السورية والعربية ، وستنتشر بعد عزله فى كل العالم العربى ، بشكل يهدد لانتفاضة قومية كما سنرى .

تولى عبد الحميد العرش اذن فى وقت امتلأ فيه أفق الدولة العثمانية بالغيوم وانتشرت فيه الثورة فى الأقاليم العثمانية ، وهددت فيه روسيا بالحرب ووقفت منه كل الدول الأوربية موقفا عدائيا ، وخاصة بعد انتشار أخبار المذابح ، بين سلطات الدولة والشعوب المسيحية الثائرة . أما من الناحية الاقتصادية فان ضعف الميزانية كان واضحاً ، وخلو الخزانة كان ينذر بالخراب . ولقد اشتهر عبد الحميد

عند ارتقائه للعرش بسمعة طيبة كأمير متحرر مخلص ، يعمل على التقدم ببلاده ، وكانت هذه فرصة جيدة لكل من شعبه والدول الاوربية ، لرؤية تجربة جديدة تمر فى الشرق الأوسط ، وقد تعود بالخير عن الجميع .

كانت الدول الاوربية تصر على ضرورة إدخال الاصلاح فى الدولة العثمانية ، ومنح المسيحيين نفس حقوق المسلمين ، كوسيلة للتقدم مع الزمن . وكان المسلمون أنفسهم يرغبون فى العيش فى مساواة مع العناصر المسيحية الموجودة فى الدولة ، وعلى أن يصبح للجميع نفس الحقوق ، ويخضعون لنفس الالتزامات ، ويؤدون نفس الواجبات .

وبدأت جماعة قومية تعمل برئاسة مدحت باشا[1] . وطالبت باقامة حكومة دستورية . وكان لهذه الجماعة من التحرر ومن الاخلاص ومن الشجاعة ماسمح لها بالمطالبة بأن يتحمل ممثلوا الشعب مسؤولية الحكم ، وإدارة شئون البلاد ، وبشكل يسمح للجميع بالمعيشة فى ظل القانون العام . وأظهر عبد الحميد من الذكاء ومن التحرر ما جعل قلوب الشعب تلتف حوله ، فعين مدحت باشا صدرا أعظم ، ووافق على منح الدستور ، وأعلن رسميـــا فى نفس اليـوم (٢٢ ديسمبر سنة ١٨٧٦) الذى اجتمع فيه ممثلو الدول الأوربيـة لاقتراح إدخال الاصلاحات الضرورية على الادارة العثمانية . ظهر أمام الشعب اذن إخلاص السلطان وعدم

---

(١) ولد مدحت باشا فى القسطنطينية سنة ١٨٢٢ وتولى مناصب إدارية مختلفة فى الدولة إلى أن أصبح واليا على بلغاريا ، وله من العمر أربعون عاما . ثم تـولى ولاية بغـداد فى عام ١٨٦٨ . وقد أظهر نشاطا وكفاءة ووطنية وسعة أفق لم يظهرها كثير من غيره فى الدولة . وتولى منصب الصدارة العظمى فى عام ١٨٧٣ ، ولكنه وجـد إستحالة العمل مع طغيـان عبد العزيز فاستقال ، وبدأ يعمل مع غيره من الوطنيين على عزل هذا السلطان .

معارضته للاصلاحات ، كما أن الدول الاوربية فقدت حججها للتدخل فى شئون الدولة .

وكان هذا الدستور من وضع مدحت باشا نفسه ، وظهرت فيه طباعه المتحررة . واعتقد مدحت فى ضرورة الحد من سلطة السلطان المطلقة ، كأساس لكل اصلاح فى الدولة ، بل وكضرورة من ضروريات بقائها فى ذلك الوقت . وحاول مدحت أن يسوى فى المعاملة بين كل الأجناس المختلفة فى الدولة، كأساس لتأييد الحكومة الدستورية الجديدة بقوة شعبية . ولقد نجح مدحت بطبيعة الحال فى مرماه الاول ، وأما الهدف الثانى فكان أكثر تقدما من الحالة الفعلية والنفسية التى إجتازتها الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، إذ أن الشعوب المسيحية فى الدولة العثمانية كانت ولاتزال ترنو إلى الوصول إلى مرحلة القوميات ، وكانت بذلك تمر فى مرحلة إنفصالية ، ولا يمكنها أن تسير فيها إلى جانب سيرها فى حركة تكتلية ، مع بقية العناصر الأخرى فى الدولة . وكانت هذه الشعوب ترتبط بأوربا وبشعوب أوربا فى نفس الوقت الذى ترتبط فيه مع شعوب الشرق الاوسط ، وكانت من التخلف بدرجة أنها لم تر الفرص الجديدة الذى يمنحها لها هذا الدستور مع الشعوب الاسلامية فى الدولة العثمانية . وعلى أى حال فان مدحت باشا قد عمل على القضاء على حركة عدم الرضا العام والشعور به ، عن طريق مزج كل أجناس الدولة تحت ديموقراطية واحدة ، مما يظهره بمظهر المحرر المتحرر ، أكثر من اظهاره بشكل الرجل الدولة . ولقد تمكن السلطان من إدخال بعض التعديلات على دستور مدحت قبل نشره ، مما جعله لايضمن المساواة التامة بين الجميع ، ولكنه احتفظ بالاطار العام لضرورة خضوع وتعاون الجميع مع الدولة العثمانية . وأخيراً فلا ننسى أن هذا الدستور قد نجح فى الحد من السلطة المطلقة

التى تمتع بها السلاطين على حساب الشعب ، وتكفى هذه الناحية لاظهار أهمية هذا الدستور ، وأهمية الدور الذى لعبه مدحت باشا فى تاريخ الشرق الانى.

ولكن هذا الانتصار كان قصير الأجل ، إذ أن ضحالة اعتقاد عبد الحميد فى النظم الدستورية قد إزدادت فى ظهورها على مر الايام . فهل كان ذلك نتيجة لخبثه وورغبته فى التمويه على الشعب وعلى الدول الاجنبية فى أوائل حكمه؟ أم كان ذلك بسبب بعض التجارب التى مر بها فى هذه الفترة ،وإعتقاده بضرورة وجود رأس واحدة للدولة ؟ لانستطيع الاجابة على مثل هذه الاسئلة ، ولكن التاريخ يشهد بأنه قد تحمل عبئا ثقيلا .

أثبتت تصرفات عبد الحميد التالية أنه كان لايؤمن بحق الشعب فى تسيير أموره بحكومة دستورية . وظهر وكأنه يرغب فى القضاء على قوة تدخل الدول الاوربيه التى طالبت بضرورة الاصلاح فى أنحاء الدولة العثمانية . وكان نشر الدستور سببا فى إلتفاف الشعب حول عبد الحميد وفى فشل المؤتمر الاوربى فى القيام بأى عمل له قيمته . ولكن سرعان ما بدأ عبد الحميد فى تحطيم ذلك الدستور ، فعزل مدحت باشا فى شهر فبراير ونفاه إلى أوربا . وبعد أن افتتح البرلمان بخطاب تاريخى طنان فى شهر مارس ، انتهز فرصة إعلان الروسيا الحرب على الدولة العثمانية ، وعطل الدستور — وبقى هذا الدستور معطلا لمدة ٣١ سنة .

إنتهت الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ باقتراب القوات المعتدية من القسطنطينية ، وبفرض معاهدة سان استيفانو على السلطان ، فاضطرت انجلترا الى التدخل حتى تمنع الروسيا من الخروج الى مياه البحر المتوسط ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وإضطرت الروسيا الى قبول مبدأ إعادة النظر فى شروط هذه المعاهدة ، وإبدالها بمعاهدة برلين سنة ١٨٧٨ . ومرت الاقاليم الأوربية فى

الدولة العثمانية فى مرحلة تطور خطيرة ، ولكن الأقاليم العربية بقيت من الناحية الادارية كما هى . ولكن هذه الحرب الأخيرة كانت عاملا يزيد فى الشعور بعدم الرضاء بين سكان الشرق الادنى العرب ، خصوصا بعد مشاركتهم فى أعباء هذه الحرب ، ماديا وعسكريا ، وفى مناطق بعيدة عنهم ، وفى سبيل حكومة تظهر كل يوم على أنها ملك للسلطان ، وليس لهم فيها إلا دور الدفع والخضوع .

وبدأ عبد الحميد فترة حكمه بتعطيل الدستور ، مستنـــداً إلى الضمانات التى منحتها له معاهدة برلين ، وأصبح فى مقدوره أن يصرف الأمـــور كيفما يرغب وبدأ الطغيان والفساد وإستغلال السلطة فى الظهور بشكل واضح ، وشعر الأهالى بها نتيجة لبدء يقظتهم ولكن تغييرهذه الحالة لم يكن أمراً سهلا نظراً لضعف هذه الحركة ، وقلة تنظيمها ، ووقوفها أمام قوات الدولة ، وامكانية استغلال الاوربيين فرصة أى حركة لزيادة التدخل فى هذه المنطقة .

حكم عبد الحميد :

كانت التنظيمات الإدارية العثمانية تهدف منذ حوالى أربعين سنة إلى زيادة سيطرة سلطة الوزارة العثمانية المركزية على كل أقاليم الدولة ، فقسمت الامبراطورية إلى ولايات تخضع كل منها لوال مسؤول أمام الباب العالى رأساً . كل ولاية الى سناجق تخضع كل منها لمتصرف مسئول أمام الوالى ، وانقسمت السنـاجق بدورها الى قائمقاميات . وتمتعت بعض السناجق فى حالات خاصة بالاستقـلال الادارى ، وخضعت للباب العالى رأسا ، مثل الوضـع الذى منحته للتنظيمـات الاساسية لإقليم لبنان .

وامتدت ممتلكات الدولة العثمانية عند مجىء عبد الحميد للحكم ، واشتملت على سوريا والعراق وبلاد العرب . وكانت سوريا عبارة عن ولايتـين وسنجـق ، ولكن الدولة غيرت هذا النظام فى عام ١٨٨٧ وأنشأت فى هذا الإقليم ثلاث ولايات فى حلب وفى بيروت وفى سوريا ، وسنجقين فى لبنان وفى بيت المقدس ،

أما العراق فقد انقسم أيضا إلى ثلاث ولايات فى الموصل وفى بغداد وفى البصرة ولكن الحالة فى بلاد العرب لم تكن تسمح بقيام مثل هذه الادارة المركزية . وكانت الدولة العثمانية تحتفظ بأحد الولاة فى الحجاز حتى عام ١٨٤١ للسيطرة بطريق مباشر على الاقاليم المقدسة . ولقد حاولت الدولة مرتين أن تخضع اليمن لسلطتها المركزية ، وذلك عن طريق الحملات الحربية ، فأرسلت حملة أولى فى عام ١٨٤٩ وحملة ثانية فى عام ١٨٧٢ بعد فتح قناة السويس ولم تتمكن الدولة من أن تمد سلطتها من ناحية الخليج الفارسى إلى أبعد من الإحساء التى إحتلتها فى عام ١٨٧١ . أما وسط الجزيرة فقد ظل خاضعاً بالفعل لاسرتى آل سعود وآل رشيد ، الذين لم يأبهوا كثيرا بسيادة الدولة العثمانية، واستمروا يحكمون هذه المناطق ويتنازعون عليها فيما بينهم ، ويحاربون ويغيرون على أعدائهم وكأنهم دول مستقلة ، وإن لم يعترف لهم أحد بهذا الاستقلال من الناحية الدولية . ولم يكن من السهل على الدولة العثمانية أن تؤكد سلطتها على وسط الجزيرة ، نظراً لصعوبة المواصلات ، وشدة تمسك العرب بحريتهم وباستقلالهم وعشقهم للحرب .

وكان من السهل على تركيا أن تعمل بالقرب من السواحل، ولكنها اصطدمت هنا بالدول الاستعمارية الاوربية ، وكانت انجلترا تواصل البحث عن حلفاء ومحطات أو قواعد بحرية لضمان سيطرتها على الهند ، وكانت حملة بونابرت على مصر قد وجهت أنظار هذه الدولة الاخيرة إلى إحتلال جزيرة بريم عند مدخل البحر الاحمر - ثم عقدت احدى الاتفاقيات مع مسقط عند مدخل الخليج الفارسى. وتعاونت الاستراتيجية مع الرغبة فى السيطرة على التجارة فى جعل انجلترا تتخذ سياسة تأمين طرق مواصلاتها والاحتفاظ بحريتها فى العمل فى كل البحار التى تحيط ببلاد العرب . وكانت هذه هى نفس الاسباب التى وجهت انجلترا إلى احتلال عدن

فى عام ١٨٣٩ واعتبارها بعد ذلك احدى ممتلكات التاج البريطانى . ثم أعادت انجلترا احتلال بريم فى سنة ١٨٥٧ ، وأخذ النفوذ البريطانى يمتد من فى الخليج العربى شمالا فى نفس الوقت الذى حاولت فيه الدولة العثمانية تأكيد سلطتها على المنطقة من الشمال وصوب الجنوب .

أما فى إفريقيا فان عبد الحميد لم يجد إلا تونس وليبيا ومصر والسودان تخضع له عند وصوله للحكم — ذلك أن فرنسا كانت احتلت الجزائر فى سنة ١٨٣٠ ، وقضت على مقاومة الامير عبد القادر فى عام ١٨٤٧ وأخذت تمد عملياتها صوب الجنوب متجهة إلى الشرق تارة وإلى الغرب تارة حسبما تسمح بذلك الظروف فى داخل الاقليم . وقد بدأ عبد الحميد حكمه بفقد تونس التى استولت عليها فرنسا سنة ١٨٨١ وفى العام التالى قامت انجلترا باحتلال مصر وفصلت بين السودان وبين الامبراطورية العثمانية وبينما حاولت انجلترا الاحتفاظ بالسيادة الاسمية للسلطان على مصر والسودان ، كستار تحتمى ورائه فى تحقيق أهدافها فى وادى النيل ، نجد أن فرنسا ترفض الاعتراف بسيادة السلطان على تونس . ولكن سلطة الدولة على كل من هذه الاقاليم قد انتهت بالفعل مع الاحتلال الاجنبى وان يبق للدولة العثمانية فى شمال إفريقية إلا ليبيا التى ستعمل ايطاليا على إحتلالها فى عام ١٩١١ .

إستند عبد الحميد فى حكمه لهذه الامبراطورية الواسعة إلى الكبت والجاسوسية وازداد فساد هذا النظام وخطره على مر الأيام، مع ازدياد عدد هؤلاء الجواسيس وازدياد السلطة التى وضعت بين ايديهم ؛ والنتائج التى تترتب على وشاياتهم وكان هناك نظام للرقابة — محكم فى وضعه — وكان ثقيلا وجامدا . ولقد توصل عبد الحميد إلى القضاء على كل محاولة لعمل صحافة حرة خشية من ألا تعترف بسلطته المطلقة ، أو تنتقدها فى يوم من الايام ، وصحب هذا أيضا خفوت نور الحركات

الادبية ، نظراً لاهمية عنصر النقد فيها . وأصبحت المحاكم آلات ينفذ بها القصر رغباته ونزعاته ، ولكن الفساد جعل منها فى نفس الوقت وسائل لتفسير القانون تفسيرا خاصا ، يخدم مصلحة إحدى الشخصيات المعينة على حساب القانون العام والعدالة . وكثيراً ما تدخلت شخصيات القصر فى توجيه المحاكم إلى إصدار حكم معين يختلف من الإقامة المحددة إلى قصر الإقامة فى إقليم آخر ، أو النفى إلى خارج البلاد — وكان على المحكمة فى هذه الحالة الاخيرة أن تجد الحيثيات التى تبنى عليها الحكم الذى صدر فعليا من السراى السلطانية ، وتعلنه وكأنه صادر عن طريقها.

وتمكن عبد الحميد من وضع الاسس التى يستطيع بها السيطرة على داخلية امبراطوريته ، وبدأ بعد ذلك سياسة امبريالية فى الخارج . وشعر عبد الحميد بضعف امبراطوريته بين الدول العظمى ، وبأهمية الاستفادة من تضارب المصالح الدولية والتنافس السياسى بينها فى الإحتفاظ بسلامة أراضى الدولة ، خصوصا وأن زحف القوات الروسية ضد عاصمته قد أظهر له قيمة جيشه عسكريا ، رغم التضحيات وأعمال البطولة التى قام بها الجنود والضباط لوقف الإعتداء الاجنبي. وجاءت معاهدة برلين تثبت أن دولته لا تقوم إلا بضمان دولى ، وتعهد بعدم الاعتداء عليها ، أو وصاية دوليه تحرم على أى دولة عظمى الاستفادة من ضعف الامبراطورية العثمانية ، أما من الناحية المالية فكانت الدولة فى حالة تشرف على الافلاس . ونجد أن الطرق التى سار عليها عبد الحميد كانت تدل على أنه رجل عملى ، ولكنه غير مستنير . ذلك أنه قد بدأ يرهن معظم المنافع العامة فى الدولة لدى أصحاب رؤوس الأموال الاجانب ، ثم انفق جزءاً كبيراً من هذه الأموال التى حصل عليها فى سبيل اعادة تنظيم قواته العسكرية ، وخصوصا على المدارس الحربية ، وذلك فى الوقت الذى أشفق فيه على زيادة وتحسين حال التعليم العام فى امبراطوريته ثم عمل عبد الحميد على تدعيم مركزه الدولى ، باستناده إلى قوة الدين والرابطة

الاسلامية . سعيا وراء النتائج السياسية . وكان نشاطه فى هذا الميدان الاخيرهو أهم نشاط قام به .

حركة الجامعة الاسلامية :

بدأت أنظار العالم الاسلامى تتجه صوب حركة جديدة فى الوقتالذىوصل فيه عبد الحميد إلى السلطنة . وكانت هذه الحركة تدين بالكثير للسيد جمال الدين الافغانى الذى ترأسها وقواها وإن كان هو نفسه يعتبر دليلا ونتاجا للحالة التى وصل إليها العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، وشعور المثقفين فيه بضرورة تغيير هذه الاحوال . وحاول السيد جمال الدين أن يصل بالشعوب الاســـلامية إلى الحرية والتقدم ، كما هو الحال فى الدول الأخرى ، وأراد أن يعتمد فى ذلك على التعليم ، وإظهار مرونة الاسلام التى لا تتعارضمع التقدم المادىالحديث. ولكنه كان يعتقد بضرورة الثورة للوصول إلى أهدافه . وأراد جمال الدين أن يصل إلى تحرر الشعوب الاسلامية من حكم الدول الأجنبية ، واعتبر ذلك أساسا لتجديد روحهم المعنوية ، وتمهيدا لإتحادهم تحت سلطة خليفة واحد ، كما كانت عليه فى العصور الاسلامية الذهبية . وكانت حركتههى حركةتحرريةمن الاستعمارالغربى ومستندة إلى عامل الدين ، فى سبيل إقامة عزة المسلمـــين الأولى ، فى ظل دولة إسلامية حديثة ، يمكنها أن تتمشى مع التقدم الغربى ، وتستفيد منه دون تفريط فيما لها من تراث تليد .

وبقى جمال الدين مصر ثمان سنوات ونجح فى تكوين مدرسة خاصة به وبآرائه ، وبلغ من اتساع نفوذه أن اضطرت السلطات الخديوية إلى دعوته إلى ترك البلاد سنة ١٨٧٩ . ولكنه كان قد أصبح بالفعل شخصية معروفة فى العالم الاسلامى ، وأخذت الدول الغربية تحسب حسابا له . قضى جمال الدين بقية

(١) انظر : أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث .

حياته بين أوربا وتركيا وبلاد الفرس ، ولم يضن بأى مجهود أو نشاط فى نشر آرائه وإيقاظ العالم الاسلامى من سباته . وكانت حركة الجامعة الاسلامية التى سادت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر من خلقه ونتيجة لجهاده . ولقد عمل عبد الحميد على وضع أسس سياسته الاسلامية فى الوقت الذى وصل فيه جمال الدين إلى أوج نشاطه فى نفس الميدان .

ولم تكن سياسة عبد الحميد عبارة عن اعتناق لآراء جمال الدين ، إذ أن عبد الحميد قد حاول بصفته سلطانا وخليفة أن يقوى سلطته الزمنية فى الامبراطورية مستنداً إلى فكرة الخلافة الاسلامية . وكان السلاطين السابقين يتمتعون بلقب الخلافة ، وإن كان هذا اللقب قد أصبح على مرور الأيام مجرد لقب شرف ، واقتصرت إختصاصاتهم على سلطة « السلطان » الزمنية ، نتيجة لتفكك العالم الاسلامى ، واستيلاء الدول الاستعمارية على مناطق تسكنها شعوب إسلامية ، أصبحت بالتالى لا تخضع للخليفة . وكان الاسلام الأول لا يفرق بين السلطة الدينية والزمنية لرأس الدولة ، ولذلك فان عبد الحميد قد حاول إعادة الخلافة إلى ما كانت عليه فى القرون الاسلامية الأولى، وحاول استغلالها فى أغراضه السياسية . وهكذا نجد أن سياسة عبد الحميد تتشابه مع حركة التجديد التى نادى بها جمال الدين الافغانى ، ولكن هذا التشابه سطحى وغير حقيقى، إذ أن عبد الحميد أراد استغلالها لنفسه ، بينما سعى جمال الدين الافغانى لصالح الشعوب الاسلامية نفسها .

واتبع عبد الحميد سياسة ذات حدين ، فحاول أن يقوى مركزه كسلطان فى داخل امبراطوريته على الشعوب الاسلامية التى تسكنها ، وذلك باعطاء أهمية لصفته كخليفة للسلمين ، وظل الله على الأرض ، وأمير المؤمنين وخادم وحامى حمى الحرمين ، واستخدم ذلك وسيلة فى سبيل الحصول على الولاء لعرشه ، لاعبا بعواطف الملايين من الأهالى ، وساعيا وراء تكتيل قوة تأخذ شكل الحماس

الدين تسنده فى حالة قيام حرب . أما فى الخارج فانه حاول تحسين مركز تركيا من الناحية الدولية . واستغلال الاحترام الذى سيظهره له الملايين من المسلمين الخاضعين الحكم لروسيا أو انجلترا وفرنسا كخليفة لهم . وحاول أن يصل فعلا إلى رئاسة المسلمين فى كل العالم ، وساعده ذلك على تقوية مركزه الدولى .

وأظهر عبد الحميد حذقا ومهارة فى تنفيذ سياسته ، فأعطى لنفسه صورة الرجل المتدين ، وأمر بابعاد كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين عن قصره السلطانى ، أو بمعنى أصح باخفائه عن العيون . وأحاط نفسه بالعلماء والمشايخ ، واستخدمهم فى الدعاية له فى المناطق الاسلامية المختلفة . ثم أنشأ مدرسة للوعظ والارشاد ، واستغل خريجها فى الدعاية له شخصياً ، ولو عن تحريك غير مباشر ، كلما تحدثوا عن وحدة العالم الاسلامى ، وضرورة الالتفاف حول دار الخلافة والخضوع لها . وتمكن من أن يكسب إليه شريف مكه ، واستغل نشاطه فى موسم الحج تمهيداً لرجوع المسلمين إلى أقاليمهم باراء جديدة ـ بعد زيارتهم للأماكن المقدسة ، ودفع له ثمن ذلك . ولم يقتر فى الانفاق على المدارس الدينية أو على البعثات الاسلامية فيما وراء حدود الدولة ، وكان من المنطقى أن تتغنى الصحافة بهذه السياسة كعامل من العوامل الفعالة لوقف التوغل الاستعمارى فى البلاد الاسلامية ، دون أن تجرؤ على ذكر الحقيقة ، وهى أنها تخدم أهداف السلطان الشخصية ، وأن هذا السلطان لا يستند إلى القوة الشعبية اللازمة لتنفيذ سياسته ، ما دام يرفض إشراك الشعب فى الحكم ، وان هذه الحركة نفسها ستثير عداء الدول الاجنبية وستفرق بين المسلمين والمسيحيين فى داخل الدولة العثمانية نفسها .

وحاول عبد الحميد أن يسيطر بهذه السياسة على العناصر غير التركية عامة ، والعربية منها بشكل خاص ، والموجودة داخل الامبراطورية . وكان عبد الحميد يضمن ولاء المزارعين والرعاة فى الاناضول لدولته ، أما العرب فكانوا معروفين

بحبهم وعشقهم للحرية، وكانوا قد بدؤا يظهرون قوميتهم العربية، ويتمسكون بها، فأراد عبد الحميد أن يكسبهم إلى جانبه. وعلى توكيد صلتهم الاسلامية التى تربطهم به ، فبدأ باعطاء الهبات للمدارس العربية، وبتكريم الشيوخ العرب والانفاق ببذخ على ترميم وتجميل المساجد فى مكة والمدينة وبيت المقدس ، وإنشاء كتيبة خاصة من العرب مع حرس البادیشاه، وعين العرب فى مناصب السراى وإستخدامهم فى تنظيم وسائل الدعاية وتوجيهها ، وشد كل من يعمل فى سبيل الحركة القومية العربية ، مبعداً إياها عن حركة الجامعة الاسلامية وبلغ من نفوذ هذه الشخصيات العربية فى السراى أن أصبح رجال الدولة ـ من الاتراك ـ يسعون الى التغلب على معارضتهم فيحاولون شراءهم إن لم يفلحوا فى كسب ودهم ، وانتشر منذ ذلك الوقت اعتقاد ـ له جانب من الصحة ـ يتهم السراى بالوقوع تحت نفوذ بعض الشخصيات العربية على حساب الاتراك ـ وستحاول حركة تركيا الفتاة ، عند إصطدامها بالقصر فيما بعد ، إستغلال هذه الدعاية وبالتالى فرض سيطرة الاتراك على العرب داخل الامبراطورية ، وعلى المسلمين عامة فى خارج الدولة.
وعلى أى حال فان عبد الحميد لم يدخر وسعا فى سبيل فرض نفوذه على كل العالم العربى ـ كجزء من السياسة الاسلامية التى قام بها . ولم يكن يتورع عن ارتكاب الجرائم حين يفشل فى الحصول على ما يريد بالمال . وأصبحت له طائفة من الدعاة والجواسيس تجوب العالم العربى وتسعى إلى القضاء على سلطة الشيوخ المحليين والرؤساء الاقطاعيين من العرب ، تمهيداً للقضاء على تلك الاطارات القديمة الذى عاش تحتها الشعب العربى ، وتمهيداً لوضعهم تحت نفوذ السلطان المباشر . واستغلوا كل خلاف بين الأسر العريقة أو حتى الخلافات التى تنشأ بين القبائل وبعضها ، وعملوا فى أوقات أخرى على بث بذور الخلافات تمهيداً لتنفيذ سياستهم ، أو العمل على نشر الفوضى ، سعياً وراء القضاء على إحدى الشخصيات

العربية الهامة ، أو إجبارها على الاقامة فى القسطنطينية ، بعيداً عن إقليمها وتحت بصر جواسيس السلطان . وكان الحسين بن على هو أحد الرؤساء العرب الذين خشى عبد الحميد من بقائه فى الحجاز ، فأمر باحضاره إلى القسطنطينية سنة ١٨٩٣ حيث قضى خمسة عشر عاماً مع أسرته — وكان هذا هو سبب تعلم كل أولاده ، على وعبد الله وفيصل فى المدارس التركية .

استراتيجية الشرق الادنى :ـ

بدأ حكم عبد الحميد تقريبا فى نفس الوقت الذى ظهر فيه تحولا ملحوظا فى السياسة الالمانية، وإتباعها طريق الاتجاه نحو الشرق وكان رجال السياسة والاقتصاد قد مهدوا لذلك بدراسات يهدف تطبيقها إلى استغلال آسيا الصغرى إقتصاديا وسياسيا ، ثم سعت الحكومة الألمانية إلى الارتكاز على القسطنطينية كقاعدة هامة فى استراتيجيتها الدولية ، وحاول غليوم الثانى بعد ذلك أن يؤيد عبد الحميد كل التأييد فى سياسته الإسلامية .

وبدأ هذا النشاط سنة ١٨٨٣ عندما وصلت إحدى البعثات الألمانية إلى عاصمة الدولة العثمانية لاعادة تنظيم قواتها العسكرية . وكان على رأسها على الكولونيل فون دير جولتز ذلك الضابط الكفء النشط الذى واصل عمله لمدة ١٣ سنة فى خدمة الدولة العثمانية ، وفى خدمة دولته فى نفس الوقت بطريق غير مباشر . ولكن السلطان لم يرض كل الرضاء عن همة ذلك الضابط ، إذ أن عبد الحميد كان يرغب فى تحسين حالة جيشه ، ولكنه كان يخشى من ازدياد قوة هذا الجيش بدرجة قد تهدد نفوذه أو سيطرته عليه ، خصوصا وأنه كان يخشى من قيام ثورة مسلحه قد تعزله عن الحكم وهكذا نجد أن السلطان قد سعى بطريق غير مباشر إلى عرقلة مجهودات هذا الضابط الالمانى ، حتى يبقى الجيش داخل « نطاق الأمان » ولا تتسرب إليه أراء سياسية جديدة . ولكن مجهودات فون ديرجولتز استطاعت

نتائج سياسية فيما بعد . وسيكون من بين تلاميذه عدد من الضباط العرب والأتراك الذين سيشاركون بالتالى فى تاريخ المنطقة ، وفى القضاء على طغيان عبد الحميد ، وفى القيام بالثورة العربية .

وحاولت البعثة الالمانية دفع الحكومة التركية إلى شراء الاسلحة والذخائر من المصانع الالمانية ، وواظبت على إرسال تقارير خاصة إلى الحكومة الالمانية . وتلى ذلك مجيء ممثلى رجال المال الألمانيين يسعون وراء بعض المشروعات الصغيرة ثم المشروعات الضخمة مثل إنشاء سكة حديد الأناضول التى امتدت من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦ من حيدر باشا (أمام القسطنطينية) حتى قونية ، وكان هذا هو بداية تفكير الحكومة الالمانية فى إستغلال الموارد الاقتصادية فى آسيا الصغرى ، وبداية غزوها الاقتصادى للدولة العثمانية ـ ومشروع إنشاء سكة حديدية من القسطنطينية حتى الخليج الفارسى ، وهو المشروع الذى تطلب من القيصر الالمانى أن يحضر بنفسه للحصول على عقد الامتياز من الحكومة التركية .

ووصل غليوم الثانى إلى القسطنطينية سنة ١٨٩٨ بعد أربع سنوات من التمهيد الدبلوماسى ، وجاء فى زيارة رسمية للسلطان ، ونجح فى الحصول على عقد الامتياز المطلوب . وكانت سكة حديد بغداد هى إمتداد للخط المنشأ من حيدر باشا إلى قونية ، وتهدف إلى وصل جنوب الأناضول بالموصل ، ثم تسير جنوباً صوب بغداد والبصرة ، وتنتهى عند ساحل الخليج العربى . ووضعت لها فروع فى نقط مختلفة ، ومن أهمها ذلك الفرع الذى يصلها بالاسكندرونة ، والذى يعمل على توصيل البحر المتوسط بالخليج العربى بطريق مباشر . وكان هذا المشروع فى منتهى الجرأة وكان يهدد « المصالح » البريطانية فى الشرق الأدنى تهديداً مباشراً ، وأثار مشاكل كثيرة بعضها استراتيجى والآخر سياسى وإقتصادى . أما ألمانيا فانها قد حصلت على « منطقة نفوذ » كبيرة ، غنية باسواقها وبموادها الاولية ،

وأما انجلترا فانها قد أصبحت مهددة فى طرق مواصلاتها فى الشرق الأدنى ، وفى تفوقها عند الخليج العربى .

وسافر القيصر من القسطنطينية إلى بيت المقدس ثم إلى دمشق ، وحاول أن يبذر بذور جديدة للنفوذ الالمانى فى المنطقة العربيـة من الامبراطورية العثمانية ، فأعلن صداقته للاسلام وللخليفة ، وأكـد للثلاثمائة مليون مسلم الذين يحترمون السلطان بصفته خليفتهم ، أنهم سيجدون فيه صديقاً دائماً لهم ، ثم أمر باصلاح قبر صلاح الدين وأهدى اليه هدية فضية خاصة ، معلناً أنها من أحد المعجبين بهذا البطل الاسلامى . وكانت هذه التصريحات تهدد السياسية الانجليزية والفرنسية فى الشرق الأدنى ، خصوصـا وأن القيصر عاد إلى المانيا بـين تصفيق الصحافة الإسلامية .

وقدر عبد الحميد قيمة هذا الصديق القوى بين البلاد الاوربية ، واعتقـد فى قدرته على القضاء على تغلغل النفوذ الالمانى فى امبراطوريته بمعادلته بنفوذ الدول الاخرى . وحاول عبد الحميد الاستفادة من تغلغل هـذا النفوذ ، ما دام لا يصل إلى النفوذ السياسى ، فى معادلة اليقظة العربية ، والسيطرة على المناطق العربيـة فى امبراطوريته ، وذلك عن طريق إنشاء سكة حديد الحجاز ، الواصلة بين دمشق والمدينة ومكة . وادعى عبد الحميد أن هذه السكة الحديدية تسعى إلى تسهيل الحج ، ولم يذكر أهمية هذه السكة الحديدية من الناحية السياسية والاستراتيجية . وساعده عزت باشا العابد فى إنشاء هذا المشروع ، الذى شاركت فيه الشعوب الاسلامية بالتبرعات التى بلغت ثلث التكاليف (مليون جنيه من ثلاثة ملايين) . وقد دل هذا المشروع على التفاف المسلمين حول الخلافة ، وحصل عبد الحميد من ناحيـة أخرى على وسائل نقل سريعـة ، وتمر فى بلاده ، وتمكنه من السيطرة على بلاد العرب سيطرة عسكرية . وأصبح من الممكن الوصول من دمشق إلى المدينة فى خمسة

أيام بدلا من أربعين بالقوافل ، وعشرة إلى خمسة عشر يوما عن طريق السفن عبر قناة السويس . وستشارك هذه السكة الحديدية فى تاريخ الشرق الادنى ، وسيكون لها نتائج فى التقريب بين العرب وفى تطورات الحركة التى ستنشأ فى العالم العربى .

رابعا — الحركة القومية العربية :—

يمكننا أن نرجع أول مجهود للحركة القومية العربية إلى سنة ١٨٧٥ أى ،قبل مجىء السلطان عبد الحميد للعرش بسنتين ، وذلك عندما إجتمع خمسة شبان من خريجى الكلية البروتستانيتية السورية فى بيروت ، وكونوا جمعية وطنية سرية وكانوا جميعهم من المسيحيين ، ولكنهم قدروا أهمية العمل على ضم المسلمين والدروز إليهم ، وسعوا إلى ضم جماعة من المثقفين فىسوريا إلى جمعيتهم ، دون نظر إلى دياناتهم . وكانت أفكار البنائين الأحرار (الماسونيين) قد بدأت فى الوصول إلى سوريا ، وبدأت ألواج أو محافل هذه الحركة تتصل بالجمعية السرية.

جمعية بيروت السرية :—

لقد اتخذ هؤلاء الشبان من بيروت مركزاً لنشاطهم ، ولكنهم أنشأوافروعا لهم فى دمشق وطرابلس وصيدا . وكانت أهدافهم ثورية لاغبار عليها ولكنهم قصروا نشاطهم لفترة بضع سنوات على الاجتماعات السرية ، والمناقشة وتبادل الآراء ، ثمقرروا توسيع دائرة نشاطهم بالنزول إلى ميدان الدعاية ،وذلكعن طريق إعداد منشورات سرية تلصق على الحوائط . وعمل هؤلاء المتامرون ليلا فى كتابة نسخ من هذه المنشورات بهمة ونشاط ، ثم خرجوا ينشرونها فى المدينة فى غفلة من رجال الضبطية ، أو الداخلية ، وحمل كل منهم زجاجة صغيرة من الصمغ للقيام بهذه المهمة . وفى الصباح يجتمع بعض المارة حولهذه المنشورات،

ويقوم أحدهم بقراءتها الباقين ، إلى أن يصل رجال الشرطة ويمزقونها ويقبضون على بعض هـؤلاء المتجمهرين المظلومين . وسرعان ما يصل نبأ العثور على منشورات مماثلة فى دمشق أو حلب أو طرابلس أو صيدا ، وتتناقل الافواه هذه الاخبار وتعلق عليها ، ويحاول رجال الجمعيـة السرية معرفة رد الفعل ، تمهيـداً لإعداد منشورات جديدة .

ولقد فضحت هذه المنشورات مساوىء الحـكم التركى ، ودعت العرب إلى القيام بثورة لتحطيم الظلم والاستبداد . ووصلب أنباء هـذه المنشورات إلى القسطنطينية ،فأرسل عبد الحميد بعض جواسيسه إلى بيروت ،لمحاولة معرفةمصدر خروجها ، فعملوا على تفتيش المنازل ، وإلقاء القبض على بعض الاهالى . وسرت إشاعة فى ذلك الوقت مؤداها أن والى سوريا هو الذى خلق هذه الحركة وأنه هو الذى يسيرها . ولم يـكن والى سوريا فى ذلك الوقت سوى مدحت باشا ، الصدر الاعظم السابق ، وواضع دستور سنـة ١٨٧٦ . فاتهمه القصر بمحاولة الصيد فى الماء العكر وخلق المشكلات فى سوريا ، أملا فى الاستقلال بهذهالولاية عن الدولة العثمانية ، مثلما فعلت أسرة محمد على بمصر ، وبعمله على تكوين أسرة وراثية فيها . وسحبت الحكومة العثمانية مدحت باشا من سوريا ، وظهر ظلمهذا الاتهام من بقاء نشاط الجمعية السرية على ما كان عليه لعدة سنوات بعـد ذهاب مدحت باشا . ولـكن هذه الجمعية إضطرت بعد اشتداد الكبت البوليسى عليهـا إلى أن تصفى نشاطها فى سوريا ، وهاجر أكبر أعضائها نشاطا إلى مصر ،بعيداً عن أيدى السلطات العثمانية .

حاولت هذه المنشورات أن توحد بين العرب حتى لايقعوا فريسةبين براثن الاستعمار الاجنبى ، وذكرتهـم بمجدهم السالف وبضرورة العمل على إعادته ، مستندين فى ذلك إلى قوة السـيف . ثم شرحت كيف أنالدولة العثمانية قد فشلت

فى القيام بالاصلاحات التى وعدت بها فى عام ١٨٦٠ ، أى فى وقب فتنة لبنـان ، وطالبت بنظام استقلال ذاتى ، أو استقلال تام إن أمكن، لكل سوريا عن الدولة العثمانية ، وفى إحدى هذه المنشورات التى يرجع تاريخها إلى نهاية سنة ١٨٨٠ فضح الثوار سياسة الحكومة العثمانية فى القضاء على اللغة العربية ، واتهموها بأنها قد اغتصبت الخلافة الإسلامية من العرب . ولقد وضعوا برنامجاخاصا ينص على العمل على استقلال سوريا ، واتحادها مع لبنان ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية ، وإلغاء الرقابة ، وكل ما يقيد حرية الفكر والنشر ، واستخدام المجندين العرب فى الخدمة العسكرية محليا فى الاقليم السورى .

ظهرت إذن أوائل ثمار أفكار اليازجى والبستانى فى الاعتماد على اللغة العربية، واعطائها المكان اللائق بها ، واستخدامها فى القضاء على الجهل ، وفى تكوين رباط قومى بين المتكلمين بها ، واتخاذ ذلك أساساً لقيام دولة عربيـة . كانت هذه هى الاصداء الاولى للحركة القومية العربية عندما بدأت تقوم بمطالب سياسية ويمكن للناقدين أن يأخذوا عليها أنها أسرفت فى إستخدام العواطف ، وطالبت الاهالى بالقيام بثورة مسلحة على الحـكم التركى ، قبل أن تعمل على التغلغل فى رؤوس أغلبيتهم ، وقبل أن تقوم بأى ظل لتنظيمهم وإعدادهم لهذه الثورة . يمكن للناقدين إذن أن يتهمونها بمحاولة القيام بهياج سياسى ، دون أن تقدر النتائج التى قد تترتب عليه . ولكنها كانت على أى حال مرآة لما يدور فى رأس المثقفين العرب فى هذه الفترة ، وبطبيعة الحال لم يستجب الاهالى إلى ندائها إلا بقدر ما كان لهـم من تمسك بالحركة القومية وفهمهم لها ، وقوة على الثورة من أجلها . وازداد قراءة الاهالى لهذه المنشورات ، وتهيأ الرأى العام ، ولكن الثورات المسلحة لم تحدث فاستمرت الحركة فى نموها فى نطاق إمكانياتها وطبيعة الوسط المحيط بها والقوات والعوامل المعادية لها ، واهتمت بالنواحى النفسية والأدبية أكثر من اهتمامها

بالقوى الاقتصادية وبالنظريات السياسية ، ولكنها كانت على أى حال حركة قومية ، لها أصالتها ولها جذورها العميقة التى تستند عليها ، وإن كانت لم تتمكن من الافصاح عنها أو استغلالها فى خدمة قضيتها .

كانت هـذه الحركة إذن حركة استقلالية تسعى إلى توحيد سوريا ولبنان وكان نظام الاستقلال المحلى الذى وضعته « التنظيمات الأساسية » للبنان فى عـام ١٨٦٤ قد منح هذا الإقليم إدارة خاصة به ، بشكل يسمح له بالفعل بالانفصـال عن بقية سوريا من ناحية البنيان السياسى . ومهما كانت النتائج التى وصلت اليها هذا النظام فى الميادين الأخرى ، فان هذا التقسيم كان يتعارض مع فكرة البعث العربى الجديد ، التى لم تقبل الحواجز ، وآمنت بمزايا الاتحاد ، كأساس للخلاص ولتحسين الاحوال ، ولهذا فاننا نجد أن منشورات بيروت كانت تشير إلى اتحاد المصالح ، والوحدة السياسية بين لبنان وبقية سوريا ، وأن فكرة الوحدة العربية قد انتشرت من سوريا إلى بقية الأقاليم العربية وأصبحت مع الوقت أولى مطالب القومية العربية.

وكانت هذه الحركة تسعى إلى الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية ، خاصـة وأن السياسة المركزية التى اتبعتها الدولة العثمانية منذ سنة ١٨٦٤ فرضت استخدام اللغة التركية كلغة التعامل الرسمى فى سوريا ، ولم يكن من السهـل على السوريين التعامل بهذه اللغة فى الادارات المختلفة وفى المحاكم ، رغما عن بقـاء بلادهم لمدة قرون عدة داخل نطاق الدولة العثمانية وكان كبار الموظفين من الاتراك لا يتكلمون العربية فى حالات كثيرة . وأخيراً فان السياسة المركزية العثمانية كانت تتعارض النتائج الطبيعية لازدياد نشاط التعليم الذى قامت به الارساليات الاجنبية، والذى إستند إلى اللغة العربية . وهدف إلى دراستها وإحيائها. وأهانت السياسة لمركزية العثمانية ذلك الفخر والعزة العربية الذى بدأ الطلاب السوريين يشعرون به ؛

وكان من الطبيعى أن تسعى هذه الحركة السرية إلى إلغاء الرقابة ، خاصة وأنها كانت تتألف من رجال أدباء ، يعيشون بشعورهم ووجدانهم ، ويوازنون وينقدون ويحللون ، ولم تسمح الرقابة العمياء لهم بالقيام بدورهم الطبيعى فى تطور الفكر فى هذه المنطقة من العالم . أما مطلب الجمعية السرية الأخير فكان أيضا نتيجة للسياسة التى اتخذتها الدولة العثمانية فى تفضيل إرسال جنود من العرب لفرض سيطرتها على اليمن ، معتقدة بسهولة الأمر عليهم نسبيا فى هذه الاعمال ، وفى ذلك الاقليم بالذات ، أكثر من الجنود الاتراك . ولكن الحرب اليمنية سنة ١٨٧٢ فتحت بابا جديداً للخلاف بين الاتراك والعرب ، ثم جاءت الحرب الروسية ، واعتقد السوريون أنهم لا يمتلكون فى الامبراطورية ما يبرر إستغلالهم فى الدفاع عنها.

هذه إذن هى المطالب التى تقدمت بها جمعية بيروت السرية ، وكانت مطالب ثورية، إذ أنها حاولت تغيير النظم والأوضاع التى فرضتها الدولة على سوريا ، داخل اطار السياسة الامبراطورية العثمانية ، دون إلتفات إلى اختلاف الاحوال فى كل من هذه الأقاليم عنها فى الاقليم الآخر ، وإلى ماقد يخلقه الاتصال بالخارج من تيارات وآراء جديدة ، تتبلور مع الزمن ، وتنشىء لهذا الاقليم شخصية قائمة بذاتها .

ويعتبر المجهود الثورى لجمعية بيروت السرية أول موجه من هذه الموجات التى ستمر بالعالم العربى ، وتعتبر منشوراتها سنة ١٨٨٠ فى غاية الاهمية ، إذ أنها تدل على هذه المرحلة التى بلغتها هذه الموجه العربية الأولى . ولم تنجح جمعية بيروت السريه بطبيعة الحال فى تحقيق أى من أهدافها ، ولكنها عملت على زيادة الوعى القومى العربى ، واستغلت حركة الشعور السائدة فى سوريا فى خلق عقيدة سياسية جديدة ، وأشارت بهذا إلى الطريق الذى يجب على العرب أن يسلكوه فى

حركاتهم المقبلة ، أو فى موجاتهم التالية التى ستعم بلادهم .

وبدأت فكرة الاستقلال فى الاتساع والانتشار ، وأخذت جمعيات أخرى تعمل على إنشاء المدارس والمستشفيات ، وذلك لخدمة الجيل الجديد من أبناء المسلمين والمسيحيين من العرب على السواء ، ودون تفكير فى إشراك الأتراك معهم . وازداد كره العرب مع الزمن للاتراك ، وأخذوا يفكرون فى التحرر من سيطرتهم ، ويفكرون فى إنشاء خلافه إسلامية عربية ، بعد أن خضعوا لمدة قرون لادارة تركية ، ووصلت هذه الآراء التحررية إلى المدينة ومكة نفسها ، ولم يخف بعض العرب مشاريعهم الخاصة بتوحيد العراق ونجد مع العسير واليمن. ولم تقتصر الحركة على سوريا ،وإن كانت الآراء السائدة فى كل اقليم لاتتطابق تماما مع الآراء السائدة فى الإقليم الثانى ، ولكنها اشتركت جميعا فى رغبتها فى التحرر من السيطرة التركية ولم تكن السكك الحديدية قد أنشئت بعد فى البلاد العربية ، وكانت المواصلات عقبة كأداء ، أما الصحافة فكانت شبه معدومة ، مما صعب كل عمليه ثورية فى مجموع الأقاليم العربية ، وجعلها شبة محالة . ولكن الآراء والأفكار وصلت إلى مرحلة ثورية .

ازدياد التعليم الغربى:

لم تكن الرقابة العثمانية وجواسيس عبد الحميد واستبداده هى العوامل الوحيدة التى عاقت استمرار عمل جمعية بيروت السرية ، إذ أن هناك عوامل أخرى تكاتفت معها فى الوصول الى هذه النتيجة ، منها سياسة عبد الحميد العربية ، وتقدم التعليم الغربى ونتائجه ، وازدياد قوة رجال الدين .

ولقد نجح السلطان عبدالحميد بسياسته فى البلاد العربيه فى تقليل أهمية الحركة القومية ، وذلك عن طريق منح الوظائف والهبات من ناحيه والإرهاب من ناحيه أخرى ولقد

لنفذ هذه السياسة بكل نشاط فى سوريا أكثر من غيرها من الاقاليم العربية، وسواء أكانت سوريا هى قلب الحركة العربية الناشئة، أو كانت أكثر تقدما من الناحية الفكرية عن الأقاليم العربية، أو أنها كانت فى مركز جغرافى ممتاز بالنسبة لهم، فانها قد حصلت على نصيب الاسد من التفات عبد الحميد إلى هذه الاقاليم العربية .

وقد يكون من الغريب أن نذكر أن تقدم التعليم الغربى قد ساعد فى الوصول إلى نفس النتيجة . وذلك أن عهد عبد الحميد قد امتاز بانتشار المدارس الغربية فى الاقليم السورى، ولم يبق الميدان احتكاراً للفرنسيين والامريكيين والانجليز، إذ أن كلا من البعثات الروسية والايطالية والالمانية قد وصلت بدورها، وشاركت فى هذا المجهود . وكانت سوريا تئن من التفرقة فيما مضى، وكان هذا الاختلاف بين رجال التبشير والتعليم الغربيين عبئاً جديداً عليها، خصوصا وأن بعض هذه البعثات كانت آلات تسعى إلى تحقيق أغراض سياسية، وأحضرت معها روح التنافس الدولى الأوربى وأساليبه، فى نفس الوقت الذى حضرت فيه لنشر التعليم بين السوريين . وأخذت الحكومة الفرنسية تدفع الاعانات للبعثات الدينية حتى تقوى نفوذها فى سوريا، وأخذت هذه البعثات تنشىء علاقات مع المارونيين والمسيحيين الكاثوليكيين، وحاولت أن تشكل الجيل الجديد من أبنائهم الذين يدرسون لديها وفق الآراء الفرنسية، وتجذب قلوبهم نحو الحضارة والثقافة والصداقة الفرنسية . وعملت البعثات الروسية نفس المسألة مع الارثوذكسيين العرب فى كل من انطاكية وبيت المقدس، كما أن الانجليز قد سعوا إلى التقرب من الدروز، وحاولوا جذبهم صوب السياسة البريطانية، أما الامريكيون فانهم لم يعملوا لأغراض سياسية واضحة، ولكن إقتصارهم على التعليم والتبشير ساعد على خلق مذاهب مسيحية جديدة فى سوريا، وأضافوا بذلك عوامل جديدة إلى

عناصر التفرقة الموجودة من قبل ، بدلا من أن يعملوا على ضم شمل المنقسمين ، وأما الايطاليين والألمان فان مجهوداتهم لم تتوصل إلى نتائج لها قيمتها وتأثيرها على الناحية القومية .

وهكذا نرى أن إزدياد التعليم الغربى لم يكن فى صالح الحركة القومية العربية ، فرغماً عن عملها على رفع المستوى الثقافى فى سوريا وجعلها أكثر الاقاليم العربية تقدماً من الناحية الثقافية ، عملت على زيادة الروح الطائفيـة ، وزيادة عـدد الطوائف ، وهى ما تعتبر عقبات كأداء أمام الحركة القومية ، وأصبحت وسيلة للتدخل السياسى فى نفس الوقت الذى كانت فيه وسيلة للتعليم . وعملت إذن على إلغاء وابطال نتائج الحركة الاصلاحية التى قامت فى جيل البستانى ، والتى حاربت التفرقة العنصرية ، ونفوذ رجال الدين ، كانت بهذا سهما مصوبا الى جذور الحركة القومية العربية .

ولكن نمو التعليم الغربى ساعد على نقل زعامة الحركة القومية من المسيحيين إلى المسلمين . ووصل الى ذلك عن طريق مهاجمته غير المباشرة للغة العربية كافة الثقافة القومية . وحاولت المدارس الاجنبية أن تجعل تلاميـذها يتبحـرون فى اللغـات الأوربية ، وكان ذلك على حساب اللغـة العربية . وحاولت بعض المدارس ـ وخصوصا الفرنسية منها ـ الوصول الى نتائج سياسيـة عن طريق التعليم باللغات الأجنبية ، وادعت غيرها فقد اللغة العربية لمرونتها ، وعدم قدرتها على التمشى مع التطور العلمى الحديث الموجود فى العـالم الغربى ونشأ جيل جديد من السوريين يرتاح إلى التحدث بأية لغة أوربية ، أكثر من تحدثه بالعربية وكان معظم تلاميذ المدارس الاجنبية من المسيحيين ، أما المسلمين فانهم كانوا يترددون كثيراً فى إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس ، خوفاً من التبشير ، وواصلوا إرسال أبنائهم إلى المدارس العربية ورغم ارتفاع المستوى الثقافى فى المدارس الاجنبية

عنه فى المدارس الوطنية إلا أن خريجى المدارس الاولى ابتعدوا عن الثقافة العربية ، وعن روح القومية التى كانت قد بدأت تعطى نتائجها مع تلاميذ المدارس العربية . وحافظ المسلمين على روح التجديد العربى وهكذا نرى أن الآراء التى بذرها الامريكيون فى بداية القرن التاسع عشر بين جيل من المسيحيين قد أخذت تنبت بين جيل آخر من المسلمين . وسنرى بعد فترة ركود نسبية ، وعند سقوط عبد الحميد ، أن الحركة القومية العربية ستصبح فى واقع الامر حركة إسلامية .

الكواكبى :

لايمكننا التحدث عن القومية العربية فى هذه الفترة دون أن نشير إلى عبد الرحمن الكواكبى ، والمجهودات الثورية التى قام بها فى هذا السبيل . ولقد ولد فى عام ١٨٤٩ فى أسرة مسلمة فى حلب ، وتعلم فى المدارس الاسلامية فى هذه المدينة ، ثم أخذ فى كتابة المقالات واشتغل بالمحاماة ، ثم اشتغل باحدى الوظائف الحكومية ، ولكن آراءه التحررية وثورته على الطغيان تسببت فى إلقاء القبض عليه ، مما اضطره إلى الهجرة إلى مصر بمجرد الإفراج عنه بحثا وراء العيش فى جو أقل اختناقا عن الجو الذى ساد فى سوريا . وطوف ببلاد الصومال وزنزبار واليمن والحجاز ، ثم عاد إلى القاهرة حيث توفى عام ١٩٠٣ .

وكان الكواكبى يؤمن بمستقبل العرب والإسلام ، وكان يكره التعصب والظلم والاستبداد ، وخصوصا ظلم الضعفاء والمساكين . وكان متحدثا لبقا ، وخطيبا مفوها . وكان لايفرق فى الوطنية بين أصحاب الاديان المختلفة ، وكان يفضل صداقة الفقراء ، ويحاول الدفاع عنهم بكل ما يملك .

ويشرح كتابه «أم القرى» مايتمناه للاسلام من عز ومجد ، ويشتمل على بعض الشخصيات الخيالية ، من أقاليم مختلفة من العالم الإسلامى ، اجتمعت فى مكة للحج ، وتتناقش فيما بينها ، ثم تتفق على عناصر التجديد الضرورية للاسلام . أما كتابه الثانى

المسمى «طبائع الاستبداد» فهو عبارة عن مجموعة من المقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية عن الاستبداد ، ثم جمعها، وأضاف اليها ، وأظهر فيها كراهيته العميقة للظلم والتحكم . ولقد نشر الكتابين بأسماء مستعارة في القاهرة، وأقبل الناس على قراءتها ومناقشة أرائها ، ووصلت بعض النسخ سراً إلى سوريا . وتعتبر هذه الكتب وأرائها تجارب جريئة في تاريخ القومية العربية .

ولقد فرق الكواكبي بين القومية العربية وحركة الجامعة الإسلامية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني وحاول عبد الحميد استغلالها لأغراضه . ومما لاشك فيه أن الكواكبي قد استفاد من آراء جمال الدين الأفغاني ووافق عليها ، ولكننا نرى أن جمال الدين ينظر إلى العالم الإسلامي كميدان واحد ، يوحد تحت أي خليفة من أي جنس ، على أن تكون له من القوة مايسمح له بالنجاح في المهمة الصعبة التي تنتظره، بينما نجد أن الكواكبي يميز بين العرب والشعوب الإسلامية غير العربية . ولقد توصل إلى التمييز بعد تعمقه في دراسة التاريخ ومعرفة الدور الذي قام به العرب في نشر الإسلام ، ويدافع الكواكبي عن فكرة وحدة الإسلام ، ولكنه ينادي بضرورة تنازل السلطان عن لقب الخلافة ،وضرورة تنصيب أحد العرب القرشيين في مكة خليفة للمسلمين .

ولقد ساعدت أراء الكواكبي بدون شك على تغيير زعامة وقيادة القومية من المسيحيين إلى المسلمين .

ويمكننا أن نعقد موازنة صغيرة بين نشاطه وبين النشاط الذي قام به نجيب عزوري قرب نهاية حكم عبد الحميد . وكان نجيب من المسيحيين السوريين ، واختار باريس مركزاً لنشاطه بعد أن وصل اليها عام ١٩٠٤ وأسس بها «جمعية الوطن العربي» التي كانت تسعى إلى تحرير سوريا والعراق من الحكم التركي ، والتي أرسلت النداءات إلى العرب تطالب إليوم القيام بالثورات لتحقيق هذه الأهداف . ونشر نجيب

كتابا بالفرنسية فى العام التالى عن «يقظة الأمه العربية»، ثم تمكن بعد سنتين من إصدار مجلة شهرية باسم «الاستقلال العربى»، ظهر أول أعدادها فى أبريل سنة ١٩٠٧. وحاول أن ينشر المعلومات عن البلاد العربية، ويجعل الرأى العام الأوربى يهتم بتحريرها من الحكم التركى. ولكن صدور هذه المجلة وقف مع إعادة العمل بالدستور العثمانى فى يوليو سنة ١٩٠٨. ولقد نجح عزورى فى جذب أنظار بعض الأوربيين فى ذلك الوقت، ولكنه لم يتصل بالرأى العام العربى نفسه. ورغما عن قيمة المجهودات التى بذلها عزورى، فان مسألة اتخاذ إحدى المدن الأوربية مركزاً لنشاطه، واتخاذ إحدى اللغات الأجنبية وسيلة لدعايته، كانت تعمل ضد الإستجابة بينه بين مواطنيه.

انفصال مصر عن الحركة :

وبدأ انفصال مصر يظهر فى هذا العصر الحميدى واضحا عما كان عنه فى أى وقت، وخطت مصر لنفسها سياسة وطنية خاصة بها، دون تقيد أو ارتباط بحركة القومية العربية العامة، وذلك نتيجة لمؤثرات وعوامل خارجية، ونتيجة استجابة العناصر المصرية لهذه العوامل أو معارضتهم لها.

كانت الاستجابة بين مصر وسوريا للحركة القومية العربية قد بدأت فى السبعينات، وفى أثناء حكم اسماعيل، الذى ترتب على سياسته المالية الفاسدة المعقدة توغل النفوذ الأوربى وازدياد حركة عدم الرضا بين صفوف الشعب. وبدأت الحركة الفكرية فى مصر، تسير مع نفس الحركة فى سوريا، فى كل ما يخص التجديد الثقافى العربى وبعث الشعور بالقومية العربية والاعتزاز بها، وأصبح كل من الاقليمين يستجيب إلى الاتجاه الذى يسير فى الاقليم الثانى، وظهرت كل من القاهرة وبيروت على أنها مراكز متشابهه، وانتشر من كل منها قوة ثقافية واحدة فى بقية أنحاء العالم العربى. ولكن انجلترا احتلت مصر فى وقت أخذت فيه حركة اليقظة القومية تتحول إلى حركة سياسية واضحة، فظهرت تيارات جديدة لها طابع مصرى،

سعت قبل كل شىء إلى العمل على جلاء الجنود البريطانية عن مصر . ونسيت مصر أو تناست الظروف الموجودة فى بقية العالم العربى ، من ظـــلم واستبداد وتأخر . وعملت على توثيق علاقاتها بتركيا ، سعيا وراء جلاء القوات الأجنبية عن أراضيها ، مما ميز بينها و بين الحركات السورية .

وبدأت الحركه الوطنيه المصرية إذن بهذه الطريقه ، واختار زعماؤها هـذا البرنامج مضطرين لامختارين أو منفصلين عن إخوانهـم العرب . وزاد على مر الأيام الاختلاف بينهم وبين الزعماء العرب وضوحا . استمرت الصلات الثقافية عاملا مشتركا بين مصر وبقية البلاد العربية ، والتجأ إلى مصر كثير من زعماء العرب ، فراراً من إضطهاد السلطات التركيه ، علاوة على كثير من الطلبة الذين كانوا دائما رباطاً متيناً بين مصر وبين بقية الاقاليم العربية ، وعلى مر الأجيال . ولكن النشاط الوطنى السياسى ظل منفصلا ، نتيجة لإختلاف العـدو ، الذى كان يتمثل فى الأتراك فى سوريا ، والانجليز فى مصر ، ونتيجة لرغبة السوريين فى التحرر من الحكم العثمانى ، واضطرار المصريين إلى إعلان تمسكهم بالدولة العثمانية ، منعاً لإنجلترا من اعلان حمايتها على مصر ، أو التصرف فى السيادة الإقليمية ، بشكل قد يزداد على نفوسهم مرارة .

ولقد حدث نفس الشىء فى تونس بعد احتلال الفرنسيين لها ، وإعلان حمايتهم عليها . واستقرت الحركة القومية العربية بشكل واضح فى سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية .

الفصل التاسع

العرب والترك قبيل الحرب العالمية الأولى

أولا :- تركيا الفتاة والدستور :- (١)

كانت القوة الموجودة فى الدولة العثمانية فى أثناء حكم السلطان عبد الحميد تدفع بهذه الدولة صوب التجديد ، رغم جمود الأوضاع ، وبقاء السلطان منفصلا عن شعبه ، ولا يعتقد إلا فى ضرورة وجود رأس واحد للدولة يسير أمورها. ولقد ساعد الاحتكاك بالآراء الغربية ، مع وجود عدد من البعثات الاجنبية فى عاصمة الدولة ، على تفتح الآراء ، ونمو الاتجاه صوب مشاركة الرعية فى تصريف شئون الحكم وإذا كانت الدولة العثمانية قد خضعت لاستبداد السلطان عبد الحميد فانها قد تأثرت بالآراء الدستورية الغربية . وجاءت الآراء التحررية الى تركيا عن طريق المدارس ، كما جاءت عن طريق سفر عدد من العثمانيين إلى عواصم الغرب للدراسة فيها . وأدى ذلك إلى ظهور حركة عرفت باسم تركيا الفتاة، وتمكنت من السيطرة على الحكم فى الدولة العثمانية ، وأثرت تأثيراً كبيراً فى تاريخ هذه الدولة ، وفى تاريخ الشعوب المرتبطة بها والخاضعة لها ، وخاصة الشعوب العربية .

جمعية الترقى والاتحاد الدولى :

بدأت الآراء الدستورية والرغبة فى تطوير نظم الحكم فى الدولة العثمانية فى الظهور فى نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وعلى وجه الخصوص فى سنة

---

(١) أنظر د. جلال يحيى: العالم العربى الحديث. ج ١. المدخل دار المعارف، ١٩٦٧ ص ٤١١ .

١٨٨٩ ، وبدأت هذه الحركة فى أول أمرها بين طلبة المدرسة الطبية العسكرية فى استامبول ، وكما كان يسمى بالمكتب الطبي العسكرى فى ذلك الوقت . وأخذت شكلا واضحاً معاديا لحكم السلطان عبد الحميد ، وانتشرت بين طلاب هذه الكلية فى شكل رغبة عامة لتطوير نظم حكم السلطنة ، حتى أنهم قد بدأوا فى القيام بحركة اضرابات بعد أن قاموا بتشكيل حركة جمعية سرية فيما بينهم . وكان تنظيم هذه الجماعة السرية الأولى يشبه الى حد كبير تنظيم جمعيات الكربوناري الايطالية من حيث تكوين الخلايا وعلاقة الثوار ببعضهم ، وكانت هذه الجمعية السرية تسمى جمعية الترقي والاتحاد . وكان أعضاؤها يعرفون بعضهم بأرقام سرية ، ويجتمعون من وقت لآخر فى أماكن محددة . ولقد انتشرت هذه الحركة بسرعة وامتدت من المدرسة الطبية العسكرية إلى المدارس الحكومية العالية الأخرى الموجودة فى الآستانة ، فوصلت الى الكلية العسكرية (حربية مكتبي) والمدرسة البيطرية وكلية الادارة الملكية ، والكلية البحرية ، ومدرسة المدفعية والهندسة (طوبجى ومهندسخانة) . وكان تأثير الغرب واضحا على طلبة هذه المدارس العليا ، وكان عدداً منهم متفتحاً للآراء الغربية ، كما كان عدداً من أساتذتهم من الغربيين الذين يتحدثون معهم عن مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، وعن الدساتير والديموقراطية ، ولاشك أن هذه المدارس العصرية كانت أخصب من المدارس الدينية فى نشأة وفى نمو مثل هذه الحركات . خاصة وأن المدارس الدينية كانت مقفلة على نفسها ، وعلى طلبتها ، وداخل حدود التقاليد ، وفى ظل طاعة ولى الأمر .

وكان معظم أبناء الطبقة الوسطى فى الدولة لايجدون أمامهم مجالا لتعليم ابنائهم إلا فى هذه المدارس الحكومية العالية ، ولذلك فان الحركات الدستورية التحررية التى ستظهر بين طلبتها ستمثل التقاء آراء ومصالح الطبقة الوسطى النامية فى الدولة العثمانية بالآراء الدستورية والتحررية فى الغرب . ولذلك فان قادة

هذه الجمعية الثورية الأولى كانوا من بين أبناء هذه الطبقة الاجتماعية. وظهر شأن عدد منهم فيما بعد بصفتهم من قادة الحركة القومية العثمانية أو الحركة القومية التركية . ولقد عمل هؤلاء الشبان على قراءة بعض آداب اللغة التركية والاهتمام بالشعر التركى ، وكانوا يقرأون كتابات الكتاب الغربيين علاوة على قراءتهم لما كتب فى لغتهم القوميه.

ولكن أمر هذه الجمعية السرية الاولى وصل الى علم السلطان عبد الحميد فى سنة ١٨٩٢ ، وذلك عن طريق الوشاية التى قام بها بعض الطلبة غير المخلصين ، فاتخذ السلطان تدابير حازمة وفصل قائد المدرسة واستخدم الشدة مع الطلاب بعد أن قبض على بعضهم وقدمهم للمحاكمة .

ورغم استخدام الشدة مع الطلاب فان آراء هذه الجمعية السرية قد أخذت فى الانتشار واتصل بها عدد من الأهالى فى استامبول كانوا قد جاوزوا فترة الدراسة، وانضموا اليها وأيدوها . انضم إلى هذه الجمعية عدد من الشخصيات البارزة وبعض الموظفين من ذوى النفوذ ، وزاد عدد أعضائها ولكن استمرار ضغط السلطان وشرطته السرية على هذه الجماعة المتحررة أجبرت عددا منهم على السفر إلى الخارج سواء أكان ذلك للبعد عن بطش الأجهزة السرية أو لاكمال الدراسة فى جو متحرر وأخذت بعض خلايا هذه الجمعية تظهر فيما بعد فى كل من باريس وجنيف ولندن ، كما ظهرت اتجاهات مماثلة لها نوعا ما فى القاهرة مع مجىء بعض العناصر العثمانية الدستورية اليها .

أما فى باريس فنلاحظ أن الشبان الأتراك قد وجدوا عدداً من رجال الغرب المتحررين ، ومنهم خليل غانم الذى كان عضوا فى البرلمان العثمانى الأول ، الذى اجتمع بعد منح دستور مدحت باشا . وكان هذا الزعيم قد أنشأ فى باريس صحيفة فرنسية أسماها « تركيا الفتاة » بعد أن أنشأ جريدة الهلال فى جنيف . ولقد انضم

إلى هذه الجماعة فى باريس أحمد رضا الذى أصبح له شأنا هاما فى حركة تركيـا الفتاة فيما بعد ، وأصبح أحمد رضا مديراً للصحيفة التى تصدرها هذه الجماعة فى باريس وأشرف على إصدار صحيفة « مشورت » التى كانت تصدر مرتين كل شهر .وكانت هذه الجريدة الأخيرة تطبع باللغة التركية وتهدف تهريبها إلى داخل حدود الامبراطورية العثمانية والوصول إلى القراء الأتراك ، الا أنها أجبرت بعد ذلك فى إصدار ملحق لها باللغة الفرنسية حتى تضمن تأييـد الرأى العـام الفرنسى لها .

وكانت آراء هذه الجماعة فى باريس متأثرة بآراء اوجيست كونت وشرحت للرأى العام الفرنسى أنها تبغى معرفة الفرنسيين وتعتمد على روابط الصداقة والود الموجودة بينهم وبين العثمانيين للعمل على تغيير الأوضاع الموجودة فى الدولة العثمانية . ولقد شرحت هذه الجماعة أن هدفها لم يكن خلع الأسرة الحاكمة فى الدولة العثمانية ، وأن وجود وبقاء هذه الأسرة أمر ضرورى لحفظ النظام فى المنطقة ، ولكنها تهدف نشر فكرة التقدم واستخدام السلم والاصلاح مع النظام وسيلة للوصول إلى أهدافها : « اننا نطالب بالاصلاحات ، ولا نقصرها على هذه الولاية أو تلك ، لا لمصلحة قومية واحدة ، بل لمصلحة العثمانيين كافة ، سواء أكانوا يهودا أو نصارى أو مسلمين . إننا نريد أن نتقدم فى مضمار المدينة ولكننا نعلن بعزم اننا لا نريد أن نتقدم الا بالطريق الذى فيه تدعيم العنصر العثمانى وإحترام ظروف وجوده الخاصة . اننا مصممون على رعاية اصالة حضارتنا الشرقية ، ولهذا السبب لا نأخذ من الغرب إلا النتائج العامة لتطوره العلمى ، والا الاشياء التى يمكن هضمها حقا ، وهى ضرورية لتوجيه الشعب فى سيره نحو الحرية ... اننا نعارض احلال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطة العثمانية وليس هذا ناجما عن التعصب لأن المسألة الدينية عندنا أمر خاص ، ولكنه

منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية . » (١) .

لقد كان هذا البرنامج يهدف تحويل جميع العناصر التى تسكن الامبراطورية إلى رعايا عثمانيين وظل هذا المنهج هو منهاج كل الحركات التحررية فى الدولة العثمانية حتى قيام ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ .

بداية حركة تركيا الفتاة :ـ

لقد استمر بطش الدولة العثمانية تجاه هذه العناصر المتحررة وأخذت فى التنكيل بهم وبتقديمهم للمحاكمات ونفيهم إلى الأقاليم العربية النائية فى الجزيرة العربية أو فى ولاية طرابلس الغرب . وكانت الدولة قد أخذت فى تقدير خطورة هذه الحركة بعد أن أخذت صحيفة مشورت فى الوصول اليها عن طريق مكاتب البريد ، وكانت أوربية ، ولا تخضع لسلطتها . وأصبحت كل استامبول تتحدث عن هذه الجماعة الثائرة . وظهرت جماعة أخرى برئاسة مرادبك الجركسى أخذت فى العمل ضد سلطة عبد الحميد الاستبدادية ، ومن القاهرة ، وأصدرت لنفسها جريدة « ميزان » وأثر ذلك على هيبة الحكومة العثمانية وأجبرها على استخدام الشدة مع العناصر المتحررة . ولكن الضغط والاعتقال زاد الثوار فى عزيمتهم وتصميمهم . وكانت الدولة تخشى من أن يكون أحمد مختار باشا المندوب الثانى العثمانى فى مصر مع هذه الجماعة الأخيرة ، ورغم تحرره فما لاشك فيه أنه كان يبلغ الدولة العثمانية عن نشاط هذه الجماعة فى مصر رغم اتصاله بها . وأخذت صحف مشورت وميزان تتوارد على الدولة العثمانية . وإذا كان فى وسع السلطان عبد الحميد بصفته خليفة أن يوجه تهمة الالحاد إلى الجماعة المقيمة فى باريس بدعوى

(١) عن *Revue Occidentale, Vol : 12 - P. 128.*
عن تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ للدكتور رامزور وترجمة صالح العلي . بيروت .
منشورات دار مكتبة الحياة . ١٩٦٠ — ص ٥٧ .

استنادها إلى فلسفة أوجيست كونت ، فانه كان يعجز عن توجيه نفس التهمة إلى تلك الحفنة التى كانت تقيم فى القاهرة برئاسة مراد بك .

وفى هذا الوقت ظهرت مؤامرة لخلع السلطان عبد الحميد فى القسطنطينية، ودون أن تتدخل فيها الجماعة الموجودة فى باريس أو تلك التى أقامت فى القاهرة. وكان أساس هذه المؤامرة نشأت مركز جديد للثوار فى عاصمة الدولة نفسها أشرف عليه حاجى أحمد أفندى ومعه الشيخ نائلى وجماعة من العلماء والفضلاء ، والمقدم شفيق بك وعدد من ضباط الجيش . وقررت هذه الجماعة القيام بانقلاب فى شهر أغسطس سنة ١٨٩٦ ، وبعد تلك الفترة الخطيرة التى مرت بها الدولة نتيجة لمذابح الارمن سنة ١٨٩٥. وكانت خطتهم تستند إلى تدخل الفرقة الأولى فى القسطنطينية بقيادة كاظم باشا واحتلال الباب العالى وقت اجتماع مجلس الوزراء ثم إلقاء القبض على ولى العهد رشاد أفندى واصدار فتوى من شيخ الاسلام بخلع السلطان عبد الحميد . ولكن هذه المؤامرة اكتشفت قبل حدوثها ، وأدى ذلك الى نفى المتآمرين إلى أجزاء نائية من الدولة العثمانية . ولا يفهم المؤرخ كيف يحكم السلطان عبد الحميد « الطاغية الأحمر » على هذه الجماعة بالنفى بدلا من أن يسفك دماءها بعد وصول خبر مؤامرتها إليه ؟

ورغم أن هذه العملية قد أدت إلى وقف نشاط هذا التنظيم الثورى فى القسطنطينية إلا أنها لم تمنع استمرار وصول جريدتى مشورت وميزان إلى الدولة العثمانية . والمهم هو أن مركز النشاط قد انتقل بشكل واضح إلى الخارج لمدة سنوات عديدة . وتركز معظم الثوار فى باريس وجنيف وأخذت لهجتهم تجاه عبد الحميد تأخذ شكل الطعن والقدح . وحاول عبد الحميد محاربة هذه الجماعات وطلب من السلطات التدخل لوقف إصدار مثل هذه الجرائد ، ولكن الاتراك الاحرار وجدوا فى بعض الشخصيات الفرنسية مثل كليمانصو وجان جوريس من

يقف للدفاع عن قضيبهم ، وقضية الحرية فى كل مكان وإذا كان عبد الحميد قد تمكن من شراء المطبعة التى تطبع جريدة مشورت من جنيف فان ذلك لم يمنع الأتراك الأحرار من طبع جريدتهم على مطبعة حجر وإيصال نسخها إلى داخل حدود الامبراطورية ، كما انهم تمكنوا من الحصول على تأييد عدد من الكتاب والصحفيين الفرنسيين لهم فى حركتهم ـ وإذا كان السلطان عبد الحميد قد تمكن من اصدار أمر من الحكومة الخديوية فى سنة ١٨٩٦ باظهار عدم رضائها عن الحركة الدعائية التى تقوم ضد السلطان ، وأمرها إلى مراد بك بترك الاراضى المصرية ، إلا أن ذلك لم يزد نيران الثورة إلا اشتعالا فى صدور هؤلاء الثوار الاحرار ، وواصلوا مهمتهم من أوربا بعد أن عجزوا عن القيام بها فى العالم العربى . وإذا كان أحمد رضا لا يلقى عطفاً كبيراً نظراً لتحرره فان مراد بك قد جاء من القاهرة ، وبتأييد الرأى العام المتحرر الاسلامى ، إذ أنه كان من رجال الجامعة الاسلامية ، ولذلك فان عملية طرده من مصر قد عملت على تدعيم قوة الأتراك الاحرار المقيمين فى أوربا واعطائهم سلاحا قويا يصعب الوقوف أمامه وكان مراد بك يرى أن الخلافة الإسلامية هى الدرع الاساسى لوقاية العالم العربى والاسلامى من الأطماع الاجنبية ، وكان يتأصل من أجل ضرورة قيام السلطات بهذا الدور الملقى على كواهله خير قيام ، وكان هذا الاتجاه يعطيه قوة يفتقر إليها الآخرون . ولقد أصبح مراد بك رئيسا لجمعية تركيا الفتاة بعد وصوله بفترة وجيزة إلى جنيف وأصبح رئيسا للجنة الاتحاد الاشتراكى والترقى وأخذت جريدة ميزان تصدر من جنيف بعد أن وقف صدورها من القاهرة وواصلت عملها مع جريدة مشورت التى كانت تصدر فى باريس .

ولقد حاولت هذه الجمعية الثورية أن تضم إلى صفوفها الخديوى عباس حلمى الثانى خديوى مصر ، ولكن علاقاته بالسلطان وخوفه من تدهور العلاقات

مع سيد القسطنطينية أجبره على عدم اظهار التجاوب مع هذا الاتجـــاه رغم ميله إليه .

وقد حدث تجمع بين مجموعات الثوار العثمانية المقيمة فى أوربا فى بعض الأوقات ولكنها عادت وانشقت على نفسها . وكان أعضاء جمعية تركيا الفتاة يطالبون باعادة العمل بدستور سنة ١٨٧٦ وضماناته الخاصة بحرية العقيدة . وكان أعضاء هذه الجمعية يرجعون الشرور الموجودة فى الامبراطورية العثمانية إلى مصدرين رئيسيين : الأول هو السلطان عبد الحميد والثانى هو الدول العظمى التى تتدخل فى شئون الدولة العثمانية وتمنعها من القيام بواجبها على الوجه الأكمل . وكان مراد بك يرى أن مشكلة الأقليات المسيحيـــة فى الدولة المسلمة قد نشأت فى دوائر وزارات الخارجية ، وأنه لا يمكن اثارة هذه المشكلات إلا فى إطار الاصلاحات العامة فى تركيا ، إذ أنه لا يوجد أى أساس لإقامة دولة ولو مصطنعة للأرض مثـــلا . ولذلك فان الدين الاسلامى برىء عن تهمة أضعاف الدولة العثمانية التى يحاولون الصاقها به ، أما الشعب فيجتاز بحيويته واعتداله واخلاصه ، ولذلك فيصعب تحميله مسئولية تدهور الأحوال ، وكذلك الأسرة الحاكمة التى ضعفت بسبب مفاسد القصد ، فانها لم تفقد كل قوتها ، كما أن بقاؤها على رأس الدولة أمر ضرورى ولكن الجهاز الحكومى يحتاج إلى تغيير أساسى . ولقد عملت سوء سمعة الحاكمين وجهلهم بالإضافة إلى السياسة التى اتبعها عبد الحميد إلى افساد جهاز الحكم وجعل الموظفين طبقة جامدة معزولة . ولذلك فمن الضرورى اعادة تكوين الحكومة وعلى أساس استنادها إلى قوة دستورية تمكنها من الوقوف ضد طغيان القصر . ويعتبر هذا الأساس والسند أساس لحل المشكلة العثمانية ، خاصة واذا استند هذا الحكم الدستورى الى حرية الصحافة واعلان مساواة الرعية أمام القانون . ومادام العثمانيون يطالبون بالدستور . وعبد الحميد يرفض اعطائهم النظـــام الدستورى

فمن الواجب تنحيته عن الحكم ومنح هذا الدستور حتى تستقيم الأمور فى الدولة .

والواقع أن هذه الآراء لم تكن عميقة إذ أنها حاولت تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم دون نظر إلى القوى الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية والمعنوية الموجودة فى المنطقة . لقد اعتبرت أن شخص السلطان عبد الحميد مسئولا عن كل المساوىء ، دون أن تكلف الأسرة الحاكمة شيئا من هذا الهجوم . كما أنها اقترحت مجرد إعادة العمل بدستور مدحت باشا كحل للمشكلة ، وطالبت فى نفس الوقت بضرورة اتخاذ الإسلام أساساً ترتكن إليه الدولة . ولقد نظرت هذه الحركة إلى نشوء القوميات ونموها داخل حدود الامبراطورية على أنها حركات انفصالية خائنة تتصل بالخارج ، فحصلت بذلك لنفسها داخل نطاق الدولة ، وداخل نطاق وضعية قانونية ، حاولت أن تجعلها دستورية ، وتناست جميع القوى النامية والمتطورة داخل حدود الدولة وفى المناطق القريبة منها . لقد كانت هذه الحركة وهذه الآراء تمثل بداية التفكير القومى العثمانى الحديث وحاولت أن تسير فى نفس الطريق الذى سارت فيه الدول الاوربية فى عصر نمو القوميات فيها ، ودون أن تنظر إلى عوامل الوحدة المادية والمعنوية الموجودة فى هذه المنطقة أو التى تفتقر إليها .

وعادت الآراء التحررية للاتحاد والترقى وللبعث العثمانى الجديد تحت اسم تركيا الفتاة فى الظهور من جديد فى القسطنطينية ، وظهرت من جديد فى المدرسة الحربية والمدرسة الطبية مما اضطر السلطان إلى نقلها إلى حيدر باشا المواجهة للقسطنطينية على الساحل الأسيوى . ومرت الجمعية فى أوربا نفسها ببعض فترات هادنت فيها السلطان عبد الحميد وخاصة فى سنة ١٨٩٧ بعد اتصال بين سلطات الداخلية العثمانية وبعض أعضاء الجمعية المقيمين فى الخارج ، ونتيجة لتقديم بعض الوعود بالإفراج عن المعتقلين السياسيين . ولقد سمحت هذه الهدنة للدولة بتحطيم

جماعات الثوار الأحرار داخل حدودها وبشكل منعها من القيام بأى نشاط جديد حتى سنة ١٩٠٦ وأدت هذه الهدنة إلى إنصراف بعض العناصر إلى الدراسة ، وقبول البعض الآخر مناصب معينة فى الدولة ، وسمح ذلك لعبد الحميد بفترة جديدة من الحكم الأوتوقراطى .

العثمانيون الاحرار :

تزايد عدد العثمانيين الأحرار الموجودين فى الدولة الغربية على مر الزمن وتمكن عدد منهم من إنشاء جريدة جديدة فى جنيف هى جريدة «عثمانلى» التى أخذت تساند جريدة مشورت فى كفاحها .

وبعد أن كان الرجال العثمانيون الاحرار الذين يهاجرون من الدولة فى غالبيتهم من الطلبه والموظفين وعدد من الضباط فوجىء العالم سنة ١٨٩٩ بهرب الداماد محمود باشا صهر السلطان عبد الحميد مع ولديه صباح الدين ولطف الله إلى فرنسا . وكان الداماد محمود قد احتل منصب وزير العدل العثمانى سنة ١٨٩٢ وكان يأمل دائما فى عودة الدستور إلى أن فقد هذا الأمل وقرر الهجرة بعيداً عن البلاد وكان خروجه ضربة قوية موجهة للسلطان عبد الحميد خاصة وأن إدارته السرية عجزت عن معرفة فراره . وحاول السلطان أن يجبر فرنسا على إعادة الأمير إليه بدعوى أنه قد ارتكب سلسلة من الجرائم وسرق مجوهرات زوجته وقتل إحدى خدم سريه وخطف أمرين هما ولداه . ولكن الحكومة الفرنسية أصمت آذانها مادام الأمير جاء ينشر الحرية ويكافح من أجل قضيتها فى بلاده .

ولقد اتصل الداماد محمود بأحمد رضا المكافح العثمانى فى باريس وأخذ فى التعاون معه فى توجيه ضربات قوية للحكم الأوتوقراطى العثمانى . وكانت ميزة الداماد محمود هو أنه كان تركيا ومسلما ومن أعضاء الأسرة الحاكمة ، مما سمح له بالقيام بعمليات هجوم قوية ، وقد كان فى مقدوره أن يقول عن السلطان أشياء

لايستطيع أى أجنبي أو عثمانى من غير المسلمين قولها دون أن يثير عداوة الأتراك ولقد أشار الأمير إلى أن مسئولية السلطان عبد الحميد كانت مزدوجة باعتباره سلطانا للدولة ، وباعتباره خليفة للمسلمين وأخذ فى مهاجمته بصفته الخليفة ، ومهاجمته بصفته سلطان : « وعلى أقول بكل صراحة يامولاى أن نظامك الإدارى لايشبه قط حكومة خليفة عادلة ومنصفه ، لا ولا يشبه سلوك الدول الأوربية ، كلا بل إن له شبها بحكومات بعض الطغاة الذين عاشوا من آلاف السنين » .(١)

وجاءت بعد ذلك حادثة هرب أخرى هى حادثة هرب اسماعيل كمال بك الذى أخذ أولاده معه ولنتقل إلى ظهر إحدى السفن البريطانية . وكان السلطان قد رفض الاستماع إليه فى مسألة إعادة العمل على اصلاح الامبراطورية عن طريق إعادة العمل بالدستور ، فانتهز فرصة تعيينه واليا على طرابلس الغرب لكى يهرب إلى أوربا . « وكان الناس يهربون من أراضى تلك الامبراطورية العظيمة كما يهرب المرء من السجن تماما ، ولابد لهم إذا أرادوا النجاح من التحايل والمكر ، ومتى عبر شخص الحدود سرى عن الاخرين ، أما السلطان فيبدوا عليه اليأس الذى يبدو على الشرطى يرى هرب سجين أودعت إليه حراسته » .(٢)

وأخذ العثمانيون الأحرار فى رفع أصواتهم بقوة فى أوربا وخاصة بعد وصول الداماد محمود باشا وولديه إلى هناك . وكانت هناك أصوات أخرى قد ارتفعت ضد حكم السلطان عبد الحميد وكانت ترتفع فى باريس وجنيف وبروكسل ولندن . وكانت كلها تطالب بالاصلاحات العامة داخل الامبراطورية العثمانية ، وإن كان بعضها يطالب بمطالب قومية مثل الأرمن .

وكان الأرمن أكثر الرعايا العثمانيين الموجودين فى الخارج تنظيما وأقربهم

(١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ : للدكتور رامزور . ص ٨٧ .

(١) المرجع السابق . ص ٨٨ — ٨٩ .

إلى قلوب الأوروبيين نتيجة لكونهم من المسيحيين ، وكانوا يطالبون بالاستقلال وبتدخل الدول الأوروبية فى مسألتهم وتمكنوا من الحصول على تأييد كل من جورج كليمنصو وأناتول فرانس وجان جوريس . وكان هناك الألبان الذين أنشأوا صحيفة لهم باسم « البانيا » وكانوا يسعون إلى الحصول على حكم ذاتى لمنطقتهم داخل حدود الدولة العثمانية . وكان هناك الاكرد وعلى رأسهم عبد الرحمن بدرخان الذى أصدر صحيفة « كردستان » فى لندن كما ساعد وشارك فى نشرة جريدة عثمانلى . وكان عدد من الاكراد يعمل بنشاط فى حركة تركيا الفتاة منذ البداية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم أتراك أو عثمانيين أكثر من كونهم أكراد . وكان هناك عدد من العرب كذلك الذين أنشأوا « لجنة الاصلاح التركية السورية » برئاسة الأمير أمين أرسلان ، وكانوا يطالبون بالاصلاحات التى تدعم حياتهم مع غيرهم داخل حدود الامبراطورية . ويدل هذا الخليط الكبير على أن الأقليات كانت لها مطالب بدرجة أكثر من الاتراك أنفسهم وإن كان المطلب الرئيسى للجميع هو إعادة العمل بالدستور والمساواة بين الجميع فى ظل قومية واحدة هى القومية العثمانية .

ولقد توفى الداماد محمود باشا فى سنة ١٩١٢ ، وخلفه على رأس الحركة ابنه الامير صباح الدين الذى زار مصر ووجه منها نداءاً عاما إلى العثمانيين للاجتماع فى مؤتمر لبحث الوسائل التى يمكن بها إقامة الحرية والعدالة فى تركيا . ولقد انعقد هذا المؤتمر فى باريس رغم العقبات التى حاولت السلطات وضعها أمامه . وحمل المؤتمر السلطان عبد الحميد مسئولية تدهور الاحوال فى الدولة . واشتمل هذا المؤتمر على ممثلين عن الترك والعرب واليونانيين والاكراد والالبانيين والأرمن والجركس واليهود . وكان بعض أعضاء المؤتمر يطالبون بأكثر من تغيير نظام الحكم العثمانى أو ابدال عبد الحميد بغيره من أفراد الاسرة الحاكمة . لقد كان

بعضهم يطالب باقامة حكم لامركزى فى مناطق معينة من الامبراطورية ، وكان غيرهم يطالب بالإعتراف بشخصيته الاقليمية. وخرجت قرارات المؤتمر ، رغم المتناقضات الموجودة بين أعضائه تشير إلى ضرورة القيام بعمل مشترك لابدال نظام الحكومة العثمانية بنظام من الحرية والعدالة يضمن اعادة الدستور . كما قرر المؤتمر ضرورة تذكير الدول الاوربية بأن واجبها ومصلحة الإنسانية العامة تقتضيان تنفيذ بنود المعاهدات الدولية القائمة بينها وبين الباب العالى ، وبشكل تستفيد منه جميع أجزاء الامبراطورية . وإذا كان الكل يرغب فى عهد تسود فيه الحرية والعدالة فان قرار تدخل الدول الاوربية كان يعنى معان أخرى . حقيقة أن القوى التى اجتمعت فى هذا المؤتمر كانت تعمل لاغراض متعارضة ، وأن الاقليات القومية فى الامبراطورية العثمانية لم يكن لديها ما تفقده إذا ما طالبت بالتدخل الاجنبى فى شئون الدولة العثمانية ، ولكن الارمن أظهروا عدم تعلقهم بالاسرة الحاكمة ، وعدم تعلقهم بالدولة العثمانية ، أما الاقلية المسلمة فكانت آمالهم مرتبطة بالاسرة الحاكمة بصفتها تمثل الخلافة من ناحية ، ومرتبطة بقومياتهم الناشئة من ناحية أخرى ، والتى تدفعهم صوب المطالبة بحكم لامركزى . وهكذا أظهر هذا المؤتمر المتناقضات الكبيرة الموجودة بين من يمكن تسميتهم بالعثمانيين الاحرار اللاجئين إلى الخارج . وأدى ذلك إلى إنشقاق بين العناصر التركية الموجودة فى الخارج ، بين الامير صباح الدين وبين أحمد رضا . وأنشأت فى هذا الوقت صحيفة جديدة باسم «الاتحاد والترقى» . ثم صحيفة ثانية باسم «شوراى أمت» . وحاول الامير صباح الدين أن يقوم بعملية تهدد مركز السلطان وذلك عن طريق الاتصال بالمشير رجب باشا والى طرابلس الغرب والتعاون معه على نقل جزء من القوات الموجودة فى ولايته صوب الدردنيل ، ولكى يجبر بها السلطان على إعادة العمل بالدستور . والظاهر أن هذه الخطة قد وجدت قبولا من وزارة

الخارجية البريطانية التى حاولت أن يقوم أسطولها بمناورات فى البحر المتوسط فى نفس الوقت الذى تقع فيه عملية نقل الجنود إلى أوربا . إلا أن هذه الخطة فشلت نتيجة لعدم العثور على السفن اللازمة لها ، وأصبح على المتآمرين الثوار أن يواصلوا كفاحهم من جديد .

ومع الشقاق الذى حدث نتيجة المؤتمر انقسمت حركة تركيا الفتاة إلى قسمين الاولى برئاسة الامير صباح الدين والثانية برئاسة أحمد رضا ، ولقد حاول الامير صباح الدين أن يحمل الشعب العثمانى بعض مسئولية التأخير الذى يعيش فيه ، وعمل إنشاء « عصبة الادارة اللامركزية » لكى تعمل عن مساعدة العثمانيين على القيام بواجباتهم . وكان يعتقد فى ضرورة الاعتماد على عدد من المتعلمين المثقفين، وانتهى به الأمر إلى إعتبار أن النظام اللامركزى هو النظام الأمثل لتحسين أحوال الدولة . ولقد أنشأ فى سنة ١٩٠٦ جريدة «ترقى» وعهد بادارتها إلى أخيه بالتبنى أحمد فضلى بك . ويتلخص برنامجه فى الفترة التالية فى ضرورة اصلاح أحوال الشعب عن طريق التعليم ، وإستخدام النظام اللامركزى فى الحكم ، ومحاولة إقامة أئتلاف بين العناصر المختلفة التى تسكن الامبراطورية ، وإعطاء العثمانيين حقهم الدستورى ، وإنشاء جمعيات ولجان فى أنحاء الدولة للوصول إلى تحقيق هذه الأغراض . ولكن مجهوداته ظلت خارجة عن الدولة، مثلها فى ذلك مثل مجهودات أحمد رضا ، وفى الوقت الذى كانت فيه قوات أخرى تعمل داخل حدود الدولة وإذا كانت مجهودات هذين الزعيمين تعتمد على المدنيين فان مجهودات الآخرين داخل حدود الدولة كانت تتركز بين رجال القوات المسلحة .

الثورة والدستور :

استمرت عملية الوعى فى الازدياد داخل حدود الدولة العثمانية وبين طلبة المدارس العالية وخاصة المدارس الحربية رغم عمليات العنف واستخدام البطش

ضدهم . ونشأت جمعية « عثمانلى حرية جميتى » التى تحولت فيها بعد إلى جمعية « الاتحاد والترقى » وكان من أعضائها رحمى وطلعت وشكرى ثم جمال وفتحى . وبدأت هذه الجمعية فى الاتساع وشعرت بعد فترة من الزمن بأن هناك جمعيات أخرى تعمل فى هذا الميدان .

كانت هناك مجموعة تعمل مع مصطفى كمال سنة ١٩٠٥ والذى كان قد ظهرت ثوريته يوم أن تخرج من المدرسة الحربية . وكان مصطفى كمال يعمل فى دمشق وكون فى سنة ١٩٠٦ جمعية سريه باسم « وطنى » وامتد عمل هذه الجمعية من دمشق إلى يافا والقدس واشتملت على عدد من ضباط الجيش الخامس قبل أن تنقل نشاطها إلى سالونيك . ولقد إختار مصطفى كمال سالونيك مقراً لنشاطه نظراً لتحرر أهلها ولقربها من نفوذ الدول الأوربية . وبعد زيارة قصيرة لهذه ، المدينة، وفى الوقت الذى كلفته فيه قيادة الجيش الخامس ببحث إحدى المشكلات المتعلقة بالخلافات الخاصة بالحدود التركية المصرية فى منطقة سيناء، وصل مصطفى كمال إلى سالونيك والف جمعية عرفت باسم « وطنى وحريق » . وعلى أساس هذا التنظيم الثورى انضم مصطفى كمال إلى جمعية الاتحاد والترقى فى سنة ١٩٠٨ وأصبح أحد رجالها .

ووضعت جمعية الاتحاد والترقى نظاماً خاصاً لقبول الأعضاء الجدد ، واستخدمت فى ذلك بعض الطقوس التى أخذتها عن جماعة البنائيين الأحرار حتى ترهب الاعضاء ثم تجعلهم يقسمون على السيف والقرآن لانقاذ بلادهم واطاعة الأوامر التى تصدر اليهم وعدم اذاعة الاسرار . ولقد تحاشت هذه الجمعية تعيين رئيس لها ، وخاصة بعد أن علمت بالخلافات الموجودة بين العثمانيين الاحرار فى عواصم غرب أوربا ، ولقد انتشر نشاط هذه الجمعية فى مدن كثيرة فى مقدونيا وباديتها وخاصة بين حاميات الجنود ، وساعدت على تكوين مراكز التذمر

وعدم الرضاء فى أنحاء مختلفة من الدولة . ظهرت لها فروع رسنة بقيادة نيازى بك وفى سيرى باشراف على بك وفى أدرنة باشراف عصمت اينونو . وزاد عدد المنضمين اليها تدريجيا وكان معظمهم من رجال الجيش الثالث المرابط فى منطقة تراقيا الشرقية .

وكان من حق الجيش العثمانى أن يشعر بأهمية دوره فى اصلاح أحوال الامبراطورية العثمانية التى قام بانشائها، وكانت معاملة الضباط والجنود وترقيتهم تشعر البعض بعدم استتباب العدالة . وكان وجود ضباط البعثات الأجنبية العسكرية فى هذا الاقليم أثر كبير فى تفتيح أذهان العثمانيين إلى ما يحدث فى العالم . وكانت منطقة تراقيا تحظى بوجود بعثه دولية للترك تشرف على الأمور فيها وتسيطر على أعمال الدواه ، وكانت هذه العوامل تساعد رجال الجيش ، وفى هذه المنطقة على التفكير فى ضرورة القيام بدورهم فى تغيير الأحوال الموجودة فى الدولة . ثم بدأ الاتصال بين رجال هذه المنظمات وبين العثمانيين الأحرار فى الخارج وتقرر أن يطلق اسم الاتحاد والترقى على كل المنظمة الجديدة واتفقوا على أن يكون مقر عملهم هو سالونيك . ولقد تم هذا الاندماج فى سنة ١٩٠٧ وعلى أساس أن يكون للجمعية مقران منفصلان ، مقر داخلى ورئيس فى سالونيك وفرع خارجى فى باريس ، كما اتفقوا على أن يكون هدفهم الاساسى هو إعادة العمل بدستور مدحت باشا واتفقوا على وسائل تنظيم المجهودات وقيام الفرع الخارجى بتمثيل الجمعية أمام العالم الخارجى فى الوقت الذى يقوم فيه المقر الداخلى الاساسى بعملية التنظيم والتوقيت والتنفيذ .

قد يظهر من أول وهلة أن هذا الاتفاق قد أدى إلى قيام تنظيم قوى ضد السلطان . ولكن الواقع هو أن الخلاف كان على أشده بين عناصر العثمانيين الأحرار الموجودين فى الخارج وعمل اتفاقهم مع جمعيات الاتحاد والترقى فى الداخل على

تحديد درجة تدخلهم فى شئون التنظيم الثورى الداخلى ، أى أن لجان الاتحاد والترقى الداخلية ، وفى غالبيتها عسكرية تمكنت عن طريق هذا الاتفاق من منع العناصر السياسية المدنية الموجودة فى الخارج من التدخل فى تنظيمات الثورة الداخلية وقصرت مهمتها على الاتصال بالخارج وطبقا للاتجاهات التى تصدر لها من اللجنة المركزية فى سالونيك . وشاهد عام ١٩٠٧ عدداً من حركات التمرد فى الأناضول وتفليس وأردروم دون أن تتدخل القوات لقمعهـا ، كما حـدثت

اضطرابات فى كل من سوريا وازمير وفى القسطنطينية نفسها ، وانضم الضباط إلى الجنود فى حركة المطالبة بالرواتب المتأخرة ، وكانت الأزمة الاقتصادية مستحكمة فى جميع أنحاء الدولة ، وكانت دعاية لجنة اللامركزية الادارية قد ملأت البلاد بالدعاية المعادية للسلطان ، كما كانت جماعات الارمن تستثير العطف فى كل مكان . ولقد وصل بعض جهود لجنة الاتحاد والترقى فى سالونيك إلى بعض وحدات الجيش المعسكرة فى أزمير كما حاولت الاتصال بالوحدات الأخرى الموجودة فى الأناضول . واندلعت الثورة فى يوليو سنة ١٩٠٨ وظهرت فى أول أمرها وكأنها مجرد عملية تمرد تقوم به بعض فرق الجيش ، رغم أنها كانت تحمل عوامل تحاول بها تغيير الاوضاع وطريقة معاملة الحاكم للمحكوم . وبعد أن بدأ السلطان فى القاء القبض على عدد من الضباط فرضباط آخرون، منهم أنور بك إلى الجبال ، ثم لحقه نيازى بك ومعه عددمن الرجال وكميةمن الأسلحة والذخائر . وسرعان ما طلبت اللجان المحلية بضرورة إعلان الدستور وظهر أن هناك منظمة واسعة الانتشار وتتعاون وحداتها فيما بينها تعاوناً كبيراً . ثم جاء خبر مقتل شمسى باشا فى موناستير يوم ٧ يوليو وأخذت وحدات الجيش الثالث تطالب باعادة العمل بالدستور . وصدرت الاوامر إلى الوحدات العسكرية الموجودة فى الأناضول بالتحرك صوب تراقيا الشرقيه ، ولكنها رفضت تنفيذ

الأوامر وطالبت كذلك بالدستور . وحاول السلطان منح عدد من الضباط بعض الرتب والنياشين لجذبهم إليه ولكن هذه الوسيلة لم تؤدى إلى نتيجة إيجابية .
وخشى السلطان عبد الحميد على حياته فأعلن فى يوم ٢٤ يوليو أن دستور سنة ١٨٧٦ الذى كان يدخره لشعبه فى الوقت المناسب قد عاد إلى حيز التنفيذ . ونجحت بذلك الثورة ، مادام السلطان قد تراجع ، ونجحت بدرجة لم تكن تتصورها لجان جمعية تركيا الفتاة إذ أنها نجحت دون إراقة دماء .

ولقد سادت الفرحة فى جميع أنحاء الدولة العثمانية وأعلن أنور بك أن الحكومة الظالمة قد انتهت ، وأعلن غيره أن العثمانيين قد أصبحوا كلهم أخوانا ولم يعد هناك بلغار ويونان ورومانيون ويهود ومسلمون ، بل الكل متساوون والكل يفخر بأنه عثمانى . واختفت الخلافات العنصرية والدينية فى موجة كبيرة من الفرح والحماس والعواطف . وبين هذه المشاعر نسى العثمانيون القوى الحقيقية والفعلية التى تفرق بينهم على أساس لغوى وأساس مصلحة عامة . وكان لابد لهذا المجتمع أن يعود إلى الهدوء ويبتعد عن العواطف ويرجع إلى حياته اليومية وعلاقاته المستمرة لكى يشعر بالمتناقضات التى لاتزال موجودة والتى لا يسهل على دستور مركزى تعطل العمل به مدة ثلاثين عاما من أن يقضى عليها فترة وجيزة، خاصة وأن القوى الداخلية كانت قد زادت فى نموها وتميزت شخصياتها ، وفى الوقت الذى كانت فيه مصالح الدول الخارجية تؤثر عليها بطريقة فعالة .

ثانيا :ـ العرب والاتراك بعد إعلان الدستور :ـ

كان اعلان اعادة العمل بالدستور العثمانى أمنية من الأمنيات التى راودت عقول كثير من سكان الامبراطوريه العثمانية ، وكان ذلك فاتحة لعهد جديد يبشر بالتعاون والتضامن بين العرب وجيرانهم الذين يسكنون نفس الامبراطورية . ولكن مجرد إعادة العمل بالدستور لم تكن كافية لارضاء مصالح العرب النامية

وشخصيتهم التى أخذت فى التبلور ولذلك فان النزول إلى مشكلات الانتخابات والاحتكاك بعد ذلك بالعثمانيين ونمو حركة الاتحاد والترقى فى شكل قومى تركى عملت كلها على بذر بذور الخلاف مع العرب رغم المظاهر الاولى للتجاوب والتكامل بين الطرفين وكان هذا التطور منطقى ومرتبط بالاسباب الواقعية التابعة من صميم القوى الموجودة فى الميدان .

الاخاء العربى العثمـانى :

انتشرت روح من الائتلاف والاخاء بين العرب والاتراك بمجرد إعلان اعادة العمل بالدستور العثمانى ، واستبشر العرب بمستقبل سعيد فى ظل الحرية والمساواة وأظهروا استعدادهم للانصهار داخل الوحدة العثمانية فى جو واضح من الحماس والعواطف . شعروا بأنهم قد أصبحوا عثمانيين ، وأنهم متساوين فى الحقوق والواجبات واعطاهم ذلك روحا من الثقة والاعتزاز بأنفسهم كمواطنين فى دولة يشتركون فى بنائها . وسرت فى الايام الاولى روح الحماس وافتتح السوريون فى الارجنتين اكتتابا للتبرع بسفينة حربية للاسطول العثمانى ، كما اشترى طالب بك النقيب ، نائب البصرة ، باخرة من ماله الخاص أهداها للحكومة العثمانية . وتكامل هذا الشعور مع شعور الاتراك الذين اعلنوا من جانبهم أنهم قد أصبحوا عثمانيين مثل باقية المواطنين فى الدولة . وأظهر كثير من العرب تساهلا فى مطالبهم الخاصة بلغتهم القومية ووافق الكثير منهم على استخدام اللغة التركية لغة رسمية للجميع فى ظل هذه الوحدة . ورأى كل العرب ضرورة التعاون مع الاتراك للوصول إلى اصلاح البلاد دون تفكير فى نظام حكم لامركزى أو فى خلافة عربية أو فى غيرها.

وفى ظل هذا الروح التعاونى والوحدوى نشطت جمعية الاتحاد والترقى فى اجتذاب المنتسبين إليها من جميع أنحاء الدولة فانضم إليها رجال من أسرة العظم

والهاشمى والنقيب والسعدون والمصرى والجزائرى ، إنضم إليها عدد من الأعيان وعدد من كبار الموظفين ، وعدد من الضباط .

واذاعت جمعية الاتحاد والترقى برنامجا مؤقتا للعمل ريثما يجتمع مجلس الأعيان ويتلخص فى مسئولية الوزارة أمام البرلمان ، وحق مجلس الأعيان والمبعوثان فى تشريع القوانين ، وقيام الأمة بانتخاب ثلثى أعضاء مجلس الأعيان ، ومساواة جميع المواطنين أمام القانون ، ومساواتهم فى الحقوق والواجبات دون تفريق بين الأديان والأجناس ، وحرية التعليم وتأليف الجمعيات ، وتسهيل التعليم لكافة المواطنين ، علاوة على اصلاح حال الفلاحين وتسوية العلاقات بين العمال وأصحاب العمل . وذكر هذا البرنامج أنه سيحاول ادخال بعض التعديل على دستور سنة ١٨٧٦ حتى يتلائم مع هذه المطالب الجديدة وخاصة فى أمر مسئولية الوزارة أمام البرلمان . ولقد ذكر هذا البيان أن الولايات ستحصل على صلاحيات خاصة بها ، ودون أن يؤثر ذلك على تقليل الرابطة التى تربطها بالدولة ، ونص على أن اللغة التركية هى اللغة الرسمية للدولة وتجرى بها المعاملات والمكاتبات الرسمية ، وتكون لغة التعليم فى المدارس . وظهر من ذلك أن الاتجاه يسير صوب التعاون لتوحيد الجهود ولتوحيد الأهالى والاتجاهات حول الأتراك .

ولقد وجد أعضاء لجنة الاتحاد والترقى تجاوبا كبيرا من كل العناصر التى تسكن الامبراطورية حول هذا البرنامج ، وحتى فى مسأله تطبيق السياسة المركزية واضطر الامير صباح الدين إلى حل جمعية اللامركزية التى كانت قد بدأت نشاطها .

ولكن منح دستور للدولة فى سنة ١٩٠٨ على أسس وضعت فى سنة ١٨٧٦ كان أمراً لا يتمشى مع التطور المنطقى للحوادث ، ولا مع ازدياد الروح القومية فى انحاء الدولة العثمانية ، كما أنه كان يدل على قصر نظر القائمين بهذه الحركة فى وضع دستور يتمشى مع الحاجات الجديدة للامبراطورية وسكانها . وعلى أى حال

فلقد ساعد هذا الشعور الجديد على توطيد العلاقات بين الأتراك والعرب لفترة من الزمن .

ولقد تكونت فى هذه الفترة جمعية «الاخاء العربى العثمانى» فى القسطنطينية وعملت مع جمعية الاتحاد والترقى على الدفاع عن الدستور ، وتجميع كل العناصر برباط ولاء السلطان. وحاولت ادخال الاصلاح فى الأقاليم العربية فى تساو مع الاجناس الأخرى التى تسكن الامبراطورية، وادخال التعليم العربى والمحافظة على التراث العربى . وكان باب الانضمام إلى هذه الجمعية مفتوحا لكل العرب دون نظر إلى دينهم . ثم بدأت فى انشاء فروع لها فى المدن العربية الهامة . وإن كان برنامجها وآراء بعض أعضائها كانت تحمل نوعا من الضحالة والتضارب .

لقد ارتبطت إذن عملية إعادة العمل بالدستور بموجة من الصداقة العربية التركية ، وتم فى هذا الوقت إنشاء سكة حديد الحجاز، وصدر قرار بتعيين الحسين بن على شريفا على مكة بعد أن كان قد أمضى ستة عشر عاما فى اقامة محدودة فى القسطنطينية ، والواقع أن اختيار جمعية الاتحاد والترقى له لشغل هذا المنصب لم يجىء إلا بناء على معرفتهم بالعداء المستحكم الموجود بينه وبين السلطان عبد الحميد وعلى أى حال فان هذا التعاون والتآخى بين العرب والأتراك لم تستمر لفترة طويلة خاصة وأن بوادر الخلاف أخذت تطل برأسها فيما بينهم نتيجة لاختلاف المصالح .

الانتخابات وبوادر الخلاف :

بدأت بوادر الخلاف فى الظهور بين العرب والأتراك بسرعة نتيجة لحرية الصحافة التى كفلها العهد الجديد والتى ساعدت على اظهار نوايا الأتراك تجاه العرب ، وجاءت بعد ذلك عملية الانتخابات لكى تثبت تضارب المصالح بينهما.

ولقد أخذت بعض الصحف التركية فى اثارة بعض المشكلات العنصرية ،

وكان بعض الكتاب متعصبين للاتجاه التركى وللامة التركية وعلى أساس أنها مسئولة عن حكم السلطنة العثمانية وأن عليهم الاحتفاظ ببعض الامتيازات نتيجة لاستنادهم إلى حق الفتح ، ولذلك فان الاعتراف بمساواة العناصر الاخرى بالعناصر التركية أمر لا يتمشى مع الواقع ، ومن الواجب أن يكون الدستور العثمانى دستوريا تركيا فى أساسه . حقيقة أن هذا الاتجاه اليمينى المتعصب كان لا يمثل وجهة نظر أعضاء جمعية الاتحاد والترقى فى ذلك الوقت ، ولكن حرية الصحافة سمحت للعناصر اليمينية باغضاب العناصر المتحدة سويا داخل حدود الدولة ، وجعلها تنفذ بشخصيتها كرد فعل لهذه الحركة الرجعية . وظهر بعد قليل أن هناك عملية لتطهير الوظائف ، ونتج عنها ابعاد عدداً من الموظفين العرب عن مراكزهم ، ووضح ذلك فى وزارة الخارجية التى انخفض عدد الموظفين العرب فيها من ١٢ موظفا إلى موظف واحد . وأدت هذه العملية إلى حركة تذمر بين العرب خاصة وأن المفصولين عن الخدمة عادوا إلى بلادهم وحملوا معهم بذور عدم الرضاء على حكم العهد الجديد .

وعمل المتحمسون من بين رجال الاتحاد والترقى على تعميم نشر اللغة التركية فى جميع مناطق الدولة ، وحتى فى الاقاليم العربية ، وأخذت المدارس الجديدة التى فتحوها تحمل أسماءاً تركيه ، كما أخذ عدد من المتطوعين فى تعليم اللغة التركية لمن يرغب من الأهالى فى الولايات العربية . وظهر أمام العرب أن السياسة الجديدة تهدف إلى التتريك وخاصة بعد أن صدرت الأوامر إلى رؤساء المحاكم لكى تكون المرافعات باللغة التركية ، وفرض على التجار العرب تقديم البيانات للجمارك بالتركية والفرنسية وتقديم جميع الشكاوى باللغة التركية ، وجاءت عملية الانتخابات لكى تكمل الانشقاق بين العرب والأتراك .

وكان الدستور ينص على انتخاب مبعوث لمجلس المبعوثان عن كل خمسين ألف

نفس ولكن بدلا من أن يكون المنتخب من أهالى الولاية التى هو منهـا رفض الاتحاديون هذا الاتجاه وبشكل سمح لهم بترشيح مبعوثين من الترك فى مختلف الولاية العربية ، وبلغ عدد من فاز منهم فيها خمسة عشر نائبا تركيا .

ولقد بدأت الانتخابات دون أن تكون هناك أحزاب منظمة سوى جمعيـة الاتحاد والترقى ، تسمح لهـا ذلك بالاشراف على جمعية الانتخاب ومراقبتها والتدخل لترشيح اعضاء منها . وكان هؤلاء المندوبين يفرضون قوائم معينة على الناخبين وبشكل ساعد على حصول الاتحاديين الاتراك على غالبية المقاعد. وقامت فروع جمعية الاتحاد والترقى فى الأقاليم والولايات بنفس هذا النشاط ودون أن يخرج المرشح من القسطنطينية . وكانت الجمعية تتولى بنفسها جميع الاجراءات اللازمة لانتخاب المرشح للنيابة ثم تبلغه نتيجة انتخابه برقيا (١).

وعلينا أن نذكر هنا أن لبنان قد اتخذ موقفا خاصا تجاه هذه الانتخابات على أساس أنها تتناقض مع النظام الذى حصل عليه . ولكن مصر قد طالبت رغم وجود شخصية معينة لها ، بضرورة مد هذه الانتخابات إليها ، وعبر عن هذا الرأى حزب الاصلاح الدستورى برئاسة الشيخ على يوسف الذى نشر تقريراً كبيراً عن الموضوع فى جريدة المؤيد .

وكان يصعب على العرب العثور على الممثلين الذين تنطبق عليهم شروط تمثيلهم فى البرلمان خاصة وأن قليلا منهم كان يعرف التركية بما قلل عدد الحائزين منهم على شروط النيابة عن الأمة . وكان اعتماد جمعية الاتحاد والترقى على التنظيم سهل أمر سيطرتها على مجلس المبعوثان فيما بعد . ولم يحصل العرب إلا على خمسين مقعداً من

---

(١) أنظر : عثمان نورى : عبد الحميد ودور سلطنتى : الجزء الثالث ص ١١٤٩ عن العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ، لتوفيق على برو . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية . ١٩٦٠ ص ١٠٤

٢٧٥ فى البرلمان رغم أن العرب كان يزيد عددهم على خمسى سكان الدولة ويزيد عددهم على عدد الأتراك . وزاد من شعوب العرب بالغبن أن الأتراك قد حاولوا الحصول على نجاح ورأى ثمن فى الدوائر العربية فى الوقت الذى تساهلوا فيه فى القسطنطينية نفسها مع مرشحى العناصر والطوائف الأخرى حتى يظهروا بمظهر المتحررين ، وكانت بعض الصحف التركية قد هاجمت بعض الشخصيات العربية فى دمشق والبصرة وقت الانتخابات رغم استناد هذه الشخصيات إلى عصبيات قوية واشتراكها فى جمعية الاتحاد والترقى ، والمهم هو أن هذه التجربة الأولى ساعدت على اظهار بوادر الخلاف بين الترك والعرب وساعدت على اعادة ظهور الاختلافات من جديد بين القوة النامية فى وسط الدولة ، والتى يتجه خط سيرها الطبيعى صوب الخارج ، والقوة التى تحاول الاحتفاظ بكل عناصر الدولة مكتلة ، تحت سيطرتها صوب الداخل. وجاءت عملية الثورة المضادة فى سنة ١٩٠٩ ثم هجمات الدول الأجنبية على الدولة العثمانية لكى تزيد شعور العثمانيين الاتراك بأولوية مسئوليتهم كالمحافظة على كيان الدولة حتى ولو كان ذلك عن طريق تمييزهم عن بقية العناصر التى تسكنها معهم .

الثورة المضادة وعزل عبد الحميد :ـ

كانت الدول الأوربية قد وقفت بشكل عام إلى جانب ثورة تركيا الفتاة وتشكلت فى فرنسا جمعية تسمى بجمعية « أصدقاء الشرق » اشترك فيها عدد من الشخصيات الفرنسية الكبيرة ورجال الأعمال والأدباء ورجال الصحافة، وضمت هذه الجمعية عدداً من الاحرار العثمانيين المقيمين فى فرنسا و بينهم الامير صباح الدين ومراد بك . واعترفت الدول الأوربية بالنظام الجديد ثم قررت الدول الأوربية بعد ثلاثة أشهر من اعلان الثورة سحب ضباطها وجنود الترك

الموجودة فى مقدونيا . وظهر نوع من التجاوب الواضح بين الدول الاوربية الغربية والنظام الجديد فى تركيا .

والواقع أن القوى الموجودة فى الميدان فى تركيا نفسها كانت متميزة عن بعضها - ذلك أن جمعية الاتحاد والترقى لم تسيطر على الوزارة رغم استنادها إلى أكثرية برلمانية واضحة وتركت الوزارة لكامل باشا الذى ظهر تحرره . وظلت جمعية الاتحاد والترقى تراقب الوزارة وتراقب القصر عن طريق لجنتها المركزية فى سالونيك وتملى إرادتها على الوزارة بعد اجتماعاتها السرية فى هذه المدينة ، كما كانت تملى قراراتها وايراداتها على الولاة وكبار الموظفين .

ولقد تزايد نفوذ الصدر الأعظم نتيجه لالتفاف العناصر غير التركية حوله ونتيجة لاستعانته بعدد من الفنيين الأجانب ، فخشى الاتحاديون من استناده إلى العناصر غير التركية وعملوا على زعزعة مركزة بهجوم فى صحفهم . والواقع أنه كان هناك تسابق بين مجموعتين : مجموعة متحررة وتشتمل على العناصر غير التركية ، وعلى العثمانيين الاحرار المقيمين فى الخارج ، وكانوا من المدنيين وثقافتهم عصرية ويدينون بالحرية الدستورية ، ومجموعة تركية من الضباط الذين يعقدون جلساتهم فى سالونيك والذين تأثروا بفكرة العزة والشرف وضرورة التضحية والدفاع عن البلاد . وكانت هذه المجموعة الثانية هى التى تكون الغالبية العظمى من بين قادة الاتحاد والترقى وكانت متصلة برجال البعثات العسكرية الألمانية التى تدين بالواجب أكثر مما تعشق من مبادىء الحرية - إن هذا التضارب بين هاتين المجموعتين المختلفتين فى التكوين والاتجاه هو الذى أدى إلى الشراره الاولى التى أشعلت نيران الثورة المضادة .

كانت من نتيجة شن الاتحاديين لحملة صحفية ضد كامل باشا أن وجدوا أنفسهم فى مواجهة معارضة قوية بين صفوف النواب وإزاء تكتل كبير قرر رجاله وضع

حد لتدخل جمعيـــة الاتحاد والترقى فى شئون الحكم من وراء الستار . ولـكن الاتحاديين لم يتراجعوا عن خطتهم وعملوا على الايقاع بالصدر الأعظم ، وتبادلوا معه الاتهامات بشأن إرسال الجنود إلى ألبانيا لاخضاع الاضطرابات فيها واتهموه بالإعتداء على الدستور حينما أصدر الأمر لبعض قطع الاسطول الموالية لهم بالسفر بعيداً عن القسطنطينية ، ورفض قواد هذه القطع تنفيذ الاوامر . فاضطر كامل باشا إلى عزل وزير الحربية المشايع للاتحاديين، فثارت ثائرة هؤلاء الأخيرين وقاموا بهجوم عليه وأرسل قواد الجيش وأمراء البحرية برقيات الاحتجاج ضده، وتدخل النواب الاتحاديون وحملوا أعضاء المجلس على إسقاطه بدعوى أنه يعمل بطريقة تتعارض مع الدستور ، والحقيقة أن إنشغال الضباط بالسياسـة أدى إلى فوضى فى كل من القوات المحاربة وتهديد القوة السياسية فى الدولة العثمانية .

ولقد اصطحب عملية إسقاط وزارة كامل باشا إعلان تمرد الاسطول وتهديده بضرب العاصمة بالقنابل ، وتدخل بعض كبار الضباط لتهديد النواب بمسدساتهم للتصويت ضد رئيس الوزراء .

ولقد كانت الدول الأوربية ترى فى وزارة كامل باشا وزارة سياسية معتدلة ومتحررة يمكنها أن تزيل التعصب الدينى ، ولذلك فانها وجدت فى هـذه العملية تهديداً لمستقبل تركيا ، وتهديداً بزيادة النفوذ الألمانى فى الآستانة مع البارون مارشال فون بيبر ستاين السفير الالمانى فيها . ولقد صحب هذه العملية من ناحية أخرى اشتداد حماس الشباب التركى وثورة عواطفهم مع جمعية الاتحاد والترقى، كما أن الاتحاديين أخذوا يخشون من قوة العناصر الأخرى فانصرفوا شيئاً فشيئاً عن الفـكرة العثمانية وعن اتجاه التسامح والحرية والديمقراطية حتى يتمكنـوا من الاحتفاظ بالدولة . وكانت هذه العملية صدمة للعناصر غير التركـية فى الدولة العثمانية ، وهى العناصر التى كانت تلتف متحررة حول كامل باشا وخشت من أن

تؤدى هذه العملية إلى خطر على الحياة الدستورية ،وإلى تسلط العناصر العسكرية على السياسة .

ولقد اشتد الصراع بين الاتحاديين وخصومهم من النواب الأحرار وغيرهم من نواب العناصر الأخرى وانعكس ذلك فى الحملات الصحفية. ورغم أن العرب قد وقفوا بعيداً عن هذا الصراع إلا أن الجرائد التركية أخذت فى كتابة المقالات ضد العرب وأتهمتهم بالبعد عن الدستور وبالطمع فى الخلافة وأخذت فى محاولة التفريق بين صفوفهم وتشريح بنيانهم على أساس أنهم غير متجانسين من الناحية الدينية حتى مع بعضهم وهكذا عكس الاتحاديون ما لقوه من معارضة من العناصر المختلفة التى تسكن الدولة على رأس العرب ، رغم أن نواب العرب لم يرفعوا صوتاً معيناً فى الجلسات الأولى لمجلس المبعوثان .

وإذا كانت المعارضة ورجال حزب الأحرار قد شنوا الهجوم بدورهم على الاتحاديين فانهم لم يكونوا بمفردهم فى هذه العملية . ذلك أن المتدينين من الترك قد ساعدوهم فى هذه العملية . وكان هؤلاء المتدينون قد أسسوا جمعية « اتحاد محمدى » وأخذت فى نشر جريدة لها ظهرت فيها مقالات تذكر أن الإسلام قد أصبح مهدداً بالفناء على يد جماعة الاتحاديين ، وتركيا الفتاة التى هى رهط من الملحدين والماسونيين اليهود ، وأنهم يسيرون بالدولة والاسلام فى طريق الاضمحلال.

وهكذا اجتمع الأحرار ورجال الدين ورجال الصوفية فى هجومهم على الاتحاديين ولقد شجع السلطان عبد الحميد هذه الحركة ، حتى يعمل على إستعادة سلطته ونفوذه . وأخذت الفئات الرجعية فى إستغلال عملية عدم الرضاء التى إنتشرت بين الضباط الذين حصلوا على الترقية من تحت السلاح بعد أن قررت لجنة الاتحاد والترقى فصلهم واستبدالهم بخريجى المدرسة الحربية . وشرحت لهم بأن الشريعة قد أصبحت مهددة وأن الضباط الجدد من الملحدين ، وقتل أحد أعضاء

حزب الأحرار الذى كان يكتب المقالات التى تهاجم الاتحاديين ، فاشارت أصابع الرجعيين إلى الاتحاديين متهمة إياهم بهذا الاغتيال . ولذلك فقد قامت مظاهرة فى إسطانبول فى ٣ أبريل سنة ١٩٠٩ اشترك فيها عدد من الجنود ومن رجال الدين وأخذت تطالب باستبعاد بعض النواب وإعادة المفصولين من الجيش إلى عملهم ، وبتطبيق الشريعة الإسلامية ولقد أدت هذه المظاهرات إلى استقالة وزارة حلمى باشا وإلى فرار زعماء الاتحاديين بعد أن قتل عدد منهم ، وسيطر نواب العناصر غير التركية وعناصر المعارضة على البرلمان ، وتألفت جمعية الاتحاد العثمانى من حزب الأحرار ونواب الأرمن والألبان واليونان والبلغار مع عدد من الأكراد وإستندت إلى جرائد أقدام وميزان وعثمانلى . ولقد دخل العرب مثل غيرهم فى هذا الاتحاد العثمانى وأعلنوا معهم تمسكهم بالدستور وبنظام الشورى التى تتفق مع الأحكام الشرعية . وكانت هذه المجموعة من المدنيين تشتمل على عدد من المتحررين ، وعدد من الرجعيين وإذا كانت أصابع عبد الحميد لا تصل إلى المتحررين فانها كانت على صلة مع العناصر الرجعية . وعلى أى حال فان الأمر لم يستقر على ذلك لمدة طويلة ، إذ سرعان ماقام جيش سالونيك بالاستعداد للزحف على القسطنطينية والقضاء على الثورة المضادة ، وكان بقيادة الجنرال محمود شوكت ، وهو عربى . وفى أثناء هذا الوقت إجتمع نواب الاتحاديين فى سان استفانو ، وما أن دخلت قوات محمود شوكت إلى اسطانبول حتى أصدروا فتوى من شيخ الإسلام بخلع السلطان عبد الحميد وتولية أخوه محمد رشاد الحكم باسم محمد الخامس . وأعلنت الأحكام العرفية وحددت حرية الصحافة والاجتماع وبدأت المحاكم العسكرية فى إصدار أحكامها على الأحرار وعلى الرجعيين فى نفس الوقت .

ولقد كان السلطان الجديد من الضعف بحيث أن جمعية الإتحاد والترقى سيطرت على كل أمور الدولة سيطرة تامة ، وظلت تدير شئون الدولة ، وظهر

إستبدادها الذى إختلف عن إستبداد عبد الحميد فى تفاصيله ، وإن لم يختلف عنه فى الجوهر . وكانت أولى أعمال هذه الجمعية بعد حوادث أبريل هى إلغاء جمعية الإخاء العربى العثمانى ، ولم يمض على إفتتاحها وتصفيتهم لها أكثر من ثمانية أشهر .

ولقد عملت جمعية الاتحاد والترقى على القضاء على كل معارضة لها ونفت عدداً كبيراً إلى اليمن وإلى الحجاز . وكان عدد من العرب قد دخلوا فى جمعية « اتحاد محمدى » ووصل عددهم فى دمشق وحدها إلى ٧٠ ألف شخص ، وإن كانت غالبيتهم قد دخلتها لأنها أحبت أسمها كما يقول محمد كرد على (١) . والواقع أنهم لم يكونوا ضد الدستور ، وإن كانوا يحبون الإسلام . وكان عدد من رجال القوات الزاحفة ضد الثورة المضادة من العرب ، ومنهم محمود شوكت وعزيز المصرى ، إلا أن ذلك لم يشفع للعرب عند الأتراك .

ولقد أثرت هذه الحركة تأثيراً كبيراً على موقف الأتراك تجاه العرب ، بشكل عام ، نتيجة لموقف العناصر المدنية والعناصر المتحررة . وزاد شعور العناصر العسكرية التركية بمسئوليتها فى المحافظة عن الامن والنظام والدستور فى الامبراطورية ، وضرورة استخدام الشدة فى ذلك ، وزاد الإتجاه وضوحاً ضد الحركات التحررية والحركات القومية التى كانت قد أصبحت شيئاً ملموساً فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت . ولقد انعكس كل ذلك فى السنوات التالية على العلاقة بين العرب والأتراك ، وظهر ذلك بوضوح فى مشكلات العسير ، ومشكلات اليمن .

العسير واليمن :

ظهر اتجاه فى القيادة العامة للجيش العثمانى بعد أحداث الثورة المضادة بمنع الضباط العسكريين من الاشتغال بالسياسة حتى لايفسد الجيش نتيجة لاختلاف ضباطه فى الآراء السياسية . وكان محمود شوكت باشا على رأس هذا الاتجاه ويرغب

---

(١) محمد كرد على — خطط الشام جزء ٣ — ص ١٢٠ .

فى تحريم العمل بالسياسة على الضباط وتحريم انتمائهم إلى الأحزاب السياسية . ولكن هذا الاتجاه كان يصعب تنفيذه خاصة وأن العناصر التى قامت بالثورة ؛ والتى وقفت ضد الثورة المضادة،كانت فى غالبيتها من الرجال العسكريين. فاضطرت القيادة إلى اغماض الطرف عن هذه المسألة رغم خطورتها .

ولا شك أن الجيش كان أداة فعالة لتغيير الأوضاع فى الدولة . ولكنه كان يمتاز مثل كل الجيوش بوحدة فى الهدف وتقارب فى التفكير وطريقة واحدة للقيام برود فعل تجاه الأحداث ، وعدم تراجعه عن استخدام الشدة التى تعتبر وسيلته الأولى . وكان الجيش بذلك يختلف فى كثير عن العناصر السياسية الحرة والمتحررة والتى تعتز بنمو شخصيتها ولاتتراجع عن النقاش والجدال. ومع ازدياد نفوذ الضباط على جمعية الاتحاد والترقى ، وبالتالى على السياسة العامة للدولة بدأ نوع من الاختلاف فى الآراء والوسائل فى الظهور وأثر على اتجاه القوى التى تكون فى الدولة .

وكان بعض الضباط يمتازون بتطرفهم وبعدم تحرر آرائهم، بل كانوا يعتقدون فى أن لهم رسالة ، وكأنها لهم دون غيرهم ، للمحافظة على الدولة ، والمحافظة على كرامتها . وكان عدد منهم لا يقبل الجدال ويدين ببعض الآراء التعصبية أو العنصرية وكان البعض الآخر وحدويا دون أن يقبل فى ذلك أى جدال أو يسمح بقبول فكرة الإئتلاف أو الاتحاد .

وكانت قلة تعمق العناصر العسكرية فى الدراسة ، وخاصة المتحررة منها ، بالاضافة إلى شعورهم بضخامة عدد المواطنين العرب فى الدولة ، وملاحظتهم الاتجاه التحررى عند العرب يجعلهم ينظرون إلى أبناء الاقاليم العربية وكأنهم عناصر لاتقبل الخضوع للاطار العام الذى وضعوه للدولة بسهولة . كانوا قد أعلنوا المساواة بين الجميع ، دون نظر إلى جنس أو دين ، فرأوا فى كل الاتجاهات

التى تستند إلى لغة خاصة ، أو إلى دين خاص ، حركة انفصالية تهدد كيان الدولة ، رغم أنهم أنفسهم كانوا يعتزون بأنهم أتراك . وبأنهم مسلمين. ولاشك أن انخفاض مستوى ثقافتهم جعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم حماة الدولة وحماة الدستور ، وأن هذا العبء يقع عليهم قبل الوقوع على غيرهم ، ولو أن هذا الاتجاه الأخير يتعارض مع فكرة الحرية ومع فكرة المساواة . ولاشك أن اعادتهم العمل بالدستور الذى وضع سنة ١٨٧٦ على أسس فرنسية جعلهم يرفضون خضوع الدولة لرجال الدين ، وكان موقفهم من الثورة المضادة واضحا كل الوضوح . ولكن ، هل كان يسعى تخليص كل أقاليم الدولة ، رغم تفاوت درجة نموها الثقافى ، من الخضوع لتأثير العامل الدينى ؟ حتى فى الأقاليم التى كانت إسلامية بحتة فى شعبها وفى زعامتها ؟.

لقد كان من المنطق أن يخضع الجميع لحكم قانون وضعى يسوى بين الجميع ويعدل فيما بينهم . ولكن بعض العناصر الإسلامية والخاضعة لقيادات تقليدية لم تكن ترى حكمة الخضوع لتشريع وضعى مادام الشرع الإسلامى يكفى لها. خاصة وأنها لم تكن قد شهدت بعد نمو الطبقة الوسطى وانتشار التجارة واحتاجت إلى قوانين وضعية توفى بالالتزامات بين أصحاب رؤوس الأموال مهما كان دينهم. وكانت هذه النقطة والمتعلقة بالتشريع، وبتطبيق التشريع الوضعى فى بعض الأقاليم المتخلفة من الدولة سببا فى نشوء بعض المشكلات أدت إلى اصطدام . وكانت هذه الأقاليم عربية ، ورأى القائمون على جمعية الاتحاد والترقى فى حركتها حركة انفصالية ، وربطوا بينها وبين العروبة ، كما حدث فى مشكلة العسير ، وكما حدث فى اليمن .

وكذلك الجانب العربى ، فانه رأى فى عملية فرض جمعية الاتحاد والترقى لنفسها على بقية الدولة عملية عنصرية ، وعملية تحاول تتريك العرب واخضاعهم لحكومة استبدادية ولا تقل فى استبدادها عن حكومة السلطان عبد الحميد .

وسيستمر نمو هذا الخلاف بين العرب والأتراك بعد نهاية الثورة المضادة ويأخذ شكلا واضحا فى سنة ١٩١٠ ، سنة ١٩١١ ويهدد فى السنوات السابقة لاعلان الحرب العالمية الأولى بانشقاق تام بين أبناء الاقليم الواحد.

ولقد عمل الأتراك على تنحية عدد من الوزراء العرب رغم قلتهم ، وأسلموا وزارة الداخلية إلى طلعت بك المشهور بقوته وصلابة رأيه . ولقد عمل طلعت بك على استخدام القوة لاستتباب الأمن فى كل مكان خاصة وأن بعض القلاقل كانت قد بدأت فى الظهور فى البانيا والعراق ونجد وحوران والعسير واليمن . وكان الامام يحيى يأمل فى الوصول إلى صلح خاصة وأن البكباشى عزيز على المصرى كان قد توسط فى الأمر مع عزت باشا الأرناؤطى. وقرر مجلس المبعوثان بعد الثورة المضادة تشكيل لجنة من أعضائه للوصول إلى حل لمشكلة اليمن ، واجتمعت هذه اللجنة وقررت ضرورة تقسيم اليمن إلى ولايتين : الأولى ساحلية وتشتمل على تهامة ومنطقة السهل الساحلى ، والثانية إلى الداخل وتشتمل على أقضية عمران والحجة وطويلة وبريم وأنس ، كما قررت ترك الولاية الداخلية لتصرف الإمام يحيى وتعيين أحد الولاة الآخرين فى المنطقة الساحلية ، كما أوصت هذه اللجنة بتفويض الولاة فى شئون تعيين القضاة ورجال الادارة وفقا للاحكام الشرعية ، وتعيين رجال الدرك ، وبشرط أن توافق الدولة العثمانية على هذا التعيين . كما أوصت بترك الميزانية للولاة ينفقون منها وباعطاء سلطات لقيادة الجيش العثمانى الذى سيكون مركزه فى صنعاء، وبشرط ألا يحتل المناطق القريبة من مركز حكم الإمام . وكان فى وسع مثل هذا المشروع أن يقضى على خلاف فى منطقة خاصة من مناطق العرب ، منطقة تمتاز بتخلفها الحضارى والثقافى وتمتاز بمحافظتها على العصبية وعلى مذهب خاص هو المذهب الزيدى ، واعتزازها بالقيادة الموجودة فيها . ولقد وافق مجلس المبعوثان على هذا المشروع ولكن سرعان ما وقعت

بعض أحداث تتمثل فى مهاجمة إحدى القوافل وقتل أحد الضباط الأتراك فى اليمن ، فوقف طلعت بك يشرح أنه سيستخدم القوة مع العصاة .

كانت الأحداث المتعلقة بعدم استتباب الأمن فى اليمن أحداثا عادية فى ذلك الوقت ، ولم تكن الشدة فى يوم من الأيام وسيلة لتطوير الشعوب . ولكن رجال الاتحاد والترقى خشوا من أن يكون أعطاء نظام حكم ذاتى لليمن بادرة لإعطاء مثل هذا الحكم لأقاليم أخرى، مما يتعارض مع الدستور الذى كان وحدويا ومركزيا . وهكذا أوضح الخلاف بين العناصر التى تكون الدولة فى طريقة معالجة الامور ، كما ظهر عجز الدستور العثمانى عن أن يتمشى مع أمانى الشعوب التى تسكن الامبراطورية .

وكان فى وسع هذه الحادثة أن تمر فى سلام دون ضجيج . ولكن صحافة الإتحاديين أخذت فى إستغلال هذه الحادثة لإلصاق التهم بأبناء اليمن ، وزاد من حنقها أن السيد الادريسى شيخ العسير كان غير متجاوب من ناحيته كذلك مع نظام الحكم العثمانى الجديد ، وعادت الثورة إلى اليمن . وكان كل من الإمام يحيي والشيخ الادريسى يطالبون بأن يكونوا فى جباتهم « آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر ، ضابطين البلاد من الفساد » . وكانوا يعترفون بخضوعهم الاسمى ، أو السياسى للدولة ومستعدين لكى يرسلوا إليها الحاصلات ، على أن تقوم هى بدفع ما يلزم لمعاش القضاة والموظفين ، وعلى أن يحدث ذلك دون استخدام القوة . ولكن صحف الاتحاديين ، وخاصة جريدة طنين أخذت فى شن حملة صحفية على العرب عامة وعلى اليمن خاصة ،وظهرت فيها مقالات تتضح فيها العنصرية، وتتضح فيها الناحية الاستعمارية وأخذت فى تجريح العرب والتعرض لقيمتهم ، وحتى لشرفهم ، وشرف العربى لايغسله إلا الدم . ولقد تسببت هذه الحملة الصحفية فى إثارة موجة عامة من البغضاء بين العرب تجاه الترك ، وكانت فرصة لقصادة

الحركات اللامركزية أو الحركات الانفصالية أو تلك التى تطالب بالحكم الذاتى لكى يفضحوا إتجاهات الأتراك ويدافعوا بدورهم عن أمانيهم القومية . وذكر العرب أمر استغناء الأتراك عن الموظفين العرب فى وزارة الخارجية ، وشرحوا كيف خلت مقاعد مجلس الأعيان منهم ، وناقشوا الطريقة التى حدثت بها الانتخابات وكيف حاول الأتراك أن يسيطروا على كل الدولة . شرح العرب أن هناك من بينهم من يصلح للمراكز القيادية ومن يمكنه أن يقف إلى جوار حسنى باشا وجمال بك ، وأن لديهم محمود شوكت وعزيز على المصرى وغيرهم ، حتى من بين رجال القوات المسلحة . وشرح العرب أن الاصرار على إستخدام اللغة العربية لغة رسمية وحيدة فيه إفتئآت على حقوق العرب وأن هناك برلمانات أخرى تستخدم أكثر من لغة قومية كما هو الحال فى النمسا وفى سويسرا وفى بلجيكا . وإذا كانت جريدة طنين وهى جريدة الأتراك الاحرار ، أو الأتراك الثوار تتخذ مثل هذه المواقف ، فالى أى مدى يمكن للصحف التركية المتعصبة أن تصل ؟

واستمرت المشادة بين الأتراك والعرب ولم تكن فى صالح الوحدة أو الاتحاد . ومنع رجال الاتحاد دخول صحف المؤيد والمنار التى كان يشرف عليها الشيخ على يوسف والشيخ رشيد رضا وتصدر فى مصر ، إلى بقية أقاليم الدولة . وحاولوا إنشاء صحافة عربية جديدة لها ميول عثمانية تتمشى معهم . ومع هذا الإنقسام فى الرأى العام فى الدولة العثمانية نجد أن مصر قد شهدت هذه المعركة فى أجلى معانيها : إذ أن جريدتا المؤيد والمنار كانتا تصدران فيها ، وكانت تصدر فيها فى نفس الوقت جريدة الهلال العثمانى التى أشرف عليها الشيخ عبد العزيز جاويش ، وجريدة لواء ، وجريدة الحزب الوطنى . وإذا كان المؤيد والمنار قد وقفا ضد سياسة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، فان الهلال العثمانى والهلال كانتا تمثلان ضرورة التجاوب وضرورة الوصلال إلى تعاون بين الجميع .

وإذا كانت مشكلات العسير واليمن هى التى ساعدت على بلورة الاتجاهات العامة بين العرب والأتراك ، فان مشكلة طرابلس ستأتى لكى تدعم علاقاتهم أمام خطر استعمارى أجنبى ، يقع على بلد عربى إسلامى .

ثالثا - إيطاليا والاستيلاء على طرابلس الغرب :-

كان هجوم الإيطاليين على طرابلس سنة ١٩١١ عملية العدوان الاستعمارى للتوسع فى الأقاليم القريبة من إيطاليا ، وكان فى نفس الوقت اقتطاع لاقليم عربى عثمانى من جسد الدولة العثمانية وإخضاع لاهله العرب لحكم أجنبى أوربى ومسيحى . حدث هذا العدوان فى الوقت الذى تزايد فيه النقاش بين الأتراك والعرب ، والعدو على الأبواب ، وشعر كل من الترك والعرب بمسئوليته أمام هذا العدوان ومسئوليته فى ضرورة اصلاح أمور الدولة والتعاون سويا من اجل الصالح العام . ولكن أحوال الولاية العثمانية كانت تجعل منها فريسة سهلة أمام المعتدين الأجانب . ررغم ذلك فان مقاومة عنيفة قد نشبت فى هذا القطر العربى ظهر فيها اتحاد مصلحة العرب مع الأتراك . لولا استمرار الحرب لفترة طويلة ، وقيام مشكلات جديدة أمام الدولة لاستمر الكفاح .

أحوال الولاية :-

وكانت الدولة العثمانية قد أعادت حكمها المباشر إلى طرابلس وبرقة فى سنة ١٨٣٥ بعد أن أنهت حكم الأسرة القرمانلية . وكان الإقليم فقيراً من الناحية الطبيعية ولا يشتمل إلا على بعض العيون التى يقوم الأهالى بالزراعة حولها ، ويسقون مواشيهم منها . أما التجارة فكانت تمر فيما مضى عبر هذا الاقليم عن طريق القوافل بين افريقية السوداء فى الجنوب والموانى الطرابلسية على البحر المتوسط ، ولكن هذه التجارة انخفضت فى قيمتها بعد ذلك نتيجة لاستيلاء بعض الدول الاوربية على مخارج القارة الافريقية فى الغرب فى خليج غانة .

وكانت الولاية تنقسم من الناحية الإدارية إلى قسمين : ولاية طرابلس ويحكمها الوالى ، والباشا ، ومستصرفية بنغازى التى تخضع لمستصرف يعتبر نائبا للوالى ، وإن كان له حق الاتصال بحكومة القسطنطينية رأسا فى بعض الحالات . وكان نظام القضاء العثمانى هو المطبق فى طرابلس وإن كانت القبائل فى الداخل قد ظلت تحتفظ بعرفها وتقاليدها وكانت هناك الامتيازات الأجنبية سارية المفعول فى طرابلس، مثلها فى ذلك مثل بقية أقاليم الدولة العثمانية ، وكانت هذه الامتيازات تحتسب فى فوضى إدارية وقضائية وتساعد على سيطرة الأجانب على أبناء البلاد.

وكان الحكم العثمانى فى طرابلس يهتم أولا وقبل كل شىء بجمع الضرائب حتى يتمكن بها من الإنفاق على الولاية وارسال الجزية السنوية إلى القسطنطينية ،وإن كان أهالى الداخل قد ظلوا لا يعرفون الكثير عن الحكم العثمانى الذى ظل قريبا من السواحل . ولكن إذا كانت الدولة العثمانية قد عجزت عن اقامة حكم فعلى فى ولايتها فان سياسة الجامعة الإسلامية التى سار عليها السلطان عبد الحميد كانت تلقى قبولا كبيراً فى هذه الولاية التى اعتزت باسلامها فى نفس الوقت الذى اعتزت فيه بعروبتها . وكان هناك عدد من الطرق الصوفية ينتشر فى طرابلس ولهم كثير من الاتباع ، وكان أشهر هذه الطرق هى الطريقة السنوسية التى نشأت واحة الجغبوب وانتشرت منها فى كل برقة ووصلت إلى افريقية السوداء . ولكن الدولة كانت مشغولة بمشكلاتها الكثيرة فى البلقان وفى أرمينيا وتمر بمرحلة واضحة من الضعف تتطلب التغيير والاصلاح ، ولفترة طويلة ، فعجزت عن اصلاح أحوال ولايتها مادامت قد عجزت عن اصلاح أحوال نفسها .

وكان ضعف هذه الولاية مع قربها من ايطاليا ووجود جالية ايطالية فيها يساعد ايطاليا على التفكير فى التوسع فيها ، وخاصة حينما بدأت ايطاليا تحاول الوصول إلى مصاف الدول الاستعمارية الكبرى وتمنى نفسها باعادة بناء امبراطورية

لها تعيد بها ذكرى الامبراطورية الرومانية القديمة . وظلت الاحوال على ذلك إلى أن قامت ثورة تركيا الفتاة.

وأخذت الدولة العثمانية فى التفكير والعمل على إنشاء جيش قوى كما ظهر من مجهودات محمود شوكت باشا ، كما وضعت الأسس للحصول على بعض قطع قوية للأسطول وكان رجال الاتحاد والترقى ينظرون إلى الامتيازات الاجنبية على أنه عائق كبير بين دولتهم وبين التقدم ، وكانوا يطالبون بالغائها رغم إصرار الدول على ابقائها . ولقد استعان العثمانيون بعدد من الخبراء الاجانب لاصلاح المالية ولاصلاح القوانين والادارة القضائية ،واستعانت بغيرهم على تنظيم الجمارك واعادة تنظيم الاسطول والبدء فى تحسين الأشغال العمومية . ورغم أن السياسة التى سار عليها الاتحاديون ، والتى اشتملت على استخدام الثروة فى عمليات تدعيم الوحدة العثمانية قد تسببت فى تقليل عطف الرأى العام الأوربى عليهم إلا أنهم ظهروا وكأنهم يسيرون الشئون العامة صوب الصالح العام. ولكن المالية العثمانية كانت مرتبكة ، كما أن الخزانة كانت شبه خالية وأجبر ذلك الدولة العثمانية على أن تخضع للنفوذ المالى الغربى الذى تحكم فيها عن طريق البنك العثمانى الامبراطورى وظهرت آثار هذا التحكم فى مشكلات الامتيازات التى منحت قبل الحرب العالمية الاولى .

وكان قيام المشكلات فى ألبانيا ومقدونيا وتصميم الدولة على نزع سلاح الاهالى فى هذه المناطق يكلفها الكثير من الجنود والاسلحة والأموال ، ويغل يدها عن أن تتمكن من البناء فى أقاليم أخرى . وبعد ألبانيا جاء دور بلغاريا ، واضطرت الدولة إلى إستخدام الشدة مع الاهالى وكان هذا يكلفها الكثير . وأن استمرار هذه المشاكل بالقرب من عاصمة الدولة هو الذى سيجدها على أن تنفض يديها من طرابلس الغرب بعد فترة من الحرب حتى تتفرغ للمشكلات القريبة منها.

وكانت هناك مشكلات أخرى قد ظهرت فى المناطق العربية وخاصة فى العراق وفى جبل الدروز ، وجاءت مشكلات العسير واليمن لكى تضطر الدولة إلى أن تسحب جزءاً من حاميتها الموجودة فى طرابلس لكى ترسل بها إلى اليمن ، مما أدى الى أضعاف هذه الولاية عسكريا فى الوقت الذى زادت فيه الأطماع الاستعمارية الايطالية تجاه .

ورغم أن الدولة العثمانية كانت قد عينت الفريق رجب باشا واليا على طرابلس وكلفته بتحسين أحوال الولاية الا أنه لم يقم بشىء يذكر فى هذا الميدان واكتفى بتجميل مدينة طرابلس وأقام سوق « المشير » وفتح عدداً من المدارس . وبعد استدعائه إلى استامبول لتولى منصب وزير الحربية عينت الدولة بكير بك نائبه فى القيل واليا على طرابلس ، وكان غير محبوب من الأهالى فاجتمعوا وكتبوا الاحتجاجات الرسمية ضده . وعلينا أن نشير كذلك أن محاولة الدولة تطبيق القوانين الوضعية فى طرابلس وجدت معارضة من بعض الاهالى والزعماء المسلمين ـ وجاءت مسألة محاولة فرض الخدمة العسكرية الاجبارية لكى تتسبب فى نشأة عدد من الفتنة ، وخاصة فى مستصرفية بنغازى التى ترأس فيها السنوسيون المعارضة واضطرت الدولة إلى عقد اتفاق مؤقت معهم فى سيدى رافع سنة ١٩١٠ أعفى الطرابلسيين من هذه الخدمة ، فى الوقت الذى احتاجت فيه الولاية إلى تجنيد رجالها للدفاع عنها .

وإذا كانت الادارة العثمانية فى طرابلس قد خشيت من تزايد التوسع الإيطالى فى الولاية فانها قد عجزت عن وقف عملية التغلغل الإقتصادى والسياسى ، وكانت عاجزة عن رفض طلباتهم ، فاستخدمت التسويف وسيلة للاجابة ، وحينما كانت تضطر تحت الضغط الدبلوماسى الى التراجع ، كانت تستخدم الوسائل الملتوية

لابطال مفعول ما منحته وما وافقت عليه ، وكان هذا يدل على الضعف كذلك وأمام حركة الايطالية لشراء الاراضى فى ليبيا أخطر الأتراك إلى الرضوخ ولكنهم استخدموا نفوذهم مع الأهالى حتى يمتنعوا عن البيع للايطاليين، ثم أنشأ العثمانيون «البنك الزراعى العثمانى» فى طرابلس سنة ١٩١٠ لكى يحسروا به أحوال المزارعين المالية ، وكان يمنح بعض القروض بضمان الأراضى ، ولكن ميزانيته كانت محدودة .

ولقد أرسلت الدولة فى أواسط سنة ١٩١٠ المشير ابراهيم باشا واليا على طرابلس ، ويعود الفضل إلى هذا الوالى الحازم فى معظم الأعمال التى نفذت فى طرابلس قبيل الحرب ، وفى المشروعات التى درست وبدىء فى تنفيذها وأوقفها الحرب . وعمل على تثبيت دعائم الأمن والنظام فى الولاية وبدأ فى دراسة الاصلاحات اللازمة للمساعدة على نقيجة البلاد . وبدأ فى تنظيم قوات الشرطة وتنظيم الإدارة ، وأنشأ مدرسة للترك وعهد بادارتها إلى عدد من الضباط المتفوقين وكان يقبل فيها أبناء الولاية مع العناصر التركية . وأنشأ ابراهيم باشا مدرسة زراعية قرب سيدى المصرى وبدأ فى دراسة مشروع لانشاء طريق من عاصمة الولاية إلى زنزور ، ومشروع تحسين ميناء طرابلس ، والمشروعات الخاصة بزيادة استغلال المياه الجوفية . وبلغ عدد المدارس التى فتحت فى عهده ٢٦ مدرسة رغم أن عددها من قبل لم يصل إلا إلى ٣٦ مدرسة . وأنشأ مدرسة عليا للمعلمين وعمل على تحسين اضاءة شوارع عاصمة الولاية .

ولقد قل سقوط المطر فى سنوات حكم هذا الوالى ، فأخذ فى توزيع الحبوب على الاهالى « وأنقذ من البؤس والموت آلافا من العرب والوطنيين كانوا يموتون من الجوع ، وكان هذا هو سبب حب الاهالى الشديد له . » (١)

(١) *BERNET, Edmond: En Tripolitaine, Paris 1912 P. 19.*

وكان هذا الوالى يعرف الطريقة التى يتعامل بها مع الأهالى ، وكان يعقد المؤتمرات ويخاطب الاهالى ويناقشهم فى الأمور العامة ويحذرهم من بيع أراضيهم إلى الإيطاليين وإلى بنكو دى روما . وكان الاهالى يستجيبون له ويلتفون حول حكومته ، بل إن عدداً منهم قد قبل الانتظام فى سلك الجندية بعد أن كانت الدولة قد فشلت فى تجنيدهم فى الجيش .

ولكن الأيطاليين كانوا ينظرون إلى مجهودات هذا الوالى بحنق وخاصة فى مسأله استخدام الأهالى فى الجيش ، وتشجيع البحث عن المعادن ومحاولة استغلال المناجم . ولم يتأخر الإيطاليون عن أن يشوهوا هذه الاصلاحات فى صحافتهم ، ومن أن يخلقوا له المصاعب التى قد تصل إلى حد الاصطدام . ولقد وصلت الصعوبات فى شهر أغسطس سنة ١٩١١ إلى درجة كبيرة واضطرت تركيا إلى قبول الضغط الإيطالى وسحبه من الولاية تجنبا للمشكلات . وذهب ابراهيم باشا لكى يشرح وجهات نظره لحكومته ويوصيها بضرورة تعزيز حاميتها فى طرابلس . ولكن الولاية أصبحت بدون والى ، فى الوقت الذى افتقدت فيه إلى جزء كبير من قواتها كانت قد أرسلت إلى اليمن . وكانت الفرصة سانحة أمام ايطاليا لكى ترضى أطماعها الاستعمارية فى الولاية .

الاطماع والمصالح الايطاليا :

كانت إيطاليا التى وصلت إلى وحدتها الوطنية فى سنة ١٨٧٠ تحاول أن تدعم مركزها كدولة عظمى فى المجتمع الاوربى بنفس شروط الدول الثابتة الغنية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكانت تحس بماض لا يقل عظمة عن ماضى جيرانها ولذلك فانها قد قامت بمحاولات لإنشاء امبراطورية استعمارية فيما وراء البحار تشبها بهم .

وكانت هناك عوامل إقتصادية ومعنوية تشعر ايطاليا بأنها أقل أهمية من غيرها من الدول العظمى ، وكان هذا العامل النفسانى هو الذى يدفع ايطاليا صوب

الخارج وصوب الاستعمار ويجعلها تتشبث فى القيام بإنشاء امبراطورية استعمارية رغم إفتقارها إلى الوسائل اللازمة لذلك ، والقيام بإنشاء هذه المستعمرات فى أقاليم لم تكن تبشر بأنها ستغل عليها الكثير ، أو تسمح باستيعاب عدد من أبنائها كمتوطنين فيها . وإن قصة إيطاليا فى شرق إفريقية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ومحاولتها الإفادة من الثورة المهدية فى السودان للاستيلاء على مصوع ، ثم محاولة توسعها فى الداخل صوب الحبشة وفرض حمايتها على منليك بمعاهدة اوتشالى سنة ١٨٨٩ ، والتى استمرت بعد ذلك مع استيلائها المؤقت على كسلا سنة ١٨٩٤ ، مع ما أدت اليه من إصطدام مع الحبشة فى معركة عدوة سنة ١٨٩٦ لها قصة تمثل محاولة لإنشاء امبراطورية دون أن تقدر ايطاليا على القيام بها .

ولكن انهزام إيطاليا فى شرق إفريقية قد أجبرها على أن توجه أنظارها إلى شمال هذه القارة ، وخاصة إلى الإقليم المواجه لها ، وهو طرابلس ، بعد أن كانت قد شاهدت فرنسا تسبقها إلى تونس سنة ١٨٨١ . (١)

وبدأت ايطاليا فى تحسين علاقتها مع فرنسا واعترفت بامتيازات هذه الدولة الأخيرة فى تونس حتى تسهل من ضائقة الحرب الاقتصادية المعلنة بين الاختين اللاتينيتين ، وحتى تضمن تعضيد فرنسا لها فى التوسع فى طرابلس . وكانت فرنسا من ناحيتها ترغب فى مصالحة ايطاليا خاصة وأنها كانت قد إنضمت إلى دولتى الوسط بعد إحتلال فرنسا لتونس . وكانت فرنسا قد بدأت تنظر بعين الاعتبار إلى مصالحها فى المغرب الاقصى فوجدت دعائم يمكنها أن تبنى عليها تفاهما مشتركا على المصالح المشتركة الواحدة فى المغرب والثانية فى طرابلس ، ولقد أكدت فرنسا لايطاليا أن طرابلس لا تدخل فى منطقة التوسع الفرنسى ، وأن عليها أن تعترف

(١) أنظر : ص ٣٠٤ — ٣١٠

بنفس الشيء بالنسبة للنفوذ الإيطالى فى المغـرب الأقصى . وكانت هذه بـداية لمفاوضات دامت مدة عام ونصف عام وإنتهت بتبادل خطابات بين باريز السفير الفرنسى فى روما ، وفسكونتى فنوستا وزير الخارجية الايطالية فى ١٤ ، ١٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٠ (١) ونص الخطاب الأول على أن إتفـاقية ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ ، والخاصة بتحديد مناطق النفوذ بين فرنسا وبريطانيا تترك ولاية طرابلس الغرب خارج منطقة النفوذ وأنه ليس لدى الحكومة الفرنسية النية فى تعدى الحدود كما أنها تتعهد بعدم قطع مواصلات القوافل بين طرابلس والمناطق الأخرى التى تدخل ضمن هذه الاتفاقية الانجليزية الفرنسية . ولكن من اللازم بقاء هذه التفسيرات سرية . أما الخطاب الثانى فقد ذكر الايطاليون فيه أن دولتهـم ستحتفظ بحقها فى زيادة نفوذها الفعلى فى طرابلس وبرقة إذا ما حدث تعديل فى الحالة السياسية أو فى الأوضاع الإقليمية فى المغرب الاقصى . وإذا كان هذان الخطابان قد أعطى ايطاليا ضمانا بعدم منافسة فرنسا لها فى طرابلس إلا أنهما قد ربطا توسع إيطاليا فى هذا الاقليم بتوسع فرنسا فى المغرب الأقصى .

وكانت هذه خطوة أساسية فى الميدان الدولى طمأنت ايطاليا على امكانية حصولها على مستعمرة جديدة وان كان الامر يحتاج إلى بعض الوقت ، وأخذت إيطاليا فى زيادة نفوذها فى الولاية واستخدمت التغلغل الاقتصادى والسياسى وسيلة لها ، وأنشأت مكتبا للبريد فى بنغازى . ولكن ايطاليـا كانت تخشى فى نفس الوقت من نشاط السلطات العسكرية الفرنسية فى تونس على طرابلس وخاصة فى منطقة غدامس ، فعملت فرنسا على تهدئتها وسمحت لها بأن تشرح للرأى العام الايطالى بعدم وجود نيات توسعية فرنسية تجاه طرابلس . وإذا كانت هذه

---

(١) الوثائق الدبلوماسية الفرنسية ـ المجموعة الثانية ـ المجلد الاول .
وثيقة رقم ١٧ فى يناير سنة ١٩٠١ من باريز الى دلكاسيه .

التصريحات قد أرضت العناصر اليمينية الايطالية إلا أن بريطانيا قابلتها بتحفظ واضح، كما أن الدولة العثمانية بدأت فى الشعور بالخوف من نيات ايطاليا تجاه طرابلس، ولكن فرنسا كانت تفضل تحسين علاقاتها بالدولة العثمانيـــة إذا ما أجبرت على الاختيار بين الاثنين. وكانت محاولة الاتراك تدعيم الروابط الاسلامية مع سكان شمال أفريقية، علاوة على عدم اعترافهم بالحماية الفرنسية على تونس ورفضهم معاملة الجزائريين على أنهم رعايا فرنسيين، بالاضافة الى عدم اعتراف تركيا بالاتفاقية الانجليزية الفرنسية ١٨٩٩ والتى تركت وادى وتشاد تحت الحكم الفرنسى، علاوة على محاولة الأتراك تدعيم حكمهم فى الواحات الجنوبية فى ليبيا - كان كل ذلك أسبابا تدفع فرنسا إلى الاتفاق مع ايطاليا ضد المصالح التركية والعثمانية، خاصة وأن عملية توسع الدولتين الاستعماريتين كانت فى الواقع على حساب العناصر المتعلقة بالدولة العثمانية أو بالجامعة الاسلامية.

ولقد توصلت كل من ايطاليا وفرنسا إلى تبادل خطابات جديدة فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٠٢ اكملت بها خطابات سنة ١٩٠٠ ونصت على أن كل من الدولتين تستطيع أن «تزيد نفوذها بحرية فى المناطق المذكورة، فى اللحظة التى تراهـا مناسبة، ودون أن يكون عمل أحداها ضرورى لعمل الأخرى» (١).

ورغم ذلك فان ايطاليا كانت غير قادرة على الاقدام على العمليات، وخاصة أمام الاتفاقات والمعاهدات الدولية التى تضمن استقلال الدولة العثمانية وسلامة أراضيها. وحينما كانت الاشاعات تنتشر عن تجهيز ايطاليا لحملة عسكرية لاحتلال طرابلس، كما حدث فى سنة ١٩٠٢، كانت إيطاليا ترد بأنهـا لا تحـاول تغيير الظروف الموجودة وأنها تسعى الى الابقاء على الأوضاع القائمة فى البحر المتوسط

(١) الوثائق الدبلوماسية — المجموعة الثانية — المجلد الثانى. وثيقة رقم ٣٢٩ فى ١٠ يوليو سنة ١٩٠٢ من بادير الى دلكاسيه

كما هى . وحينما قامت بعض قطع الاسطول الايطالى بزيارة طرابلس ظهرت مخاوف بريطانيا حينما أرسلت طرادتين من مالطة لزيارة ميناء طرابلس فى نفس الوقت واذا كان هناك قطاع من الرأى العام الايطالى وهو قطاع الاتجاه اليمينى كان يحاول دفع ايطاليا صوب التوسع فى طرابلس فان الدولة نفسها كانت تحبذ سياسة التغلغل الاقتصادى والمعنوى . وحين عقد الاتفاق الودى البريطانى الفرنسى بشأن مصر والمغرب الأقصى وجدت فيه ايطاليا تتويجا لاتفاقها مع فرنسا وتدعيما لنفوذها فى طرابلس ووجدت فيه تكاملا مع النفوذ البريطانى فى مصر من ناحية أخرى .

ورغم أن الجالية الايطالية قليلة العدد وغالبية أفرادها من الطبقة الفقـيرة وأصحاب المهن اليدوية ، ورغم أن العلاقات التجارية بين ايطاليـا وطرابلس كانت تأتى فى المرتبة الرابعة بالنسبة لهذه الولاية بعد معاملتها مع كل من انجلترا وتركيا وفرنسا ، الا أن الحكومة الايطالية قد عملت على تدعيم علاقاتها بالولاية فأنشأت شركة روبتين بمساعدة الحكومة الايطالية خطا للملاحة يمر بعد مالطة على طرابلس ومصر ودرنه ذهابا وايابا مرة كل اسبوعين . وفتحت ايطاليا فروعا لمصر روما ، بنكو دى روما ، فى طرابلس وبرقة وامتد نشاط هذا البنك إلى انشاء وابورات لطحن الغلال وادارة توكيلات الملاحة وتوكيلات التجارة العامة وانشأ لنفسه مطبعة أشرف على عمليات الشركة الايطالية الاستعمارية التى كانت تعمل فى الاستيراد والتصدير ، وأسس الشركة الايطالية العامة للملاحة وهى الشركة التى كانت تنقل البضائع بين طرابلس ومالطة ، وبين الولاية وإيطاليا ، وبينها وبين تونس . وبذلك أصبحت شركات الملاحة فى طرابلس فى أيدى الايطاليين .

وقامت إيطاليا بفتح عدد من المدارس المجانية فى طرابلس وأنشأت بعض المستشفيات والملاجىء .

وكانت إيطاليا تراقب نشاط الأجانب والدول الاجنبية الأخرى فى الولاية وحولها حتى لا يسبقونها إلى النزول إلى هنــاك . وكانت تخشى من استيــلاء البريطانيين على طرق ، وهى بجاورة لمنطقة نفوذهم فى مصر ، كما كانت تخشى من قيام تفاهم بين تركيا وانجلترا حول الحدود المصرية غربا . وكانت ايطاليــا تخشى كذلك من حصول فرنسا على إمتيازات فى الولاية، كما حدث فى سنة ١٩٠٥ مع اشاعة حصول احدى الشركات الفرنسية على إمتياز تحسين ميناء طرابلس ، وتدخلت دبلوماسيا فى القسطنطينية ولفتت نظر السلطان إلى خطورة إعطــائه امتيازات فى الولاية قد يتعارض مع المصالح الإيطالية، وبشكل قد يجبر الحكومة الإيطالية على أن تتخذ وسائل فعالة .(١) ولقد أكدت إيطاليا أنهــا لا ترغب فى ذلك الوقت فى احتلال طرابلس ولكن الحقوق التى لهــا على هــذه الولاية بالنسبة للمستقبل تعطيها فى الوقت الحالى الأفضلية فى الميدان الاقتصــادى ، وفى إدارة رؤوس أموالها فى هذه المنطقة، وفى زيادة المعاملات التجارية والمشروعات الزراعية والصناعية ، وذلك مع موافقة الباب العالى وفى ظل شعور من الصداقة يظهره الموظفون العثمانيون فى طرابلس تجاه الايطاليين . (٢)

وحينما أثيرت مسألة إحتلال الحكومة المصرية لميناء السلوم اعتبرت إيطاليا أنه إمتداد لمنطقة النفوذ البريطانى وتحدثت الصحف اليمينية عن هذه العمليــة وذكرت أن الحل العملى الوحيد هو أن تقوم إيطاليا باحتلال طرابلس والا فإن طرابلس ستكون باستمرار مصدر قلق للايطــاليين ولحــكومتهم ، وستكون « كقطعة من الجبن تقرض الفيران الفرنسية والفيران الانجليزية الكبيرة قلبهــا ،

---

(١) *TITTONI, Tommaso, Italiy's Foreigs Foreign and Iolouial Policy. London. 1914 - P. 25*

(٢) المرجع السابق ص ٢١ .

وحينما نصمم على النزول اليها سنجدهـا قشرة جافة فارغـة ، ولـكن الصحف الحكومية عملت على تهدئة الرأى العام حتى لا تصطدم بالدولة العثمانية وفى وقت لم تكن مستعدة فيه لذلك .

وحينما قامت ثورة تركيا الفتاة وضمت النمسا ولايتى البوسنة والدسك متناسية بذلك الاتفاقات الدولية شعرت إيطاليا بأنها يمكنها أن تحصل على تعويضات . وكانت إيطاليا فى نفس الوقت تخشى من سياسة توسع النمسا فى البلقان ومن زيادة تسليحها لجيشها وأسطولها فى البحر الأدرياتى، فمنعها ذلك من أن تقدم على إرسال قواتها إلى شمال افريقية وتفتح بلادها أمام جارتها الشمالية التى كانت حليفة لها ومنافسة وعدوة فى نفس الوقت ما دامت تواصل إحتلال التيرول والترنتينو . ولكن ايطاليا اعتمدت على التنافس الروسى النمسوى لـكى تحصل على اعتراف من الروسيا بمطالب إيطاليا فى طرابلس فى اكتوبر سنة ١٩٠٩ .

ولقد ظلت ايطاليا تعلن حتى سنة ١٩١١ أن سياستها تتلخص فى المحافظة على الوضع القائم وفى الاحتفاظ بسلامة الامبراطورية العثمانية فى إفريقية وفى كل مكان رغم الحملات الصحيفة التى كانت تطالب بضرورة احتلال طرابلس فى فترات معينة . وفى خلال صيف سنة ١٩١١ رحبت الحكومة الايطالية بزيارة ولى عهد السلطنة العثمانية لها ، ولكن العالم فوجىء فى آخر شهر سبتمبر بتقديم إيطاليـا لانذارها إلى تركيا ومن الوقت الذى ظهر فيه أن أزمة أغادير بين فرنسا وألمانيا قد أخذت فى الوصول إلى تسوية وأخذت اخطار الحرب العالمية فى الابتعاد .

الحرب :

كان الموقف الدولى هاما بالنسبة لإيطاليا ومغامراتها، وكانت الأحوال الجوية تدفع ايطاليا إلى أن تقوم بعملياتها قبل فصل الشتاء خاصة وأن وقت الخريف كان يصلح أكثر من غيره لانزال الجنود على السواحل الطرابلسية . وأسرعت

إيطاليا باستدعاء قواتها الاحتياطية فى شهر سبتمبر . وحاولت الدولة العثمانية إرسال بعض الامدادات للولاية على السفينة ورنة فما كان من ايطاليا إلا أن حملت الباب العالى أخطار الاستمرار فى مثل هذه السياسة ثم أردفت ذلك بانذار بجرد . وادعت الحكومة الإيطالية أن تركيا كانت تعرقل نشاطها فى طرابلس وبرقة وأن محدد الوعود باعطائها منح اقتصادية أصبح امراً لايكفيها وأدعت ايطاليا بأن الموقف قد أصبح خطيراً فى الولاية نتيجة لهياج الرأى العام ضد الإيطاليين ونتيجة لتحريض الموظفين للأهالى ضد الاوربيين. وأبلغت ايطاليا الدولة العثمانية أنها قد صممت على احتلال طرابلس وبرقة وطلبت من الدولة العثمانية أن تعطى أوامرها حتى لاتقابل القوات الإيطالية بالمقاومة . لقد رفضت ايطاليا كل تفاهم فى الأمر وكانت قد أخذت استعدادها للعمليات الحربية ولذلك فان أى رد أو استعداد للمفاوضة أو تقديم بعض الامتيازات لها كان أمراً مرفوضا وأعلنت الحرب فى يوم ٢٩ سبتمبر واستعدت للعمليات الحربية .

كانت إيطاليا تعتمد على ضعف الولاية عسكريا وضعف تسليحها وأعدت حملتها واعتقدت أنها ستحتل الولاية بمنتهى السهوله . ولقد ظهر الأسطول أمام مدينة طرابلس فى اليوم السابق لإعلان الحرب وطلبت تسليم المدينة فى ظرف ٢٠ ساعة . ولقد ساد الخوف الأجانب والوطنيين فى نفس الوقت وأخذ كثير من الاوربيين يلجأون إلى القنصليات الاجنبية استعداداً لرحيلهم ، ولكن إيطاليا فرضت الحصار البحرى على الميناء وأبلغت أنها ستقوم بضرب المدينة بمدفعية الأسطول.

ولقد حاولت الحامية الصغيرة الموجودة فى مدينة طرابلس أن تقاوم الإعتداء الإيطالى وأن تنسحب إلى الداخل فى حالة عجزها عن الاستمرار فى المقاومة .

ولم يكن من السهل على أهالى هـذه المدينة العزل أن يشتركوا فى عملية المقاومة فالتجأوا إلى الأقبية خوفا من تدمير المدينة . ولم يستمر ضرب المدينـة لفـترة طويلة إذ أن طوابى المدينة قد عجزت عن توصيل قذائفها إلى قطـع الأسطول المهاجمة ، رغم وجود بعض مدافع الكروب بين تسليح هذه الطوابى . وسرعان ما أستعدت الحـامية للانسحاب من طرابلس صوب الداخـل وأنزل الأسطول فرقة من البحارة احتلت المدينة .

ولقد خشيت إيطاليا من أن تتدخل تركيا فى العمليات فأرسلت الفرقة الأولى من الجنود إلى مرسى طبرق ، وحرمت بذلك مدينة طرابلس من القوات اللازمة لإحتلالها . ولكن سرعان ما وصلت فرق أخرى إلى مدينة طرابلس وعملت على إقامة تحصينات فيها حتى لاتفاجىء بهجمات من داخل البلاد .

ولقد استمرت إيطاليا فى عملياتها لإحتلال المدن الساحلية بمساعدة الأسطول فهاجمت درنة واحتلتها ، وكذلك حمص بعد أن كانت قد إحتلت طبرق . ثم أخذت فى مهاجمة بنغازى التى كانت عملية الإستيلاء عليها صعبة وكبدت القوات الايطالية خسائر فادحة خاصة وأن الجو كان عاصفا ومطيراً ولم تستسلم حامية بنغازى بنفس السهولة التى استسلمت بها حامية طرابلس .

ولقـد قام الأهالى بالهجوم على ضواحى مدينة طرابلس وفاجأوا القوات الإيطالية وكبدوها خسائر جسيمة . وشارك فى هـذه العمليات بعض القوات العثمانية التى كانت قد انسحبت من المدينة . وشجع ذلك الأهالى فى مدينة طرابلس نفسها على التحمس وعلى البدء فى الكفاح ضد المحتلين . فأطلقت بعض الطلقات على الجنود الايطاليين فى الشوارع وهجم الأهالى على بعضهم بالعصى والسكاكين وبشكل جعل المدينة فى حالة ثورة معلنة والتحام عسكرى . واضطرت القوات الإيطالية إلى استخدام كل ما يمكنها إستخدامه من وسائل الشدة للسيطرة على

الموقف ، وإن كانت عملياتها قد أخذت شكل الثأر والانتقام . وصدرت أوامر الإيطاليين إلى جنودهم باخلاء الشوارع وباطلاق النار على كل كائن يتحرك فيها، وبعد طلقات الرصاص إستخدم الإيطاليين حرابهم ضد الأهالى حتى وإن كانوا من العزل ، واستخدموها ضد النساء والأطفال . لقد كانت بجزرة ارتبط بها اسم الإحتلال الايطالى لطرابلس ومن أيامه الأولى وأثرت على علاقة الاهالى بالمحتلين. ولقد صعب على الايطاليين بعد ذلك أن يتفاهموا مع الاهالى وكانت حادثة عملت على إذكاء روح الحماس عند العرب والمسلمين وتسببت فى إشعال الروح العربية والإسلامية ضد الاعتداء الإيطالى على طرابلس وأظهرت ايطاليا أمام العالم على أنها دولة متبربرة رغم ادعائها بجيشها إلى طرابلس لنشر المدنيـة . وإذا كانت الدول الأوربية لم تتحرك أمام انتشار أخبـار هذه المذابـح فان العالم العربى والإسلامى قد اهتز لها . وسرت روح عامة من التضامن والتآخى بين العـرب والمسلمين أمام هـذه الكارثة التى نزلت ببلد عربى اسلامى ، وباقليـم عثمانى .

لقد قامت الهيئات والجمعيات فى العالم الإسلامى أجمع بالاحتجاج على أعمال ايطاليا فى طرابلس . ووصل ذلك الشعور إلى الهند ، وطالب كثير من الهنود بضرورة تدخل بريطانيا ضد العمليات الايطالية فى طرابلس، كما قرر الهنود ضرورة مقاطعة السلع الإيطالية . وتوالت الاجتماعات فى كل البلاد الشرقيـة والأقاليم العربية والإسلامية ، وتوالت الاحتجاجات وإن كانت قد فشلت فى الوصول إلى نتيجة سياسية ايجابية مباشرة . ومع توالى الفشل وتوالى الاحتجاج زاد الشعور بالمرارة تجاه ايطاليا وزاد التماسك بين العرب والمسلمين ، وخاصة داخل حدود الدولة العثمانية .

ولقد واصل العرب والأتراك بعد ذلك هجماتهم على مواقع الايطاليـين فى

طرابلس وكبدوها خسائر جسيمة ، خاصة وأن روحهم المعنوية كانت لا تطلب إلا الاستشهاد . وأمام ضجة الرأى العام العالمى ، وضعف ايطاليا عن الحصول على انتصار واضح أصدرت الحكومة الايطالية مرسوما فى نوفمبر سنة ١٩١١ بوضع طرابلس وبرقة تحت السيادة الإيطالية . ولكن الموقف الدولى لم يكن يسمح للدول الأوروبية بالاعتراف بهذا الاعتداء الواضح على الحقوق الاقليمية للدولة العثمانية ، فامتنعت الدول العظمى عن الرد ، وأصبح على إيطاليا أن تستمر فى الحرب إلى النهاية ، أو إلى تغيير الموقف الدولى أو حالة الدولة العثمانية وبشكل يسمح لها بتغيير الوضع القانونى لطرابلس وبرقة .

وواصلت ايطاليا إرسال امداداتها إلى طرابلس حتى بلغ عددها حول عاصمة الولاية ٢٥,٠٠٠ جندى فى شهر نوفمبر . وحاولت القوات الإيطالية أن توسع نطاق عملياتها حول مدينة طرابلس وخاصة فى الشريط الساحلى، وهى المنطقة التى يمكنها أن تعمل فيها تحت حماية مدفعية الأسطول . ولكن إيطاليا فقدت الكثير من رجالها فى هذه العمليات ولم تتمكن بها من الحصول على نتائج لها قيمتها .

ورغم أن القوات الإيطالية كانت مزودة بمدفعية حديثة للميدان والجبال وكانت تستخدم بعض المناطيد لتوجيه بعض مدفعيتها وتستند إلى كميات كبيرة من الامداد والذخائر . ولها سلاح طبى له قيمته . رغم كل ذلك فشلت ايطاليا فى أن تبتعد بقوتها كثيراً عن المدن الساحلية . ولقد وقعت معارك متعددة فى الواحة القريبة من مدينة طرابلس وخسر الايطاليون خسائر واضحة خاصة وأن الوطنيين والأتراك كان فى وسعهم الاختباء فى الدروب الملتوية والتستر وراء الأشجار ، وكان من الصعب على الايطاليين أن يتقدموا بمدفعيتهم بين هذه الأشجار .

وعلى أى حال فان اعلان ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية وإرسالها حملتها

على طرابلس وبرقة وقيامها باحتلال الموانى لم يؤدى بالفعل إلى استيلاء ايطاليا على هاتين الولايتين . وإذا كانت ايطاليا قد حاولت أن تغطى دبلوماسيا ، وباعلان ضمها هاتين الولايتين فشلها فى التمكن من القضاء على المقاومة فيهما، فان هذه التغطية كانت غير فعالة، خاصة وأن المعارك قد استمرت حول المدن والموانى، وأثبتت أن ايطاليا لم يستقر لها الأمر بعد فى الولايتين .

وإذا كانت ايطاليا قد اعتمدت على ضعف الحامية العثمانية الموجودة فى الولاية . وأملت فى سهولة الانتصار عليها ، وفى أن تصل سريعا إلى السيطرة على الاقليم ، فانها قد ارتكبت خطأ جسيما فى معاملتها للأهالى وفى محاولتها فرض نفسها بالقوة وبطريقة تتنافى مع قوانين الحرب ومع المدنية . وبدلا من أن تتمكن ايطاليا من القضاء على قوة العثمانيين ، أضافت إليهم قوة الأهالى العرب، مؤيدين فى ذلك بروح من التضامن فى كل أقطار العالم العربى والاسلامى . وأصبح على ايطاليا أن تواجه مقاومة عنيفه قبل أن تصل إلى أهدافها .

المقاومة :

لقد استند الوطنيون فى طرابلس وبرقة إلى حركة تأييد عامة وشاملة امتدت إلى بلدان العالم العربى والاسلامى آزرتهم فى كفاحهم ضد المحتلين . وإذا كانت هذه الحركة لم تتخذ شكلا رسميا نتيجة للأوضاع الدولية والقانونية فانها كانت حركة شعبية وعربية واسلامية اعتز بها تاريخ العرب الحديث . وتمكن أبناء طرابلس وبرقة ، بفضل إيمانهم بعدالة حركتهم ، وبفضل تأييد اخوانهم العرب لهم من أن يبدأو فى مقاومة الايطاليين، وانتقلت بذلك الحرب فى مواجهة الايطاليين من أيدى العثمانيين إلى أيدى أبناء طرابلس الغرب .

ولقد ظهر عجز الحكومة التركية واضحا عن أن تمديد المعونة الفعلية الى ولايتها الطرابلسية ، أن ترسل اليها الامدادات نتيجة لضعف الأسطول العثمانى

وعدم تمكنه من المرور من الحصار البحرى الايطالى ، أما بالنسبة للأقليمين العربيين المتاخمين لطرابلس ، وهما تونس ومصر ، فكان الأول منهما يخضع للحماية الفرنسية والثانى يوسف تحت أعباء الاحتلال البريطانى. وكان يهم الحكومة الفرنسية ألا تصطدم بالحكومة الايطالية نتيجة لمرور بعض المواد الحربية أو المتطوعين الى ميدان الحرب فى طرابلس ، ولذا فانها قد أصدرت تعليماتها الى السلطات الفرنسية فى تونس بمنع مرور الضباط الأتراك والمحاربين وشحنات الأسلحة والذخائر الى طرابلس (١) .

أما الحكومة المصرية فانها قد أعلنت حيادها من ناحية الواقع والقانون وصممت على حراسة النقط الرئيسية الواقعة على الحدود بين مصر وطرابلس ، رغم علمها بعدم سهولة حراسة الحدود الطويلة عبر الصحراء وحينما اشتعل الرأى العام هياجا نتيجة لغدر القوات الإيطالية بابناء طرابلس وقفت وزارة الداخلية موقفا حازما وصادرت كثيرا من منشورات الحزب الوطنى وأخذت فى تضييق الخناق على قادته . وطلب اسماعيل صدقى ، سكرتير مجلس الوزراء ، المويلحى بك رئيس تحرير جريدة اللواء وحذره من كتابة أية مقالات فى جريدته عن موقف المصريين فى تركيا وواجبات المسلمين فى الجهاد الدينى (٢) وهكذا كان موقف السلطات التونسية والمصرية موقفا رسميا يدعى الحياد مادام يخضع لأوامر وتوجيهات الفرنسيين والبريطانيين الذين كان من مصلحتهم أن يفصلوا بين هذين

---

(١) من البيرليجران سفير فرنسا فى القسطنطينية الى دى سالف وزير الخارجية الفرنسية فى ١٤ نوفمبر ١٩١١ .

الوثائق الدبلوماسية الفرنسية — المجموعة الثالثة — المجلد الأول — وثيقة رقم ١١٢

(٢) فى ٦ أكتوبر سنة ١٩١١ *The Egyptian Gazette*

الاقليمين العربيين وطرابلس حتى تزيد درجة اعتماد هذه الأقاليم لهم وخضوعها لاطماعهم .

وكانت أحوال بقايا القوات العثمانية فى طرابلس فى غاية السوء بعد أن تركت معظم أمتعتها وأدواتها وخيامها نتيجة لنقص وسائل الحمل . وكانت المياه غير متوفرة وكذلك الحطب اللازم لايقاد النار . وكانت الامدادات والتموينات سيئة ، وكان الجندى لا يستلم إلا رغيف واحد فى اليوم . وافتقر الجنود إلى أدوات الطعام ، وأصبحت ملابسهم فى حالة يرثى لها ، ولكنهم واصلوا عملياتهم وفى كفاح مستميت . وكان من الممكن فى مثل هذه الحالة أن تنتهى الحرب سريعا بعد أن فشلت القوات العثمانية فى أن تمنع الايطاليين من احتلال المدن، ولكن سوء معاملة الايطاليين للاهالى دفعهم إلى التعاون مع القوات العثمانية وبروح مرتفعة رغم كل الظروف التى وقعت فيها الحرب .

ولقد ظهر الايطاليون بمظهر الضعف إذ أن قوتهم رغم ضخامة عددها قد فشلت فى التوغل الى الداخل وعجزت عن الابتعاد عن مدى طلقات مدفعية الاسطول . وظهر الايطاليون بمظهر الفقر خاصة وأنهم قد وزعوا عملة ورقية بدلا من أن يتعاملوا بالعملة المعدنية . وأخطأ الايطاليون كذلك حينما عجزوا عن احترام شعور الاهالى ومعتقداتهم واعطوا لهذه الحرب صبغة دينية واضحة . فلقد بارك القسس والبابا الحملة قبل سفرها من ايطاليا ، وكان أول ما قامت به بعد نزولها إلى مدينة طرابلس أن أقامت صلوات الشكر على احتلال المدينة وعلى وضع الصليب مكان الهلال . وكان هذا العمل فى حد ذاته كافيا لاثارة كل مسلم فى البلاد ، وكان فى صالح الاتراك الذين ارتبطوا بالأهالى برباط الدين والاسلام وبعد أن أعلن الايطاليون أنهم سيحترمون ممتلكات الاهالى وحرياتهم الشخصية لم ينفذوا تعهداتهم ، وقاموا بعد ذلك بمحاولة لنزع سلاح الأهالى .

ومع استخدام العنف والحنث بالوعود والاعتداء على السيدات والحرمات هب العرب الذود عن الشرف والثأر . ولقد تشابكت كل هذه العوامـــل ودفعت بالأهالى إلى التوجة صوب معسكر العثمانيين ، للاشترك سويا فى النضال من أجل الدفاع عن البلاد ،وجاء نواب البلاد وزعماؤها وأهل عصبيتها ونزلوا إلى الميدان واشتركوا فى العمليات ونادوا على الأهالى فخرجوا معهم . ولقد قام بأهم دور فى هذه الحركة فرحات بك نائب طرابلس ، وسليمان بك البارونى نائب الجبل، وسيف النصر من زعماء سرت ، كما قام السنوسيون فى إقليم برقة بدور هام الكفاح ضد الغزو الايطالى . لقد كتبوا إلى الشيوخ فى الواحات واستشاروهم للالتفاف حول راية السلطان وسرعان ما ارتفع العلم العثمانى فى كل مكان، وحتى فى أقاصى الصحراء . ولقد دعم هذا الانصهار رجال الحامية العثمانية نفسهم وأجبرهم على الثبات فى الميدان . وجاء رؤساء آخرون على رأس رجالهم زاحفين صوب الساحل مدافعين عن دولة الاسلام ، وعن أراضى السلطان . وتوالى مجيء المتطوعين والمجاهدين من قلب الصحراء حاملين معهم ما يحتاجون اليه فى جهادهم من أسلحة بسيطة وتموين قليل . وكانت البنادق الحديثة توزع على المجاهدين بمجرد وصولهم إلى المعسكرات مع كمية من الطلقات ، ولكن هؤلاء المجاهدين لم يكلفوا الدولة كثيراً إذ أنهم كانوا من المتطوعين وكانوا يكتفون بقرش أو قرشين فى اليوم كراتب لهم . وكانت روحهم المعنوية مرتفعة ويواظبون على القيام بفروض الصلاة ولايتراجعون حينما يسمعون طلق النيران بل يندفعون فى اتجاهه . وبسرعة، وكانوا يحاربون حتى وهم بغير طعام أوشراب أو أغطية ولقد عمل الأتراك على تدريبهم وخاصة على عدم اطلاق النيران سدا قبل الالتحام وتغيرت طريقة المجاهدين بعد فترة وأصبحوا يرقدون ويتخذون الأوضاع من خلف السواتر ، ويطلقون النار فى خطوط طويلة وأصبحوا يهجمون بدون ضوضاء

ويقومون بالتشكيلات الأساسية التي تتطلبها منهم طبيعة الأرض وطبيعة المعركة.

أما فى برقة فان نواب الاقليم لم تكن لهم نفس أهمية نواب طرابلس وخاصة فى جمع شمل العرب واستنفارهم للدفاع عن البلاد ، وكانت الاهمية الاولى فى هذا الاقليم تعود الى السنوسيين الذين تشاوروا مع القوات العثمانية بعد انسحابها من بنغازى ثم بدأوا فى جمع المتطوعين للحرب وكان الشيخ أحمد العيسوى يمثل السيد أحمد الشريف السنوسى وتنفيذ تعليماته فى هذا الميدان . وتدفق رجال القبائل والسنوسيين وقووا الحامية العثمانية وبشكل سمح لها بمحاصرة الايطاليين داخل مدينة بنغازى وداخل بقية المدن الساحلية فى برقة ، إلى أن وصل الضباط الأتراك والعرب المتطوعون ، وبعد أن مروا خلسة من الحدود وعملوا على تنظيم قوات المتطوعين .

ولقد وصل إلى ميدان برقة فى ذلك الوقت المقدم عزيز المصرى وتولى قيادة القطاع المواجه لمدينة بنغازى ، كما وصل المقدم مصطفى كمال وتولى قيادة القطاع المواجه لمدينة درنة . أما قطاع طبرق فكان بقيادة ناظم بك. وأسرع أنور بك بطل الثورة العثمانية من برلين إلى برقة ليشرف على تنظيم المقاومة، ووصل بطريق البر متنكرا فى زى العرب ، وأفلت من المحاولات البريطانية للقبض عليه عند الحدود المصرية ، وتولى القيادة العامة فى برقة من المعسكر المواجه لدرنة(١) ولقد وصلت حفنة أخرى من الضباط العثمانيين إلى ميدان طرابلس وأسهموا فى عملية تنظيم المجاهدين العرب .

ورغما من المجهودات التى قامت بها السلطات البريطانية فى مصر، والمجهودات التى قامت بها السلطات الفرنسية فى تونس ، ونشاط الأسطول الايطالى فى البحر،

---

(١) أنظر : د. جلال يحيى . المغرب الكبير . الجزء الثالث . المجلد الأول . الدار القومية ١٩٦٦ ، الباب الخامس .

فان شيئا لم يمنع وصول الامدادات والضباط إلى قوات المجاهدين فى طرابلس وبرقة . وكانت تركيا قد تنازلت عن السلوم مؤقتا لمصر فعملت الحكومة المصرية على احتلالها وأخذت السلطات البريطانية فى مصر فى منع العرب من امداد الطرابلسيين بالتموين والذخائر ، وأخذ بوليس الصحراء الغربية يطارد القوافل ويحاول ضبط الأسلحة والمؤن المهربة ، وتمت هذه العمليات باشراف البريطانيين حتى يظهروا مصر بأنها غير مرتبطة بالدولة العثمانية، وغير مرتبطة بالتالى بالسيادة العثمانية ، وبشكل يسمح بزيادة النفوذ البريطانى فى مصر ، وبعدم اثارة ايطاليا ضد بريطانيا . أى أن الوزارة المصرية كانت تتصرف فى ظل الاحتلال . ولكن هذه المجهودات فشلت فى منع المصريين من امداد المتحاربين ببعض ما يلزمهم ـ بل نجد أن بعض الضباط المصريين فى السلوم قد أخذوا أنفسهم يساعدون على توصيل المؤن والذخائر وقطع المدفعية إلى المحاربين من العرب والترك فى برقة .

ورغم أن فرنسا كانت قد قامت من جانبها بتوجيه سلطاتها فى تونس إلى اعلان اقفال الحدود مع طرابلس إلا أن ذلك لم يؤثر تأثيراً كبيراً فى العمليات الدائرة ، ولا فى الرأى العام التونسى بل ساعد على زيادة اشتعال الشعور الدينى عند التونسيين . ولقد تزعم حزب تونس الفتاة برئاسة الثعالبي وعلى باش حمبة حركة مساعدة المجاهدين فى طرابلس . «وكان لباش حمبة دور فعال فى المغرب ، فكان هو وأنصاره صلة الوصل بين السفارة العثمانية فى باريس ، والقيادة العثمانية فى طرابلس . وبذلك صارت تونس بفضله ممراً سرياً للضبط والاختصاصيين العثمانيين القادمين من أوربا إلى طرابلس[1]

وكانت الامدادات تصل إلى المجاهدين فى طرابلس حتى عن طريق البحر ، ورغم نشاط دوريات الأسطول الايطالى .

---

(١) علال الفاسى : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى القاهرة ٤٨ ص ٥١ .

ولقد دفع الشعور الاسلامى والعربى أبناء الشرق الأدنى إلى تكوين جمعيات لجمع الاكتتابات اللازمة للمشاركة فى نفقات هذه الحرب . وأثمرت حركة الجامعة الاسلامية ، وزادت من تدعيم العلاقة بين العرب والمسلمين . واكتتبت الجمعيات الاسلامية وأرسلت ما جمعته معونة للدولة العثمانية ، وكان المصريون من بين أسبق من بذلوا المعونة لبرقة وطرابلس ، وتشكلت فى مصر لجنة عليا فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩١١ ، برئاسة الأمير عمر طوسون ، لجمع التبرعات وامداد المجاهدين بها . وكانت القوافل تصل اليهم كذلك من تونس محملة بالمواد الغذائية ومصطحبة معها عددا من الأغنام وبعض الكماليات والشاى . ولقد عملت الجمعيات الخيرية والاسلامية على امداد المقاتلين بمستشفيات ميدان ، وتألفت جمعية الهلال الأحمر المصرى برئاسة الشيخ على يوسف فى شهر اكتوبر أيضا ، وأرسلت بعثتها الأولى إلى بنغازى .

وهكذا وصلت القوافل تباعا الى المجاهدين ، وفيها الضباط والامدادات والذخائر والتموين والمهمات الطبية . ومع تنظيم المقاومة صعب الأمر على ايطاليا فى أن تصل إلى نصر حاسم فى طرابلس ، فأخذت تفكر فى تهديد الدولة العثمانية بمد عملياتها العسكرية الى بحر ايجه والدردنيل ، وبشكل يهدد باقفال المضايق ويهدد بالتالى بالتعرض لمصالح الدول الأجنبية .

ولقد قامت ايطاليا بضرب بعض الموانى العثمانية فى ألبانيا ، كما اعتدت على بيروت وهاجمت ميناء العقبة وذلك لكى تجبر الدولة العثمانية على طلب الصلح ، أو قبول تسوية للحرب ، كما قامت ايطاليا بمواصلة عملية الحصار البرى وأعطت لنفسها الحق فى زيارة وتفتيش السفن التى تقترب من السواحل الطرابلسية أو حتى التى تتجه صوب تونس ، وأثارت هذه العملية الرأى العام الفرنسى ضد ايطاليا واجبرت الحكومة الفرنسية على أن تقف موقفا حازما حيالها .

وأمام المقاومة العنيفة التى وجدتها ايطاليا فى طرابلس وبرقة قامت ايطاليا بمحاولات لتوسيط بعض الدول الأوربية لانهاء الحرب ، ولكن هذه المحاولات فشلت كذلك ، فاقدمت ايطاليا على محاولة لتوسيع ميدان العمليات ومدها إلى الدردنيل وجزر بحر ايجه ، فقامت بضرب الدردنيل ، وإن كانت هذه العملية لم تؤدى إلى نتائج فعالة ، كما قامت بارسال حملة احتلت جزر بحر ايجه العثمانية وصممت ايطاليا على مضاعفة نشاطها العسكرى فى الولاية نفسها حتى تجبر تركيا على طلب الصلح . مهما كان فى وسع الدولة العثمانية أن تواصل الحرب لفترة طويلة وهى تواجه المشكلات العديدة فى كل اقليم من أقاليمها ؟

الصلح والنتائج :

نشطت ايطاليا فى عملياتها فى طرابلس وبرقة مع ربيع سنة ١٩١٢ ، وأرسلت إلى ميدان العمليات قوات جديدة أوصلت بها عدد هذه القوات إلى ١١٠٫٠٠٠ جندى ، وكان بينها عدد من عساكر الارتريا التى كانت تتحمل الجو الافريقى ، وتصلح لحرب المستعمرات ، خاصة وأن فرقة منهم كانت من الهجانة ، . وأخذت ايطاليا فى انشاء خط سكة حديدية إلى جنوب مدينة طرابلس ، واستقدمت عدداً كبيراً من سيارات النقل . كما أن قواتها البحرية تدعمت بعدد من زوارق الطوربيد ولم يكن فى وسع العثمانيين أن يتباروا مع الايطاليين فى هذا الميدان خاصة وأن خزانتهم كانت شبه خاوية .

وأخذت ايطاليا فى استخدام سلاح الدعاية ، وأخذت فى القاء المنشورات على الأهالى من المناطيد ، وتدعوهم إلى الانصراف إلى أعمالهم والاهتمام بحياتهم اليومية ، وتبلغهم فيها عجز الدولة العثمانية عن امدادهم ، وتدعى أنها قد دمرت وأسرت سفن الاسطول العثمانى الذى كان سيأتى لهم بالاموال والضباط والاسلحة ، ورغم ذلك فان روح المجاهدين كانت مرتفعة ، وكان العرب يجاهدون من اجل

بلادهم وإسلامهم ، أما الضباط الأتراك فكانوا يمتزون بدورهم كوطنيين، دون تعصب ديني ، وأعلن بعضهم أنه فى حالة ما إذا تخلت عنهم حكومتهم، فانهم سيعلنون إنتهاء حقوقها على البلاد ، وسيقيمون جمهورية طرابلس المستقلة المكافحة، وسيدافعون عنها (١) .

وسمحت القوات الإيطالية الكبيرة بسير العمليات فى طريق هو فى صالح إيطاليا ، وخاصة فى المناطق الساحلية ، وتمكن الايطاليون من احتلال رأس مقابس واستخدموا فى هذه العملية عشرة آلاف جندى ، كما احتلوا لبدة ، ومصراته ، وسيدى سعيد ، التى استخدموا فيها عشرين ألف جندى . حقيقة أن المعارك استمرت سجالا بين الوطنيين والايطاليين تجاه بنغازى ودرنة ، ولكن القوة المادية أخذت تتضح فى جانب الايطاليين على الساحل ، وإن كانوا قد عجزوا عن التوغل صوب الداخل .

وأخذت أحوال المجاهدين فى كل من طرابلس الغرب وبرقة تظهر على أنها تزداد كل يوم سوء على سوء، خاصة وأن احتلال معظم المواقع الساحلية قلل من عمليات وصول الامداد والتموين إليهم عن طريق البحر وأخذت المساعدات التى تصل عن طريق مصر وتونس فى القلة مع طول فترة الحرب ، ومع استمرار تشبث السلطات البريطانية والفرنسية فيها بموقف الحياد ، واستخدامها الشدة ضد من يساعد المجاهدين فى ميدان الحرب . وكان اقليم طرابلس وبرقة فقيرا بطبعه، واستمر عدم سقوط المطر لمدة أربع سنوات وحول بذلك الشعب من حالة العوز إلى حالة تشبه المجاعة . وكان احتلال الساحل والاستيلاء على الجمال قد أوقف التجارة والتى بمئات من النساء والأطفال الى الصحراء ، لاجئين إلى معسكرات

(١) *REMOND, Georges, aux Gamps Turce Arabes-Paris, 1913 P. 66,*

المجاهدين ، طالبين المعونة من معسكرات العثمانيين . وأصبح الأهالى فى أسمال باليه ، بعد أن طردوا من منازلهم ومزارعهم الصغيرة ، وأصبحوا شعبا يلجأ إلى جوار المعسكرات .

وكانت الحالة فى الدولة العثمانية نفسها،فى أقاليمها وفى عاصمتها قدساءت ،بعد استمرار الحركات الانفصالية فى البلقان وفى العسير وعجزت الدولة عن السيطرة عليها . وكان هناك صراع فى القسطنطينية بين رجال تركيا الفتاة وبين المعارضة، التى تزعمها صادق بك وأتباع جمال باشا ، وهم الذين قاموا بشن حملة ضد تركيا الفتاة فى المدن والريف وبين صفوف الجيش،وأنشئوا حزب «الحرية والائتلاف» الذى أخذ فى مهاجمة «الاتحاد والترقى» على صفحات جرائده «علمدار» و «تنظيمات» . ورأت وزارة الاتحاديين ولجنة الاتحاد والترقى فى عملية الائتلافيين عملية تؤدى إلى تفكيك الدولة عن طريق نظام لامركزى ، فتشبثت بالسياسة المركزية ، وبدور الأتراك فى الاحتفاظ بالامبراطورية،فسارت صوب العنصرية ، وصوب التحكم ، وأخذت فى التدخل بطريقة غير نزيهة فى فرز أصوات الانتخاب . وإشتدت حالة الثورة فى البانيا التى رفضت الخضوع للحكم العثمانى المركزى ، واستخدمت الدولة القوة ضدها ، وفى وقت احتاجت فيه إلى الرجال والأموال ضد الأعداء المستعمرين النازلين فى طرابلس وكان كل ذلك، بالإضافة إلى نشاط الإيطاليين العسكرى فى طرابلس وتجاه الدردنيل يجبر الدولة العثمانية على نفض أيديها من المشكلة الطرابلسية والدخول فى مفاوضات مع الايطاليين لعقد الصلح .

ولقد بدأت المحادثات فى لوزان فى سويسرا فى شهر يونيو سنة ١٩١٢ ومثل الجانب العثمانى فيها الأمير سعيد حليم وفكرت الدولة العثمانية فى إعلان استقلال طرابلس تحت رئاسة أمير مسلم تابع للسلطان . ولكن الصعوبات نشأت نتيجة

لمسألة السيادة ، خاصة بين ايطاليا كانت تفكر فى الوصول إلى وضع لايتعارض مع المرسوم الايطالى الخاص بوضع طرابلس تحت سيادتها ، وكان من الصعب على تركيا أن تعترف بالسيادة الايطالية على ولايتها السابقة ، وخاصة تجاه الرأى العام العربى والاسلامى .

وإزداد الموقف خطورة فى البلقان وهدد بحرب تقف فيها كل من بلغاريا واليونان والصرب والجبل الأسود ضد تركيا ، وكانت الثورة لاتزال على أشدها فى ألبانيا ، فاضطر المندوبون الاتراك إلى قبول الشروط الايطالية ، أمضيت معاهدة الصلح فى « أوشى » قرب لوزان فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٤ .

وتعهدت الحكومتان بوقف الأعمال الحربية ، وبسحب ضباطها وجنودهما وموظفيهم المدنيين ، الحكومة العثمانية من طرابلس وبرقة ، والحكومة الايطالية من جزر بحر ايجة ، وبتبادل أسرى الحرب واعطاء ايطاليا العفو العام لأهالى طرابلس وبرقة ، وتركيا لأهالى جزر بحر ايجة الذين اشتركوا فى أعمال الحرب ووافقت ايطاليا على تأييد مطالب تركيا الخاصة بإلغاء الامتيازات الأجنبية فيها وابدالها بنظام القانون الدولى العام ، وتعهدت تركيا باعادة الموظفين الايطاليين الذين كانوا قد فصلوا من خدمتها نتيجة لاعلان الحرب . وتعهدت ايطاليا بأن ترسل مبلغاً سنوياً الى صندوق الدين العثمانى يتمشى مع متوسط الذى كان يخص الدولة من إيرادات الولايتين فى خلال السنوات الثلاثة السابقة لاعلان الحرب ، وعلى ألا يقل هذا المبلغ عن مليونى ليرة ايطالية .

وهكذا انتهت رسمياً مرحلة الحرب بين ايطاليا وتركيا ، وكان معنى سحب تركيا لضباطها وجنودها وموظفيها من طرابلس وبرقة أنها قد تنازلت Sub Silentio عنهما . وبقى على إيطاليا أن تحصل على اعتراف من الدول بسيادتها

على طرابلس وبرقة ، وهى ما لم تشر إليه المعاهدة، ولم تتناوله ، كما كان عليها أن تخضع الأهالى لحكمها .

ولقد أصدر السلطان فرماناً وجهه إلى أهالى الولايتين ،ويعتبر ملحقاً بالمعاهدة المعقودة مع ايطاليا ، وذكر فيه أن حكومته قد وجدت من الصعب اعطائهم الضمانات الكافية والتى تلزمهم للدفاع عن بلادهم ، وحرصا منها على مستقبلهم وعلى تفادى حرب قاسية لهم ، فانها قد منحتهم حرية تامة ومطلقة . وأبلغهم السلطان أنه يعين طرفهم خادمه شمس الدين بك، كممثل له ،مع منحه لقب نائب السلطان، وأنه يكلفه بحماية المصالح العثمانية فى بلادهم ، حتى يبقى قانون الشريعة سارياً . كما أنه يحتفظ بحق تعيين القاضى ، والذى سيقوم بدوره بتعيين نوابه من بين العلماء المحليين .

وأصدر ملك ايطاليا مرسوما يشير إلى وضع الولايتين تحت السيادة الايطالية، ويمنح فيه الأهالى العفو العام ويذكر أن حريتهم مكفولة فى إقامة شعائرهم الدينية وفى ذكر إسم السلطان فى الصلوات بصفته خليفة المسلمين ، وأن الحكومة الايطالية ستدفع مرتبات نائب السلطان ومخصصاته فى الولاية .

ولقد أسرعت وزارة الحربية التركية بارسال التعليمات إلى الضباط العثمانيين فى طرابلس بأن يوقفوا العمليات ويعودوا إلى تركيا . وكان أنور بك هو أول من رجع ، وتبعه مصطفى كمال وكثير غيرهم ولكن عزيز على المصرى بقى مع حفنة أخرى من الضباط المتطوعين الذين صمموا على المقاومة ، وقبل أن يسلم أنور بك قيادته فى برقة إلى عزيز المصرى ويسافر إلى الجبهة الغربية زار السيد أحمد الشريف السنوسى فى جغبوب ، وقام برحلة لهذه الواحة فى السيارة الوحيدة التى كانت القوات التركية الغربية تمتلكها . وكان السيد أحمد الشريف قد حضر من الكفرة إلى جغبوب فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٢ وأعلن أنه لن يوافق على الصلح

بين تركيا وإيطاليا ، وكذلك فانه قد صمم على الاستمرار فى الحرب فى اقليم برقة . وبعد زيارة أنور بك لجغبوب كانت جميع المراسلات الرسمية من القيادة العامة للجماعة السنوسية تصدر بخاتم « الحكومة السنوسية » ، التى أصبحت هى الدولة الرسمية فى الاقليم وإن كانت قد افتقرت إلى إعتراف دولى بها . وواصلت كفاحها ضد الايطاليين . وحينما عزم عزيز على المصرى على الانسحاب بعددمن جنوده وأسلحته من برقة بعد ذلك ، قامت القوات السنوسيةمع الأهالى بمهاجمته ، باعتباره يفر من ميدان الحرب ، ولم يترك الاسلحة للأهالى لمواصلة الكفاح ضد ايطاليا .

أما فى أقليم طرابلس فان الزعماء قد فهموا من الملحق الأول للمعاهدة ، وهو الفرمان الذى يعطى الحرية للاهالى . أنهم قد أصبحوا دولة مستقلة ، ولم يعترفوا بالملحق الثانى ، وهو المرسوم الايطالى الذى يمنح العفو إلى الأهالى استناداً إلى سيادة ايطاليا على الاقليم . وقام أهالى طرابلس بزعامة الشيخ سليمان البارونى باعلان استقلالهم وكونوا جمهورية ، وعزموا على مواصلة الكفاح . وحاولوا اعداد بعض رجال الدرك والقوات شبه النظامية . ولكن مندوب السلطان وصل إلى طرابلس وعرف منه الزعماء أن السلطان قد تنازل لايطاليا عن طرابلس ، فترك معظم الضباط الاقليم بعد أن فقدوا الأمل فى استمرار المقاومة . وبدأ سليمان البارونى فى مفاوضة الايطاليين . الذين رفضوا مبدأ الاعتراف بالحكم المحلى ، أو الاستقلال الداخلى لطرابلس. فاقترح هذا الشيخ المجاهد مشروعاً ينص على بعض المزايا والحقوق للاهالى مع اصدار عفو صريح عنهم ، ورحل بعد ذلك إلى الآستانة حيث أنزله الأتراك على الرحب والسعة ، ومنحه السلطان رتبة الباشوية ، وعينه عضوا فى مجلس الأعيان مدى الحياة . وظل مقيما فى تركيا حتى اعلان الحرب العالمية الأولى .

وهكذا نرى أن الحرب قد استمرت فى إقليم برقة، ووقع عبئها على السنوسيين، أما فى إقليم طرابلس فانها قد انتهت بانسحاب القيادة مؤقتاً من الميدان. وظلت ايطاليا عاجزة عن التوغل فى داخل الإقليم. وإن كانت قد ظلت محافظة على المدن الساحلية، أما الأهالى فقد استمروا فى سيطرتهم على بقية الإقليم. وظلت الاحوال على ذلك حتى اعلان الحرب العالمية الاولى، ودخول تركيا الحرب فيها إلى جانب دول الوسط، واعتمادها على الجهاد الاسلامى فى توحيد جهود كل من العرب والمسلمين من أجل تحرير بلادهم من المستعمرين الأجانب.

وعلى أى حال فان استيلاء الايطاليين على طرابلس وعملياتهم فى هذا الاقليم قد ساعدت على تدعيم الروابط بين العرب والأتراك فى كل مكان، وإن كانت الأخطار المحدقة بالدولة من الخارج، وانتشار الحركات الانفصالية فى الداخل، قد أجبر الدولة على اتخاذ موقف شديد ضد هذه الحركات التحررية، أو التى تطالب حتى بمجرد الحكم الذاتى، أو الحكم اللامركزى. فازداد الأتراك فى تشددهم فى الضغط على العناصر التى تسكن الامبراطورية، فى الوقت الذى أدى فيه هذا الضغط على زيادة قوة العناصر المكافحة فى الداخل، وأدى ذلك إلى انقسام واضح بين العرب والأتراك، وخاصة فى الأقاليم العربية التى خضعت للحكم العثمانى المباشر.

رابعا ـ الانقسام بين العرب والاتراك ـ

ورثت جمعية الاتحاد والترقى عن عبد الحميد تركة مثقلة بالمشكلات فى الداخل وفى الخارج، فلقد زادت قوة الحركات الانفصالية فى داخل الدولة فى الوقت الذى حاولت فيه الدول الأوربية الافادة إقليميا منها، وخشيت غيرها من ازدياد قوة الدولة العثمانية، بشكل يهدد خطوط المواصلات الامبراطورية الاستعمارية بين الشرق والغرب، أو وضع حد معين لاستغلال الغرب إقتصاديا لمناطق وموارد

معينة داخل الدولة العثمانية . وهكذا نجد أن النمسا قد أسرعت بضم البوسنة والهرسك وأن بلغاريا قد عملت على الإنفصال التام كما أن ايطاليا قد عملت على احتلال طرابلس الغرب وبرقة ، مقتطعة إياهم من جسد الدولة . فما هو تأثير ذلك على الأتراك بصفتهم أساس الدولة العثمانية ، وما هى نتيجة على الانقسام الذى ظهر بينهم وبين العرب ؟

أسباب الانقسام :

مما لا جدال فيه أن رجال تركيا الفتاة كانوا مخلصين ومتحررين فى ثورتهم التى حاولت إعطاء نفس الحقوق وفرض نفس الواجبات على جميع المواطنين فى الدولة ، دون نظر إلى لغتهم أو جنسهم أو دينهم . ولكن حركة تركيا الفتاة كانت تسير من الاصل فى تعارض تام مع حركة القومية العربية ، إذ أن الأولى كانت حركة تجمعية داخل حدود الدولة ، بينما كانت الحركة الثانية حركة إنفصالية، ولو على أسس ثابتة قوية لا جدال فيها . وكان من الطبيعى أن تظهر الاختلافات بين هذين التيارين بعد فترة من الزمن ، خصوصا بعد تبلور الحركات الانفصالية فى البلقان ، ومساعدة الدول الاجنبية لهذه الحركات ، سعياً وراء الإفادة منها . وكانت النتيجة هى معارضة الثورة التركية لكل الحركات الانفصالية بما فيها حركة القومية العربية.

كان من الطبيعى أن يصل الأمر إلى إشكال يصعب ايجاد حل له . فما هو العامل الأساسى الذى يوجد بين الأجناس المختلفة التى تسكن الامبراطورية ؟ لم يكن هناك إلا الجنسية العثمانية بطبيعة الحال ولكن ، ما هى لغة الدولة الرسمية ؟.

كان الأتراك هم الغالبية العظمى فى جمعية الاتحاد والترقى ، ولم يكونوا قد بلغوا من التقدم والتحرر تلك المرحلة التى تجعلهم يقبلون الاعتراف بلغات أخرى، مثل العربية مثلا، كلغات رسمية للدولة ، كانوا أتراكاً وكانوا عثمانيين، فتناسوا

مبادئ المساواة التي أعلنوها ، واعتقدوا أنه يجب على الدولة العثمانية أن تكون تركية . وصحب ذلك تقوية العناصر الرجعية التي اعتقدت بتفوق الجنس التركي على بقية الأجناس ، وبداية ظهور الحركة القومية التركية نفسها، التي إستندت على آراء الجامعة الطورانية ، وهي التي سعت إلى تحرير العناصر التركية الخاضعة لروسيا وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية . ولم تعمل جمعية الاتحاد والترقي بمبادىء الجامعة الطورانية ، ولكنها تأثرت بها ، نتيجة لضعف تكوين أعضائها وسيطرة العنصر التركي عليها . وهكذا ابتدأت هذه الجمعية نفسها عن المبادىء الدستورية التي أعلنتها بالمساواة بين كل الاجناس التي تسكن الامبراطورية ، وابتعدت في اتجاه مشابه لحركة القومية العربية ، وإن كانت في إتجاه مضاد لها . ولن تتلاقى وجهات النظر التركية مع وجهات النظر العربية بعد ذلك ، وإن كان القانون العام يجمع بينها كعثمانيين ، وسيسود الشعور بالظلم والاستبداد نتيجة لفرض الاتراك أنفسهم على الدولة العثمانية ، في نفس الوقت الذي ستزداد فيه حركة القومية العربية وضوحا وقوة .

وشعر العرب بأن الأتراك يرغبون في تتريكهم وفي الابعاد بينهم وبين قوميتهم وتراث أبائهم وأجدادهم دون مقابل .

ثم اتبعت جمعية الاتحاد والترقي سياسة المركزية في الدولة ، وهي سياسة يصعب تطبيقها دون الاجحاف بمصالح الشعوب العربية . وإقتبس الأتراك هذه السياسة من الثورة الفرنسية ونسوا الفرق الشاسع بين فرنسا في سنة ١٧٨٩ وبين الامبراطورية العثمانية في سنة ١٩٠٨ . وكان تركز الادارة الجمهورية في باريس إتمام لتطور سار مع التاريخ ، وفي توافق وانسجام مع العوامل التي أدت اليه منذ قرون ، والتي جعلت من باريس المركز الثقافي والاقتصادي لفرنسا ، ودفعت بفرنسا إلى الوحدة السياسية والادارية حولها . أما الحال في الدولة العثمانية فكان

يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، كانت القوى الناتجة عن نمو الحركات القومية ، أو حتى عن ظهورها ، تسير متجهة نحو الخارج بعيداً عن مركز الدائرة ، وكان إختلاف اللغات والعادات والتقاليد والثقافة هى مظاهرها،ولم تسمح للقسطنطينية بأن تصبح فى يوم من الأيام بوتقة تنصهر فيها هذه العوامل ، وتخرج منها بشىء جديد وكان تعدد الأجناس فى الامبراطورية ، وفى هذه الفترة بالذات ، من أقوى الدواعى لانتهاج سياسة لا مركزية ، تسمح للأقاليم العربية ، وغيرها من الأقاليم التركية فى الامبراطورية ، بنوع من الادارة المحلية ، والحرية السياسية والثقافية ، كأعضاء شبه مستقلين داخل الامبراطورية . ولكن سياسة جمعيـــة الاتحاد والترقى كانت سياسة متعارضة تمام التعارض مع ذلك الاتجاه ، فطبقت نظام الحكومة المركزية الذى وجدته عندما استولت على الحـــكم ، ثم اخذت فى إحكام مركزيته أكثر عما كانت عليه فى عهد البيروقراطية القديمة . وكان هذاهو العامل الأساسى فى فشل سياستهم لتقوية وحدة الامبراطورية .

الجمعيات العربية :

ولقد تسبب إلغاء جمعية الإخاء العربى العثمانى فى دفع زعماء العرب إلى إنشاء منظمات وجمعيات سرية ، لم يتمكن الاتراك من معرفة وجود بعضا منها ، وأخذ العرب ينشرون آراءهم عن طريق الجمعيات العلنية والمنتديات بجانب عملهم فى هذه المنظمات والجمعيات السرية . وكان نشاطهم القومى فى كل من هذه الجمعيات العلنية والسرية يكمل بعضه بعضاً .

وكانت أولى الجمعيات العلنية هى جمعية « المنتدى العربى » الذى ألفه عدد من الموظفين والنواب ورجال الأدب والطلاب العرب فى القسطنطينيـــة فى صيف سنة ١٩٠٩ . وكان له مكتبة ودار ضيافة ، واجتمع فيه العرب المقيمون بالعاصمة مع اخوانهم القادمين من الأقاليم العربية . ولقد وافقت جمعية الاتحاد والترقى

على هذه الجمعية العربية ، نظرا لأنها لم تكن جمعية سياسية من الوجهة الرسميــة . ولكنها كانت فى حقيقة الأمر جمعية سياسية بكل معنى الــكلمة ، وستقــوم فى يوم من الأيام بالوساطة فى المفاوضات بين العرب وجمعية الاتحــاد والترقى . كان هذا المنتدى مكان المقابلة بين الأعضاء ولنشر الآراء أكثر من كونه مكاناً للقيادة والزعامة العربية . وكان له آلاف من الأعضاء وتمكن من إفتتاح فروع له فى عدد كبير من المدن السورية والعراقية ، وكان أحسن مكان يتقابل فيه زعماء العرب لتبادل الآراء العامة وللاتصال ببعضهم .

أما الجمعية الثانية فقد تكونت فى القاهرة قرب نهاية عام ١٩١٢ واتخذت لنفسها اسم لجنة « حزب اللامركزية الإدارية العثمانى » وكانت تسعى إلى مطالبة حكام تركيا بضرورة العمل على إنشاء نظام لا مركزى فى الامبراطورية العثمانية، كما يظهر ذلك بجلاء من إسمها ، وتحاول تعبئة الرأى العام العربى ، أو الشعور العام العربى ، لتأييد هذه المطالب التى تمس سكان هذا الجزء الهام من الامبراطورية العثمانية . وكان إنشاء هذه الجمعية قد إتخذ بالفعل شكل الأحزاب السياسية ، وكان على رأسها مجلس إدارة مكون من عشرين عضواً يخضع لهيئة تنفيذية من ستة أعضاء . ولقد تمكنوا من إنشاء فروع لهم فى معظم المدن السورية والعراقية، وحافظوا على صلات وثيقة مع المنتدى العربى فى القسطنطينية . ولن يمر عام واحد على إنشاء هذه الجمعية حتى تصبح أقوى من يدافع عن مطالب العــرب ، ومن أحسنهم تنظيما .

وكانت هذه أولى الجمعيات العربية التى تولى مسألة التنظيم إهتماما خاصاً . وكانت المعركة بين جمعية الاتحاد والترقى التى تسعى إلى تطبيق نظام المركزية فى الدولة من ناحية ، وبين المطالب العربية بالموافقة على الاستقــــلال المحلى ، أو اللامركزية . قطعت شوطا طويلا منذ ثلاث سنوات وتعددت فى أثنائها الآراء والردود

على هذه الآراء وجاءت هذه الجمعية للتوفيق بين جهودات العرب وتوحيدها فى برنامج خاص محدد ، تجميعا للشمل ، وتركيزا للاهداف العامة ، ولم تضن بمجهود فى سبيل الوصول إلى غايتها . أما سبب اختيار مصر مركزا لها فكان يستند إلى أساسيين : أولهما أنه كان لمصر وضعا خاصا فى الدولة العثمانية ، ولم يكن فى استطاعة أيدى السلطات العثمانية أن تمتد إلى العرب القائمين بهذا النشاط فيها ، مادامت انجلترا لا تسمح بذلك ، وكانت انجلترا لا توافق بطبيعة الحال على سياسة المركزية التى تخضع جميع العثمانيين لسلطة الدولة ، وتقضى بالتالى على امتيازاتها السياسية ، وقيمة مركزها الممتاز فى مصر ، وثانيهما أن الخديوى عباس حلمى نفسة كان غير راض عن سياسة حزب الاتحاد والترقى المركزية ، التى قد تجبره فى يوم من الايام على منح المصريين دستور خاص ، واشراكهم معه فى الحكم ، أو قد تعمل بطريقة أو بأخرى على القضاء على نفوذ الأسرة الحاكمة فى مصر ، مادامت هذه البلاد تعتبر جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية . وعلى أى حال فان هذين العاملين كانا من أهم الاسباب لمساعدة أحرار العرب على اتخاذ مصر مركزاً لهذا النشاط السياسى ، الذى يعارض سياسة حزب الاتحاد والترقى ، ويحاول خلق شخصية سياسية جديدة للعرب .

وفى أثنـــاء هذا الوقت تم تكوين جمعيتـــين سريتين ، هما « القحطانيـــة » و « والفتاة » .

وتكونت الجمعية القحطانية قرب نهاية سنة ١٩٠٩ وكانـــ أعضاؤها من الزعماء والقادة الشجعان الذين يسعون إلى هدف أكثر وضوحاً وأكثر خطراً على حياتهم ، وهو تحويل الامبراطورية العثمانية إلى امبراطورية ثنائية ، تشبه إمبراطورية النمسا والمجر . وكانت هذه المحاولة الجريئة هى إحدى الطرق لحل المشكلة التي وضعتها سياسة المركزية ، والتى سارت عليها جمعية الاتحاد والترقى

وكانت هذه الجمعية تسعى إلى تكوين دولة عربية موحدة، لها برلمانها وحكومتها المحلية ، ولها لغتها العربية الرسمية ، كجزء متميز من الامبراطورية التركية ـ العربية . وسيكون لسلطان القسطنطينية أن يصبح ملكاً لهذه الدولة العربية ، فى نفس الوقت الذى هو سلطان للاتراك ، كما كان حال امبراطور آل هابسبورج بين النمسا والمجر . وهكذا يمكن للعثمانيين أن يصلوا إلى الوحدة عن طريق الفصل بين الأتراك والعرب ، وإعطاء كل منهم ما يريده ، دون أن يمس ذلك بمصالح الآخر ، وبشعوره وبقوميته .

وكانت هذه الخطة تتطلب العمل سراً على تحقيقها . ورأس هذه الحركة عزيز على المصرى الذى كان ضابطا نشطا فى الجيش التركى ، وأهتم بالسياسة مثل إهتمامه بالامور العسكرية . ولقد وضعت هذه الجمعية السرية لنفسها نظاما دقيقا فى إختيار الأعضاء ، ولم تقبل بين صفوفها إلا من لا يتبادر أى شبه إلى وطنيته ، ومن يمكنه القيام بأعمال سرية لها خطورتها . وضمت هذه الجمعية عدداً كبيراً من الضباط العرب فى الجيش التركى ، وعضوين من جمعية المنتدى العربى وكان لها كلمات سر مخصوصة ، وتمكنت من إنشاء خمس فروع لها علاوة على مركزها الرئيسى فى القسطنطينية . ويمكننا أن نقول أن قوة هذه الجمعية جاءت من قوة شخصية القائمين عليها وأعضائها ، وستعمل على ضم معظم الضباط العرب فى القوات العثمانية إلى أرائها وإلى عضويتها . ولقد قامت هذه الجمعية بنشاط ملحوظ لمدة عام بعد إنشائها ، ولكنها خشيت من أن يقوم بعض أفرادها بافشاء أسرارها ، رغم النظام الدقيق الذى وضعته لاختيارهم ، فقررت عدم القيام بأى نشاط ، دون أن تعلن حلها . وسيواصل معظم أعضائها العمل فى سبيل المطالب القومية ، حينما تجد ظروف أخرى فى المستقبل .

وأما الجمعية السرية الثانية فهى جمعية « الفتاة » التى تكونت فى باريس سنة

١٩١١ ولعبت دوراً خطيراً فى تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ القومية العربية . وكونها سبعة من الشبان العرب الذين كانوا يدرسون فى العاصمة الفرنسية فى ذلك الوقت ، وأعطوها مظاهر القوة والنشاط والحيوية اللازمة لها . وكانت تشبه جمعية بيروت السرية التى أنشئت فى عام ١٨٧٥ إلا أن معظم أعضائها كانوا من المسلمين ، وكانت تحاول العمل فى سبيل الوصول إلى إستقلال البلاد العربية ، وتحريرها من الحكم التركى والاجنبى . وكانت فى هذا أكثر تقدما من الجمعيات الأخرى ، التى كانت تسعى إلى الحكم الذاتى داخل نطاق الامبراطورية .

وإمتازت هذه الجمعية أيضاً بدقة التنظيم ، وتحديد المطالب ، ولم تقبل إنضمام أى عضو إليها الا بعد فترة طويلة من الاختبار والفحص . ولم تسمح لأى عضو بأن ينضم اليها الى بعد تزكية عضو آخر عامل فيها ، ولم تسمح له بمعرفة أى أشخاص آخرين فيها إلا بعد أن يقسم بالمحافظة على أسرارها ، والتضحية بحياته إن لزم الأمر فى سبيل تحقيق أغراضها واطاعة الأوامر الصادرة اليه . وظلت هذه الجمعية فى باريس لمدة عامين ، ثم عاد معظم أفرادها إلى الشرق بعد ذلك ، فاضطرت إلى الإنتقال إلى بيروت ، وأصبح أعضاؤها يزيدون على المائتين وظلت تعمل فى الشرق العربى طوال فترة الحرب العالمية الأولى ؛ رغم وسائل الضغط التى استخدمتها السلطات العثمانية ضد عدد كبير من أعضائها .

وآخر هذه الجمعيات هى « لجنة الاصلاح » التى أنشأها ٨٦ من الأعضاء العرب فى بيروت فى أواخر عام ١٩١٢ — وكانوا من المسلمين والمسيحيين على السواء ، ووضعوا مشروعاً للحصول على استقلال ذاتى للبلاد العربية داخل نطاق الدولة العثمانية . وكانت الأسباب التى دفعتهم للعمل هى نفس الأسباب التى تمخض عنها إنشاء حزب اللامركزية فى القاهرة ، وكانت هذه الجمعية على إتصال مع أعضاء ذلك الحزب فى مصر ، وعملت فى توافق مع خططهم وآرائهم ، وجاء

مشروعها تعبيراً عن المبادىء التى نادى بها هذا الحزب، أى الوصول إلى الاستقلال الذاتى عن طريق اللامركزية فى الدولة العثمانية . وبدأ هذا المشروع فى نطاق الوحدات الإدارية القائمة فى الدولة ، ومعترفا بالسيادة العثمانية ، ولكنه فرق بين المسائل ذات الطابع والاهمية العامة مثل الشئون الخارجية، والدفاع والمواصلات والمالية ، والمسائل ذات الطابع المحلى مثل الادارة والايرادات المحلية . ونادت هذه الجمعية بأن يكون أمر التصرف فى هذه المسائل الاخيرة من اختصاص سلطات بيروت ، وطالبت بالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية ، واستخدامها فى البرلمان على قدم المساواة مع اللغة التركية ، كما طالبت بالغاء استخدام الجنود العرب فى أوقات السلم فى خارج الأقاليم العربية التى جندوا فيها ، وكانت فى هذا ترددنفس مطالب جمعية بيروت السرية فى عام ١٨٧٥ .

ونشرت لجنة الاصلاح برنامجها فى منتصف شهر فبراير سنة ١٩١٣ ولقى تأييداً شعبياً كبيراً فى كل الأقاليم السورية والعراقية ، وعقدت الاجتماعات فى دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة وبدأ سيل برقيات تأييد هذا البرنامج يصل إلى القسطنطينية . ولكن السلطة كانت فى أيدى جمعية الاتحاد والترقى ، التى عملت على تطبيق سياسة المركزية فى الدولة ، والتى كانت قد بدأت فى التأثر بسياسة الجامعة الطورانية ، وتميل إلى الشعور بسيادة الجنس التركى على بقية الإجناس الساكنة للامبراطورية ، فصدرت الأوامر بالغاء هذه اللجنة فى شهر ابريل مما تسبب فى موجة من الغضب الشعبى ، وأقفلت المحلات التجارية إحتجاجا على الطغيان التركى . فعمدت السلطات إلى إلقاء القبض على زعماء هذه الحركة وعطلت عدداً من الجرائد ، ولكن حركة الاستياء إزدادت فى شدتها ، وسارت المظاهرات فى عدد كبير من المدن السورية . فاضطرت الحكومة إلى الافراج عن المعتقلين ، وأصدرت قانونا أساسيا جديداً لولاية بيروت فى شهر

مايو ، أعطى سلطات جديدة للهيئــات التمثيلية فى الاقليم ، ولـكنه لم يحقق الأهداف التى طالبت بها اللجنة . وظهر أن النظام المركزى قائم فى صلبه ، رغم محاولة إعطائه لونا جديدا .

المؤتمر العربى الاول :

انتقل مركز النشاط بعد ذلك إلى باريس حيث حاول رجال « الفتــاة » الشبان خدمة قضية القومية العربية بالاعلان عنها فى جو محايد . وعزموا على الدعوة إلى عقد مؤتمر عربى فى هذه المدينة ، بعد أن راودتهم فكرة عقــده فى سويسرا . وذكروا أن رفض المطالب العربية لن يؤدى بهـذه الأقاليم إلا الى الفوضى ، وتعرضها لخطر التدخل الأجنبى . وأرسلوا دعوة إلى حزب اللامركزية فى القاهرة يطلبون منه المشاركة فى هذا المؤتمر مع الجمعيات المنضمة إليه ووافق حزب اللامركزية على هذه الفكرة ، مثله فى ذلك مثل لجنة الاصلاح فى بيروت. وبدأ المؤتمر أعماله فى يوم ١٨ يونيو سنة ١٩١٣ .

وحضر هذا المؤتمر ٢٤ عضواً نصفهم من المسلمين والنصف الآخــر من المسيحيين وأغلبهم من الأقاليم السورية ، إذ أنه لم يكن هناك إلا عضوين عن العراق وثلاث عن العرب فى الولايات المتحدة ، أما بقية الأقاليم العربية فكانت الا تكون ممثلة . وعقد المؤتمر أربع اجتماعات فى ستة أيام ، وأتخذ قراراته بالاجماع أمام مائتين من المدعوين ، ونشرت هذه القرارات بالعربية وبالفرنسية فى نفس الوقت .

وسادت الصراحة والاعتدال أعمال المؤتمر وقراراته التى كانت عبارة عن تحديد مبادىء حزب اللامركزية ومطالب لجنة الاصلاح فى بيروت، مع الاصرار على عدالة حق العرب فى المطالبة بكامل حقوقهم السياسية ، وبنصيب فعلى فى إدارة شئون الامبراطـورية . ولقد أشاروا بحذر إلى الاخطاء التى قد

تنجم عن التدخل الأوربى فى البلاد العربية، وكان هذا الحذر ضروريا لأنه يعنى ويمس الاطماع الفرنسية فى البلاد العربية ، مثلما يتصل بأطماع غيرهـــا من الدول الاوربية مثل ألمانيا وانجلترا . وأصر الخطباء على الرغبة العامة فى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية . ولكن بشرط الحصول على حقوق العرب كشركاء معترف بهم ، يتمتعون بكامل حقوقهم الثقافية فى ظل حكومة لامركزية ، ثم شرحوا الأخطار التى قد تترتب على تطبيق سياسة المركزية ، والتى استمارها أعضاء جمعية الاتحاد والترقى من نظام الحكم الفرنسى ، دون أن يقارنوا بين الحالة فى كل من فرنسا والإمبراطورية العثمانية .

وقامت جمعية الاتحاد والترقى فى ذلك الوقت بحملة فى الصحف ضد هذا المؤتمر العربى ، وحاولت الوقيعة بين القائمين عليه ، ثم حاولت التدخل لدى السلطات الفرنسية حتى تأمر بمنع انعقاد المؤتمر فى فرنسا ، ولكنها فشلت فى ذلك ، واضطرت إلى ارسال سكرتيرها إلى باريس للاتصال بزعماء الأقاليم العربية . ودارت المحادثات بينه وبينهم ، وانتهى الأمر إلى اتفاق على بعض المبادىء تصلح أساساً للمفاوضة مع جمعية الاصلاح والترقى . ثم سافر ثلاثة من العرب إلى القسطنطينية لبدء المفاوضات الرسمية هناك .

وكان اتفاق باريس عبارة عن نصر مؤكد للعرب وللقومية العربية ، إذ أنه وافق على وجهة نظرهم فى مسألة الخدمة العسكرية محليا ، واستخدام العربية كلغة رسمية ، واستخدامها كلغة التعليم فى مراحله الابتدائية والثانوية فى الاقاليم العربية ووافق على تعيين بعض المفتشين الاوربيين للاشراف على اصلاح الادارات . وكانت المكاسب العربية فى مسألة اللامركزية واضحة وإن لم تكن حقيقية ، إذ أن هذا الاتفاق قد زاد من سلطات الهيئات الاقليمية فى بعض الادارات الثانوية

واحتفظ ببعض المراكز العالية للعرب ، ووعد باسناد خمسة من مناصب الولاه العرب ، وبتعيين ثلاث وزراء عرب فى وزارة القسطنطينية .

وليس من المعروف ما إذا كانت جمعية الاتحاد والترقى قد أعطت مندوبها سلطة منح مثل هذه الوعود ، إذ أن رؤساء الجمعية قد رفضوا الموافقة عليها بعد ذلك ، ولكن بعد أن استمرا فى تمثيل مهزلة التباحث مع المندوبين العرب لمدة شهرين كاملين . فهل كانت الجمعية تسعى لكسب الوقت اللازم للتفريق بين زعماء العرب ؟ أوكانت تحاول ابطال التأثير الناتج عن عقد المؤتمر ؟ وعلى أى حال فقد استقبلت القسطنطينية مندوبى العرب استقبالا وديا ، أعاد إلى الاذهان ذكرى الأخاء الذى ساد بين العرب والأتراك بمجرد اعلان ثورة سنة ١٩٠٨ .

ثم صدر مرسوم فى ١٨ من أغسطس سنة ١٩١٣ بتنفيذ اتفاقية باريس ، ولكنه عدل فى كثير من المطالب بشكل واضح ، وذكر الباقى بطريقة غير واضحة ، أو تحتمل أكثر من تفسير . فأقر هذا المرسوم أن اللغة العربية هى لغة التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية ، ولكنه أضاف أن التعليم سيظل بالتركيـة فى المدارس الثانوية التى تقع فى عواصم الولايات وكانت كل المدارس الثانوية بالفعل فى عواصم الولايات . وخضعت مسألة الخدمة العسكرية لإضافات ولشروط من نفس النوع ، ولم يذكر هذا المرسوم أمر استخدام اللغة العربية كلغة رسمية أو الاعتراف بها كاحدى اللغات الرسمية للدولة فى الولايات العربية ، كما أنه لم يذكر أى شىء عن مناصب الولاة والوزراء التى ستمنح للعرب .

وقابل العرب هذا المرسوم بدهشة انقلبت سريعا إلى خيبة أمل واضحـه فى نيات الدولة وجمعية الاتحاد والترقى تجاههم . وصدرت الأوامر إلى بعض الولاه التمهيد لتنفيذ هذا المرسوم ، وجاء بعض أعضاء جمعية الاتحـاد والترقى فى نفس الوقت للاتصال بالشخصيات العربية ، محاولين الحصول على تأييدهم لهذا المرسوم ،

بالمال أو بتعيينهم فى بعض المناصب. وقبل خمسة من العرب عضوية بمجلس الشيوخ، ولكن أربعة منهم كانوا من العناصر غـير الأساسية فى الحركة العربيـة ، أمـا الخامس ، وهو عبد الحميد الزهراوى فانه إدعى أن سبب قبوله لهذا المنصب هو مجرد تكتيك سياسى . وكان الزهراوى هو الذى رأس مؤتمر باريس ، واعتقد أن هذا المؤتمر قد وصل بالعلاقات التركية العربية إلى مرحلة تهدد بالفشل التام خاصة وأنه إنعقد بعد نشاط لجنة الإصلاح فى بيروت ، واعتقد أن فى استطاعته إستخدام نفوذه فى مجلس الشيوخ ، كوسيلة للقيام بالضغط على جمعية الاتحـاد والترقى ، وإجبارها على اتخاذ وسيلة متحررة . ولقد أيده بعض زملائه فى هذه الآراء ، وأثبتت مذكراته صدقه وإخلاصه للطريقة التى حاول استخدامها لعلاج الموقف ، ولكن قبوله لهذا المنصب جعل كثـيرين من رجال العرب يعتبرونه منفصلا عن الحركة ، وخائنا لآرائها ومبادئها . ونشر خبر هذا التعيين فى يوم ٤ يناير سنة ١٩١٤ وكان هذا سبباً فى بداية مرحلة جديدة من مراحل كفاح العرب من أجل حقوقهم . وفشلت لجنة الاصلاح فى بيروت ومؤتمر العرب فى باريس فى الوصول إلى الأهداف المنشودة ، وبدأت موجة الشعور تسير نحـو اليأس والقنوط . ولم يحاول العرب بعد ذلك أن يصلوا الى إتفاق مع جمعية الاتحـاد والترقى ، أما رجال هذه الجمعية فانهم قد استندوا إلى المرسوم الذى أصدروه لكى يمنعوا العرب من الوصول إلى أمانيهم القومية ، ولـكى يدعموا سيطرة الأتراك على كل الامبراطورية العثمانية .

جمعية العهد : ـ

ولقد عمل عزيز على المصرى على تكوين جمعية وطنية جديدة أسمها « العهد » فى أوائل سنة ١٩١٤ .

وكان عزيز على المصرى قاهرى المولد ثم تعلم فى المدرسة الحربية فى القسطنطينية وتخرج بعدها من كلية أركان الحرب بتفوق فى عام ١٩٠٤ . والتحق بالجيش الثالث فى مقدونيا حيث انضم الى جمعية الاتحاد والترقى ، وكان من بين الضباط الذين قاموا بالثورة العسكرية سنة ١٩٩٨ واشترك فى الزحف على القسطنطينية فى شهر ابريل من العام التالى . وكان اشتراكه فى جمعية الاتحاد والترقى يرجع قبل كل شىء إلى ميوله الوطنية وبسبب اخلاصه لرفاهية الامبراطورية العثمانية ، ولكنه اقتنع بعد ثورة ١٩٠٩ المضادة بأن سياسة هذه الجمعية تهدف إلى معارضة البعض ، والاساءة إلى غيرهم ، فأخذ يبحث عن حركات أخرى ينضم إليها ويعمل فيها .

كان إلقائه للمحاضرات فى كلية أركان الحرب سببا فى إزدياد نفوذه بين ضباط الجيش الذين بدؤا يعرفونه بشجاعته واخلاصه وصدق عزيمته ، وكان هذا هو بداية إشتراكه بدور فعال فى تكوين الجمعية القطحانية التى هدفت إلى اقامة دولة ثنائية يمكن للأمانى القومية العربية فيها أن تعيش فى توافق مع السيادة العثمانية على كل الامبراطورية. ثم ذهب إلى اليمن فى سنة ١٩١٠ ، ونجح فى اغراء الامام يحيى على حل مشاكله مع الباب العالى ، ثم تطوع بعد ذلك فى ليبيا حيث شارك فى قيادة القوات العربية المكافحة ضد الاحتلال الايطالى ، وعاد الى القسطنطينية فى عام ١٩١٢ لكى يرى خيبة أمل العرب فى الحصول على أمانيهم القومية بعد انعقاد مؤتمر باريس . ورأى الفوضى والغيرة والدسائس وعدم الاخلاص سائدة فى وزارة الحربية ورأى الخطوات التى اتخذتها هذه الوزارة لتفريق الضباط العرب بعيداً عن العاصمة ، فاستقال وله من العمر ٣٥ سنة ، ولكن مع ماض معروف عند العرب .

ونفذ عزيز على الفكرة التى راودته منذ وقت انشاء الجمعية القطحانية ، وهى

تحويلها الى جمعية عسكرية ، وقصر الدخول فيها على الضباط ، وأنشاء جمعيــة جديدة ، وإن كان برنامجها يشبه برنامج الجمعية القديمة . وظهرت أهمية العنصر العراقى فى جمعية العهد ، نتيجة لكثرة عدد الضباط العراقيين فى الجيش العثمانى فى ذلك الوقت، وكان هذا سببا فى إنشاء فروع للجمعية فى كل من بغداد والموصل وأصبحت جمعية العهد بالنسبة للعسكريين ما كانت عليه الجمعية العربية الفتاة بالنسبة للمدنيين ، وبالرغم من أن كل من الجمعيتين لم تكن تعرف بوجود الأخرى فى أول الامر ، إلا أن نشاط كل منها كان يكمل نشاط الأخرى ، حتى إتصلا ببعضهما فى دمشق فى سنة ١٩١٥ ولعبا دورا خطيرا فى قيام الثورة العربية .

وألقت السلطات العثمانية القبض على عزيز على المصرى فى شهر فبراير سنة ١٩١٤ وتسبب ذلك فى هياج الرأى العام وفى قيام مظاهرات فى الشوارع . وليس من الراجح أن تكون هذه السلطات قد علمت بأمر الجمعية الجديدة ، إذ أن التهم الموجهة إلى عزيز على لم تشر إلى ذلك . وبدأت المحاكمة بمجلس تأديب إتهمه بتبديد أموال الجيش وتسليم برقة للايطاليين ، بعد أن إستلم رشوة منهم وبمحاولة إقامة دولة عربية فى شمال إفريقية ، منفصلة عن الدولة العثمانية ... إلى غير ذلك من التهم القائمة على غير أساس . وبدأت الاحتجـــاجات فى مصر ، والمطالبة باطلاق سراح هذا الضابط الوطنى . وعقدت الاجتماعات وبدأت حملة صحفية ضد سياسة جمعية الاتحاد والترقى ، وتكونت لجنة برئاسة شيخ الجامع الأزهر ، وطلبت الوفود إلى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة أن تتدخل انجلترا رسميا لانقاذ عزيز المصرى . ثم سرت أنباء الحكم عليه بالاعدام فازداد الهياج وأخذ الضباط العرب يقسمون بالانتقام له من الأتراك . وكان من حسن حظ عزيز على المصرى أن تدخلت انجلترا ، وهى من تعارض سياسة المركزية العثمانية ، خوفا على مركزها فى مصر ، وفى توافق مع مصالح الخديوى كذلك .

وتدخلت انجلترا فى صالح عزيز المصرى تمكن اللورد كتشنر من دفع إنجلترا إلى العمل ، واحتج السير لويس ماليت فى القسطنطينية ، وهددت الجرائد الانجليزية بأن يؤدى هذا القتل الذى تريد تركيا أن تعطيه صورة حكم قانونى إلى إساءة العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ، بل وإلى أكثر من ذلك أيضا ، وأخيراً صدر الحكم بالاعدام مع تخفيف السلطان له بالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما فاستمر الهياج رغم إطمئنان الرأى العام على حياة عزيز المصرى . واضطرت تركيا الى إصدار عفو عنه واطلاق سراحه فى ٢١ ابريل ، فاقلع فى اليوم التالى إلى مصر حيث قابلته الاهالى مقابلته الاهالى مقابلة حماسية . وكانت محاكمته مادة لاذكاء روح القومية العربية ، أكثر من غيرها من أعمـــال الاستبداد التركية ، وخاصة بالنسبة للظروف التى أحاطت بهذا الضابط الوطنى ، نتيجة لسمعته ولتضحياته ، ونظراً لوقوعها بعد تصرفات جمعية الاتحاد والترقى مع زعماء العرب فى لجنة الاصلاح فى بيروت والمؤتمر العربى .

تلك هى الحالة التى بلغتها الحركة العربية فى نشأتها وتطوراتها وفى تجاربها مع السلطات العثمانية عند تلبد الجو بغيوم الحرب العالمية الاولى . وسيكون لهذه الحالة أكبر الأثر فى الاتجاهات الجديدة التى سيتخذها العرب حيال الدولة العثمانية فى أثناء هذه الحرب خاصة وأن الفرص ستسنح فى أشكال جديدة ومتعددة ، وستحاول بعض الدول المعادية للدولة العثمانية استغلال هذه الخلافات العربية التركية ، فى الوقت الذى تعامت فيه الدولة العثمانية عن إجابة أمانى العرب وحقوقهم داخل الامبراطورية .

الفصل العاشر

ثورة الشريف حسين

أولا ـ اعلان الجهاد :

لقد شهدت الامبراطورية العثمانية ثغرات واضحة فى تاريخها فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة ، وشهدت هذه التغيرات فى ليبيا وفى وسط الجزيرة العربية وجنوبها وعند الخليج العربى ، وكانت هذه التغيرات تتمثل فى زيادة ضعف الدولة العثمانية ، وازدياد النفوذ الأجنبى فى أقاليمها ، وخاصة العربى منها . وأثرت العلاقات بين الأتراك والعرب بشكل عام ، وفى الحجاز والأقاليم السورية بشكل خاص على موقف العرب من الدولة العثمانية عند دخولها إلى الحرب ، وعند اعلانها الجهاد .

الأقاليم العربية فى الامبراطورية العثمانية :

شرحنا أن ليبيا كانت هدفا للهجوم الايطالى عليها فى سنة ١٩١١ ، وأن ايطاليا قد نجحت رغم مقاومة الحامية العثمانية فى احتلال سواحل ولايتى برقة وطرابلس والمدن الهامة فيهما . ولقد اضطرت الدولة العثمانية إلى الالتجاء إلى العرب لتنظيم قوة من المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الأجنبى ، وكانت أكبر قوة منظمة فى ذلك الوقت فى اقليم برقة هى قوة السنوسيين ، التى استندت إلى آراء الجامعة الإسلامية وحاولت القيام بعملية تجديد فى الإسلام ، وكانت هذه الجماعة من أنصار السياسة الإسلامية التى حاول عبد الحميد استغلالها لفرض نفسه على العالم الاسلامى ، وكان من الطبيعى أن تصبح علاقتها مع جمعية الاتحاد والترقى على غير ذى صفاء تام ،

ولهذا فان الحكومة العثمانية قد استخدمت « نفوذ السلطان ، وبصفته خليفة » في علاقتها مع هذه الجماعة ، أكثر من إعتمادها على الادارة الحكومية نفسها - وعلى أى حال فان الشدائد الخارجية كانت أكبر مساعد على تنامى الخلافات الداخلية بين المسلمين ، وتطوع عدد من الضباط العرب والاتراك لقيادة مقاومة السنوسيين ضد الايطاليين فى قطاع برقة . أما فى ولاية طرابلس فان سلطة الحكومة العثمانية فى تنظيم حركة المقاومة العربية كانت أكثر وضوحا عنها فى برقة - ولكن الظروف الدولية والحربية أجبرت الدولة العثمانية على الانسحاب من ليبيا ، بعد عقد معاهدة أوتشى مع ايطاليا ، ولم تحتفظ على هذه الولاية إلا بالنفوذ الدينى للسلطان ، بصفته خليفة المسلمين .

وكان فقد طرابلس وبرقة صدمة عنيفة للدولة العثمانية ، التى رأت تقلص أملاكها العربية ، ولكنها كانت أحد العوامل الفعالة التى ساعدت على اذكاء الروح العربية وإزدياد نموها ، فرغما عن الموقف السلبى التى اضطرت بعض الدول العربية إلى أن تقفه من هذه الحرب ، نتيجة لظروفها الخاصة مثل الحكومة الخديوية فى مصر مثلا ، نتيجة لوجود الاحتلال البريطانى فيها ، نجد أن الروح العربية لم تتحدد بحدود الحكومات ، وقامت الجمعيات لجمع الاكتتابات لطرابلس وتطوع عدد من المصريين فى هذه الحرب ، بل أن بعض الضباط المصريين من قوات خفر السواحل قد انضموا للمجاهدين الليبيين فى برقة رغم خضوعهم لقيادة عسكرية بريطانية . وعجزت قوات المحتلين عن أن توقف هذه الحركة وعن أن تقلل من نشاطها . أما فى بقية العالم العربى الخاضع لحكم الدولة العثمانية المباشر فان أحداً لم يعارض تلك الموجة من الحماس والغضب الشعبى التى انطلقت تدافع عن أرض العروبة وأرض الاسلام . وهكذا أفادت تجربة ليبيا الحركة العربية ،

وأظهرت خطر التدخل الأجنبي فى أقاليمها ، وقربت بين المجـاهدين العرب فى سوريا والعراق ومصر وبرقة وطرابلس . ورغم أن الحرب قد انتهت رسميا بين الدولة العثمانية والحكومة الايطالية إلا أنها قد خلفت وراءها فترة مجيـدة من فترات الكفاح والمقاومة الشعبية قائمة على أساس الروح العربية .

أما فى بقية الأقاليم الآسيوية فقد كان الحال على ما هو عليه تقريبا عند بدء عهد السلطان عبد الحميد . ولكن النفوذ الانجليزى كان قد امتد وانتشر ، وانتهى إلى عقد بعض المعاهدات بين حكومة بمباى وبعض مشايخ العرب على السواحل الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة . وتمكنت انجلترا بهذه الطريقة من تكوين محمية عدن من بعض المشيخات القريبة منها ، وعقدت معاهدات أخرى وخاصـة مع الكويت فى سنة ١٨٩٩ ، أعطت لحكومة بمباى حماية فعلية على هذه المنطقـة ، وتناست سيادة السلطان . وأرسلت حكومة بمباى ضباطا وموظفين معتمدين لدى هؤلاء المشايخ ، وعينت مقيما سياسيا يشرف على الساحل الفارسى ، وأصبح الخليج العربى منطقة نفوذ بريطانية ، وازدادت أهميته بعد بدء إحدى الشركات البريطانية فى استغلال حقول البترول فى جنوب غرب فارس .

ولقد إزداد فى نفس الوقت نفوذ الدولة العثمانية على شبه الجزيرة العربية ، وكانت السنوات الأخيرة قد شهدت الصراع بين آل الرشيد وآل سعود ، وخروج هذه الأسرة الأخيرة من نجد ، ثم نجاحها فى اعادة الاستيلاء عليها فى أوائل القرن العشرين ، وتحت رئاسة عبد العزيز آل سعود . وفى إحدى فترات هـذا الصراع اضطر آل الرشيد إلى طلب العون من تركيا ، فأرسلت الدولة العثمانية إحـدى الحملات الحربية ، تمكنت من إعادة رفع العلم العثمانى على وسط شبـه الجـزيرة مرة جديدة ، بعد فترة طويلة من الاستقلال الفعلى عن الدولة العثمانية . ولـكن قوة آل سعود أخذت فى النمو ، وتمكن فى عام ١٩١٣ من الاستيلاء على اقاليم

الإحساء من الأتراك ، وكانت ضربة شديدة لهيبة سلطان القسطنطينية، لم يعادلها إلا توثيق العلاقات بين تركيا وآل الرشيد فى إقليم شمر .

وأما فى غرب الجزيرة العربية فان المصاعب قد استمرت فى مواجهة الدولة العثمانية فى اليمن . وفتحت ثورة عام ١٩٠٣ بزعامة الامام يحي صفحة جديدة فى تاريخ النكبات العسكرية التركية فى بلاد العرب . وتمكن الثوار من احتلال صنعاء واحتفظوا بها لمدة سنة كاملة . ثم كرروا نفس المسألة سنة ١٩١١ واضطر الأتراك إلى قبول المفاوضة والمساومة وقام عزيز على المصرى بدور هام فى الوصول إلى اتفاقية بين اليمنيين والقيادة التركية ، سمحت بحرية واضحة للامام ، وضمنت له اعانة سنوية من الدولة ، تساعده على تسيير شئون بلاده .

أما فى العسير ، وهى إلى الشمال من اليمن ، فان سلطة ونفوذ السيد محمد بن على الادريسى قد أخذت فى الازدياد ، وعمل على الاستقلال عن الحكم التركى . ولم يكن أفق الادريسى قاصرا على بلاد العرب ، خاصة وأنه كان قد تعلم فى الأزهر ، وبقى مدة طويلة من الوقت مع السنوسى فى برقة . فنجده يعاون إمام اليمن فى ثورته سنة ١٩٠٩ ولكن قواته انهزمت أمام قوات الدولة ، فاستعان بالإيطاليين على تكوين قوة جديدة ، ساعدته على الاحتفاظ . وحينما نشبت الحرب العالمية الأولى كان فى وضع تابع لسلطان تركيا من الناحية الرسمية ، ولكنه كان فى حقيقة الأمر ثائراً يستعد لجولة جديدة ، فى الكفاح ضد الدولة العثمانية .

أما فى الحجاز فان سلطة الدولة كانت ثابتة ومدعمة أكثر من غيرها من الاقاليم العربية ، نتيجة لانشاء سكة حديد الحجاز حتى المدينة وكان فى استطاعة الدولة أن تسيطر على هذا الاقليم سيطرة مباشرة ، لولا وجود الشريف حسين هناك ولقد مد الشريف حسين سلطته ونفوذه الفعلى على الحجاز منذ سنة ١٩٠٨ وحاول أن يوسع منطقته شرقا على حساب القبائل الخاضعة لابن سعود ، ولكن سرعان

ما ظهر الخلاف بينه وبين الحكومة العثمانية ، وجمعية الاتحاد والترقى ، حينما حاولت الدولة تطبيق نظام المركزية على الحجاز ، وعارض الشريف حسين فى فرض نظام التجنيد الاجبارى على إقليمه . ولقد حاولت جمعية الاتحاد والترقى أن تتخلص منه بتعيين أحد ولاة الدولة على الحجاز ، يشرف على شئونها الادارية وتترك للشريف السلطة الدينية على مكة والمدينة . ولكن هذه السياسة فشلت نتيجة لاقتراب الحرب العالمية الأولى ، وحاجة تركيا إلى الاستناد إلى الاشراف فى تعبئة الشعور الاسلامى ، فاضطرت إلى عدم التشدد مع الشريف حسين .

تلك هى حالة الدولة العثمانية عند اقتراب شبح الحرب العالمية الأولى ، وكانت لاتبشر فعلا ببقاء العرب موالين لتركيا ، فى الوقت الذى لم يحصلوا فيه على حقوقهم فى هذه الدولة .

علاقة الشريف حسين بالانجليز :

كان للشريف حسين ثلاثة أبناء : على وعبد الله وفيصل ، امتاز أولهم بدماثة الأخلاق ، والثانى بحبة للسياسة والخداع والمؤامرات ، والثالث بصراحته وحبه للحياة العسكرية . وكانوا جميعاً يمنون أنفسهم بالوصول فى يوم من الأيام إلى القضاء على نظام المركزية فى الدولة العثمانية ، وإعطاء الحجاز استقلالا ذاتياً تحت اشرافهم ، وستضطرهم الحوادث إلى العمل على الانفصال عن الدولة العثمانية نهائياً .

وكان عبد الله نائبا عن مكة فى مجلس النواب العثمانى ، وحاول أن يستغل مركزه فى تقوية نفوذ والده على الحجاز ، وشعر رجال جمعية الاتحاد والترقى أن عبد الله كبير القيمة لوالده ، وشديد التأثير عليه فى الموقف الذى وقفه من الدولة ، فحاولوا شراءه بتعيينه فى منصب وزارى ، أو فى منصب والى اليمن ، ولكن عبد الله رفض العرض ، واحتفظ لنفسه بحرية العمل . وبينما كان الشريف رزيناً عميقاً فى أفكاره ، وصبوراً ينتظر سنوح الفرصة ، كان ابنه عبد الله قلقاً متسرعاً ،

كثير الاعتداد بنفسه . وكان هذا هو سبب ذهابه لمقابلة اللورد كتشنر، ومحاولة معرفة موقف انجلترا من الحجاز .

ووقعت هذه المقابلة فى أوائل شهر فبراير سنة ١٩١٤ حينما مر عبد الله بالقاهرة فى طريقه من مكة إلى القسطنطينية ،وكان اللورد كتشنر مندوباساميافي مصر فى ذلك الوقت ، ودار الحديث فى حضور رونالد ستور ، السكرتيرالشرقي للقنصلية البريطانية . وشرح عبد الله لكتشنر العلاقات التركية معالشريف ، وكان يعلم بعزم جمعية الاتحاد والترقي على عزل والده ، وذكر أن هذا الامر سيؤدي إلى ثورة فى الحجاز ، وحاول أن يعلم موقف الحكومة البريطانية فىحالة وقوع صدام سافر بين الترك والعرب . ولكن جواب كتشنر خيب آمال عبد الله ، إذ أنه ذكر أن انجلترا تحتفظ بعلاقات ودية مع تركيا،ولا يمكنها أن تتدخل بأيحال من الأحوال فى مثل هذه الظروف . ولكنه كلف ستور بزيارة عبد الله مرة جديدة ، وبمحاولة معرفة تفاصيل الموضوع أكثر من ذلك . وتحدث عبد الله بصراحة أكثر فى المرة الثانية وشرح خطورة الحالة فى الحجاز والاستعدادات التى كان والده يقوم بها،قبل أن يعلن الثورة على الأتراك ، بالرغممنأنالوصول إلى هذه النتيجة كان أمراً حتماً. ثم تحدث عن أهداف الحركة العربيةوآمالقادتها، نتيجة لفشلهم فى الوصول إلى حل مع الأتراك . وسأل عما إذا كان كتشنر يستطيع إمداد والده بالمدافع الرشاشة . ولكن ستور لم يقدم أى وعد لعبدالله ، وكرر له نفس الكلام الذى سمعه من كتشنر . ثم مر عبد الله بالقاهرةمرةجديدة قرب نهاية شهر ابريل عند عودته من القسطنطينية ، ولكنه لميحصل علىأىوعد بالمساعدة . وفتحت هذه المحادثات أعين الانجليز إلى بعد الشقة واتساع الخلاف بين العرب والأتراك ، وإلى المزايا التى يستطيعون أن يحصلوا لامبراطوريتهم عليها من التفرقة القائمة بين أهالى الشرق الأوسط .

وكان كتشنر قد خبر الحياة العسكرية ، وحياة المخابرات فى مصر والسودان، ثم شعر بأهمية الإسلام والجامعة الإسلامية عند شغله لمنصب القائد العام فى الهند . وأخذت أنظاره بعد تعيينه مندوبا ساميا فى مصر تتجه إلى القسطنطينية ، مركز الخلافة ، أكثر إتجاهها إلى القاهرة نفسها . ولاحظ ازدياد النفوذ الألمانى مع مشروع سكة حديد بغداد ، وشعر بتهديد الألمان لمركز بريطانيا فى الخليج العربى وفى الهند ، واعترف بخطأ انجلترا التى تركت النفوذ السياسى والاقتصادى والعسكرى لألمانيا ، يتوغل فى الامبراطورية العثمانية ، ويثبت أقدامه فى عاصمتها ، وأصبح شغله الشاغل أن يوقف هذا التغلغل ، أو يعمل على كسره إن لزم الأمر. وفكر كتشنر فى اقتطاع الجزء الممتد من عكا أو حيفا حتى خليج العقبة من الدولة العثمانية ، وفى وضعه تحت الحماية الانجليزية ، حتى يتمكن النفوذ البريطانى من السيطرة على كل الاقليم الممتدة من مصر إلى الخليج العربى ، وفكر فى تشجيع الأقاليم العربية فى الدولة العثمانية على تكوين دولة مستقلة ، أو سلسلة من الدول الصديقة لبريطانيا ، وتمتد بذلك من سواحل البحر المتوسط فى الغرب الى الحدود الفارسية فى الشرق . ويكون منها سداً انجليزياً — عربياً يقف فى وجه السيطرة التركية الالمانية على تلك المنطقة الاستراتيجية الهامة ، أى أنه فكر فيما فكر فيه قادة الحركة العربية ، وإن كانت أهدافه تختلف تماما عن أهدافهم التحررية . وجاءت زيارة عبد الله مؤكدة له فى أرائه ، وفى الوسائل التى تمكن انجلترا من الاستفادة من الشرق الادنى . وكان عبد الله يمثل فى هذه المرحلة أراء الوطنيين العرب ، إذ أنه كان عضوا فى الجمعيات العربية الوطنية ، وإن كان يزيد عليهم فى اعتقاده بأهمية الوصول الى تفاهم عربى ـ انجليزى على الموضوع .

وأعلنت الحرب العالمية الاولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ وكان كتشنر حينئذ فى انجلترا ، فلم يعد إلى القاهرة ، إذ أنه شغل منصب وزير الحربية البريطانية ، وبدأ

يهم بضرورة تعبئة كل موارد الامبراطورية فى هذه الحرب، والاستفادة من كل الفرص التى تسمح لها بالنجاح . ولم يغب الموقف فى الشرق الاوسط عن بال كتشنر ، خاصة وأنها منطقة استراتيجية فى غاية الأهمية بالنسبة لمواصلات انجلترا مع الشرق . وكانت جمعية الاتحاد والترقى قد أكدت عزمها على الابقاء على الدولة العثمانية فى حالة حياد ، ولكن ازدياد النفوذ الألمانى فى هذه الدولة كان تهديداً كبيراً للامبراطورية البريطانية التى كان يهمها السيطرة التامة على مصر ، وابعاد النفوذ الألمانى عن هذه المنطقة ، ولذلك فان كتشنر قد سمح للسلطات البريطانية فى مصر بالاتصال بعبد الله ، ومحاولة معرفة المعسكر الذى سينضم اليه العرب فى حالة دخول تركيا للحرب . وكان الانجليز يفضلون بطبيعة الحال أن ينضم العرب اليهم ، حتى يؤمنوا على مراكزهم فى مصر وفى السودان .

ووجد الشريف حسين نفسه فى مركز حرج ، إذ أنه كان يبحث منذ بضعة أشهر عن الوسائل التى تمكنه من تدعيم سلطته على الحجاز ، ولو عن طريق الثورة على الأتراك ، ولم تكن الحرب قد أعلنت بعد . ولكنه وجد أن مصير كل الأقاليم العربية قد أصبح فى الميزان ، خصوصا إذا ما دخلت تركيا الحرب . وكان انشغال تركيا فى الحرب أحسن وسيلة تمكن العرب من الحصول على مطالبهم.

ولكن هل كان على العرب أن يقفوا إلى جانب تركيا فى خلال هذه الحرب ، ويحصلوا على ثقتها ؟ أو يثوروا ضدها فى هذا الوقت العصيب، ويحاولوا الحصول على استقلالهم بحد السيف ؟ كان فيصل من أنصار الفكرة الأولى ، وكان يعرف أن فرنسا تطمع فى سوريا ، كما أن انجلترا تطمع فى جنوب العراق ، واستند إلى أن كتشنر لم يتعهد رسمياً أو يضمن عدم وقوع هذه الأخطاء ،وكان لا يعتقد أن تنظيم العرب واستعدادهم يسمح لهم بالنزول إلى المعركة ، وأن ثورتهم ستفشل. أما عبد الله فانه كان أكثر أملا فى هذه الحركة العربية، نتيجة لانضمامه إلى إحدى

الجمعيات الثورية العربية ، وشعر أن كل من دمشق وبغداد سيلبي نداء الثورة ضد الأتراك ، فحاول إغراء والده على عدم رفض المحادثات مع الانجليز ، واغرائه على أن يحاول الوصول إلى إن يضمن الانجليز استقلال العرب فى حالة ثورتهم على تركيا .

واستقر رأى الشريف حسين على كسب الوقت من الانجليز، ومحاولة إرسال مندوبين إلى سوريا وإلى رؤساء العرب لمعرفة درجة استعدادهم للنزول إلى المعركة. فطلب إلى ابنه عبد الله كتابة رد للسلطات البريطانية فى القاهرة بأنه راغب فى الوصول الى تفاهم مع بريطانيا حول الموضوع ، ولكنه غير قادر على أن يبتعد عن حياده، ثم ذكر أنه سيقود رجال إلى الثورة فى حالة تشبث الاتراك ، على شرط أن تمده انجلترا بمساعدة فعلية . والملاحظ فى هذا الخطاب أن حسين لم يتحدث إلا عن رجاله هو ، وعن الحجاز ، دون أن يشير إلى بقية الاقاليم العربية فى الدولة العثمانية . ولقد وصل هذا الخطاب إلى لندن عن طريق القاهرة قرب نهاية شهر أكتوبر ، أى فى نفس الوقت الذى وصل فيه تقرير الجنرال ماكسويل، ناصحا بضرورة الاتصال بالعرب فى الحجاز واليمن ، واغرائهم على الثورة ضد الاتراك . وكان ماكسويل هو قائد قوات جيش الاحتلال البريطانى فى مصر ، ومن أصدقاء كتشنر الذين ساهموا معه فى الاحتلال البريطانى لمصر والسودان وجاء رد كتشنر فى ٣١ أكتوبر مبتدئا باعلان دخول تركيا الحرب ، ومشتملا على وعد صريح لحسين بأن الحكومة البريطانية تضمن بقاءه فى منصب شريف مكة ، وتضمن كل ما له من حقوق وامتيازات ، وتدافع عنه ضد كل اعتداء فى حالة دخوله الحرب إلى جانب انجلترا وضد تركيا . كما أنه اشتمل أيضاً على وعد عام بتأييد العرب فى محاولتهم الحصول على حريتهم ، على شرط أن يعلنوا

تحالفهم مع انجلترا . وانتهى بأن أكد للشريف إمكانية الاعتماد على اعتراف انجلترا به ، إذا ما أعلن نفسه خليفة للمسلمين .

ووصلت هذه البرقية الى عبد الله فى يوم ١٦ من نوفمبر وسيكون لها أكبر الأثر عليه ، خاصة وأن موقفه كان قد تحرج مع الأتراك . وأعطت هذه البرقية لحسين نفس التأكيدات التى كان يسعى إليها بالنسبة للحجاز ، كما أنها فتحت مجالا جديدا أمامه بالنسبة لبقية انحاء العالم العربى ، وتحدثت هذه البرقية عن « الأمة العربية » وعن تحرير العرب ، وكانت تهدف إلى دفع العرب إلى القيام بثورة مسلحة ضد الأتراك . ورد عبد الله باسم والده موافقا على سياسة التحالف مع بريطانيا ، ولكنه شرح عدم مقدرة الشريف على القيام بأى عمل عدائى صريح ضد الأتراك ، قبل أن يتم الاستعدادات الضرورية ، وطلب مهلة تسمح له باعداد قواته وانتهاز الفرصة المواتية للانفصال عن تركيا . وعد بالكتابة مرة جديدة فيما بعد .

ووصل هذا الرد إلى القاهرة فى أوائل شهر ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وبدأت به صفحة جديدة من صفحات المؤامرة الانجليزية فى الشرق الأوسط . وستبـدأ الصفحة التالية فى يوليو سنة ١٩١٥ بمذكرة من الشريف إلى مكماهون ، بعد أن مباحثاته ومفاوضاته مع رؤساء العرب وقادة الحركة العربية .

أهمية البلاد العربية بالنسبة للانجليز :

كان دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا أكبر مساعد على تدخل الدول الأوربية فى المسألة العربية ، فبدأت هذه الدول ، وخصوصا انجلترا تهتم جيداً بموقف العرب من هذه الحرب . وكانت الامبراطورية العثمانية باحتلالها لسوريا والعراق ، تهدد انجلترا فى منطقتين هامتين هما قناة السويس ومنطقة الخليج العربى التى تقع آبار بترول الشركة الانجليزية الفارسية بالقرب منها كما أن سيطرة

الأتراك على سواحل البحر الأحمر كانت تسمح لهم بالاتصال بمصر والسودان ، والتوغل فى القارة وخلق المصاعب أمام الدول الاستعمارية . وكانت تركيا تحتفظ بفرقتين عسكريتين فى اليمن ، يمكنها أن تهدد بها قاعدة عدن تهديدا مباشرا . أما من الناحية السياسية والنفسية فان اعلان السلطان للجهاد ، وموافقة شريف مكة عليه كان يهدد بتحويل الحجاز إلى مركز ثورة ودعاية اسلامية ، تعمل على اثارة الشعوب العربية والشعوب الاسلامية غير العربية والتى كانت تخضع لحكم الحلفاء ، فى الهند ووسط آسيا وشمال افريقيا وغربها .

وكان اعلان الجهاد يمثل أمام الحلفاء أكبر خطر قد ينشأ من هذه المنطقة . وكان الحلفاء يعلمون أن تركيا ستعمل بمجرد اعلانها الحرب على اثارة العالم الاسلامى ضد الدول المختلفة ، وتوحيدهم للكفاح المشترك تحت راية الاسلام . ولا يمكن لأحد أن يتغافل أهمية العامل الدينى بين شعوب هذه المنطقـــة ، التى قاست من المستعمرين ، خاصة وأن اعلان الحرب كان فرصة فريدة لتوحيد الشعوب الاسلامية للكفاح المشترك ، ومحاولة تخليص بلادهم واعادة عزة أجدادهم الأوائل . وكانت آراء الجامعة الاسلامية فى حد ذاتها تلقى قبولا وتأييدا من كل المسلمين . وكانت ظهور حركات الاصلاح والتحرر الاسلامى فى أقاليم متعددة من هذه المنطقة أكبر دليل على تقارب التفكير والشعور والوجدان بين شعوبهم ، رغم اختلاف لغاتها وعرفت دول الغرب معنى المقاومة الاسلامية الشديدة التى قابلهم بها مسلمو شمال أفريقيا ووسطها ، والأنصار فى السودان وذلك حينما حاولت القوات الاستعمارية الاوربية التوغل فى هذه المنطقة ، واخضاعها للادارة الاوربية وتسخيرها لخدمة أغراضها ، واستغلالها اقتصاديا وبشريا ، تحت مسوح وادعاءات المدنية . وخشيت انجلترا وفرنسا والروسيا على ممتلكاتها الاسلامية ، الغنية بالموارد المادية والبشرية اللازمة لاستمرار الحرب ، خاصة وأن انجلترا كانت تتحكم فى سبعين مليـونا

من المسلمين فى الهند ، علاوة على مسلمى مصر والسودان ، وأن الروسيا كانت تتحكم فى مسلمى وسط آسيا .

وكان دخول تركيا الحرب واعلانها للجهاد يهدد مركز انجلترا فى مصر بشكل واضح . حقيقة أن اعلان الجهاد كان سيقيم المصاعب أمام انجلترا فى الهند وفرنسا فى شمال أفريقيا والروسيا فى القوقاز ووسط آسيا ، ولكن هذه المصاعب لن تزيد على قيام ثورات محلية لا تؤثر بشكل واضح فى هذه الامبراطوريات الثلاث أو فى طرق مواصلاتها العالمية. أما مصر فانها كانت مركزاً حساساً للامبراطورية البريطانية خاصة وأن قناة السويس كانت تمر فى أراضيها .

وهكذا يمكننا القول بأن المنطقة التى ستتأثر باعلان الجهاد هى عبارة عن دائرتين الواحدة داخل الأخرى : الأولى هى البلاد العربية التى تتركز حول مصر وتمر فيها معظم خطوط المواصلات الامبراطورية ، والثانية أوسع منها وتضم العالم الاسلامى غير العربى . وتهديدها أقل من تهديد الأولى . ولم يكن من السهل الهجوم على منطقة قناة السويس الا من البلاد العربية ، وهذا هو السبب فى تفكير الانجليز فى محاولة ضرب تركيا فى أقاليمها العربية ، بفصل العرب عن الأتراك فى منطقة الشرق الأوسط ، ثم بوضع كل من هاتين القوتين فى مواجهة الأخرى ، وبشكل يسمح باضعافها ويسهل السيطرة على كل منهما بطريقة أو بأخرى .

وأعلنت تركيا التعبئة العامة فى ٢ أغسطس ، رغم تظاهرها بالحياد فانها قد قامت ببعض الاستعدادات التى أثارت مخاوف السلطات البريطانية فى القاهرة . وكانت سوريا من أهم الأقاليم القريبة من مصر من الناحية الاستراتيجية . وكانت حاميتها فى زمن السلم عبارة عن فيلقين ، يتكون كل منهما من ثلاث أو أربع فرق ، أى ما يقرب من ٦٠٫٠٠٠ جندى فى مجموعها . وستعمل تركيا بعد إعلانها الحرب على توحيد هذه الفرق فى جيش واحد ، هو الجيش الرابع ، وستصبح له

قيادة عامه مستقلة قائمة بذاتها فى دمشق ، ولم يخف عن أحد أن هـذا الجيش كان يسعى إلى الهجوم على مصر وإخراج الانجليز منها. وأخذت السلطات البريطانية فى القاهرة تخشى من قيام العثمانيين بتجمعات حربية قرب الحدود المصرية الفلسطينية وخشيت وزارة الخارجية البريطانية من تحركات القوات التركية هنا وهناك ، واعداد الأسلحة والأموال لتسليح البـدو ورجال العشائر فى سوريا وسيناء ، استعدادا للهجوم على مصر . وخشيت انجلترا كذلك من إزدياد الحماس الدينى عند المسلمين ، وخشيت أيضا من رحلات الضباط الألمان فى البلاد العربية ومن تعيين بعضهم كأركان حرب للجيش الرابع . وعلاوة على ذلك فان تركيا قد قامت بنقل إحدى فرق الجيش (الفرقة ١٢) ومعظمها من العرب من الموصل إلى حلب ، وبدأت ترسل المنشورات السرية من سوريا إلى الجنود المسلمين فى القوات البريطانية الموجودة فى مصر نفسها ، تحضهم فيها على عصيان أوامر الانجليز ، والانضمام إلى اخوانهم المسلمين الاتراك .

أما الحدود الغربية لمصر فانها كانت تحت سيطرة نفوذ السيد أحمد السنوسى الذى كان على صلات وثيقة مع تركيا ، رغم تظاهره بالصداقة لانجلترا — وكان السنوسى على صلات أخرى مع سلطان دارفور فى غرب السودان. وكان السنوسى قد واصل الحرب ضد الايطاليين منذ سنة ١٩١١ ونجح فى إجبارهم على البقـاء قرب الساحل ، وفى المناطق التى يمكن حمايتها بمدفعية الأسطول . وظهـر أمام التقرب الانجليزى الايطالى أنه لم يكن فى استطاعة السنوسى إلا أن ينضم إلى الأتراك الذين ساعدوا بلاده فى حربها ضد المحتل الإجنبى . وكان إزديادا نتشار الفكرة السنوسية مما يقرب بين الليبيين وبلاد الخلافة الاسلامية. وأرسل الأتراك إلى السيد أحمد الشريف السنوسى بعض المندوبين يحملون خطابات من الخليفة ، يطلب اليه فيها اعلان الجهاد ولم يكن مما يضير تركيا فى شىء أن يصبح السنوسى

مندوبا عنها فى كل أقطار الشمال الأفريقى ، بل ويتولى شئونها إن نجح فى تخليصها من أيدى الأجانب . فاعتبرت انجلترا وجود السنوسى بالقرب من حدود مصر الغربية ، وهو على اتصال بأمراء المسلمين فى غرب السودان من ناحية ، وعلى اتصال بالدعاية والأموال والأسلحة التركية من ناحية أخرى ، أكبر تهديد لمدى بقائها فى وادى النيل — خصوصا اذا اقترن ذلك بتهديد آخر من الشرق عبر سيناء ، وفى اتجاه قناة السويس .

واحتفظ الأتراك فى بلاد العرب بأربع فرق عسكرية موزعة بين الحجاز والعسير واليمن . وكان فى استطاعة الشريف حسين أن يستغل مركزه ونفوذه الدينيين ويجند قوات عربية يساهم بها مع الأتراك فى الهجوم على القوات البريطانية فى مصر . ولكن الأتراك لم يكونوا يستطيعون الاعتماد على القبائل العربية فى كل من الحجاز والعسير ، رغم احتفاظهم بفرقتين عسكريتين فى هذه المناطق ، مما اضطر القوات العسكرية نفسها إلى البقاء داخل ثكناتها ، حتى لا تصطدم مع الأهالى . وكان على الأتراك أن يجتذبوا إلى جانبهم الشريف حسين ان أرادوا تجنيد العرب والحصول على معونتهم فى الهجوم على منطقة قناة السويس .

أما فى منطقة العسير فان قيمة الأدريسى لم تكن الا محلية . حقيقة أنه كان يستطيع قطع خطوط مواصلات الأتراك بين الحجاز واليمن ، وخصوصا اذا ما قاموا بتهديد عدن ، ولكن فائدته الفعلية « للحلفاء » لم تكن تزيد على منعه الأتراك من استخدام سواحل البحر الأحمر كقواعد هجومية ضد مصر وشرق السودان .

وأما فى اليمن فان موقف الامام كان عظيم الأهمية بالنسبة لعدن خصوصا وأن الأتراك كانوا يحتفظون فى بلاده بفرقتين عسكريتين . وكان من الممكن

استخدام اليمن كقاعدة للهجوم على عدن ، ولكن الأمر كان يتطلب تعاونا بين الأتراك واليمنيين ، وتأمينا لخطوط المواصلات عبر سوريا والحجاز والعسير .

وأما بالقرب من الخليج العربى فلقد ساد التنافس بين الرشيد فى شمر وابن سعود فى نجد . وكان كل منهما لا يميل إلى الأتراك، ويسيطر كل منهما على منطقته دون وجود أى حاميات عثمانية فى بلاده، على عكس الحال فى غرب بلاد العرب . ولكن هذا العداء بين هذين الرئيسين العربيين كان يوحى بميل ابن الرشيد إلى الأتراك من جديد ، تدعيماً لمركزه وإبعاداً لتهديد ابن سعود له .

وفكرت الحكومة البريطانية إذن فى ضرب تركيا فى المنطقة العربية التى تحيط بقناة السويس ، وكانت أحسن نقطة للضرب هى مكة ، عاصمة الأراضى المقدسة ، ومركز الاشراف . وفضلت انجلترا الشريف حسين على ابن سعود لتنفيذ سياستها .

وكان الشريف حسين يتمتع بمركز ممتاز من ناحية المساعدة العسكرية التى قد يقوم بها علاوة على قيمة تدخله السياسى . وكان يحتل منطقة وسط الخطوط التركية فى شبه الجزيرة العربية ، ولم يكن فى استطاعة إمام اليمن أو الادريسى القيام بشىء أكثر من شل حركة القوات العثمانية فى مناطقهم ، أما ابن سعود فكان بعيدا عن مراكز الأتراك وخطوطهم ، ولكن الشريف حسين كان يستطيع ضرب قوة العثمانية فى بلاد العرب ، ويقطع خطوط مواصلاتها مع الشمال ، ويفصل عنها حاميات العسير واليمن ، وكان له نفوذ دينى فى كل العالم الإسلامى لأنه شريف وخادم للحرمين . فكان فى استطاعته أن يؤثر فى الشعوب الإسلامية ، العربية وغير العربية . وكانت معارضته للخليفة فى اعلان الجهاد ، أو إعلانه أن اشتراك المسلمين فى الحرب يهدد الأماكن المقدسة مما يضعف قوة نداء السلطان نفسه وقوة العامل الدينى والنفسانى الذى سيستند إليه فى تكتيل

الشعور وتوحد الجهود ضد دول الوفاق ، التي امتازت باحتلالها مناطق اسلامية، واستغلالها أهلها ومواردها ، وهكذا اختارت انجلترا بروية وبعد دراسة ، وستساعدها الظروف على تنفيذ خطتها .

علاقة الشريف حسين بالأتراك .

أعلن الخليفة الجهاد فى نفس الوقت الذى دخلت فيه الدولة العثمانية الحرب ، فأصدر شيخ الإسلام فتوى أعلن فيها أن اتحاد كل المسلمين فى العالم بما فى ذلك الشعوب الخاضعة لانجلترا وفرنسا والروسيا هو واجب مقدس ، فعليهم أن يرفضوا معاونة حكومات « الوفاق » فى هجومها على الدولة العثمانية ، حتى ولو تعرضوا للاستشهاد من أجل ذلك. ثم أصدر السلطان بلاغا إلى الجيش والأسطول حثهم فيه على الجهاد من أجل تحرير الإسلام من الدول الاستعمارية ، وعلى أن يدافعوا عن الامبراطوريه المهددة . ثم صدر بيان من هيئة العلماء يقضى بضرورة الجهاد ، أمره الخليفة بتوقيعه ، وأمر بنشره فى كل البلاد الاسلامية . وحث هذا البيان كل المسلمين على الالتفاف حول الخلافة ، والدفاع عن البلاد الإسلامية، والعمل على تطهيرها من المستعمرين الأجانب .

واصحبت ذلك موجة قوية من الدعاية فى شكل منشورات وكتيبات صغيرة ، طالبت الشعوب الاسلامية بالاتحاد ، وبالامتناع عن مساعدة أعداء الإسلام ، وبالعمل على تحرير بلادهم من براثن الاستعمار ووصلت هذه المطبوعات إلى مصر والسودان والهند وايران وأفغانستان ، وشارك فى كتابتها كثير من المسلمين ، بل ومن العرب المصريين أنفسهم مثل محمد فريد . وفضحت هذه المطبوعات نيات دول « الوفاق » الاستعمارية وسياستهم فى البلاد الإسلامية، واقتطاعها جزءاً فجزءاً عن الدولة العثمانية ، وطالبت المسلمين بفهم الموقف ، وبتوحيد الجهود للوصول إلى الغاية المشتركة . وتلى ذلك حركة من الرجال الوطنين الذين آمنوا بضرورة

اتحاد العالم الاسلامى لمواجهة الخطر الأجنبى ، فانتشروا فى الأقاليم الإسلامية غير العربية - وهى الخاضعة لسيطرة الدول الغربية - يؤيدون فيها بحماسهم وباتصالاتهم الشخصية تأثير المطبوعات والمنشورات الإسلامية .

وفى هذا الوقت سيبدأ الانقسام فى بلاد الشرق الأوسط ويظهر التمييز بين الحلقتين التى يتكون منها الاقليم : وهى الدائرة الصغيرة القريبة من المركز ، والتى تهدد قناة السويس ومركز انجلترا الدولى ، أى الدائرة العربية ، والدائرة الثانية الأكبر والتى تحيط بالأولى وتشتمل على الشعوب الإسلامية غير العربية . وسيكون هذا الانقسام نتيجة لعوامل مختلفة ، منها شعور العرب بثقل أعباء الحكم العثمانى لديهم ، وشعور المسلمين فى المناطق غير العربية بثقل الاستعمار الأجنبى - وسيسير العرب صوب الأجانب لتخليصهم من الأتراك ، وسيسير المسلمون غير العرب صوب الأتراك فى ظل الإسلام لتخليصهم من حكم الأجانب - كما أن الأقاليم العربية فى شمال إفريقية ستسير فى هذا الطريق المخالف لسير العرب فى الشرق الأدنى ، وذلك لتخليص بلادهم من حكم الايطاليين والفرنسيين والأسبان . ومن الأسباب التى أدت إلى هذا الانقسام تأثر عدد كبير من رجال العرب بالثقافة الغربية ، ومحاولتهم بناء دولتهم على فكرة « الدين لله والوطن للجميع » ، وسادت هذه الآراء فى الأقاليم التى يعيش فيها عدد من الأقليات غير الإسلامية ، وخصوصا فى سوريا ولبنان . وأخيراً فلا يمكننا أن ننسى ضيق تفكير الحكومة العثمانية وعدم تمكنها من ايجاد حلول لمشكلاتها الداخلية . ولا ننسى نشاط الانجليز وسعيهم إلى تفريق القوى الاقليمية فى الشرق الأوسط بين « عرب » و « مسلمين » للوصول إلى غاياتهم الاستعمارية . ولم يكن رجال العرب من القوة التى تمكنهم من منازلة الغرب عسكرياً ، أو حتى سياسياً ، وتولى الأمر بعض الزعامات المحلية ، دون استنادها إلى قاعدة شعبية قوية .

ووصل خبر إعلان الجهاد إلى الشريف حسين فى نفس الوقت الذى بلغه فيه رد كتشنر ، فانحاز إلى سياسة ابنه عبد الله أكثر من ميله إلى سياسة فيصل ، وإن لم يكن الموقف يسمح له بالقيام بأى عمل فى التو . فعمل على استشارة العرب فى سوريا والعراق ، لكى يعرف درجة تأييدهم لسياسته . وكان هذا يتطلب بعض الوقت ، وكانت تركيا تنتظر منه أن يؤيد إعلان الجهاد للدفاع عن الأراضى المقدسة والحرمين . وأرسلت الحكومة العثمانية إليه عدداً كبيراً من الخطابات والبرقيات ، بتوقيع رئيس الوزراء وأنور وطلعت وجمال قائد الجيش الرابع فى سوريا ، تستحثه فيها على تأييد إعلان الجهاد ، والبدء فى تجنيد العرب لمساعدة الدولة ، والاشتراك فى الدفاع عنها . ولكن حسيناً عمل فى هدوء ، وحاول كسب الوقت ، فرد بأنه يؤيد الجهاد من كل قلبه ولكنه يخشى هجوم الأعداء على الأراضى المقدسة ، إذا ما أعلن رسمياً تأييده للجهاد والحرب ، وشرح أنه يمكن للأساطيل البريطانية أن تهاجم جدة من البحر ، وتقذفها بمدفعيتها ، أو تحاصر السواحل مما سيترتب عليه المجاعة وقد يؤدى إلى ثورة بين رجال القبائل . ولكنه عمل فى نفس الوقت على تجنيد العرب ، بدعوى الاستعداد للاشتراك فى الحرب ، وأرسل أبنائه للاشراف على هذه العملية وأخذ يستفسر من الادريسى والامام يحى وابن رشيد وابن مسعود عن موقفهم من الدولة العثمانية ، ويشرح لهم الأسباب التى تمنعه من تأييد إعلان الجهاد .

وفى خلال هذه الفترة أخذ ونجت ، سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان ، يشجع حسين على سياسته . فاتصل به عن طريق السيد على الميرغنى الذى أبلغه صداقته للسردار ، وعما يمكن أن يفعله من أجله ، ثم أبلغه أن هذا « الصديق » يستطيع مساعدته بالمال والأسلحة والذخائر . وأرسل حسين بعض

مندوبيه للتفاوض فى الأمر مع حاكم السودان ، بعد أن استند الى تأييدالميرغنى وشعر باهتمام البريطانيين بالتحالف معه .

حاولت السلطات العثمانية أن تعزل حسين أو تستدعيه إلى سوريا ، ولكنها لم تنجح فيما رسمت ، واضطـرت الى أن تعلن أنه يؤيد الجهـاد ، وأن قواته ستشترك فيه بقيادة أبنائه . واتصلت السلطات العثمانية بكل رؤساء المسلمين فى العراق ، من سنين وشيعة ، لتحضم على تأييدها ، كما اتصلت بابن سعود وابن رشيد والامام يحى . ولقد انضم اليها ابن رشيد ، الذى كان يخشى على نفسه من ابن سعود ، كما انضم اليها أيضا امام اليمن ، أما ابن سعود فانه لم يعط جواب قاطع وتجاهلت الدولة العثمانية الأدريسى الذى كان واضحا فى موقفه العدائى منها ، وفى تحالفه مع الأجانب . كما أن الشيخ مبارك آل الصباح ، حاكم الكويت ، قد انتهز فرصة دخول تركيا الحرب لكى يزيد من قيمة الروابط التى تربطه بانجلترا منذ عقده لاتفاقية سنة ١٨٩٩ معها وتحالف معها تحالفا فعليا .

ولكن ذلك لم يمنع الدولة العثمانية من المضى فى سياسة تكتيل كل الشعوب الاسلامية فى حركة جهاد موحدة ، تضعف قوى الدول الاستعمارية ، وتخلص هذه الشعوب من الاحتلال الأوربى ، فأرسلت بمندوبيها أن شمال افريقية ، يتوغلون منها جنوبا ، وينظمون فيها حركات المقاومة والجهاد .

وسيواصل الشريف حسين سياسة كسب الوقت حتى يتمكن من الاعلان عن موقفه بصراحة . ولكن القوى الاقليمية فى الشرق الأوسط كانت بالفعل قد انقسمت على نفسها ومثلت مصر هذا الانقسام فى أجلى صورة ويظهر ذلك من انضمام بعض رجال خفر السواحل المصريين الى قوات الجيش الرابع وانضمام غيرهم الى قوات السنوسيين فى هجومهم على القوات البريطانيـة من الغرب فى الوقت الذى وقف فيه الجيش المصرى لكى يدافع عن القناة ضد مرور العثمانيين

وسيكون لهذا الانقسام بين صفوف العرب أثره فى الحركة العربية ، وفى النتائج التى ستترتب عليها ، والفرص التى ستعرضها على المستعمرين .

ثانيا : التعهد البريطانى :ـ

اتصلت جمعية الفتاة بالشريف حسين فى الوقت الذى كان يشاور فيه رؤساء العرب لمعرفة موقفهم من الدولة العثمانية ، وأبلغه مندوبها عن عزم الوطنيين والضباط العرب فى الجيش ـ فى كل من الشام والعراق ـ على القيام بثورة للحصول على استقلال بلادهم ، وسأله عما إذا كان يقبل تولى قيادة حركتهم ، وعما إذا كان يرغب فى التباحث معهم فى دمشق ، أو فى مكة نفسها . وكان هذا هو عين ما يبحث الشريف حسين عنه ، ولكنه لم يكن قادر على اعطاء إجابة قاطعة ، خاصة وأنه لم يكن قد علم بموقف رؤساء العرب الآخرين من ناحية ، وكان يخشى من دسائس الاتراك من ناحية أخرى . وعلى أى حال فانه سيتذرع بخلاف بينه وبين والى الحجاز التركى ، وهيب باشا ، لكى يرسل ابنه فيصل إلى القسطنطينية للتفاهم فى موضوع الوالى مع السلطان والصدد الأعظم ، وكان على فيصل أن يتصل بالوطنيين العرب فى دمشق فى أثناء رحلته الى عاصمة الدولة العثمانية .

الحالة فى الشام :

خضعت الشام فى ذلك الوقت لأحمد جمال باشا وزير البحرية الذى اختارته الدولة العثمانية لتحرير مصر من القوات البريطانية ، وزودته بسلطات واسعة جعلت منه حاكما على سوريا ، وقائدا للقوات المسلحة الموجودة فيها ، فى نفس الوقت . لم يكن جمال باشا يمثل العناصر الشابه فى جمعية الاتحاد والترقى ، بل كان رجلا يدين بمجد الاسلام ، ويوقن بامكانية عودته إذا ما تكتلت كل الشعوب الاسلامية مع تركيا فى جهادها . وكان يعتقد فى إمكانية نمو القوميات المختلفة جنبا إلى جنب مع القومية التركية الناشئة داخل نطاق الجنسية العثمانية والتضامن

الإسلامي . ولم يكن ممن يميلون إلى الألمان بل كان على العكس من ذلك من أنصار الثقافة الفرنسية .

ووصل جمال باشا إلى سوريا بعد أن كان رجال السلطات العثمانية قد هاجموا القنصلية الفرنسية فى كل من بيروت ودمشق واستولوا منها على أوراق تدين عدداً من زعماء العرب « بالتعاون مع الأعداء » أو بما لا يختلف كثيراً عن الخيانة ، ولكنه حفظ هذه الأوراق ، وأبلغ الشريف حسين بمحتوياتها ، وأخذ يستعد للمهمة التى جاء من أجلها وهى كسب العرب إلى جانب تركيا فى الحرب ، ومحاولة الحصول على تأييد المسلمين ومشاركتهم فى الجهاد وتشهد خطاباته وخطابات أنور للشريف حسين بطول صبرهما ، ومحاولتهما جمع الشمل والوصول إلى الهدف المشترك . ولقد كان لهذا الموقف تأثيراً حسناً على السوريين، بمجرد وصول جمال باشا .

وكانت انجلترا قد أعلنت فى ذلك الوقت حمايتها على مصر،وأصدر ماكسويل أوامر عسكرية بخلع الخديوى عباس حلمى ،وتعيين حسين كامل بدلا منه،وتلقيبه بسلطان مصر . وهجم جمال باشا على منطقة السويس فى أوائل شهر فبراير سنة ١٩١٥ ، وكان يعتقد فى أن المصريين سيهبون فى ثورة عنيفة ضد المحتلين تساعد على أخذ البريطانيين بين نارين ، تمهيداً لاخراجهم منها ، وإعادة مصر إلى مجموع الأقاليم العثمانية ، كما كان رجال مصر الوطنيين فى ذلك الوقت يشتهون . ولكن انجلترا أوقفت الهجوم العثمانى ، بينما بقى الشعب فى مصر ساكنا ولم يقم بأية حركة ، فاضطر جمال باشا إلى التقهقر بمعظم جيشه ، تاركا وراءه بعض القوات لمناوشة الانجليز ، وتأخير تقدمهم فى سيناء ، وتعقبهم له فى سوريا .

وجاء فيصل بن الحسين إلى سوريا قرب نهاية شهر مارس ،فقابله جمال باشا مقابلة كريمة . ثم بدأ فيصل إتصاله بالوطنيين العرب من جمعية الفتاة الذين شرحوا

له معرفتهم بأن دخول تركيا الحرب يهدد كل الأقاليم العربية فى الدولة العثمانية ، مما يتطلب العمل على تحريرهم واستقلالهم . ولكنهم كانوا قد قرروا - فى حالة ظهور أطماع أوربية فى بلادهم - أن يعملوا إلى جانب تركيا ، حتى يقاوموا كل تدخل أجنبى فى بلادهم .

وزاد الاتصال بين فيصل وبينهم ، وانضم إلى جمعيتهم ، ثم بدأ اتصالاته مع رجال جمعية العهد التى كان أعضاؤها من ضباط الجيش . ووجد هناك نفس ما وجده لدى رجال الفتاة من رغبة فى الإنفصال عن تركيا ، لايكبحها إلا الخوف من أطماع الانجليز والفرنسيين والايطاليين والروس . وكان نشاط الفرنسيين واضح مع المارونيين والملكانيين قبل الحرب مباشرة ، وكذلك نشاط الانجليزمع الدروز ، ونشاط الروس مع الارثوذكسيين . أما المسلمين فكانوا غير خاضعين لأى صلات معينة ، وأرادت تركيا أن تبنى عليهم دعائم سياسةالجهاد ، للمحافظة على كيانها ، وتخليصها من المعتدين وزاد خوف العرب من الدول الاستعمارية وخاصة بعد معرفتهم بأطماع ايطاليا فى اليمن والعسير وأطماع انجلترا فى كل الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ، وهو الجزء المطل علىالمحيط الهندى . وكانتالأيام قد أثبتت شكوكهم عندما أغارت ايطاليا علىسواحل طرابلسواقتطعتهامنجسد الدولة العثمانية . وكان كثيرا من الوطنيين العرب قد بلغوا مرحلة من التفكير تساءلوا فيها عما إذا لم يكن من الحكمة الاستمرار فى تحمل أعباء الحكم التركى ، الذى يعرفونه ، بدلا من وقوعهم تحت حكم أجنبى مختلف تماماً ، ولكن أشدقوه ، ولن يتزحزح عن بلادهم إلا بعناء وبشق الأنفس . وكان عزيز المصرىقداتصل من مصر بزملائه أعضاء جمعية العهد ، وطلب منهم ألا يقوموا بأعمال عدائية ضد تركيا ، إذ أن دخولها الحرب سيعرض أقاليمها العربية لخطر الغزو الغربى ، وذلك إلى أن يحصلوا على ضمان وتعهد ضد هذا الخطر الجديد،وإلا فان

واجبهم يحتم عليهم الوقوف إلى جانب تركيا ، وفى داخل الدولة العثمانية ، دون أن يحطموها .

اتفق إذن كل من أعضاء جمعية الفتاة وجمعية العهد على ماسبق دون أن يعلموا بمرسلات الانجليز مع الشريف حسين . وانضم فيصل إلى جمعية العهد كما انضم إلى جمعية الفتاة وأعجب بتنظيمها وبدقة الاتصال بين أعضائها ، ثم كشف لهم عن عروض كتشنر قبل مواصلة السفر إلى القسطنطينية .

وقابل الأتراك فيصل بترحاب ، وتباحث فى هذه الزيارة مع الأمير سعيد حليم ، رئيس الوزراء ، ومع طلعت بك وزير الداخلية ، وأنور باشا وزير الحربية ، كما قابل السلطان وشرح له الأتراك أهمية الموافقة على إعلان الجهاد بالنسبة للحجاز والبلاد العربية وكل الأقاليم الاسلامية . وعند عودته إلى دمشق وجد فيصل أن زملاءه من جمعية الفتاة وجمعية العهد قد اتفقوا على خطة العمل فى أثناء وجوده فى القسطنطينية، ووضعوا اتفاقا ينص على الشروط التى يستطيع رؤساء العرب وزعمائهم أن يقبلوا على أساسها التعاون مع انجلترا ضد تركيا . وطلبوا منه أن يأخذها معه وعرضها على والده ويرى إمكانية قبول الانجليز لها .

وكانت هذه الشروط تتلخص فى اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية فى كل من سوريا والعراق حتى الخليج العربى والمحيط الهندى ثم البحر الأحمر حتى شواطىء البحر الأبيض ، وفى الغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، وفى عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا وهذه الدولة العربية المستقلة ، وتفضيل انجلترا على غيرها فى مشروعات الاستغلال الاقتصادى . وكانت هذه هى الشروط التى يقبل زعماء العرب على أساسها القيام بثورتهم التى سيعلنها الشريف حسين ، وأن يبذلوا جهدهم تأييد الحلفاء فى الحرب .

وتعتبر هذه الوثيقة فى غاية الأهمية إذ أنها حددت مطالب وشروطا فى ذلك

الوقت ، وستكون هى الأساس الذى سيستند إليه شريف مكة عند مفاوضته للانجليز ، وكان هدف العرب هو الاستقلال عن كل تدخل أجنبي بما فى ذلك الامتيازات الأجنبية ، أما إذا ماقبلت انجلترا الاعتراف بهذا الاستقلال ، فان العرب كانوا مستعدون بدورهم للترحيب بالتحالف معها . وكانت هذه هى أقل الشروط الضرورية التى لايمكن للعرب أن يتنازلوا عنها بأى شكل من الأشكال ، أعطاها زعماء الجمعيات العربية لفيصل لتوصيلها إلى الشريف الذى اعترفوا به متحدثاً بلسانهم ، وبلسان كل العرب ، وتعهدوا بالقيام بثورة تشترك فيها كل القوات العربية ، إذا مانجح فى الاتفاق مع بريطانيا على هذه الأسس .

واضطر فيصل إلى الاسراع فى السفر إلى الحجاز لكى يعرض نتيجة مباحثاته على والده ، خاصة وأن الوقت كان يهدد بتشتيت قوى العرب ، إذ أن الأتراك قد قرروا بسحب احدى الفرق العربية من سوريا لاشتراكها فى عمليات الدردنيل.

نشاط البريطانيين :

كانت السلطات البريطانية فى مصر قد اتخذت فى خلال هذه الفترة كل الترتيبات التى تسمح لها بتقليل خطر إعلان الجهاد وتخفيفه إلى أبعد درجة ممكنة. وأشرف على هذه العملية كل من السير هنرى مكماهون ، المندوب السامى البريطانى فى مصر ، والسير رجنالد ونجت ، سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان.

واتصل البريطانيون بزعماء العرب الموجودين فى مصر . وخصوصا عزيز على المصرى والسيد رشيد رضا ، ودارت المحادثات حول محتويات خطاب كتشنر للشريف حسين ، وهدفت إلى اقناع العرب بأن مستقبلهم يتوقف على تحالفهم مع انجلترا . واتسعت دائرة هذه الاتصالات مع الزمن ، ولكنها لم تؤد الى نتيجة ايجابية ، ذلك أن الزعماء العرب كانوا يستطيعون أن يؤثروا على زملائهم فى

سوريا والعراق ، ولكنهم طالبوا الانجليز بضمان استقلال العرب كشرط أساسى لدعوة العرب للثورة ، ولم تكن السلطات البريطانيـة فى مصر مستعـدة فى ذلك الوقت لاعطاء مثل هذا الضمان . وعلى أى حال فان هذه الاتصالات لم تبق دون أية نتيجة اذ أنها أثبتت للانجليز فشل كل محاولة لدفع العرب الى الثـورة مالم يقدموا لهم التعهدات التى يطلبونها ، والضمانات اللازمة لمستقبل بـلادهم . وكان ونجت قد وصل إلى نفس النتيجة بعد مباحثاته الطويلة مع السيد على الميرغنى وغيره من وجوه السودان ، الذين طالبوا باذاعة بيان يعطى ضمانات وتعهدات واضحة فيما يختص بمستقبل البلاد العربية ومستقبل الخلافة . وأيد كتشنر وجهة النظر هذه واضطرت الحكومة البريطانية الى التصريح لمكماهون بنشر هذا التصريح ، وبنفس الشكل الذى طلبه ونجت من السودان .

وكان هذا التصريح يهدف فى حقيقة الأمـــر الى تهدئة مخـاوف المسلمـين أكثر من عمله على ارضاء الأمانى السياسية العربية ، اذ أن بريطانيا قد تعهـدت فيه بأن تشترط فى اتفاقية السلام الاعتراف بالبلاد العربية كدولة مستقلة كاملة السيادة على أماكن الاسلام المقدسة ، كما أنهـا أشارت الى استعـداد الحكومة البريطانية للترحيب باعلان خلافة عربية ونشرت انجلترا هذا التصريح فى أوائل شهر يونيو سنة ١٩١٥ ووزعت منه كميات كبيرة فى مصر والسودان ، كما نشرته فى سوريا وفى الحجاز .

وأثبتت الحكومة البريطانية بنشرها هذا البلاغ أنها تؤيد التـأكيـدات التى أعطاها كتشنر فى آخر أكتوبر سنة ١٩١٤ ، اذ أنه كان قد وعد الشريف بالدفاع عن بلاد العرب ضد أى هجوم أجنبى ، وجاء هذا التصريح زيادة على هذا الوعد فضمن الاعتراف بقيام دولة مستقلة فى بلاد العرب ، ولـكنه لم يشر الى النقطه

التى كانت تشغل بال كل العرب فى ذلك الوقت ، وهى تطبيق هذا الضمان واشتماله على سوريا والعراق أيضا .

وقامت السلطات البريطانية فى الهند من ناحية أخرى بنشاط مماثل فى الجزء المواجه لها من الجزيرة العربية ، ابتداء من المحيط الهندى والخليج العربى وكانت هذه السلطات متخصصة فى شئون جنوب الجزيرة منذ أجيال ، سواء أكان ذلك فى عدن أو عند الخليج ، وكانت هى التى أشرفت على العمليات الحربية لاحتلال البصرة فى نوفمبر سنة ١٩١٤ . فأرسلت أحد مندوبيها قرب نهاية هذه السنة الى ابن سعود ، لكى يغريه على التعاون مع « الحلفاء » . ولم يكن ابن السعود محتاج لأى إغراء على عدم التعاون مع الأتراك. وكان قد استقبل أحد أعضاء جمعية العهد الذى أرسله عزيز على المصرى اليه بمجرد دخول تركيا الحرب، ولكن موقفه كان شديد الحساسية كرتيس وهانى وخاصة تجاه إعلان الجهاد ، ولم يكن فى وسعه أن يتجاهل إعلان الجهاد وخاصة اذا ما أيد الشريف حسين هذه الحركة . وبينما كان المندوب البريطانى لدى إبن سعود وصل مندوب آخر من طرف حسين لاستشارته فى الموقف السياسى ، والجانب الذى يجب على العرب أن يختاروه .

امتنع كل من ابن سعود وحسين عن الانضمام الى حركة الجهاد، وشرح ابن سعود للشريف أنه لن يتعاون مع تركيا فيه ، ثم رد على العرض الانجليزى بطريقة ودية ، وقبل أن ينتهى عام ١٩١٥ كان ابن سعود قد وقع على معاهدة تحالف مع نائب الملك فى الهند .

ونجحت حكومة الهند فى عقد اتفاقية أخرى مع الادريسى فى شهر أبريل تشبه تلك التى عقدتها مع ابن السعود ، واختصت بالمصالح المحلية دون ذكر أى إشارة للحركة الوطنية العربية ولم يكن فى استطاعة الادريسى أو ابن السعود أن يشاركوا فى مجهودات الحرب ماديا أو أدبيا بشكل فعال ، ولهذا فان انجلترا قد

إكتفت منهم بالوقوف موقف سلبي فى الحرب وان كان هذا الموقف السلبي يسمح فى نفسه بتهديد الأتراك عند محاولتهم الوصول الى الخليج العربى من ناحيـــة ، ويمنعهم من استخدام سواحل العسير فى التدخل ضد ملاحة الحلفاء فى البحـر الاحمر من ناحية أخرى .

أما ابن رشيد والامام يحى فان انجلترا لم تفكر فى الاتصال بهما ، ذلك أن الاول كان قد أعلن أنه مع الأتراك منذ اعلان الحرب ، أما الثانى فلن يفضل الانضمام للانجليز مهما كانت وعودهم معسولة ، ما دامت تركيا تحتفظ فى بلاده بفرقتين عسكريتين . واتخذ الامام يحى موقف التفرج عندما زحفت القوات العثمانية من بلاده ضد محمية عدن ، وحاول المقيم السياسى أن يبدأ فى محادثات خاصة معه ، ولكن المشروع لم يؤد الى نتيجة ما إذ أن الامام احتفظ بموقفه السلبي حتى النهاية .

وعندما بدأ الشريف حسين مفاوضته مع الانجليز فى شهر يوليو سنة ١٩١٥ لم يكن الحلفاء فى موقف يحسدون عليه فى الشرق الاوسط ، وكانت عمليات لدردنيل باهظة التكاليف وفاشلة فى نفس الوقت . حقيقة أن الأتراك كانوا قد فشلوا فى دخول مصر ، ولكن خطرهم ظل باقيا على القوات البريطانية فيها ، ويجبرها على الاحتفاظ بوحدات كبيرة قرب الحدود الشرقية . ولم يكن موقف السنوسى قد وضح تمام الوضوح ، رغما عن أن الانجليز كانوا يعلمون باتصالاته مع الأتراك مما يضايقهم . ولم يمض وقت طويل حتى تحققت مخاوف البريطانيين .

أما سلطان دارفور فكان على اتصال مع السنوسى ويميل بدوره الى الانضمام الى حركة الجهاد ، وتكتيل القوى الاسلامية فى المنطقة لاخـــراج الاجـانب المستعمرين منها . كما قامت القوات العثمانية فى اليمن بغزو محمية عدن وأخرجت الجنود البريطانيين من سلطنة لحج وأصبحت على بعد عدة أميال من عدن نفسها

فاضطرت انجلترا إلى ارسال لواء من مصر لانقاذ الموقف فى جنوب الجزيرة وهكذا نجد أن القوات البريطانية قد إتخذت موقف الدفاع فى كل البلاد العربية إلا فى جنوب العراق حيث تقدمت قواتها من البصرة شمالا رغم تكبدها خسائر فادحة .

وبينما كان السير هنرى مكماهون لايفكر إلافى الاخطار التى تهدد بقاء القوات البريطانية فى مصر نفسها ، إستلم أول مذكرة من الشريف حسين .

تبادل المذكرات :

أرسل الشريف حسين مذكرته الاولى إلى السير هنرى مكماهون فى أواسط شهر يوليو سنة ١٩١٥ وأكد فيها تصميم العرب على الحصول على استقلالهم واعتقادهم فى تكامل مصالحهم مع البريطانيين ، ثم عدد الشروط التى كان مستعداً على أساسها للدخول فى تحالف مع بريطانيا لتحقيق هذه الأهداف بالنيابة عن الشعوب العربية ، وذكر أنه ينتظر الرد فى بحر شهر ، سواء بالقبول أو بالرفض وكانت شروطه هى نفس الشروط التى اتفق عليها زعماء العرب فى دمشق وأضاف اليها شرطاً ينص على اعتراف بريطانيا بالخلافة العربية فى حالة قيام العرب باعلانها وشرطا آخر ينص على أن التعاون بين العرب وانجلترا سيظل ساريا لمدة خمسة عشر عاما أو أكثر ، حسب اتفاق الطرفين . ونصت هذه المذكرة على حدود الدولة العربية بنفس نصوص اتفاقية دمشق ، ولكن الشريف شرح أن الوقت يمر بسرعة وأن من المصلحة اتفاق الطرفين على النقط الاساسية ، وترك النقط الثانوية إلى ما بعد ، إذا ما تطلبه الامر ذلك . وكتب الأمير عبد الله فى نفس الوقت خطابا إلى مستشار الشئون العربية بدار المندوب السامى البريطانى فى القاهرة ، وطلب منه فيه توصيل مذكرة والده الى الجهات المختصة ، وذكر فيه أن العرب قد قرروا الجهة التى سينضمون اليها ، مما يستدعى الاقلال من ارسال منشورات الدعاية إلى

بلادهم ، ويستدعى الحذر والحيطة فى التراسل معهم . ثم طلب الاسراع فى ارسال بعض كميات من القمح إلى الحجاز خاصة وأن ظروف الحرب قد أوقفت مجىء الحجاج من مصر ، ووقف مع ذلك إرسال الغلال إلى الأراضى المقدسة فى كل الموسم .

ولقد أجاب السير هنرى مكماهون على هذه المذكرة فى ٣٠ من أغسطس بمذكرة غير محددة الألفاظ ، والظاهر أن تعليمات وزارة الخارجية البريطانية قد وجهته إلى عدم القبول أو الرفض الصريحين لشروط الشريف . فكرر التأكيدات التى سبق لكتشنر أن أعطاها للشريف بشأن إستقلال العرب واقامة خلافات عربية ولكنه ذكر أن مناقشة هذه التأكيدات وتحديد المنطقة التى يستقل فيها العرب هى أمور غير متيسرة تحت ضغط الحرب ، خاصة وأن الأتراك لايزالون يحتلون بعض البلاد العربية ، وان بعض العرب يخدمون فى الإدارة العثمانية ، وفى القوات المسلحة العثمانية . وانهى مذكرته بوعد بارسال بعض كميات من القمح للحجاز.

وظهرت ميوعة موقف البريطانيين من أنهم كانوا يسعون إلى التحالف مع العرب والشريف من ناحية ، وكانوا - من ناحية أخرى - يضنون عليهم بالوسائل والشروط الضرورية لتحقيق هذا التحالف ، والظاهر أن البريطانيين كانوا لا يعرفون الكثير فى ذلك الوقت عن محادثات فيصل فى دمشق ، وعن وجود جمعيتى العهد والفتاة ، فاعتقدوا أن الشريف كان يتحدث باسمه شخصياً ، وربما يسعى أيضاً إلى أهداف شخصية ، وأن فى استطاعتهم كسبه بوعد بالاعتراف به كخليفة ، دون تحديد منطقة الاستقلال العربى ، أو شروط ذلك الاستقلال .

ولم يرض الشريف بهذا الرد ، وكتب مذكرة ثانية فى يوم ٩ من سبتمبر ، يظهر وضوحها وتحديد أهدافها بنفس الجلاء الذى ظهرت به ميوعة الرد الانجليزى، ولم يخف اندهاشه من تردد البريطانيين فى مناقشة الاقتراح الخاص بحدود الدولة

العربية المستقلة ، وذكر أن هـذا الاقتراح هو إقتراح العرب وليس إقتراحه الشخصى ، وأنهم قد أصروا على بنوده وتفصيله ، كشرط أساسى للعملية كلها . كما شرح أن المسألة ليست مسألة خلافة أو ألقاب ، وأصر على ضرورة بحث مسألة الحدود بحثاً وافياً صريحاً ، وأن هذا هو رأى الشعوب التى يتكلم باسمها ، بما فى ذلك الأفراد الذين تضطرهم الظروف إلى خـدمة حكامهم الأتراك . ووضح أن بداية مفاوضاته مع مكماهون تتوقف قبل أى شىء على رفضه أو قبوله الحدود المقترحة .

وضاق مجال الاختيار أمام مكماهون والسلطات البريطانية فى مصر ووزارة الخارجية نفسها فى لندن . وزادت معلومات للبريطانيين فى خلال هذه الفترة عن نشاط وأهميـة جمعيتى الفتاة والعهد ، ونمـو روح القومية العربية فى كل من سوريا والعراق .

واضطر مكماهون إلى الرد فى ٢٤ أكتوبر بمذكرة تعتبر أهم المذكرات البريطانية التى لها صيغة دولية فى موضوع القومية العربية ، إذ أنها اشتملت على التعهدات التى ترتب على اعطائها دخول العرب الحرب إلى جانب الحلفاء وستزيد أهميتها بعد نهاية الحرب عندما يحاول الانجليز الرجوع فيما وعدوا به ، فيحاولوا تفسيرها بشكل يتفق ومصالحهم ، ويجعلهم يتحكمون فى العرب ، وفى منطقة الشرق الادنى . ولقد أكد مكماهون للشريف أن عدم استعداده لمناقشة مسألة الحدود لا يعبر إلا عن اعتقاده بأن الوقت لم يحن بعد لبحث مثل هذا الموضوع ، ولكن الحكومة البريطانية قد سمحت له — بعد أن علمت أن الأمر أساسى وسريع — بأن يعطى بعض الضمانات والتأكيدات للعرب .

وتعهدت بريطانيا بالإعتراف باستقلال العرب وبتأييده داخـل المنطقة والحدود التى حددها الشريف ، باستثناء بعض أجزاء آسيا الصغرى وسوريا . كما

أن التمهد قد اشتمل فى نفس الوقت على تحفظ آخر يخص بعض الأجزاء التى تقع فى داخل المنطقة ، والتى ترتبط انجلترا بها ، باتفاقيات عقدتها مع بعض رؤساء العرب وشيوخهم .

ولقد وضح الانجليز فى مذكراتهم أربع نقط أخرى تمس مسائل مختلفة عن حدود الدولة العربية ، كانت أولها ضمان من انجلترا ضد الاعتداء على الأماكن المقدسة ، والثانية استعداد بريطانيا لمعاونة العرب على إقامة نظام إدارى لدولتهم المقبلة ، والثالثة أن العرب لن يلتجئوا إلا لانجلترا عندما يشرعون فى استدعاء المستشارين والموظفين الاجانب، والرابعة تشير إلى مصالح بريطانيا بنوع خاص فى العراق ، وضرورة إقامة إدارة فى كل من ولايتى البصرة وبغداد ، بشكل يتفق عليه فيما بعد ، ولكن على أساس تعاون بين العرب والانجليز فى إدارة هذه الأجزاء من الدولة العربية .

وختم مكماهون مذكراته بالاعراب عن أمله فى أن يؤدى هذا التمهد إلى تحالف مستمر بين بريطانيا والعرب ، وأن أولى نتائج هذا التحالف سيكون شبوب نيران الثورة العربية ، وطرد الأتراك من الأراضى العربية ، وتحرير شعوبها منهم . ولم يتحدث مكماهون — فى هذه المرة — عن مسألة الخلافة العربية ، بعد أن شعر من مذكرة الشريف السابقة أن المسألة ليست مسألة خلافة ، بل هى قيام دولة عربية قبل كل شىء .

ولقد رد الشريف حسين على هذه المذكرة بمذكرة ثالثة فى ٥ من نوفمبر ، ظهر فيها طول باعه فى صياغة النصوص بشكل ملتوى ، مما يصعب عمل رجال القانون والتاريخ ، ولكن يسهل عمل الدبلوماسى فى القضايا الدقيقة . وبدأ هذه المذكرة الجديدة بتحديد موقفه من مسألة الحدود ، فوافق على إبعاد ولاية أدنة وميناء مرسين من المنطقة العربية ، ولكنه رفض إبعاد هذه الأجزاء من سوريا

الواقعة إلى الغرب من مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب ، التي ذكرها مكماهون وأصر على أنها مناطق عربية صرفة، كما أنه رفض ابعاد الاسكندرونة. وعلى أى حال فانه قد اضطر إلى قبول التحفظات الخاصة بالاتفاقات الإنجليزية مع بعض شيوخ العرب ورؤسائهم ، ولكن باسلوب يسمح بالإعتقاد بأنه يقصر ذلك على المنطقة القريبة من الخليج العربى والبصيرة . كما أنه رفض فكرة مكماهون الخاصة بالتعاون الإنجليزى العربى فى ولايتى البصرة وبغداد فى مجموعها، ولكنه وافق على أن تستمر انجلترا فى احتلال هذه المناطق بعد الحرب — وكانت القوات البريطانية قد احتلتها فعلا فى ذلك الوقت — وذلك على أساس الإعتراف بأن هذا الإحتلال هو احتلال مؤقت ، ولا يؤثر فى السلامة الاقليمية للبلاد العربية ، وفى نظير أن تتقدم انجلترا بمساعدة مالية للدولة العربية الناشئة ، إلى أن تتوازن ميزانيتها .

ثم طلب الشريف من الإنجليز أن يضمنوا له عدم تخليهم عن العرب فى الميدان وفى وسط المعركة ، أمام القوات التركية والإمكانيات الألمانية ، وأشار إلى خطورة ترك العرب يعاملون معاملة المحاربين غير النظاميين وغير الرسميين ، وذلك فى مفاوضات الصلح ، وطلب من انجلترا أن تتعهد بتأييد مطالبهم فى أثناء هذه المفاوضات . وأظهر أنه لا يستطيع إعلان الثورة على الدولة العثمانية فى الحال ، ودون أن يمهد لها ويستعد من أجلها ، ولذلك فانه شرح بأنه لن يتمكن من القيام بأية حركة قبل أن يحصل على هذه الضمانات والتأكيدات من انجلترا ،

وجاء بعد هذا رد الانجليز بمذكرة رابعة بتاريخ ١٣ من ديسمبر يمتاز بابهامه وغموضه من جديد . فوافق مكماهون على ابعاد منطقة أدنة ، ولكنه أصر على التحفظ الخاص بالمناطق الساحلية فى شمال سوريا، ولم يستند فى ذلك إلا إلى أن هذه المناطق الساحلية فى شمال سوريا . كانت بها مصالح فرنسية . ثم شرح أن اتساع

المنطقة التى عقدت بريطانيا مع رؤسائها معاهدات خاصة يمتد إلى بلاد العرب نفسها وإلى العراق ثم تحدث عن ضرورة الموافقة على تعاون إنجليزى عربى فى الادارة المقبلة فى جنوب العراق، ولكن بشكل غامض، وترك حرية العمل لبلاده حينما ذكر أن ظروف الحرب القائمة لا تسمح بالاتفاق على التفاصيل الخاصة بها، وختم خطابه بتأكيد رسمى بأن بريطانيا لن تعقد أى صلح لا يعترف باستقلال العرب.

ولقد أرسل الشريف مذكرة رابعة فى أول يناير سنة ١٩١٦ تعامى فيها عن وضوح الرد الانجليزى بشأن الادارة المشتركة فى جنوب العراق، وحاول ألا يستغلها ويترك تسويتها إلى ما بعد، وذكر أكثر من ذلك أنه يترك مسألة الاعانة المالية البريطانية لحكمة انجلترا وعداتها. وكان الشريف يفاوض الانجليز منذ أكتوبر سنة ١٩١٤ ورأى أن مسألة استثناء بعض مناطق من سوريا من نطاق الدولة العربية يهدد هذه المفاوضات ويقضى على الجهود التى بذلها من أجل الاستعداد للثورة، فلم يرفض التحفظ البريطانى ولم يوافق عليه، بل أجله وذكر أنه لا يسعى إلى التفريق بين إنجلترا وحليفتها فرنسا، ولذلك فانه سيترك هذه المسألة جانبا طوال مدة الحرب. ولكنه شرح بوضوح أنه لن يتنازل لفرنسا أو لأية دولة أخرى عن شبر واحد من هذه الأراضى، وأنه سينتهز أول فرصة تسنح بعد الحرب لإثبات حقوق العرب على كل سوريا.

لم يطلب الشريف أى رد على المسائل التى أثارها، وكتب بطريقة تدل على أنه يعتبر الموضوع منتهيا، وكرر عزيمته على إعلان الثورة فى أقرب فرصة ممكنة ذاكرا أنه سيبلغ مكماهون حاجاته من الذخائر والأسلحة والإمداد.

ظهر خوف الشريف إذن من الآعيب السياسة الإنجليزية، ومن تغيير موقفها تجاهه وتجاه العرب، فاكتفى بالوصول إلى مبدأ الإعتراف باستقلال العرب

وأراد أن ينقذ ما حصل عليه من خطر الدخول فى تفاصيل قد تقضى على المشروع كله ، وخشى من تشبث الإنجليز بمسار الإدارة المشتركة الإنجليزية العربيـة فى جنوب العراق ، أو إصرارهم على المصالح الفرنسية فى شمال غرب سوريا، فقرر ترك هاتين المسألتين معلقتين حتى نهاية الحرب ، وكان إيمانه بوضوح المطالب العربية وشرعيتها فى كل مكان هاتين المنطقتين يمنعه من الاعتقاد إلا فى إنتصار العرب فى كل منهما ، ولكنه لم يقدر قوة المصالح الاستعمارية الإنجليزية الفرنسية وإمكانيات هذه الدول للسيطرة على منطقة الشرق الأوسط حق قدرها ، وكان قصور النظر هذا من جانبه أحد الأسباب التى ستؤدى إلى تقسيم القوى الاقليمية فى المنطقة بين عرب وأتراك ، وزيادة تمهيد السبيل لتدخل الغربيين لجنى الثمار التى اينعت .

ولقد أجاب السير هنرى مكماهون بمذكرة جديدة فى آخر يناير سنة ١٩١٦ كرر فيها المسائل السابقة وشكر الشريف على رغبته فى تحاشى خلق سوء تفاهم بين فرنسا وانجلترا . ولكنه انتهز الفرصة لكى يشرح له أن العلاقات بين هاتين الدولتين لن تفتر بعد نهاية الحرب . وكان هذا تمهيدا مقصـودا لما سيجىء ، ويدل بشكل غير مباشر على أن انجلترا لا تستطيع أن تضمن دخول هذه المناطق الغربية من سوريا داخل نطاق الدولة العربيـة التى اعترفت باستقلالها فى مذكرة ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩١٥ إذا ما أصرت فرنسا على مطالبها فى هذه المنطقة .

قيمة التعهد :

انتهت المفاوضات إذن بين الشريف ومكماهون ، وأخذا يتبادلان المراسلات عن الاستعداد للثورة ، وإظهار إخلاصهمـا للتعهدات الانجليزية العربيـة . ويمكننا أن نلخص بسهولة بنود هذه الاتفاقية ، أما التزامات كل من الطرفين

فانها لم تسجل فى هذه المراسلات ، بل قام المندوبون بالاتفاق عليها شفهيا ، وخصوصا تلك الالتزامات الخاصة بالمجهودات الحربية . وكان المفهوم بشكل واضح أن الشريف سيبذل كل مجهوده ونفوذه ويضع كل إمكانياته للعمل على هزيمة تركيا ، أما انجلترا فانها ستساعده وتمده بالسلاح والعتاد والأموال . كما أن الشريف قد اتفق على اعلان ثورة عربية من الناحية السياسية ، ويعلن أن الاتراك هم أعداء الاسلام ، وفى نظير ذلك تعهدت بريطانيا بالاعتراف بالخلافة العربية فى حالة إعلانها ، والاعتراف باستقلال العرب داخل منطقة محددة ، وتأييده .

أما حدود تلك الدولة العربية المقبلة فستكون موضوع نقاش وجدال يستمر حتى الآن وخاصة بالنسبة لفلسطين . ذلك أن العرب يؤكدون أن بريطانيا قد اعترفت بدخول ذلك الاقليم داخل حدود الدول العربية ، بينما يتبجح الانجليز بأنهم لم يعترفوا بذلك .

والحقيقة أن مكماهون لم يذكر بنفسه وبخط يده حدود الدولة العربية المستقلة ذلك أنه قبلها فى مجموعها ، كما عرضها الشريف حسين ، ثم ناقش بعض مناطق منها ، وهذا ما يدعوا إلى تأييد وجهة النظر العربية ، وهو الاعتراف بعروبة هذا الاقليم ودخوله فى نطاق الدولة العربية ، مادامت مراسلات مكماهون لم تنص عليه ، أو حتى تلمح وتشير إليه فى تحفظاتها الخاصة .

ولكنا نلاحظ أن هذه المراسلات لم تشتمل على كلمة فلسطين ، أو حتى على إسم سنجق « بيت المقدس » ، حسب التسمية العثمانية فى ذلك الوقت ، رغما عن تحديد هذه المراسلات لمناطق أخرى معينة ، حاولت أن تخضعها لشروط وتحفظات . وإن صمت مكماهون عن الاشارة لهذه الأقاليم لدليل

على إعتراف إنجلترا به داخل نطاق الدولة العربية ، التى تعهدت بمساعدتها ، وبضمان إستقلالها .

ولقد أدعى المستر تشرشل — عندما كان وزيراً للتاج فى عام ١٩٢٢ - أن الأجزاء السورية ، الواقعة إلى الغرب من مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب ، تشتمل على فلسطين ، وأدعى أن كلمة « مناطق » تعادل لفظ « ولايات » فى الادارة العثمانية ، ولكن البحث المنطقى يثبت ضحالة هذا الادعاء ، خصوصا وإن مكماهون لم يقصد بها هذا المعنى ، ولم يكن هناك ما يسمى بولاية دمشق أو ولاية حمص وولاية حماه . ولا يمكن فهم خطابات مكماهون لكلمة « مناطق » إلا على أنها بالفعل المناطق التى تحيط بهذه المدن ، ولم يتناول هذا التحفظ الا ذلك الجزء الغربى من سوريا ، والممتد من صيدا الى الإسكندرونة ، والواقع إلى الغرب من الخط الواصل بين هذه المدن الأربعة . وكان هذا هو ما حاولت بريطانيا أن تتذرع به تبريراً لسياستها ، التى عملت على إخراج فلسطين من حدود الدولة العربية المستقلة .

ولقد حاول مكماهون فى مذكرته الثالثة بتاريخ ١٣ من ديسمبر ابعاد مناطق « فى ولايتى حلب وبيروت » خارج حدود الدولة العربية ، فما الذى منعه من ذكر فلسطين أو سنجق بيت المقدس اذا ما رغب فى ذلك حقيقة ؟ إن عدم ذكره لفلسطين يؤكد أنه لم يكن إلا مدافعا عن المصالح الفرنسية وفى المناطق الساحلية الشمالية من سوريا ، وأنه لم يكن لديه أى شىء يتعلق بفلسطين .

وأخيراً فان مكماهون قد تعهد بأن تعترف بريطانيا باستقلال العرب فى كل المناطق الواقعة دخال الحدود التى اقترحها شريف مكة ، والتى سيكون لها أن تتصرف تجاهها بطريقة لا تتعارض مع مصالح حليفتها فرنسا ، فاذا كان لانجلترا عند نهاية الحرب حرية التصرف تجاه أى جزء من سوريا قالت أنها مضطرة

للاحتفاظ به لفرنسا ، فان هذا التحفظ يفقد التعهد كل قيمته وقوته فى الوقت الذى طبق فيه ، وكان من الواجب الاحتفاظ بأى منطقة لا تخضع للمصالح الفرنسية ـ وفلسطين هى إحدى هذه المناطق ـ داخل حدود الاستقلال العربى ، الذى اقترحه الشريف ، والذى وافقت عليه انجلترا رسميا .

وعلى أى حال فان هذه الحجج ستظهر فيما بعد ـ وعند مناقشة قيمة الوعود الانجليزية ومطالبة العرب لهم بتطبيقها ـ ولم نذكرها هنا إلا لأنها ثغرات سيحاول المستعمر « الحليف » أن ينفذ منها إلى قلب البلاد العربية ، ويسيطر عن طريقها على مجهودات العرب ، لبناء بلادهم والاعتزاز باستقلالهم

ثالثا ـ الثورة :

كانت فكرة الشريف الأولى تتلخص فى إعلان الثورة فى كل من سوريا والحجاز فى نفس الوقت ، وكان يرغب فى أن يقوم الحلفاء بالنزول إلى ميناء الاسكندرونة عند اعلانه للثورة ، ثم يتقدمون شرقا لاقتطاع العراق من الدولة العثمانية ويحاصرون بذلك قواتها الموجودة فى كل من سوريا والحجاز . ولكن « الحلفاء » رفضوا هذه الخطة ، وسيضطر إلى إعلان الثورة فى الحجاز نفسه ثم يسير بعد ذلك إلى سوريا .

الارهاب فى سوريا :

كانت مذكرة مكماهون الرابعة قد وصلت إلى مكة فى ١٢ من فبراير سنة ١٩١٦ فأخذ الشريف فى اتمام استعداداته للثورة. وكان موقف الاتراك قد تحسن فى ذلك الوقت خصوصا وأن الحلفاء قد تركوا الدردنيل ، وذاقت قواتهم طعم الهزائم فى العراق ، وأخذت تركيا تفكر فى اعادة غزو مصر ، وطلبت من الشريف الاسراع فى اعداد المجندين العرب اللازمين لطرد الانجليز من مصر . فاضطر الشريف إلى اظهار الطاعة لجمال باشا ، وأرسل ابنه فيصل إلى سوريا لاتمام

الاستعدادات اللازمة للتجنيد والتعاون فى الحملة المقبلة ، ولـكنه أرسل فى نفس الوقت ابنه الثانى ، على ، إلى المدينة لمراقبة الوالى التركى المقيم فيها والاتصال بشيوخ العرب والبدو فى هذه المنطقة . أما عبد الله فانه قد بقى إلى جوار والده لاتمام المؤامرة .

وكان موقف جمال باشا تجاه العرب ومعاملته لهم قد بدأت فى التغير مع الزمن وخصوصا بعد أن فشل فى الدخول الى مصر ، وزادت أمامه التقارير التى تذكر اتصال السوريين بالفرنسيين «وبالحلفاء» وأخذت فكرة نزول قوات غربية فى الاسكندرونة تتناقلها الافواه . فاشتد موقف جمال باشا صرامة بعد أن حاول جذب قلوب العرب إليه وحاول توحيد كلمة المسلمين للنزول بهم الى المعركة للدفاع عن الاسلام بل ولتحرير البلاد الاسلامية المستعمرة والمحتلة . فوافق على طلب أنور باشا بارسال القوات العربية المرابطة فى سوريا إلى جبهة الدردنيل ، وعمل على إحلال قوات عثمانية أخرى بقيادة ضباط من الأتراك فى مكانها ـ مما أثار فى قلوب العرب الخوف من ضياع امكانيات التصرف فى المستقبل من بين أيديهم ثم التفت الى السوريين الذين ذكرت أسماؤهم فى الوثائق الموجودة فى أرشيفات القنصليات الفرنسية فى بيروت ودمشق ، والتى كانت قد وقعت بين يديه ، فألقى القبض على عدد كبير منهم وكون محكمة عسكريه فى عالية بلبنان لمحاكمتهم . وأصدرت هذه المحكمة حكمها باعدام ثلاثة عشر من الموجودين فى البلاد باعدامهم خمس وأربعين من الموجودين فى الخارج غيابيا . أما الباقون فقد اختلف نصيبهم بين السجن المؤبد والنفى ثم نفذ جمال باشا حكم الاعدام فى أحد عشر من بين الثلاثة عشر ، وذلك فى يوم ٢١ من أغسطس سنة ١٩١٥ وفى ميدان «الحرية» ببيروت وكان محمد المحمصانى ، أحد مؤسسى جمعية الفتاة ، من بينهم ، وأظهروا جميعهم ثباتا واخلاصا لعروبتم فى وقت تنفيذ الحكم عليهم ، مما أظهرهم بمظهرهم

الوطنيين الثوار فى أعين الشعب العربى ، فى الوقت الذى اعتبرتهم فيه الدولة من الخونة .

وهكذا بدأت سياسة جمال باشا الجديدة فى سوريا ، وان تعمل هذه السياسة إلا على أبعاد العرب عن الأتراك ، بل ونظرهم إلى الأتراك نظرة المحتل الغاصب الذى يفرض نفسه للسيطرة على الاقاليم مستنداً فى ذلك إلى قواته العسكرية ، وهادفا الى استغلال موارد الاقاليم الاقتصادية والبشرية وفق ما يرغب. وسينظر العرب إلى اخوانهم ضحايا الارهاب التركى نظرتهم الى الشهداء فى سبيل تحقيق الامانى العربية ـ وستزيد الفواصل بين الاتراك والعرب فى الوقت الذى سيعمل فيه العرب على التقرب من الحلفاء انتقاما لشهدائهم ، ورغبة فى تحقيق أمانيهم القومية ، رغم ما فى ذلك من خطر انقسام معسكر الشرق الأدنى ، ومن إعطاء فرص للاجانب للتدخل فى شئون تلك المنطقة ، ومن خطر الانسياق وراء العواطف دون تحكيم العقل . وستقع كثير من الأخطاء فى هذه المرحلة ، ولكن البلاد العربية ستستفيد منها فيما بعد.

وصل فيصل إلى دمشق ليجد أن الجو قد تغير ، وكان يرغب فى الاتصال بالضباط العرب فى الفرقة الموجودة فى سوريا ، وفى ترتيب أمر توقيت إعلان الثورة معهم ، ولكنه لم يجد هذه الفرقة ، إذ أنها كانت قد تركت الاقليم وحلت محلها فيه فرقة أخرى بقيادة ضباط من الاتراك . كما أن الاتراك كانوا قد نفوا عدد كبير من العرب الى الاناضول ، وكانت قلة موارد التموين قد بدأت تفعل فعلها فى الشعب السورى الذى انشغل بالبحث عن قوت يومه عن التفكير فى القيام بحركات سياسية وعسكرية . وبقى عدد كبير من زعماء العرب المعتقلات والسجون فى إنتظار محاكماتهم . وهكذا فوجيء فيصل بهذا الجو الجديد . وعلى أى حال

فلقد أحسن جمال باشا مقابلته وأقام له الولائم انتظاراً لوصول الامدادات العربية الحجازية ، للمشاركة مع الجيوش العثمانية فى الحرب .

وأثبت هذه السياسة الجديدة أن جمال باشا قد أصبح يمثل رجل الدولة العسكرى أكثر من تمثيله للرجل السياسى الذى يمكنه إستمالة الشعوب الى جانبه فى هذا الوقت العصيب . وغصت السجون بالعرب فى انتظار تقديمهم للمحاكمات التى استمرت شهوراً طويلة ، والتى استخدم الاتراك فيها مع مضى الوقت أنواعا من القسوة وتعذيب المتهمين لاجبارهم على التحدث . واضطر الشريف حسين إلى التدخل ، وطالب إلى الاتراك أن يتحاشوا إراقة دماء العرب حتى لايدفعوا ببقية العرب إلى الرغبة فى الانتقام والثأر ، وطالب تحويل أحكام الاعدام إلى أحكام مؤبدة - تؤدى نتيجتها دون أن تزرع الضغائن بين المسلمين - ولكن العسكريين الاتراك امتازوا بصلابة تفكيرهم أكثر من فهمهم للسياسة ، وذهبت طلبات الشريف صيحة فى واد .

واستمر الأتراك فى شنق زعماء العرب على دفعات فى كل من بيروت ودمشق. وكان من بينهم الشيخ عبد الحميد الزهراوى الذى كان قد رأس المؤتمر العربى فى باريس قبل إعلان الحرب ، وثلاثة من النواب هم شفيق المؤيد وشكرى العسلى ورشيد الشمعة ، وكان معهم سليم الجزائرى من الضباط الاحرار فى القوات العثمانية ، وسيف الدين الخطيب والأمير عارف الشهابى ، وأحمد طبارة وعلى عمر النشاشيبى ومحمد الشنطى وجورج حداد ، والأمير عمر الجزائرى، وهو من أحفاد الأمير عبد القادر ، المجاهد الكبير ضد الفرنسيين نقلوا جميعا إلى لبنان واستعدت المشانق لاستقبال أعناق الاحرار . وعرف العرب ماينتظرهم، فساروا إلى حتفهم رافعى الرؤوس ينشدون الأناشيد العربية الحماسية. ويتغنون بحرية العرب ويهتفون باستقلال بلادهم . لقد اتسع الخرق على الراقع ، وأفلت زمام الامر من أيدى كل

من الأتراك والعرب ، وتعذر التراجع على الطرفين ، وتأججت مشاعر العرب وصمموا على العمل وعن الثورة .

إعلان الثورة :

إضطر الشريف إلى الاسراع فى العمل نتيجة لمحاكمة الأتراك العرب فى سوريا وكان قد اتخذ أهبته للعمل منذ أن علم من جمال فى أوائل ابريل أن قوة تركية تبلغ ٣٫٥٠٠ جندى ستصل إلى الحجاز فى طريقها إلى اليمن ، وكانت هذه القوة بقيادة خيرى بك ، وكان عليها أن تتعاون مع إحدى البعثات الألمانية التى ترغب فى العمل فى قنفذة ، ورأى حسين فى مجىء القوة الجديدة إلى الحجاز تهديداً لخططه .

وكان الشريف قد اتصل بكثير من شيوخ القبائل ورتب الأمور معهم، ولكن رجالهم كانوا ضعاف التسليح والتنظيم ، واضطر حسين إلى الكتابة إلى مكماهون لإرسال الأموال والأسلحة والذخائر ، وإعدادها فى بور سودان تمهيداً لنقلها إلى الحجاز سراً بمجرد الحاجة إليها ، وطلب إلى الإنجليز علاوة على ذلك محاصرة سواحل الحجاز بسفن الأسطول البريطانى . وكان لا يزال يفكر فى إمكانية قيام الثورة فى كل من سوريا والحجاز فى نفس الوقت ، ولايزال يرغب فى نزول قوات الحلفاء فى شمال سوريا ، لمعاونته على قطع خط الرجعة على الاتراك ، وضرب خطوط مواصلاتهم وتموينهم ، رغم أن الانجليز لم يتمكنوا من تنفيذ هذا الجزء الأخير من الخطة ، نظراً لمعارضة فرنسا فيه ، إذ أنه لم يكن لديها فى ذلك الوقت قوات كافية لهذه العملية الجديدة ، ولم توافق على نزول قوات بريطانية فى ذلك القطاع .

واستدعى الشريف إبنه فيصل للعودة إلى الحجاز بعد أيام قليلة من تنفيذ الاتراك لحكم الإعدام فى العرب يوم ٦ مايو ، فادعى فيصل أنه مضطر للعودة

إلى الحجاز لاتمام اعداد وتجهيز القوة الأولى من العرب الحجازيين ، والاشراف على أمر ارسالهم لسوريا، ووافق جمال باشا على ذلك، وسمح له بالعودة . وكانت القوة التركية قد وصلت فى ذلك الوقت إلى المدينة ، وأخذ ينتظر وصول أخيه فيصل على أحر من الجمر لكى يعلنا الثورة قبل أن تواصل هذه القوة سيرها صوب مكة . وترك حسين لابنيه ، على وفيصل ، أمر توقيت اعلان الثورة بالاتفاق مع شيخ القبائل المحيطة وابلاغه بها . واتفق الأميران فى المدينة على ه من يونيو ، وخرجا فى صبيحة ذلك اليوم إلى أحد المعسكرات التى تضم ١٫٥٠٠ من المجندين العرب بالقرب من المدينة ، واعلنا باسم حسين شريف مكة، استقلال العرب عن الدولة العثمانية . وبدأت بهذا ثورة العرب .

ولقد إتفقوا على إعلان الثورة فى مكة يوم ١٠ من يونيو ولم يبلغ عدد القوات التركية المعسكرة بها إلا حوالى ١٫٤٠٠ رجل إذ أن الوالى كان قد نقل بقية حاميتها إلى الطائف، نظراً لبداية فصل الصيف واشتداد درجة الحرارة بها . وبدأ الهجوم بأمر الشريف عند الفجر وهاجم العرب ثكنات الأتراك ونقط حراستها ، ولم يستخدموا فى هذا الهجوم إلا البنادق ، إذ أنه لم يكن لديهم أى قطع من المدفعية واستمر اطلاق النار لمدة ثلاثة أيام إلى أن استسلمت النقط التركية الصغيرة . أما الثكنات نفسها فانها قد تمكنت من المقاومة لمدة ٢٤ يوما إذ أنها كانت مزودة بالمدفعية ، ولها مخازن امداد وتموين تسمح لها بذلك . وفى هذا الوقت أسرع ونجت بارسال فصيلتين من فصائل المدفعية المصرية من بورسودان إلى الحجاز وأسرع العرب بنقل مدفعين منها إلى مكة ، مما أجبر الاتراك على التسليم .

وهاجم العرب جدة فى نفس اليوم الذى بدأوا فيه هجومهم على مكة ولكنهم هاجموها من الخارج ، ذلك ان الشريف محسن قاد ٣٫٥٠٠ مقاتل من قبيلة حرب

الشهيرة وحاول الدخول بهم إلى جدة ، ولكن نقص تزويد قواته بالمدفعية أظهرت ضعفه أمام قوات الدولة والحامية العثمانية التي بلغت ١٫٥٠٠ جندى . فاضطر العرب إلى الاستمرار في محاصرة جدة إلى أن جاءت قطع الأسطول البريطاني وضربت مراكز الاتراك ومواقعهم بنيران مدفعيتها ، وشارك في هذه العملية عدد من الطائرات البريطانية التي ألقت بقنابلها على معسكر الاتراك . ثم استلم قائد الحامية التركية في جدة من قائد قطاع مكة ما يثبت عدم امكان وصول امدادات جديدة اليه فاضطر الى التسليم في يوم ١٦ يونيو .

وفى أثناء ذلك الوقت سار عبد الله على رأس قوة لمهاجمة الطائف ، وذهبت قوة أخرى شمالا ، ونجحت في الاستيلاء على ينبع ، وساعدت القطع البحرية البريطانية في الاستيلاء على قنفذة . ولكن حصار الطائف كان عملية شاقة وطويلة ورغم وجود المدفعية المصرية مع قوات عبد الله فانه لم يحاول الهجوم على هذه المدينة ، بل ظل يحاصرها وهو واثق من النتيجة ، ورفض كل عرض تقدم به الاتراك للاتفاق على المدنة ، حتى اضطرت الحامية العثمانية إلى التسليم بدون قيد أو شرط في يوم ٢١ من مارس . وكان غالب باشا ، القائد العام للقوات العثمانية في الحجاز بين الأسرى في هذه المدينة .

وثبتت الثورة العربية بذلك موقفها ، واستولت على كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر ، علاوة على ستة آلاف أسير تركى ، وأصبحت تسيطر على كل الحجاز ما عدا المدينة .

ازدياد الارهاب :

ولقد تسبب وصول أنباء الثورة العربية في ذهول كل من الاتراك والألمان الذين لم يتوقعوا حدوث مثل هذا الشيء ، وفى هذا الاقليم الاسلامى بالذات ، وضد الدولة التي تتزعم العالم الاسلامي وتحافظ على الخلافة. واخفى الاتراك كل

أخبار هذه الثورة عن الرأى العام لمدة ثلاثة أسابيع، ثم بدأت الصحف فى التحدث عن هجوم بعض رجال القبائل على المواقع العسكرية قرب المدينة وتلى ذلك مرسوم سلطانى بعزل الشريف حسين من سلطاته، نشر فى يوليو، وبتعيين أمير مكة بدلا منه . ولم تنشر تفاصيل الحوادث إلا قرب نهاية هذا الشهر ووصف الاتراك الشريف فيها بقيامه بحركة تمرد شخصية نتيجة لاتصاله بالانجليز، وحاولوا اقناع الرأى العام بان القبائل العربية فى الحجاز لازالت على ولائها للخليفة أمير المؤمنين وبدأت الدولة حملة دعائية وخاصة فى سوريا والعراق لاقناع العرب بأن كل شىء جاهز فى بلاد الحجاز، وتخللها كثير من الأخطاء الدعائية، وهى التى ذكروا فيها التجاء أبناء الشريف إلى السفن الحربية البريطانية .... وغير ذلك .

وتسببت وصول أنباء الثورة العربية فى موجة جديدة من الارهاب قام بها جمال باشا فى سوريا، فبدأ فى اصدار الأوامر بالقبض على زعماء العرب جزافا واستخدم التعذيب وسيلة لاستخلاص المعلومات منهم . وذاق هذه المعاملة شكرى باشا الايوبى رغم تقدمه فى السن وعبد الحميد باشا القلتاجى وزكى بك العظمة والشيخ فارس الخورى . ولم يتحدث أى منهم وقام شكرى القوتلى عضو جمعية الفتاة بمحاولة الانتحار وقطع أحد شرايينه إحتراسا من أن يتوصلوا بطريقة أو باخرى إلى اضعافه واجباره على افشاء أسرار اخوانه المجاهدين . وأسرعت السلطات فى تلفيق الادعاءات والتهم واعداد الوثائق لادانة الأحرار إرهابا لغيرهم ولم يقلل من هذه الموجة الارهابية إلا تدخل فيصل وتهديده لجمال باشا باذاقة نفس المعاملة لضباط الاتراك الاسرى فى الحجاز وأنه سينفذ حكم الاعدام فى عشرة منهم مقابل كل شهيد عربى . فاضطر الاتراك ـ مؤقتا ـ إلى وقف هذه المعاملة، ولكنهم احتفظوا بزعماء العرب فى السجون .

وقامت السلطات العثمانية بالقاء القبض على عدد كبير من زعماء السوريين ونقلهم الى الاناضول ، وزادت الاحكام العرفية من سلطة العثمانيين الذين سيطروا على لبنان بشكل يتعارض مع نظام الاستقلال المحلى الممنوح فى سنة ١٨٦٤ .

وزاد الامر سوء بنقص المواد الغذائية فى الاسواق ، وخصوصا بعد هجوم الجراد على الشرق الاوسط فى العام السابق ، وتعاون ذلك مع سوء الادارة العثمانية وفسادها وفقر الشعب على الوصول بالسوريين إلى حالة يرثى لها ماديا وأدبيا ونفسانيا .

وزاد ارهاب الاتراك العرب فى العراق أيضا بنفس الشكل الذى ساد به فى سوريا . وكانت العراق تمتاز على سوريا بوجود عدد كبير من ابنائها فى صفوف القوات العثمانية ـ وكانوا فى نفس الوقت منضمين إلى جمعية العهد . ولكن الشريف حسين لم يحاول اشراك العراقيين معه فى الثورة بشكل جدى ويرجع ذلك الى الدور الذى كان على سلطات الهند والمسلمين فيها أن يلعبوه فى تلك المسألة كان معظم الهنود المسلمين يدينون بالطاعة والولاء للخلافة الاسلامية ويحاولون الالتفاف حولها لتخليصهم من حكم الانجليز واستعمارهم ، وظهر أن لسلطات الهند مطامع استعمارية واضحة فى العراق ، وأصبح المسلمون الهنود لذلك من المعادين لفكرة الثورة العربية ، واعتبروها ثورة على سلطة الاسلام وخطراً يهدد وحدته ولم يكن الشريف حسين قد توصل من ناحية إلى اتفاق واضح مع انجلترا بشأن مستقبل العراق ، فتعاونت كل هذه العوامل على الا يحاول الاستناد إلى أهالى العراق بدرجة كبيرة فى الثورة العربية .

أما فى بلاد العرب فان نبأ اعلان الثورة لم يدفع ابن الرشيد أو امام اليمن إلى معاداة الاتراك ، ولكنه قطع مواصلاتهم معهم ومنع عنهم المعونة التى كان فى استطاعة تركيا أن تمدهم بها . أما بقية رؤساء العرب فانهم لم يخفوا ابتهاجهم

بهذه الثورة وكان على رأسهم شيخ الكويت ـ المرتبط مع الانجليز باتفاقيات خاصة ـ وابن سعود الذى حض العرب على الانضمام للثورة ونشر الانجليز آلاف النسخ من خطابه فى جميع انحاء البلاد العربية .

ووصلت أنباء الثورة العربية إلى مصر والسودان فى وقت دقيق فى تاريخها، إنقسم فيه الرأى العام بين مؤيدى الخلافة وبين مؤيدى العرب وكانت القوات البريطانية تقوم فى ذلك الحين بعمليات عسكرية ضد السنوسيين فى الصحراء العربية وضد السلطان دينار ـ سلطان دارفور ـ فى غرب السودان ، وكان كل منهما من أنصار الفكرة الإسلامية وحاولوا إبعاد المستعمرين الأجانب من بلادهم منفذين بذلك خطة الجامعة الاسلامية ومجاهدين فى سبيل البلاد الاسلامية جمعاء .وكانت انجلترا قد جمعت قوة عسكرية كبيرة ، وبدأت فى الهجوم على الواحات المصرية ومرسى مطروح ، وعملت على طرد السنوسيين منها غربا إلى السلوم ، وقامت قوات أخرى بمهاجمة سلطنة دارفور من السودان ، من الخرطوم وكردفان ، لاخضاع إقليمه لسلطة ونجت ، الحاكم العام .فانتهزت السلطات البريطانية فى القاهرة وصول أنباء الثورة العربية واستندت إلى السلطات التى منحتها لنفسها فى ظل الأحكام العرفية لرقابة كل الأخبار التى قد تفيد تركيا ، وانتشر الأخبار التى تخدم قضية « الحلفاء » ، وكانت هذه ضربة قوية لرجال الحزب الوطنى ، الذين كانوا قد انتهزوا فرصة دخول تركيا الحرب لمحاولة التخلص من حكم الانجليز وسيؤدى الأمر إلى نشوء زعامات أخرى داخل المحيط المصرى ، تعمل على سياسة المفاوضة مع المحتل الذى فرض حمايته ، بدلا من مبدأ « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » الذى رفض به رجال الحزب الوطنى الاعتراف بأى شرعية لوجود الانجليز فى مصر .

انقسم العالم العربى إذن الى معسكرين ـ عربى ، وإسلامى ـ وجاءت أخبار

إعلان الثورة العربية مؤيدة الكفة الأولى ، وتعاون فى ذلك نشاط الانجليز وضعف الأمل فى أن تقدر تركيا وألمانيا على تقديم عون يذكر . ولقد نشر الشريف نداء كل المسلمين بانتهاج طريقه وذكر أن هذه الثورة تستند إلى الاسلام وإلى القومية العربية ، وشرح أن جمعية الاتحاد والترقى بعيدة كل البعد عن قواعد الاسلام ، وأن الارهاب الذى خلقه جمال باشا وطلعت وأنور عملوه بالجرائم التى ارتكبت فى حق هذا الدين ، وأظهر أن الثورة هى واجب دينى ووطنى مقدس، وطلب الالتفاف حوله كشريف مكة ومجاهد اسلامى يعمل على توحيد كلمة المسلمين . وكان هذا النداء أكبر صدمة أصابت الدعوة للجهاد ، تلك الدعوى التى نشرها الخليفة على المسلمين فى أول دخول تركيا الحرب .

ولم يخف جمال باشا حنقه من تأثير صدور نداء الشريف من الأراضى المقدسة، ومن شريف من السلالة النبوية ، وتوجيه هذا النداء ضد الخلافة الاسلامية ، وفى صالح الدول المسيحية الاستعمارية ، خاصة وأن هذه الثورة ستضطر تركيا الى تقسيم قواتها ، ومحاربة العرب ، وهم مسلمون ، بدلا من مساعدتها على الهجوم على قناة السويس وتخليص مصر من المحتلين الغرباء ، وذلك فى وقت وبطريقة توفر على الدول الاستعمارية مجهوداتها ، وتجعلها تترقب - وهى مستريحة - نتائج هذه المعركة ، ثم تتدخل لاستغلال الموقف .

تنظيم قوات الثورة :

عملت الثورة العربية على شغل تركيا ، كما أنها أفسدت الخطط الاستراتيجية العالمية لألمانيا : ذلك أنها تسببت فى فشل البعثة الألمانية التى كانت تسعى إلى الوصول الى جنوب الجزيرة العربية - بمساعدة القوة التركية الخاضعة لخيرى بك - وذلك لتدعيم حكم الاتراك فى البلاد العربية ، ومحاولة فتح ميادين جديدة ضد قوات « الحلفاء » . وكانت هذه البعثة تسعى الى اقامة محطة لاسلكية لوصل القوات

الألمانية فى شرق افريقية بألمانيا عن طريق الدولة العثمانية ! وكان عليها أن تنظم أعمال الدعاية فى الصومال والحبشة والسودان وكان الصومال فى ثورته المجيدة التى خاضها « المهدى » ضد المحتلين الأجانب لبلاده وكان فى استطاعة هذه البعثة مساعدات القوات التركية فى اليمن فى الهجوم على عدن . وترتيب أمر ارسال السلاح الى الصومال والارتريا وشرق السودان ، للثورة على حكم الانجليز والايطاليين . وكان فى استطاعة هذه البعثة أن تؤثر على عمليات الملاحة فى البحر الأحمر وتساعد على القضاء على الأدريسى فى العسير، وتفتح أمام الالمان مخرجاً للعمل على المحيط الهندى نفسه ولقد اضطر معظم أعضاء هذه البعثة إلى العودة إلى دمشق، إذ أن اعلان الثورة العربية فأجاهم وهم فى ينبع، فألقوا بمهاتهم إلى البحر، وفشل جزء هام من الخطط الاستراتيجية الالمانية .

وعلى أى حال فان الشريف قد احتاج لبعض الوقت لتثبيت دعائم مكاسبه ، خاصة وأنه لم ينجح فى الاستيلاء على المدينة ، رغما عن استيلاء قواته على الطائف فى شهر سبتمبر . ومرت بالشريف فترة عصيبة : ذلك أن القوات التركية فى المدينة ، ورجال حملة خيرى بك كانوا يقربون من ١٤٠٠٠ جندى ، مجهزين بمدفعية لا يوجد مثلها مع العرب ، وبدأ أن استطاعة الأتراك أن يهاجموا مكة من جديد . وفكر بعض العرب فى ذلك الوقت فى طلب العون من انجلترا ، لارسال قوات تساعدهم على الانتصار على الاتراك . ولكن هذه الفترة مرت حينما قامت القوات العربية بقيادة فيصل بالسير شمالا وبالاستيلاء على الوجه بمساعدة البحرية البريطانية فى شهر يناير سنة ١٩١٧ . وفى خلال هذه الفترة أرسل الحلفاء بعثات انجليزية وفرنسية إلى جدة ، فوصل الكولونيل ويلسون ، وهو فى خدمة إدارة الشئون السياسية فى حكومة السودان لتنظيم إتصال الشريف بالسلطات البريطانية فى مصر والسودان، ثم وصل بعده الكولونيل بريمون

الفرنسى . ثم جاء بعدهم لورنس الشهير . وكانت مهامهم استشارية بحتة ، ولكن انجلترا لم تخجل عندما أصدرت أمرها بتعيين ونجت (مديراً للعمليات فى الحجاز) رغم أنها اعترت بعد ذلك بأن هذا لايعنى سوى تنظيم ارسال المعونة البريطانية وظل ونجت مسؤولا عن الشئون السياسية والعسكرية الخاصة بالتعاون الانجليزى العربى ، حتى بعد أن استلم مهام منصبه الجديد فى القاهرة ، كمندوب سام بريطانى فى مصر .

ولقد استطاعت بريطانيا أن ترسل عزيز على المصرى إلى الحجاز لتنظيم قوات العرب بعد أن أطلعته على مراسلاتها مع الشريف حسين . وأخذ هذا الضابط النشط يعمل على خلق جيش عربى جديد . ولكن رجلا فى حرص الشريف ومكره ، لم يكن ليأمن لمثل هذا النشاط ، فعمل على التخلص منه . وأرسل الانجليز جعفر العسكرى ، الذى كان قد وقع أسيراً فى أيدى الانجليز ، وعدد آخر من الضباط العرب ، الذين وقعوا أسرى فى أيديهم ، لتنظيم قوات العرب فى الحجاز ، وكان من بينهم نورى السعيد ومولود مخلص العراقى الأصل . والذين كانوا أيضا أعضاء فى جمعية العهد .

وأعلن الشريف حسين نفسه ملكا فى الثانى من نوفمبر ـ ذلك أنه جمع عدداً من شيوخ العرب ورؤسائهم ونادوا به (ملكا على البلاد العربية) وبايعوه ، وأسرع ابنه عبد الله ، وهو الذى كان يصرف الشئون الخارجية لوالده ، بابلاغ ذلك إلى دول الحلفاء والدول المحايدة ، وطلب الإعتراف به . ولم يكن الانجليز أو الفرنسيين يرغبون فى رؤية البلاد العربية تفلت من بين أيديهم ، فردوا عليه بمذكرتين متطابقتين ، يعترفان فيهما به ملكا على الحجاز .

وهكذا انتهت صفحة خاصة من صفحات الثورة العربية . ثبتت هذه الثورة

على أقدامها باستيلائها على الوجه وفشل الأتراك فى إعادة احتلال مكة ، وبقيت قواتهم محاصره فى المدينة .

وانقسمت قوات الثورة إلى ثلاث فرق كبرى كل منها بقيادة واحد من أبناء حسين ، الأولى بقيادة على ، ومعسكره أمام المدينة ، والثانية بقيادة عبدالله وعملت على مهاجمة الأتراك فى الشمال ، والثانية بقيادة فيصل فى الوجه وتستعد لاتخاذها قاعدة لعمليات جديدة هامة . وزادت قوات العرب من حوالى ٣٠٫٠٠٠ لديهم ١٠٫٠٠٠ بندقية إلى حوالى ٧٠٫٠٠٠ مزودين ب ٣٠٫٠٠٠ بندقية . وعملت هذه القوات على أسر ٦٫٠٠٠ جندى تركى وقطع مواصلات ٢٠٫٠٠٠ أخرى مع سوريا واضطرت الأتراك إلى زيادة حامياتها فى معان فى شرقى الاردن إلى سبعة آلاف هذا خلاف ثلاث فرق تركية كانت موجودة فى اليمن والعسير قطعت كل أمل فى الاتصالات بالدولة .

أما من وجهة نظر الحلفاء فان هذه الثورة قد قطعت الطريق أمام انتشار النفوذ الألمانى والعمليات الألمانية جنوبا فى البحر الأحمر والمحيط الهندى . وجاء إنضمام ابن سعود للانجليز وخلق منطقة (صداقة بريطانية) تمتد من البحر الأحمر حتى الخليج العربى ، وتساعد هذه الدولة الاستعمارية على إنشاء خطوط مواصلات جديدة ، تسهل لها استراتيجيتها . وتقدمت القوات البريطانية لاحتلال فلسطين ، وهى مطمئنة على جناحها الأيمن من أى هجوم تركى . وبعد احتلال العرب لناحية الوجه شعر البريطانيون أن القوات التركية التى تحارب العرب أكثر من القوات التى تحاربهم فى تقدمهم فى فلسطين .

رابعا : اشتراك العرب فى الحرب :

يعتبر استيلاء العرب على ناحية الوجة فى ٢٥ من يناير سنة ١٩١٧ نقطة فاصلة فى تاريخ الثورة العربية ، ويعتبر استيلاء العرب على العقبة هو بداية دخولهم فى

الحرب بالفعل . ولم يصلوا إلى ذلك إلا بعد بضعة أشهر من الاستعداد العسكرى والسياسى ، فى الثلاث معسكرات العربية.

الاستيلاء على العقبة :

ولقد ازدادت مع الزمن كمية الأسلحة والذخائر فى أيدى العرب ، وازداد تبعا لذلك تأثيرهم على الاستراتيجية التركية . ولم يتكرم الانجليز بتزويدهم بقطع كثيرة من المدفعية ولكنهم لم يضنوا عليهم بالبنادق والذخائر. وبدأ العرب يهاجمون سكة حديد الحجاز وتمرنوا باشراف لورنس على استخدام المفرقعات وعلى بعض أعمال النسف والتخريب ، ولو أنهم لم يبدؤا إلا بمحاولات لرفع القضبان الحديدية لتعطيل سير القطارات . وعمل العرب على أسر قوافل تموين الإتراك المرسلة إلى ابن رشيد . كانت مساهمة البريطانيين فى هذه العمليات هى مساعدات فنية ، قامت بها حفنة من الإخصائيين البريطانيين المرسلين لهذا الغرض كما أن الفرنسيين ساهموا بأرسال بعض العسكريين من الضباط المراكشيين والجزائريين لمعاونة العرب على تدريب قواتهم .

وبينما كان فيصل يعسكر فى ناحية الوجه ويستمد منها للهجوم على الأقاليم السورية ، بقى اخوانه الثلاثة ـ على وعبد الله وزيد ـ معسكرين حول المدينة ، مواصلين حصارها ، إذ أنه لم يكن من السهل عليهم قذفها بالمدفعية ، وبها قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وعمل فيصل على تعبئة قوى العرب حوله تمهيداً للزحف شمالا ، واستند فى ذلك إلى الأموال التى وضعتها بريطانيا تحت تصرفه ، وإلى نفوذه ونسبه بين العرب ، وإلى مسألة القومية العربية وضرورة تضامن العرب وتعاونهم على تحرير بلادهم من المحتلين الأتراك وإعادة عزة العرب إلى ما كانت عليه من قبل . واضطر فيصل فى أثناء هذه الفترة إلى أن يعمل على التوفيق بين القبائل العربية

المختلفة ، ويحل مشا كلها المعقدة ، ويحكم فى الثأر بين قبيلة وأخرى ولم يكن هذا العمل هينا بعد قرون طويلة من الجهل والضغائن والأحقاد والدسائس وتضارب المصالح ، ولكنه كان عملا ضروريا وأساسيا لتنظيم القوات العربية وتعبئتها . وأخذ يتصل بزعماء العرب وشيوخ القبائل فى جنوب وشرق سوريا ، وفى الاقاليم الذى أصبح الآن شرقى الأردن . وكان العرب يعشقون الحرية ويستميتون فى الحرب من يومهم ، فوصلت كلمات فيصل إلى أذان غير صماء ، واستطاع أن يكون القوة العربية التى سيسير على رأسها فى عملياته الحربية المقبلة .

وكلف فيصل أحد رؤساء القبائل العربية بالهجوم على العقبة ، وأرسل فى نفس الوقت أحد أبناء أعمامه ، وهو الشريف ناصر ، مع لورنس للاتصال بزعماء الحركة العربية فى سوريا ، وشرح لهم أنه سيزحف لتحرير سوريا على مراحل ، وإن المرحلة التالية ستكون العقبة . وطلب منهم إغراء العرب على ترك الخدمة فى القوات العثمانية والحضور لمقابلته فى العقبة . وعند عودة هذه البعثة من سوريا ، بعد اتصالها برضا باشا الركابى ، الضابط فى القوات العثمانية ، قابلت القوات العربية التى تستعد للهجوم على العقبة واعتمد العرب فى هجومهم على هذه المدينة على المفاجأة ـ ورغم نقص تموينهم وانهاكهم الجسدى فانهم قد تمكنوا من الانتصار على الكتيبة التركية المعسكرة هناك ، والتى أصبحت قوتها موزعة بين القتلى والاسرى . ثم هاجموا النقط العسكرية القريبة من العقبة وبلغ عدد القتلى من الاتراك ٦٠٠ وأسراهم ٧٠٠ .

انتقل مسرح الحوادث اذن بالاستيلاء على العقبة من الحجاز الى الشام ، وأصبح جيش فيصل عبارة عن ميمنة القوات البريطانية التى تقدمت من مصر لاحتلال فلسطين ، ثم كان عليه أن يزحف على سوريا ، أى أن يشغل القوات

العثمانية فى الشمال ، حتى يسهل تقدم قوات اللورد اللنبي من الجنوب . وكان على فيصل أن يعمل فى توافق مع خطط قيادة هذا الجنرال الانجليزى .

وكانت القوات البريطانية فى مصر قد قابلت صعوبات كثيرة فى العالم السابق حينما حاول السير ارشيبالد موري التقدم وراء الاتراك فى شبة جزيرة سيناء . ولكنها تمكنت فى أوائل عام ١٩١٧ من الوصول إلى حدود فلسطين وان كانت قد فشلت فى شهرى مارس وأبريل فى الهجوم الذى شنته على غزة التى استعصت عليها وسبحت انجلترا هذا القائد وعينت اللنبي مكانه . ووصل القائد الجديد إلى القاهرة فى أواخر شهر يونيو وما أن استلم قيادته حتى بلغته أنباء استيلاء العرب على العقبة مما عمل على تغيير الموقف .

ولقد استغل الجنرال اللنبي هذا الانتصار العربى لتأمين ميمنته وأسرع بأن وعد فيصل بأنه يمكن الاعتماد عليه فى كل مساعدة أو معونة . ووصل فيصل إلى العقبة فى شهر أغسطس فوجدها قد تحولت إلى قاعدة للحلفاء إذ أن الانجليز قد أعدوا المطارات إلى جوارها ونصبوا فيها أجهزة اللاسلكى وأقاموا على الساحل مقالات لانزال المهمات والتموينات والذخائر من السفن وقطع الاسطول . وأصبحت القوات العربية فى العقبة هى تلك القوات التى تم تدريبها بالخبراء الأجانب فى ناحية الوجه وأضاف الانجليز اليها بعض قوات من العرب والبدو كانوا قد جندوها من سيناء وجنوب فلسطين ، لكى تصبح نواة الفيلق العربى فيما بعد وأسرع الحلفاء باعتبار مدينة العقبة خارج المنطقة المحرمة على المسيحيين فى الحجاز ، ولم يتباطؤا فى ارسال الضباط الانجليز والفرنسيين اليها . وأحد هؤلاء الضباط يعملون كخبراء للقيادة العربية أو رؤساء لتشكيلات المصفحات والطيران ووحدات الهجانة التى كانت قد أثبتت جدارتها فى السودان وعلى الحدود المصرية .

وأصبح فيصل لا يبعد إلا بمائة وخمسين ميل عن خطوط الانجليز فى فلسطين -

وكانت قيادته متصلة بقيادتهم بالطيران واللاسلكي . وكانت أكبر قوة تركية تواجهه تعسكر في معان ، وكان عليه أن يشغلها في هذا القطاع . حتى يوفر على الانجليز عناء لقائها . وستسير قوات الثورة العربية بقيادة فيصل الوطني وابن الشريف باسم تحرير العرب ، ولكن في خدمة « الحلفاء » .

الانجليز والالمان :

أصبحت العقبة مركزاً هاما للدعاية للحلفاء في الشرق الأدنى ، علاوة على أهميتها لهم من الناحية العسكرية .

واختلفت مظاهر هذا النشاط السياسي ، وإن كانت كل هذه المظاهر تغطي قوى تسعى إلى اضعاف تركيا وتحاول جذب العرب في سوريا الى جانب الحلفاء واستند الحلفاء إلى أن أهدافهم تتطابق مع أهداف العرب منذ اتفاقهم مع الشريف حسين وإلى أن إنتصار الجيوش الغربية يعني تحرير العرب من حكم الاتراك .

وقامت إدارة الشئون العامة التابعة لقوات الاحتلال البريطانية في مصر بتنظيم حملة قوية من الدعاية على هذه الأسس منذ بدء إعلان الثورة في الحجاز . وما أن تقدمت القوات البريطانية في سيناء سنة ١٩١٦ حتى اتصل الانجليز بشيوخ العرب ورؤساء القبائل في جنوب فلسطين ، يدعونهم إلى عدم التعاون مع الاتراك ، وانتظار مجيء قوات الحلفاء . وأطلع الانجليز هؤلاء العرب على خطابات شخصية من الشريف حسين يدعوهم فيها إلى التعاون مع البريطانيين الذين يعملون لتحرير العرب . وأخذت الطائرات البريطانية تحلق فوق معسكرات الاتراك . وتلقي بهذه المنشورات ، وبأخرى تدعو الجنود والضباط العرب في القوات العثمانية الى الهرب وعبور الخطوط لمقابلة مندوبي شريف مكة .

وسار فيصل من ناحيته على نفس هذه الخطوط ، فأخذ يتصل بزعماء العرب ورؤساء العشائر في سوريا . ولم يطلب منهم القيام بثورة علنية ضد الأتراك ،

بل اقتصر فى طلبه فى ذلك الوقت على عدم التعاون مع القوات العثمانية والفرار منها والاتجاه إلى قوات العرب .

ولقد أعطت هذه السياسة بنتائج واضحة على الموقف العام العربى ، ونجحت إلى درجة بعيدة ، حتى أننا نجد فرسان العرب الذين يحاربون مع الأتراك فى بير سبع يبتعدون عن أرض المعركة ثم يعودون إلى الظهور فى ميمنة القوات البريطانية المتقدمة صوب غزة . واضطر الأتراك نتيجة لذلك إلى إخلاء العريش ، ثم اضطروا إلى التقهقر وعدم التمكن من الصمود نتيجة لفرار الجنود العرب وانضمامهم إلى القوات البريطانية . وواصل الجنود العرب فرارهم طول فترة تقدم اللينبى صوب القدس ، وانضم بعضهم إلى الانجليز وانضم الآخرون إلى إخوانهم العرب فى العقبة .

وحاول الأتراك أن ينظموا إدارة للدعاية العربية فى دمشق ، بمساعدة بعض الخبراء الألمان . واضطر الأتراك إلى تغيير سياستهم العربية ، وبعد وعيدهم وتهديدهم لكل من يضبط لديه أية منشورات من التى ألقاها الإنجليز ، نجد أنهم يصدرون نداء إلى كل العرب المنضمين إلى الشريف حسين يعدونهم فيه بالعفو التام إذا ما تمكنوا من العودة . ولكن هذه الدعاية التركية لم تؤد إلى نتيجة لها قيمتها ، وواصل العرب فرارهم من الصفوف العثمانية ، حتى أن الأتراك أصبحوا يحاربون وكأنهم فى أرض غريبة معادية فى أثناء محاولتهم ضد التقدم البريطانى فى فلسطين ، أما الإنجليز فانهم قد اعترفوا بأن حملتهم كانت تسير بين شعوب موالية . وأدت هذه الدعاية إلى نتائج تفوق فى قيمتها ما أدت اليه العمليات العسكرية نفسها .

وتعتبر هذه الفترة فى غاية الأهمية بالنسبة للنتائج السياسية التى أدت اليها ، وبالنسبة للطرق التى أتبعتها انجلترا فيها ، وخاصة فى فترة ما بعد الحرب ،

واحتدام النقاش حول مستقبل فلسطين وسينشأ هذا النقاش حول كل البلاد العربية المحيطة بالجزيرة العربية نفسها ، وسيستدعى ذلك من العرب أن يعودوا إلى حمل السلاح مرة جديدة ، بعد أن يروا نقض « الحلفاء » للعهود والوعود .

ولقد رأينا عند التحدث عن المراسلات الانجليزية العربية بين حسين ومكماهون أن الانجليز لم يستثنوا أراضى فلسطين من المنطقة التى تعهدت بريطانيا بالاعتراف بها كدولة عربية مستقلة ، وتدل حملة الدعاية التى قام بها البريطانيون منذ سنة ١٩١٦ على أنهم كانوا مقتنعين ، مثلهم فى ذلك مثل العرب، بأن فلسطين تقع داخل نطاق هذه الدولة العربية المستقلة . ذلك أن المجهودات التى بذلها الانجليز لمحاولة كسب العرب فى هذا الاقليم إلى جانبهم لم يقوموا بها إلا باسم الملك حسين ، وباسم تحرير العرب . ولقد استخدموا ذلك فى كل المناطق السورية فيما عدا اقليم لبنان الذى لم يذكروا إطلاقا اسم حسين فى المنشورات التى وزعت فيه بل أشاروا فيها دائماً إلى مجهود فرنسا واستعدادها لتحسين أحوال لبنان. ويعود هذا الاختلاف إلى التحفظ الذى أبدته فرنسا على مراسلات مكماهون ، ويدل فى نفس الوقت على أن الحلفاء قد عاملوا فلسطين حتى ربيع سنة ١٩١٧ على قدم المساواة مع كل المناطق السورية التى تعهدت انجلترا رسميا وبدون أى تحفظ بالاعتراف بها داخل نطاق الدولة العربية ، وبالدفاع عن وحدتها واستقلالها .

الاستعداد الأخير :

تمكنت قوات اللنبي من الاستيلاء على غزة والخليل ويافا وبيت لحم ثم أخذت فى الاستعداد منذ شهر أكتوبر للهجوم على القدس ونجحت فى دخولها فى يوم ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧ . وعند نهاية هذا العام كانت فلسطين تخضع للاحتلال الانجليزى .

وكان ترحيب الاهالى بمجيء الانجليز أكبر معاون لهم على التوغل فى فلسطين

خصوصا وأن بعض الأعراب كانوا يتطوعون بتزويدهم بالمعلومات عن أماكن القوات العثمانية وقوتها وتحركاتها . وأنشأت القيادة البريطانية إدارة للتطوع فى قوات الأمير فيصل العربية من بين أهالى فلسطين ، ولعب الحاج أمين الحسينى دوراً عظيما فى تجميع وتنظيم هذه القوة العربية الجديدة .

وحاول الانجليز القيام بهجوم على عمان فى خلال شهر يناير سنة ١٩١٨ واعتمدوا بطبيعة الحال على قوات الأمير فيصل للقيام بعملية مشتركة ـ ولكن القوات العربية لم تتمكن من تنفيذ ذلك الجزء الخاص بها من الخطة ، واضطر الانجليز إلى العودة غربا فى فلسطين . ورأى فيصل من ناحيته صعوبة الدخول فى عمليات مشتركة فى ذلك الوقت ، فقصر عملياته على محاصرة معان استعداداً للاستيلاء عليها .

ولقد حاول الأتراك والألمان فى هذا الوقت الاتصال بفيصل وإغرائه على الانضمام إليهم ـ ولكن الأمور كانت قد تطورت ، كما أن النفوس كانت قد تغيرت ـ وواصل العرب محاصرتهم لمعان وهجومهم على سكة حديد الحجاز مما اضطر الأتراك إلى التفكير فى سحب الحامية العثمانية التى كانت لا تزال فى المدينة وعلم فيصل بهذه الخطة فى أواسط شهر مارس ، وخشى من أن يترتب عليها تقوية الحامية التركية فى معان ، واستخدامها فى الهجوم عليه أو فى وقف تقدم القوات الانجليزية ـ العربية شمالا فى سوريا ، فتشاور فيصل مع اللنبى ووضع خطة تهدف إلى أحكام حصار معان وأحكام حصار المدينة فى نفس الوقت وقطع خطوط مواصلاتها مع الشمال بشكل نهائى .

قسم فيصل قواته إلى ثلاث وحدات وزودتها السلطات البريطانية بعدد من السيارات المصفحة وقوة من سلاح الحدود (الهجانة المصرية) ، ثم بدأ بها الهجوم منذ أوائل إبريل على خطوط المواصلات التركية . فهاجم خط السكة الحديدية بين عمان ومعان ، وإلى الجنوب من معان ، بينما قامت الوحدة الثالثة بقيادة

جعفر باشا العسكرى باحتلال ضواحى معان وتحطيم الاستحكامات الموجودة إلى الشمال وإلى الجنوب منها . فشلت خطة الأتراك فى سحب حاميتهم من المدينة . وحاولت قواتهم ، المحاصرة فى معان الخروج والهجوم على قوات جعفر العسكرى ولكنها فشلت فيما هدفت إليه .

وفى خلال ذلك الوقت واصل كل من على وعبد الله مهاجمة القوافل العثمانية التى سافرت فى بلاد العرب متجهة إلى ابن الرشيد وأسروا رجالها واستولوا على التموين والذخائر التى تحملها .

وهكذا نجد أن القوات العربية كانت تحاصر وتشغل القوات العثمانية الموجودة فى معان والموجودة فى المدينة وهى ما توازى فى قوتها بقية القوات العثمانية الموجودة إلى الشمال من القوات البريطانية . شغل العرب إذن نصف القوات العثمانية وحموا ناحية البريطانيين من أى هجوم عليها ، كما أنهم سدوا الطريق أمام هذه القوات الموجودة فى المدينة بنوع خاص من القيام بأى حركة التفاف والهجوم على البريطانيين من الخلف ، وقطع خطوط رجعتهم إلى مصر . أما الأتراك فكان عليهم أن يروا قواتهم منقسمة واضطروا إلى بذل نصف مجهودهم فى الحرب ضد العرب بدلا من الاحتفاظ بكل قوتهم لمواجهة البريطانيين .

انتظر اللنبى مجىء إمدادات من الهند ومن جنوب العراق وأخذ يستعد للهجوم العام على كل سوريا . وبلغت قواته ضعف القوات العثمانية الموجودة أمامه . واستند إلى القوات العربية للقيام بعمليات مشتركة . فعمل على قطع مواصلة سكة حديد الحجاز الذاهبة لحيفا وإجبار القيادة التركية على إرسال قوات إلى مكان هذه المواصلة بشكل يفسح الطريق أمام قواته فى تقدمها نحو الشمال . وكان على العرب بطبيعة الحال أن يتموا عملية قطع هذه المواصلة ومواجهة أى هجوم يقوم به الأتراك عليهم عند هذا المكان . ووافق فيصل على هذه الخطة خصوصا بعد أن وصلت

قواته إلى حوالى ثمانية آلاف مقاتل، زودها الانجليز بالسيارات المصفحة والمدافع الرشاشة وسلاح الإشارة .

نقل فيصل مقر قيادته إلى الشرق من عمان حيث بدأ فى تركيز قواته فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ . ثم قطع مواصلة السكة الحديدية قبل بدء الهجوم الانجليزى شمالا بثلاثة أيام . وجاءت قوات عثمانية كبيرة لاصلاحهـا مما أفسح المجال أمام الانجليز فى هجومهم نحو الشمال ، وقطع خط الرجعة على الأتراك إذا ما حاولوا الرجوع غربا . واستخدم اللنبى الخديعة فأوهم الأتراك بانه سيهجم فى وسط الجبهة ثم ركز هجومه على السهل الساحلى وتمكن من التغلب على مقاومة الأتراك فى هذا القطاع واستمر فى تقدمه شمالا ، بينما عجز الأتراك عن التحرك نتيجة لوجود القوات العربية على جناحهم الآخر . وفى نفس الوقت قام عرب فلسطين بالثورة ضد الأتراك وتشتت القوى العثمانية وانتهت أيامهم فى فلسطين .

الاستيلاء على سوريا :

لم يبق أمام الأتراك إلا محاولة الاحتفاظ بسوريا ولكن الايام التالية ستذكر انسحابهم منها دون رجعة :

بدءوا بسحب قواتهم من عمان ومن معان — بدءوا هذه العملية فى يوم ٢٢ من سبتمبر وأسرع الإنجليز بإرسال إحدى قواتهم لاحتلال عمـان فى يوم ٢٥ . واضطرت القوات العثمانيـة أن تتراجع سيرا على الأقدام بعـد نسف خط السكة الحديدية ، بينما بقى الانجليز فى عمان ينتظرون تقهقر القوات العثمانيـة من معان بعد أن احتلتها القوات العربية فى يوم ٢٣ . وسارت قوات عربية شمالا وتقدمت وحدات بريطانية من الفرسان فى اتجاه دمشق . وكان العرب يحمون ميمنتهم فى أثناء تعقبهم للاتراك .

وصلت مقدمة القوات العربية فى يوم ٣٠ من سبتمبر أمام دمشق وأرسلوا

مندوبيهم طالبين من الأهالى القيام بالثورة وإعلان الحكومة العربية . ودخلت القوات العربية المدينة لتجد علم الثورة العربية يخفق عليها . دخلها الشريف ناصر على رأس قواته مع وحدة من الفرسان البريطانيين . وبعد يومين حضر كل من اللنبي وفيصل الذى دخل عاصمة الأمويين فارسا معلنا نهاية أربعة قرون من الحكم التركى والعثمانى. وكان يوما مشهودا فى تاريخ سوريا تأججت فيه العواطف وساد الفرح لمجيء العرب . ولكن أحدا لم يفكر فى معنى دخول الوحدات الانجليزية إلى عاصمة سوريا وفى النتائج التى قد تترتب على ذلك ، خصوصا وان فرنسا كانت قد أرسلت قوة صغيرة لمشاركة قوات اللنبي فى العمليات فى الشام .

وتم الاستيلاء على كل سوريا قبل نهاية شهر أكتوبر وسارت العمليات الحربية فى خطين الاول يسير مع الساحل من صور إلى صيدا وبيروت، والثانى إلى الداخل صوب حمص وحماه وحلب وكان دور العرب واضحا فى الخط الثانى من خطوط العملية.

بدأ الهجوم الساحلى فى يوم ٣ من أكتوبر من حيفا ثم عكا إلى صور وصيدا. ولم يلق البريطانيون أى مقاومة تذكر من جانب الاتراك خصوصا وان سيادتهم البحرية كانت واضحة. ودخلوا بيروت فى يوم ٨ ثم احتلوا طرابلس بعد خمسة أيام.

وفى أثناء ذلك الوقت أصدر اللنبي أوامره بالتقدم من دمشق شمالا صوب حلب . وكان الانجليز قد بدءوا يشعرون بالتعب وبطول خطوط مواصلاتهم وكانوا يخشون فى من هذه « الجيوب » التى ظل بعض الاتراك يقاومون فيها ـ هنا وهناك . وأخيرا فإن الانجليز كانوا يحسبون حساب القوة التركية الموجودة فى حلب خصوصا وأنها كانت تحت قيادة مصطفى كمال باشا .

وضع البريطانيون خطة عمل مشتركة مع العرب. فسارت إحدى فرقهم متجهة شمالا تحميها القوات العربية من اليمين، بينما تقوم قوات الشريف ناصر غير النظامية بالهجوم على حمص من الشرق . فوصلها ناصر فى يوم ١٥ ، ووجد أن الاتراك

قد اخلوها وانسحبوا منها , ثم تمكن بعد يومين من احتلال حماه دون أى مقاومة ولكنه شعر بشدة المقاومة عند اقترابه من حلب. فعمل الإنجليز خطة مشتركة بين الفرسان البريطانيين والمشاة العرب واتفقوا على تنفيذها فى يوم ٢٦ .ولكن بعض القوات العربية تمكنت من التسلل إلى المدينة فى يوم ٢٥ وأخذت فى مهاجمة الأتراك بشكل اضطرهم إلى الانسحاب وسحب الفرقتين الموجودتين إلى الجنوب منها . وتمكن الفرسان البريطانيون من دخول المدينة فى اليوم التالى مع المشاة العرب بينما قام الفرسان الهنود بتعقب قوات مصطفى كمال المنسحبة . واحتل العرب مواصلة السكة الحديدية السورية مع سكة حديد بغداد فى يوم ٢٩ من أكتوبر، وفى اليوم الثانى وقعت تركيا على هدنة مودروس .

وهكذا تم الاستيلاء على سوريا ثم تخليصها من الأتراك . دخلها العرب مع الانجليز واتفقوا معهم وفرحوا لخروج الأتراك من سوريا ، ولكنهم لم يعرفوا بعد معنى وجود القوات الانجليزية معهم فى فلسطين وفى سوريا وفى جنوب العراق احترم العرب وعودهم وعهودهم من يومهم ولم يفكروا فى أن « الحلفاء » قد استغلوهم لتنفيذ مآربهم ولكن الأيام ستكشف لهم عما بيتته انجلترا وفرنسا لهم - إذ أن الثورة العربية الحقيقية ، وقيام دولة قوية فى هذه المنطقة الهامة فى الشرق الأدنى كانت تتعارض تمام التعارض مع المصالح الفعلية لمن أعطوا أنفسهم اسم الحلفاء - وهم الأعداء .

الفصل الحادى عشر

العرب وتسويات الحرب العالمية الأولى

أولا :- الوعود المتضاربة

اتفاقية سايكس - بيكو :

بدأت دول الوفاق تفكر فى أثناء الحرب العالمية الأولى وبمجرد دخول تركيا هذه الحرب فى الاستفادة من الموقف الذى سينتج عن هذه الحرب . وذلك بأنها مبدأ المحافظة على سلامة أراضى هذه الدولة والعمل على تقسيمها فيما بينهم . كانت الروسيا ترغب أشد الرغبة فى الاستيلاء على المضايق والقسطنطينية ، أما فرنسا فإنها كانت تريد الحصول على طريق برى للهند يمر فى إقليم يمكنه أن يقضى على ما قد يترتب على توسع الفرنسيين والروس فى هذه المناطق من تهديد لخطوط مواصلاتها الامبراطورية عبر قناة السويس . كما أن إيطاليا كانت ترغب فى السيطرة على بعض أجزاء من آسيا الصغرى ، بينما أخذت السلطات البريطانية فى الهند فى فرض سلطتها على الخليج العربى ، والزحف منه شمالا على البصرة وبغداد فبدأت المفاوضات والمحادثات بين هذه الدول ، وانتهى الامر إلى سلسلة من الاتفاقيات عملت على تقسيم الدولة العثمانية . وأخذت بريطانيا على نفسها فى هذه الاتفاقيات تعهدات جديدة تتضارب مع الاتفاقية التى وصل إليها الشريف حسين مع مكماهون والتى سبق شرحها فى الفصل السادس .

وأولى هذه الاتفاقيات هى التى تعرف باتفاقية سايكس - بيكو والتى عقدت بين انجلترا وفرنسا والروسيا فى اوائل عام ١٩١٦ . فما ان انتهى مكماهون من محادثاته مع الشريف حسين حتى بدأت مفاوضات انجلترا مع الحكومة الفرنسية هادفة إلى التوفيق بين رغبات فرنسا فى سوريا وبين التعهد الذى أخـــذته على

نفسها تجاه العرب . ولكن انجلترا أخفت عن فرنسا الاتفاق الذى كانت قد وصلت اليه مع الشريف حسين ، وسيتسبب هذا الموقف فى مضايقة فرنسا حينما تعلم به فيما بعد . وكان ممثل فرنسا فى هذه المفاوضات هو المسيو جورج بيكو، القنصل العام الفرنسى فى بيروت سابقا . أما الممثل البريطانى فكان هو السير مارك سايكس خبير الشئون الشرقية . فوضعا خطة لاستيلاء بلديها على مناطق وأقاليم من الدولة العثمانية وأرسلاها لحكومتيهما فوجهتها هاتان الحكومتان إلى السفر إلى سان بطرسبرج لمناقشة الموقف مع الحكومة الروسية . وبدأت المفاوضات هناك فى أثناء شهر مارس سنة ١٩١٦ وانتهت إلى تفاهم ثلاثى وسلسلة من المذكرات المتبادلة بين الحكومات الثلاث حددت المناطق والأقاليم العثمانية التى رغبت فيها كل من هذه الدول والتى اعترف الآخران بها كمنطقة نفوذ لها.

واحتجزت الروسيا لنفسها المضايق والقسطنطينية مع الأقاليم المحيط بها والضرورى للدفاع عنها والسيطرة عليها ، وأربع ولايات تركية تقع على الحدود المشتركة فى القوقاز . أما فرنسا فإنها قد احتجزت لنفسها كل سوريا وجزءاً هاما فى جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى شمال العراق. وأما انجلترا فإنها احتفظت بمنطقة تمتد من جنوب سوريا حتى العراق وتشتمل على بغداد والبصرة وتفصل بين المنطقة الفرنسية وبين الخليج العربى ، وتشتمل من الناحية الأخرى على حيفا وعكا . واتفق المندوبون على الاحتفاظ بمنطقة دولية فى القدس وحولها منعا لقيام تنافس فرنسى روسى للتوسع فيها ، وما قد يؤدى إلى تهديد المصالح البريطانية فى مصر وفى قناة السويس .

اشتملت مناطق النفوذ الفرنسية والبريطانية فى هذه الاتفاقية مع المنطقة الدولية - على كل سوريا والعراق ، ونصت هذه الاتفاقية على وضعها تحت نظام الحجر أو الوصاية أو الانتداب . واشتملت كل من مناطق النفوذ الفرنسية

والانجليزية على مناطق يمكن للدول الأوربية أن تقيم فيها نظام حكمها المباشر ويمكنها أن تضمها إن رغبت ، ومناطق ستوضع تحت السيادة العربية، وستعترف الدول الأوربية بهذه السيادة فى نظير احتفاظها بأولوية الاستغلال التجارى فيها وتقديم المعونة الفنية اليها قبل غيرها من الدول الأوربية .

أما المنطقة الدولية فانها جاءت نتيجة لإصرار فرنسا على فرض نفوذها على كل الشام بما فيها القدس . واضطرت انجلترا أن تعارض فى هذا المشروع لإنها كانت تسعى للاحتفاظ بحيفا وعكا كمخرج لمنطقتها على البحر الأبيض المتوسط، وكانت تخشى من اقتراب النفوذ الفرنسى كثيرا من قناة السويس . كانت انجلترا قد بدأت تشعر بضرورة السيطرة على طريق برى يوصلها للشرق الأقصى ، فى نفس الوقت الذى تسيطر فيه على قناة السويس . وكانت انجلترا قد بدأت تهتم بمشروع نقل المهمات من حيفا إلى خليج العقبة فى حالة تعطيل الملاحة فى قناة السويس ، ومشروع آخر للنقل البرى من البحر الأبيض إلى الخليج العربى فى حالة تهديد الملاحة فى البحر الأحمر نفسه . ولذلك فان انجلترا لم توافق على مطالب فرنسا إلا فى الجزء الشمالى من سوريا فقط أما الجزء الجنوبى - وهو فلسطين فان انجلترا رغبت فى عمل « وضع خاص » له . واقترحت فرنسا على عمل نظام خاص بمنطقة القدس ونابلس والخليل وطالبت بضم بقية فلسطين إلى منطقتها ، ولكن بريطانيا لم توافق على ذلك . وحينما انتقل مسرح المفاوضات إلى سان بطرسبرج طالبت الروسيا بفرض حمايتها على الأراضى المقدسة وعارضت كل من انجلترا وفرنسا هذا الطلب بطبيعة الحال وقبلت فرنسا وانجلترا والروسيا فكرة إنشاء إدارة دولية فى فلسطين .

وتعتبر اتفاقية سايكس - بيكو أحد الأدلة التى تلطخ الدول العظمى بالعار فى أثناء الحرب العالمية الأولى . إذ أنها تدل على شراهتها وعلى نفاقها السياسى .

ويمكننا أن ندرك الأخطاء التي اشتملت عليها هذه الاتفاقية بكل سهولة . فلقد كانت هذه المنطقة التي احتجزتها انجلترا وفرنسا لنفسها هي منطقة عربية . ويزيد التقدم والوعي القومي فيها عند أطرافها المطلة على البحر الإبيض وعلى الخليج العربي أكثر من الوسط الذي اشتمل على عشائر بدوية . وبالرغم من ذلك فانها كانت منطقة عربية لها أن تكون وحدة قائمة بذاتها . ولكنا نجد أن دول الوفاق تعمل على تقسيمها بشكل تعسفي وبطريقة غير طبيعية ، وتدل على لاشعورية تعود إلى قرن سابق حين عارض بلمرستون في قيام دولة عربية قوية في هذه المنطقة قد تعمل في يوم من الأيام على التحكم في طرق مواصلات دولته مع امبراطوريتها الهندية . ورغم التقدم والتطور الذي بلغه سكان الشرق الأدنى العربي ؛ فان دول الوفاق لم تنظر إلا لمصالحها ، ولم تفكر إلا في الدفاع عن مصالحها بهذه الطريقة التي تتنافى مع قيام سلم طويل الأجل في هذة المنطقة أي أنها تهدد هذه المصالح نفسها بعد فترة وجيزة .

ورغم أن سكان العراق وسوريا كانوا أكثر تقدما من غيرهم فان هذه الاتفاقية رسمت أمر اخضاعهم لحكم أجنبي مباشر وتركت غيرهم يتولون أمر حكومتهم بأنفسهم . وظهر هذا بنوع خاص في المنطقة البريطانية التي رسمت أمر خضوع كل من البصرة وبغداد لحكم العرب . ولكن هذه الدول الاستعمارية رأت عدم امكانية سيطرتها على الأماكن الداخلية دون الاستعانة في ذلك بالرئاسات والملكيات والأمارات المحلية . فتركت لها حكم هذه المناطق الداخلية كدول عازلة تحمي لها حدودها من الصحراء ومن سكان الصحراء .

ودلت هذه الاتفاقية على نفاق الدول « الحليفة » إذ أن هذه الدول لم تتفاهم مع الشريف حسين بخصوصها رغم اشتمالها على بنود تتعارض تماما مع ما اتفقت عليه مع الشريف في مراسلات مكماهون . ثم عمدت هذه الدول على إخفاء هذه

الاتفاقية عن علم الشريف بعد أن عقدتها ، وذلك خوفا من أن يؤثر ذلك على موقفه من انجلترا فى الحرب . ولن يعرف الملك حسين والمجاهدون العرب قيمة حلفائهم إلا بعد ثمانية أشهر من عقد هذه الاتفاقية وفى ظروف خاصة .

الاتراك وعرض الصلح :

حضر بيكو إلى القاهرة للاتصال بزعماء العرب والتمهيد للتحدث عن المصالح الفرنسية في سوريا . وسأل الملك حسين الجنرال وبحث عن أهداف هذه الزيارة والغرض منها بعد أن ثارت الشكوك وسرت بعض الاشاعات عن فرنسا وسوريا فامرت وزارة الخارجية البريطانية سايكس بالذهاب إلى جدة فى مايو سنة ١٩١٧ وكلفته بتهدئة خاطر الحسين والتمهيد لزيارة بيكو له شخصيا . وكانت هذه فرصة يمكن فيها لانجلترا أن تظهر ولاءها للعرب الذين حافظوا على تعهداتهم وأدوا دورهم كاملا إلى جانب الحلفاء . ولكنهم لم يتصرفوا بأمانة. اتصل سايكس بحسين ثم عاد بعد أسبوعين مع زميله الفرنسى وتباحثا معه فى الأمور العامة التى تتصل بعلاقاته مع الدولتين ، ولكنهما لم يذكرا له أمر الاتفاقية الموجودة بينهما ودار الحديث عما إذا كان العرب يقبلون قيام إدارة فرنسية فى المنطقة الشمالية من الاقليم الساحلى فى سوريا . أى فى لبنان . ولما كان حسين هو المتحدث الرسمى باسم العرب فى ذلك الوقت ، ولم يكن له الحق فى التنازل عما أصر عليه هؤلاء العرب دون استشارتهم ، خصوصا فى المسائل التى تتعلق بالسيادة ، فانه أجاب بانه سيتباحث مع رؤساء العرب وسيحاول إغراءهم على قبول إدارة مشتركة فرنسية عربية فى هذه المنطقة بشكل مماثل لإقامة إدارة عربية ـ انجليزية فى جنوب العراق ، على أن يكون ذلك لفترة محددة ، عشر سنوات مثلا ، وعلى أن تتقدم فرنسا بمعونتها المالية والفنية لهذا الاقليم بشكل يمهد لادماجه فى بقية الدولة العربية بعد ذلك . ولم يعلم حسين بأمر اتفاقية سيكس بيكو إلا فى شهر ديسمبر

سنة ١٩١٧ وذلك عن طريق الاتراك . كان الشيوعيون قد استولوا على الحكم فى الروسيا ونشروا بعض الوثائق السرية الموجودة فى وزارة الخارجية وكان من بينها نص اتفاقية سنة ١٩١٦ . وانتهز الأتراك هذه الفرصة وابلغوا هذا النص لفيصل وعرضوا عليه الصلح معهم فى نفس الوقت .

تقدم جمال باشا بهذا العرض فى أواخر أيام حكمه فى سوريا وتقدم به باسم الحكومة العثمانية وذكر أن ألمانيا توافق عليه . أرسل مندوبا إلى العقبة فى أواخر شهر نوفمبر يحمل خطابين لفيصل ولجعفر باشا . وخاطبهم فيه كمسلم يتحدث إلى مسلم آخر ، وذكر أن واجبهم كمسلمين مخلصين هو بذل كل مجهودهم بل وأرواحهم فى سبيل عزة الاسلام ، وأن الوعود لاستقلال العرب قد أثرت فيه وفى والده وجعلتهم يثورون على سلطة الاسلام العليا ، وأن نفاق هذه الوعود قد ظهر بعد أن ثبت أن هدف الحلفاء هو تقسيم البلاد العربية وإعطاء سوريا لفرنسا والعراق لانجلترا وجعل فلسطين دولية ، وأنه لم يبق للعرب إلا أن يعودوا للعثمانيين وأن يتفقوا مع الأتراك على حقوقهم المشروعة . وانتهى الخطاب بدعوة فيصل للحضور إلى دمشق شخصيا للمفاوضة رسميا فى الموضوع وأعطاه تأمينا على حياته . وأرفق بالخطاب الشروط التى يوافق الأتراك على المفاوضة على أساسها وتضمنت الاعتراف بأكبر درجة ممكنة من الاستقلال الذاتى للاقاليم العربية فى الامبراطورية لارضاء أمانى العرب القومية ، وذكرت أن الحكومة الالمانية ستضمن مثل هذا الاتفاق التركى العربى بعد أن يصدق عليه السلطان .

شرح جمال باشا اذن أن الحلفاء قد غرروا بالعرب ، وأن الوقت قد أظهر نفاق البريطانيين ، وأن الاستمرار فى الإخلاص لهم لن يؤدى إلا إلى استعباد الشعوب العربية وأن الطريقة الوحيدة هى توحيد جبهة المسلمين فى الشرق

الأدنى لمواجهة الخطر الخارجي والأطماع التوسعية . وتحدث جمال باشا عن هذا الموضوع علنيا في بيروت في أوائل شهر ديسمبر فترك ذلك أثرا واضحا في نفوس العرب وكان الاتراك يعقدون الآمال فعلا على عودة انضمام العرب اليهم في هذا الوقت وعلى تغيير الموقف الاستراتيجي في الشرق الادنى . وكانوا واثقين من أن البراهين الواضحة ستؤدى إلى هذه النتيجة لا محالة .

أرسل فيصل بهذه الخطابات إلى والده . ورفض حسين هذه الشكوك الواضحة في نيات « الحلفاء » ورفض التحدث إلى « الأعداء » الأتراك . وكلف ابنه فيصل بأن يرد على جمال رافضا فكرة الصلح مع تركيا وأرسل بكل هذه المراسلات إلى المندوب السامي البريطاني في القاهرة طالبا تقديم تفسير عن هذه الاتفاقية السرية التي ورد ذكرها في خطابات جمال باشا .

وكانت هذه فرصة جديدة تستطيع فيها انجلترا أن تخرج من موقف النفاق الذي وقفته حتى ذلك الوقت ، وتثبت بذلك إخلاصها لحلفائها العرب . ولكنها رفضت انتهاز هذه الفرصة . وأجاب بلفور . وزير الخارجية البريطانية على حسين ببرقية تظهر ميوعتها المتعددة . ذلك أنها لم تكذب أو تؤمن على الاخبار الواردة من سان بطرسبرج ولكنها تحدثت عن هذا الاتفاق بألفاظ تسعى إلى تشكيك حسين في نيات الأتراك ودسائسهم ، وذكرت أن الأتراك لا يهدفون إلا للوقيعة بين العرب وحلفائهم وانتهت بتأكيد أن بريطانيا ستؤيد العرب وتساعدهم في كفاحهم للحصول على استقلالهم .

كان هذا هو النفاق الواضح إجابة على إخلاص العرب وولائهم . رأى حسين أن الواجب والشرف يحتمان عليه عدم الاتصال بالأتراك دون الاتفاق مع حلفائه الإنجليز وكان من حقه أن يشك في نيات الانجليز خصوصا بعد أن عرض عليه الاتراك الاتفاقيات المعقودة بين الدول المستعمرة وعرضوا عليه

التحالف والعمل المستقبل . وأثبت حسين أنه رجل مخلص فى عرضه لهـذه المراسلات على البريطانيين وفى طلب تفسير عن موقفهم . وعمد الانجليز هـذه المرة إلى خديعته إذ أنهم لم يجيبوا بصراحة عما إذا كانوا قد عقدوا مثل هـذه الاتفاقية بالفعل ، عمدوا إلى تمويه الالفاظ بشكل يدل على أن مثل هذه الاتفاقية لم تعقد . وأظهر حسين ، فى نفس الوقت الذى أثبتت فيه إخلاصه للانجليز ، أنه كان قصير النظر ، إذ أنه اكتفى بهذه الإجابة رغم علمه بأنها إجابة تمتـاز بميوعتها ، وكان عليه كرجل دولة ألا يرضى إلا باجابة قاطعة .

تصريح بلفور :

وفى أثناء ذلك الوقت قامت الحكومة البريطانية بمفاوضات أخرى مع زعماء اليهود فى انجلترا ، وبعد شهور من المفاوضات السرية إرتبطت معهم بوعـــود تتعارض مع وعودها للعرب ، وتسببت فى نشر تصريح بلفور .

وكان الصهيونيون يحاولون اغراء تركيا منذ بضع سنوات على السماح بزيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ولكن السلطان عبد الحميد عارض هذه السياسة ، ولما تولت جمعية الاتحاد والترقى الحكم ظهر فيها النفوذ اليهودى واضحا فى أول الأمر ، ولكنها إضطرت إلى الاحتراس وخاصة بعد أن قام النواب العرب بفضح نوايا الصهيونية للاستيلاء على اراضى العرب ، وتشريد ، شعب فلسطين وعنـد نشوب الحرب إنتقل مركز نشاط الصهيونية إلى برلين ، وعندما انضمت تركيا فى الحرب إلى دولتى الوسط ، عمل الصهيونيون على خطب ود دول الوفاق ، حتى يضمنوا أى كفة قد تكسب الحرب .

ولم يكن الميدان سهلا أمام الصهيونيون الانجليز ، خاصة وأن عـدداً كبيراً من يهود هذه البلاد كان لايعتنق الفكرة الصهيونية ، أو يعتقد فيها وفى إمكانيـة نجاحها . ولكن سرعان ما حصلوا على تأييد بعض رجال الصحافة ، ثـم بلفور

ثم لويد جورج ، بعد أن تعاون معه وايزمان فى خططه المقبلة . ولقد حاول هربرت صامويل ، أحد الوزراء الانجليز فى وزارة اسكويث أن يحصل على تأييد الوزارة البريطانية للمشروع ، ولكن رئيس الوزراء عارض هذا الاتجاه وجاء لويد جورج للوزارة ومعه بلفور وزيراً للخارجية ، فبدأت المفاوضات بين هذه الحكومة وبين الصهيونيين .

ولم يكن من حق انجلترا أن تقرر أى شىء بالنسبة لمستقبل فلسطين فى ذلك الوقت ، خاصة وأنها كانت قد تعهدت منذ سنة ١٩١٥ بالاعتراف وبتأييد استقلال الدولة العربية فى المنطقة التى تدخل فلسطين فى نطاقها من ناحية ، وأن اتفاقية سايكس بيكو كانت قد رسمت إنشاء إدارة دولية فى فلسطين من ناحية أخرى ، وكان من حق هذه الدول التى وقعت على اتفاقية سايكس بيكو ، مثلها فى ذلك مثل الملك حسين ، أن يناقشوا هذا الأمر قبل إبرامه ، وأخيراً فان يهود انجلترا أنفسهم كانوا يعارضون فى هذا المشروع الصهيونى .

ورغم هذه الصعوبات فان لويد جورج قد عهد إلى سايكس بيكو بمهمة مفاوضة الصهيونيون ، وربما كان ذلك لإغراء الصهيونيون الضغط على أمريكا وادخالها الحرب إلى جانب دول الوفاق ، أو لإغرائهم على تمويل ديون الحرب أو لمكافأة الدكتور وايزمان على اختراع نوع جديد من المفرقعات . ولكن الأسباب الرئيسية كانت بعيدة عن ذلك . أما من الناحية السياسية فان بريطانيا قد رأت نشاط الصهيونيون فى ألمانيا والنمسا وخشيت من نجاحهم فى الوصول إلى وعد تركيا بارضاء بعض رغباتهم فى فلسطين ، وأرادت انجلترا فى نفس الوقت أن تكسب ود يهود روسيا الذين قاموا بدور معروف فى الثورة الشيوعية ، وأرادت إغرائهم على مواصلة الحرب إلى جانبها أما من الناحية الاستراتيجية فان فلسطين ضرورية للدفاع عن القوات البريطانية فى مصر ، وعن الطريق البرى

الموصل إلى الشرق ، وكان هذا هو السبب الرئيسى لإصدار تصريح بلفور ، رغم كل الادعاءات والألوان الماليـــة والسياسية والدينية والانسانية التى أرادوا اعطاءها لهذا العمل . ذلك أن أهمية فلسطين لانجلترا قد زادت فى فترة الحرب ، وظهرت بشكل واضح ، خاصة وأنها لم تكن تبعد عن مصر إلا بصحراء سيناء . ولقد أثبتت التجربة أن الصحروات لم تعد تصلح لكى تكون حدوداً عازلة وخاصة بعد أن حاول الاتراك غزو مصر ، وبعد أن عمل الانجليز على عبور صحراء سيناء والتقدم شمالا فى فلسطين . أصبحت قناة السويس إذن أقل أمنا فى ذلك الوقت عما كانت عليه من قبل ، ولما كانت أطماع فرنسا واضحة فى كل الشام ، بما فى ذلك فلسطين ، فقد كان من الطبيعى أن تعمل انجلترا على أن تفصل بين المنطقة الفرنسية ومنطقة قناة السويس بانشاء وحدة سياسية أشد قوة من المنطقة الدولية التى أشارت اليها اتفاقية سايكس بيكو ، ولكن هذه الوحدة تحت النفوذ البريطانى ولم يكن وعد بلفور إلا تمهيد لوضع فلسطين تحت إدارتها ، حتى تعمل على تنفيذ وعدها الذى أعطته بلسان بلفور اليهود .

عملت الحكومة البريطانية على الحصول على تأييد الصهيونيين لوضع فلسطين تحت إدارتها ، واستثناء فرنسا من الادارة . ووافق الصهيونيين على هذه البداية ، وأعلنوا معارضتهم لتدويل فلسطين ، أو لوضعها تحت إدارة مشتركة انجليزية فرنسية ، وذلك فى اجتماعهم مع سايكس فى شهر فبراير سنة ١٩١٧ . ثم أعلنوا أنهم سيعملون على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية مادامت هـــذه الدولة تؤيدهم فى ارضاء « أمانيهم القومية » وكـان هـذا هو الأساس التى قام عليـه ، ونتج عنه ، تصريح بلفور بعد عدة شهور ، وفى وسط هالة من الادعات الكاذبة التى أدعت لنفسها الانسانية ، وخدمة اليهود المشردين .

ووافقت الحكومة الفرنسية على فكرة اصدار هذا التصريح بعد تردد ، أما

أمريكا فانها قد خضعت لنفوذ اليهود فيها ولم تحاول المجادلة فى الأمر : ولقد حاول اليهود أن يحصلوا من انجلترا على وعد بالاعتراف بأن فلسطين هى وطنهم، ولكن انجلترا لم توافق على اعطاء مثل هذا التعهد ولكنها صرحت بأنها ترحب باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . واضطر الصهيونيون الى قبول هذا النص عندما تأكدوا من أنهم لن يحصلوا على أكثر منه فى ذلك الوقت .

وصدر تصريح بلفور فى يوم ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ أى بعد سنتين من الوعد الصادر من انجلترا لحسين ، وبعد أن الثورة نشبت العربية وبذلت كل وسعها فى العمل فى سبيل هزيمة الدولة العثمانية وتأييد انجلترا . وكان هذا دليلا جديداً على نفاق الانجليز ، وعلى قيمة الوعود التى يعطونها والأمانة التى يطبقونها بها .

مخاوف العرب :

تسبب تصريح بلفور فى اثارة مخاوف العرب حتى من لم يعرف منهم بالتعهدات التى أعطتها بريطانيا لحسين اذ أنه كان يدل على عدم الاعتراف بشرعية حقوق العرب فى أحد الأقاليم العربية ، وادخال عناصر غريبة عنه فيه دون مشاورة أهله . ووصلت الأخبار لمصر وأخذ زعماء العرب يحتجون على موقف انجلترا ، وأضطرت السلطات البريطانية فى القاهرة الى أحكام الرقابة على كل الأخبار الخاصة بها . وحاولت أن تعمل على تهدئة خواطر العرب .

وثارت دهشة حسين عندما علم بهذا التصريح ، واسفرت عن معناه ومرماه فاسرعت بريطانيا بارسال المستشرق هوجارت اليه ، وأكد له أن بريطانيا لن تسمح باقامة اليهود فى فلسطين الا فى الحدود التى تتمشى مع الحرية السياسية والاقتصادية للشعب العربى . وكان هذا التصريح تصريحا شفهياً ، وكان يختلف عن تصريح بلفور ، الذى لم يذكر الا الحقوق المدنية والدينية للشعب العربى . ولكن

انجلترا كانت تحاول فى ذلك الوقت الاحتفاظ بحلفائها العرب بأى شكل، حتى يتم ترتيب المسائل، ووضعهم أمام الأمر الواقع . واجاب حسين أنه سيبذل جهده فى سبيل تحقيق أهداف تصريح بلفور ، ما دام لايسعى الا للحصول على ملجأ لليهود المشردين ، ووافق على الاتفـــاق على نظام خاص لإدارة الأماكن المقدسة ، ولـكنه أظهر بوضوح أنه لن يتنازل عن أى جزء من أجزاء السيادة العربية أو مظاهرها بالرغم من أنه مستعد لبحث مسألة نظام الحـكم المقبل فى الشام ـ والذى يشمل فلسطين ـ وذلك مع الاستعانة بالخبرة الفنية والإدارية الأجنبية

وواصل حسين ولاءه للانجليز وأرسل مندوبين إلى أعوانه فى مصـر وإلى وحدات قوات الثورة العربية . يعلنهم فيها أن بريطانيا قد أكـدت له أن إقامة اليهود فى فلسطين لن تؤثر فى حقوق العرب الاقليمية ، ويحثهم فيها على الاستمرار فى اخلاصهم لانجلترا ، حتى يصلوا إلى إتمام تحرير بلادهم . وكلف أبناءه ببذل جهودهم لتهدئة خواطر الرجال المقيمين حولهم بخصوص هذا التصريح ، وذكر لعرب فلسطين أن كتبهم المقدسة تفرض عليهم الكرم والتسامح . وحثهـم على الترحيب باليهود والتعاون معهم فى الوصول إلى الخير العام

ونجحت مجهودات البريطانيين لتهدئة مخاوف العرب فى مصر وما جاء شهر مارس حتى حضرت بعثة صهيونية برئاسة وايزمان ، وأخذت فى الاتصال بزعماء العرب قبل أن تواصل سفرها إلى فلسطين . ولم تتحدث هـذه البعثة إلا عن التعاون العربى ـ الصهيونى . وصفق لذلك عدد كبير من أعوان البريطانيين فى مصر ومنهم عدد من رجال الجمعيات العربية ، مثل فارس نمر باشا صاحب جريدة المقطم وغيره .

وحدث فى ربيع سنة ١٩١٨ أن تقدم سبعة من زعماء العرب بمذكـرة إلى وزارة الخارجية البريطانية ، يطلبون فيه تحديد موقفها من القضية العربية بأكلها

وإعلان نياتها تجاه الأقاليم العربية التى تحررت من السيطرة العثمانية . وأجابت عليهم وزارة الخارجية البريطانية بمذكرة رسمية فى ١٦ من يونيو سنة ١٩١٨ تعتبر تصريحا عن السياسية البريطانية تجاه الثورة العربية ، إذ أنها أكدت تعهدات بريطانيا السابقة للعرب بشكل أكثر وضوحا ، وقسمت المنطقة التى تهم العرب إلى أربعة أقسام حسب الموقف العسكرى فى ذلك الوقت: أولا : الأقاليم العربية التى كانت مستقلة قبل الحرب . وثانياً : الأقاليم التى حررها العرب من الحكم التركى، وكانت هذه الأقاليم تمتد من عدن حتى العقبة ، وتشتمل عليها. واعترفت انجلترا باستقلال العرب وسيادتهم التامة عليها ، وثالثا : الأقاليم العربية التى عملت قوات الحلفاء على تحريرها من تركيا ، وهى التى تشتمل على العراق من الخليج العربى حتى الشمال من بغداد ، وفلسطين الحدود المصرية إلى الشمال من القدس ويافا ، وصرحت بريطانيا بأن سياستها تجاه أهالى هذه المناطق ستكون إقامة حكومات يرضى عنها هؤلاء الأهالى ، ولكنها أكدت أن سياسة هذه الحكومات يجب أن تكون سياسة الحكومة الانجليزية ، ورابعا : الأقاليم العربية التى كانت لاتزال تحت حكم الأتراك أى الجزء الأكبر من سوريا ومقاطعة الموصل فى العراق . وذكرت بريطانيا أنها ترغب فى أن ترى الشعوب المهضومة الحقوق فى هذه المناطق تتمتع بحريتها وأن بريطانيا ستبذل جهدها للوصول إلى هذه النتيجة.

وهكذا نرى أن هذا التصريح يؤكد أن بريطانيا تسعى إلى أن تصل هذه الاقاليم إلى الحرية والاستقلال ، وليس لمجرد تخليصها من الأتراك ، وتؤكد أنها لن تقيم نظاما يتعارض مع رغبات أهالى الاقاليم وجاء نشر هذا التصريح بعد معرفة أمر اتفاقية سايكس - بيكو ، وتصريح بلفور ، مهدئاً لنفوس العرب ، وحافزاً لهم على مواصلة جهودهم لكسب المعركة الأخيرة. ونظر العرب اليه كتوكيد لتصريحات الرئيس ويلسون ، وكدليل على الرغبة فى تطبيق هذه المبادىء على

الأقاليم العربية من الدولة العثمانية بعد نهاية الحرب . فساد العرب الفرح بهذه النتيجة ، وواصلوا مجهوداتهم فى الحرب .

وأخيراً فان كل من انجلترا وفرنسا قد اشتركا فى إصدار بلاغ مشترك نشر فى ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وشرح سياسة هاتين الدولتين وأهدافهما فى البلاد العربية . ولقد أعلن هذا البلاغ تطابق وجهات نظر الدولتين الاوربيتين وأهدافها فى الحرب فى الشرق ، وهو التحرير الكامل للشعوب التى ترسخ تحت الظلم التركى ، واقامة ، ومساعدة الأهالى على اقامة ، حكومات وطنية تعبر رغباتهم . وأكد البلاغ أن الدولتين متفقتين فى رغبتهما لرؤية قيام هذة الحكومات الوطنية ، وفى المساعدة على قيامها ، والاعتراف بها تكوينها . وينتهى بتأكيد سمو غرضيهما ، والعمل على إقامة دول عربية تعبر عن رغبات الشعوب . وجاء هذا البلاغ مهدئا للعرب فى لبنان وخاصة بعد مسألة العلم ، التى وقعت فى ميناء بيروت ذلك أن القوات الفرنسية كانت قد رأت عند نزولها إلى ذلك الميناء أن شكرى باشا الايوبى كان قد رفع علم الثورة العربية عليها باسم الأمير فيصل ، فاحتج الفرنسيون على ذلك ، وتدخل اللنبى وأمر العرب بسحب علمهم من فوق مدينتهم ، فهاج العرب ووصل الخبر إلى قوات الثورة المعسكرة فى الصحراء وفى العقبة ، واضطر فيصل إلى الكتابة إلى الانجليز ذاكرا أن زمام الامور سيفلت من بين يديه ، وأن المسألة ستنتهى بحركة تمرد أو ثورة مسلحة وخاصة بعد أن علم العرب أن الفرنسيين سيحتلون كل المنطقة الساحلية من سوريا ، وظهر نشاط الصهيونيين فى فلسطين ، وبدأ زعماء الحركة العربية يتصلون ببعضهم بسهولة بعد تحرير الموصل ودمشق وحلب .

عمل هذا البلاغ على تهدئة العرب ومنعهم من الثورة ، فى الوقت الذى لم

يكن « الحلفاء » قد ثبتوا فيه أقدامهم على الساحل بعد. ولم تكن القوات العثمانية بعيدة وراء حدودها .

ولكن العرب سيعرفون قريبا قيمة هذه التصريحات والبلاغات والوعود والعهود . وكان عليهم أن يدركوا خطر العمل إنقسام معسكرهم الاقليمى ، فى الوقت الذى وقف فيه العدو مترقبا ومتحينا الفرص .

ثانيا : المفاوضات :

انتهت الحرب وخرجت تركيا من كل الأقاليم العربية ، وشعر الثوار العرب أنهم قد شاركوا مشاركة فعالة فى تحرير بلادهم ، فيما عدا العمليات التى وقعت فى جنوب العراق ، وانتظروا من بريطانيا أن تفى بعهودها التى قطعتها على نفسها ولكنا سنجد الاختلاف واضحاً فى مؤتمر الصلح بين ما يطالب به العرب ، وما أراد الانجليز والفرنسيون - رغم وعودهم السابقة - أن يعطوهم ويمنحوهم . وكان هذا الاتجاه الجديد يتنافى مع هذه الوعود السابقة ، ومع المبادىء التى أدعى الحلفاء أنهم سيطبقونها على الشعوب عند إنتهاء الحرب . وسيسبب ذلك فى نشوء حالة غير ثابتة فى الأقاليم العربية ، وستنشأ الثورات ويذهب ضحيتها الآلاف من الإبرياء ، وتنفق فيها المبالغ الطائلة وكان من الممكن الوصول إلى حل عادل اذا ما احتفظ الحلفاء بوعودهم ، وقللوا من شراهيتهم الاستعمارية ، ورغبتهم استعباد الشعوب التى تنشد حريتها .

فيصل فى انجلترا :

ولقد سافر فيصل الى انجلترا للدفاع عن مصالح الوحدة العربية ، ولتمثيل والده فى مؤتمر الصلح. فوصل الى مارسيليا على ظهر احدى السفن الحربية البريطانية ، ولكن الفرنسيين أبلغوه أنهم يرحبون بزيارته الشخصية ، ولكنهم لا يعترفون له بأى صفة « رسمية » ، وكانت هذه أول صدمة لمن مهد للحلفاء أمر

خروج القوات العثمانية من شرق البحر المتوسط . وسرعان ما وصل إلى لندن ، وعلم أن وثائق ساق بطرسبرج موجودة بالفعل . وأن كل من كليمنصو ولويد جورج كان مشغولا فى محاولة الاحتفاظ لبلاده بنصيب الأسد من الأقاليم العربية. وعرف أن فرنسا تعارض فى تعيينه على رأس الادارة الحكومية فى شرق سوريا، بل وأنها كانت تعارض حتى فى قبوله كمندوب عن الحجاز فى مؤتمر الصلح، ووجد نفسه هدفا للهجوم فيما يتعلق بفلسطين . وكان فيصل شابا ، وفى منتصف العقد الثالث من حياته، وكان لا يعرف الفرنسية والانجليزية جيداً ، ولم تكن له دراية بالدبلوماسية أو الصحافة الأوربية ، فشعر أنه غريب فى هذا الجو ، وشعر أنه محاط بالأعداء لا بالحلفاء .

وكانت اتفاقية سايكس - بيكو هى موضوع الساعة. وكان لويد جورج يريد اعتبارها غير ذات موضوع ، مستنداً فى ذلك الى أن الروسيالم تنفذ تعهداتها فيها ، ولكن كليمنصو أصر على أنها سارية المفعول ، ويسرى تطبيقها على كل من انجلترا وفرنسا .

وازداد وضوح المصالح الانجليزية والفرنسية فى البلاد العربية عن ذى قبل، واحتجت بريطانيا بأن اتفاقية سايكس بيكو تعطى لفرنسا ولاية الموصل الغنية بالبترول ، وتقيم نظام ادارة دولية فى فلسطين، وتعمل فى كل من هاذين الميدانيين ضد المصالح البريطانية . أما فرنسا فانها تشبثت بهذه الاتفاقية إذ أنها الوثيقة الوحيدة التى تضمن مصالح فرنسا فى الأقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية ، واستعدت وزارة الخارجية الفرنسية فى التساهل فى بعض المسائل لكى تضمن تطبيق بقية بنود الاتفاقية . فاقترح لويد جورج على فرنسا أن تعترف بالموصل داخل منطقة النفوذ البريطانى، نظير اعطاء حصة من بترولها لفرنسا. وأن تعترف

بسلطة انجلترا على فلسطين كذلك . ووافق كليمنصو على هذا الامر فى مذكرة بتاريخ ١٥ من فبراير سنة ١٩١٩ .

وشعر فيصل بأن هناك قوى ثلاث تعمل ضد ارضاء رغبات القومية العربية وأمانيها المشروعة . هى المصالح الاستعمارية البريطانية فى العراق وفلسطين ، والمصالح الاستعمارية الفرنسية فى سوريا ، ومصالح الصهيونيين المرتبطة بالمصالح الاستعمارية البريطانية فى فلسطين .

علم فيصل بمضمون المحادثات الانجليزية الفرنسية . وحاولت حكومة لندن أن تضغط عليه للموافقة على مضمون هذه الترتيبات والتسويات ، وأصروا على مسألة فلسطين بنوع خاص ، وطلبوا الى لورنس أن يؤثر على الأمير العربى الشاب لكى يعترف ، كممثل للعرب ، بأمانى الصهيونيين فى فلسطين . وقام اليهود أنفسهم بنشاط ظاهرة لمحاولة الحصول على توقيع من فيصل على إتفاقية يعقدونها بينه كنائب من ملك الحجاز وبين وايزمان، كممثل ومندوب عن الصهيونيين وأصبح فيصل فى موقف لا يحسد عليه ، إذ أن أصدقائه الانجليز كانوا يحاولون الحصول منه على ما لم يصرح له والده باعطائه ، وعلى ما يتضارب مع شعور العرب الثائر فى ذلك الوقت . وحاول الحصول على تعليمات من والده ولكن الشريف رفض الاعتراف لابنه بقوله أى اتفاق يقل عن الوفاء بالعهود التى قطعتها انجلترا على نفسها فى مسألة استقلال العرب . وازداد الضغط عليه ، وشعر بضعفه فى هذا الميدان الدبلوماسى، خصوصا وأنه لم يكن من المتضلعين فى الانجليزية . وشعر بعداوة الفرنسيين له وللمهمة القائم بها ، واعتقد أن الوصول إلى تفاهم مع إنجلترا سيقضى على العداوة الفرنسية . كان وحيداً ، ولم يكن أصدقاءه إلا من الانجليز الذين سبق أن تعرف عليهم فى الشرق الأوسط ، وفى ميادين القتال، فطلب منهم التضحية وكانوا مستعدين لابدائها ـ ولمصلحة بلادهم.

كان فى إستطاعة فيصل أن ينتظر إنعقاد مؤتمر الصلح ، ولكنه شعر أن الحكومة البريطانية تسعى إلى أخذ قرار سريع فى مسألة فلسطين، وإن الصهيونيين كانوا يدفعونها ويضغطون عليها فى هذا الطريق . فخشى من أن يجد نفسه فى مؤتمر الصلح أمام الأمر الواقع . وطلب الإنجليز إليه أن يتفق مع الصهيونيين قبل إنعقاد المؤتمر ، ورأى الأمير العربى الشاب خطر قبول هذا الطلب قبل الرجوع إلى والده ، وخطر اغضاب الانجليز فى حالة الرفض . وأخذت وزارة الخارجية البريطانية تضغط عليه لحمل الاعتراف بمطالب العرب بالاستقلال ، مشروطة مع الصهيونيين .

ولم يكن العرب يحتفلون فى ذلك الوقت فى أمر فلسطين ، إذ أنها اقليم عربى تدخل فى نطاق الشام وعليها أن تبقى اقليما عربيا . ولكن ذلك لم يمنع العرب من النظر إليها نظرة خاصة ، نظراً لوجود الأماكن المقدسة فيهـا . أما مسألة هجرة اليهود واستيطانهم فيها فان العرب قد رحبوا بهـا كعمل انسانى ، ولـكن بشرط تحديد عدد المهاجرين بحيث لا تتعارض مع رفاهية أهلها العرب وحقوقهم السياسية والإقتصادية

وإعتقد فيصل فى إمكانية تعاون كل من العرب واليهود فى فلسطين ، وعلم بالتأكيد الذى كان هو جارت قد أعطاه لوالده بشأن هذه المسألة . وكان قد تقابل مع وايزمان ، تلبية لطلب البريطانيين ، وأكد له وايزمان أن الصهيونيين لا يسعون إلى إقامة حكومة فى فلسطين وأنهم لا يهدفون إلا المساعدة على انعاش الاقليم الفلسطينى ، دون أن يؤثر ذلك على مصالح العرب المشروعة . فاعتقد الأمير الشاب أن أمانى الصهيونيين وسياسة بريطانيا لا تتعارض مع حرية عرب فلسطين السياسية ، وهيمنتهم على إقتصاديات إقليمهم

وافق الأمير الشاب إذن على التوقيع على الاتفاقية ، ولكنه جعـل موافقتـه

بتنفيذ بريطانيا لتعهداتها باستقلال العرب . وكتب هذا الشرط بخط يده على نفس الاتفاق ، قبل أن يوقع عليه وبألفاظ واضحة محددة قاطعه- ولما كان هذا الشرط قد بقى بدون تنفيذ ، فان الاتفاقية لم تنفذ من أجل تعاون العرب مع اليهود ، مادام هذا التعاون لايمس استقلال العرب .

فيصل فى فرنسا :

ذهب فيصل إلى باريس فى منتصف شهر يناير ورفضت الحكومة الفرنسية الاعتراف به كمندوب عن إحدى الدول المحاربة أمام مؤتمر الصلح ، مستندة فى ذلك إلى أن أحداً لم يعترف بدولة الحجاز ، ولكن بريطانيا تدخلت واضطرت فرنسا إلى التراجع فى هذه النقطة، رغم أنها واصلت عداءها لفيصل وللقضية العربية.

وتحدث فيصل أمام مؤتمر الصلح فى يوم ٦ فبراير بعد أن أودع مذكرة بوجهات النظر العربية ، فطالب بالاعتراف باستقلال الشعوب العربية التى تسكن المنطقة الممتدة من الاسكندرونة وديار بكر حتى المحيط الهندى ، والاعتراف بكامل سيادتهم فى ظل جمعية الأمم . وشرح العوامل الثقافية والجغرافية والاقتصادية التى توجد بينهم ، وذكر الدور الذى لعبه العرب فى الحرب، والتضحيات التى تقدموا بها إلى جانب الحلفاء . وأشار بلباقة إلى أن العرب يرفضون الاعتراف باتفاقية سايكس - بيكو ، وأنهى حديثه بشكر كل من انجلترا وفرنسا على ماقدموه من مساعدة عاونت العرب فى كفاحهم من أجل الحرية ، وطلب منهم تحقيق وعودهم .

ولقد طلب فيصل فى أثناء المناقشة التالية لخطابه ، التأكد من رغبات الشعوب العربية التى تسكن هذه المنطقة، كتمهيد لعمل تسوية تقوم على أسس ثابتة . واستند فى ذلك إلى مبادىء الرئيس ويلسون ، وحقوق الشعوب فى تقرير مصيرها .

فاقترح مؤتمر الصلح أن يرسل لجنة لزيارة سوريا وفلسطين ، وللتأكد من رغبات الشعب هناك .

ولقد وافق الرئيس ويلسون على هذه الفكرة ، كما وافق عليها لويد جورج بعد تردد ، أما كليمنصو فانه هاجم الفكرة . ولم ينافس المؤتمر هذه المسألة إلا فى ٢٠ مارس . فاقترح الرئيس ويلسون إرسال لجنة تحقيق تتألف من عدد متساو من المندوبين الفرنسيين والانجليز والايطاليين والأمريكيين ، تذهب إلى سوريا ويمكنها زيارة المناطق المحيطة أيضا إن إقتضى الأمر ذلك ، ثم تعود وتقدم تقريراً للمؤتمر . ووافق مجلس الاربعة عن هذا الاقتراح فى يوم ٢٥ من مارس، واقترح إرسال مندوبين إثنين على كل دولة من هذه الدول . ورشح الرئيس ويلسون كل من كنج وكراين نيابة عن بلاده ، أما انجلترا فانها رشحت السير هنرى مكماهون وهوجارث ولكن فرنسا لم تقترح أى ممثلين عنها .

وكانت فرنسا تعلم بعداء الرأى العام السورى لها ، وكانت تخشى فى نفس الوقت من حلفائها الانجليز ، خصوصا بعد أن ازدادت أهمية انجلترا فى الشام ، نتيجة لانتصار اللورد اللنبى . وخشى الفرنسيين من أن تكون فكرة إرسال لجنة تحقيق قد نبتت فى وزارة الخارجية البريطانية التى تسعى لترتيب الأمر لنقض إتفاقية سايكس ـ بيكو ، إستناداً إلى أن الشعب السورى لا يرغب فى الفرنسيين .

أما إنجلترا فانها كانت تخشى فى حقيقة الأمر ، هى الأخرى ، من إرسال لجنة تحقيق ، خصوصا فى أقاليم العراق وفلسطين . ولكنها لم تكن تستطيع موافقة فرنسا ، وإعتبار أن التسوية النهائية للمسألة العربية وقف على مصالح هاتين الدولتين فقط ، خصوصا وأنها كانت قد ارتبطت مع العرب من ناحية، ومع اليهود من ناحية أخرى وكانت قد شرحت لكليمنصو أنها لا تهدف إلى الاستيلاء على

سوريا ، وأن كل ما ترغب فيه هى مناطق الموصل ، وجزء من شمال فلسطين يضم إلى إداراتها البريطانية فى العراق وفى جنوب الشام . ووافق كليمنصو على مبدأ إرسال اللجنة ، ولكنه اشترط ألا تقتصر عملها على سوريا ، بل تذهب إلى فلسطين والموصل وأرمينيا . ولم تعارض بريطانيا فى ذلك .

وكانت فكرة إرسال لجنة تحقيق تثير مخاوف الصهيونيين من جهة أخرى ، إذ أنها ستثبت أنه لا يمكنهم إرضاء رغباتهم وأمانيهم فى فلسطين دون استخدام القوة ضد العرب ، خصوصا وأن الأخبار كانت قد بدأت تنتشر عن أعمال الصهيونيين الأوائل فى الأراضى المقدسة ، وبدأ الرأى العام العالمى يعرف معنى إرسال من يدعن التشرد إليها .

وتعاون الصهيونيون مع القوة الرجعية فى كل من لندن وباريس ضد العرب . وكتب بلفور إلى لويد جورج مذكرة يطالب فيها باستثناء فلسطين من المناطق والأقاليم التى ستزورها لجنة التحقيق ، واستند كليمنصو إلى ذلك الانقسام فى البريطانية ، وواصل اصراره على عدم موافقة فرنسا على تكوين لجنة التحقق ذاتها ، إلا فى حالة النص على أنها ستعمل كذلك فى كل من العراق وفلسطين ، فى نفس الوقت الذى ستعمل فيه سوريا .

المؤتمر السورى :

وما أن بدأ المؤتمر فى مناقشة مسألة إرسال لجنة للتحقيق حتى أقلع فيصل عائدا الى سوريا لتولى زمام الأمور . وما أن وصل إلى دمشق حتى رأى قلق العرب واضحا على مستقبل بلادهم . وبدأ زعماء العرب فى الاتصال به وطلبوا منه أن يشرح للاهالى الخطوات التى عملها فى أوربا والمرحلة التى بلغتها قضيتهم الوطنية ولكنه واصل الحذر ولم يشرح المصاعب التى قابلها فى الغرب أمام عدد

صغير من زعماء العرب ، وتحدث أمام الجماهير عن وصول لجنة التحقيق، والآمال التي ستتحقق نتيجة لذلك :

ولكن الشعب العربي شعر بأن في الأمر شيئا غير واضح المعالم ، يهدد قضيته - فبدأ في تنظيم صفوفه ، واقترح عدد من رجالات العرب دعوة مؤتمر عربي . وتقدم بالاقتراح رجال حزب الاستقلال العربي ، وهم نفس رجال جمعية الفتاة ، التي عملت في أثناء الحرب . واضطر فيصل إلى أن يوافق على الفكرة ، وحاول تسييرها في مجال دستوري . فأجريت الانتخابات بسرعة ، واشتملت على كل مناطق الشام بما في ذلك سوريا ولبنان وفلسطين واجتمع هذا المؤتمر في دمشق في اليوم الثاني من شهر يوليو .

ومنعت قوات الاحتلال الفرنسية في بيروت نواب عرب سوريا من الذهاب لدمشق ، فلم يحضر إلا تسع وستين من خمس وثمانين . ولكنهم اتخذوا قرارات في غاية الأهمية ، تحدد الأهداف القومية في كل من سوريا والعراق وفلسطين. وأظهرت هذه القرارات مخاوف العرب وآمالهم ، والفرق بين ما قرر العرب الحصول عليه ، وما عارض مؤتمر الصلح في منحهم إياه .

واشتملت قرارات المؤتمر على ضرورة الاعتراف باستقلال سوريا ، مشتملة على فلسطين ، كدولة مستقلة تامة السيادة ، وعلى رأسها الأمير فيصل كملك ، والاعتراف كذلك باستقلال العراق ، وعلى رفض إتفاقية سيكس - بيكو ، وتصريح بلفور ، وأي خطة أخرى تسعى إلى تقسيم سوريا وخلق وطن يهودي في فلسطين ، ورفض نظام الحجر السياسي الذي يختفي وراء كلمة الانتداب ، ولكنها رحبت بالمعونة الخارجية لفترة محددة وعلى شرط ألا تتعارض هذه المعونة مع الاستقلال والوحدة ، ورحبت بالمعونة الأمريكية ، وفي حالة عدم وجودها ، بمعونة إنجليزية ، ورفضت أي شكل من أشكال المعونة الفرنسية .

وكانت القرارات بالإجماع ، ما عدا القرارات الخاصة بالمعونة الخارجية فانها كانت بالأغلبية العظمى . وسرعان ما انتشرت أنباء هذه القرارات فى كل سوريا ، فسارت المظاهرات هاتفة للعروبة وللوحدة وللاستقلال ، وتدفق الآلاف من العرب لدمشق ، لتحية الأمير فيصل ورجال المؤتمر السورى .

وفى ذلك الوقت كان عداء كل من فرنسا وانجلترا للجنة التحقيق قد ازداد وضوحاً ، واستندت إنجلترا إلى عداء كل من فرنسا والصهيونيين للفكرة وعارضت فيها بدورها . أما إيطاليا فإنها لم تكن تهتم بالمسألة بدرجة أن تسوء علاقاتها مع الدولتين الأوربيتين . ولكن أمريكا ثبتت على موقفها . وحاولت فرنسا إثناء أمريكا عن إرسال هذه اللجنة حتى لا تزيد فى تأجج الروح القومية والمطالب الوطنية للعرب ، ولكن أمريكا لم تلتفت لذلك وأرسلت اللجنة المعروفة باسم كنج ـ كراين للتحقيق فى البلاد التى خضعت للسيادة العثمانية سابقاً . وطوفت هذه اللجنة بالمدن السورية والفلسطينية وقابلت العرب وأخذت منهم العرائض التى تقدموا بها ، ثم ذهبت إلى القسطنطينية ، حيث كتبت تقريرها وأعطت نسخة منه لأمانة جمعية الأمم ، واحتفظت بالأصل لحكومة بلادها .

ويعتبر هذا التقرير فى غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ القضية العربية ، فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخها ، إذ أنه حلل شعور العرب وأرائهم السياسية فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى ، وكتبه خبيران لم تكن لبلادهما أطماع إقليمية أو إقتصادية فى ذلك الوقت فى هذه المنطقة .

ولقد أشارت هذه اللجنة إلى ضرورة إقامة نظام إنتداب فى كل من سوريا وفلسطين والعراق ، ولكنها اشترطت أن يكون ذلك لفترة محدودة ، وأن يهدف الوصول بالعرب إلى الاستقلال فى أقرب وقت ممكن . واقترحت أن تكون العراق وحدة ، وكذلك سوريا ، بما فيها فلسطين ، على أن يعمل نظام

داخلى خاص لمنطقة لبنان ، ولكن فى نطاق الوحدة السورية ، وأن يقوم إنتدابين أحدهما على العراق ، والآخر على سوريا وفلسطين ، واقترحت إنشاء ملكية دستورية و كل منهما . ووضع فيصل ملكا على سوريا واختيار ملك عربى آخر لحكم العراق .

وذكرت اللجنة أن سوريا لا ترحب بالانتداب ولكن بالمعونة الخارجية ، وتفضل المعونة الامريكية ، أو الإنجليزية ، فى حالة عدم وجود الاولى ، فاقترحت أن تتولى أمريكا الإنتداب على كل سوريا ، وبريطانيا الإنتداب على العراق ، ثم ذكرت أنه يمكن إعطاء الإنتداب على سوريا لبريطانيا أيضاً ، فى حالة إعتذار أمريكا عن قبول هذه المهمة ، وذلك تمشيا مع رغبات السوريين أنفسهم . وأوصت اللجنة بعدم تأييد إقامة انتداب فرنسى ، ذاكرة أنه قد يؤدى إلى الحرب بين العرب والفرنسيين ، ويهدد مصالح بريطانيا فى هذه المنطقة .

وأوصت اللجنة بتحديد هجرة اليهود لفلسطين ، بعد أن شرحت الأخطار التى ستنجم عن وجودهم فى هذا القطر العربى ، وأثبتت أنها تتنافى مع حقوق الشعب العربى ، ومبادىء الرئيس ويلسون .

ولكنا سنرى أن مؤتمر الصلح المنعقد فى فرساى سيتعامى عن هذا التقرير ، ولن ينظر إلا إلى توزيع الأسلاب ، دون تفكير فى أمانى الشعب العربى الذى ضحى من أجل الغرب .

رحلة فيصل الثانية إلى أوربا :

إزدادت مقالات الصحف الفرنسية فى مهاجمتها لانجلترا ، واتهامها بالطمع والجشع الاستعماريين فى سوريا على حساب فرنسا ، واتهامها بالعمل على التمهيد لنقض اتفاقية سيكس ـ بيكو للسيطرة على كل المنطقة العربية فى الشرق الادنى .
وكانت انجلترا تشعر فى نفس الوقت بثقل أعباء وجود حاميات بريطانيا فى

سوريا ، وبالتكاليف التى تتكبدها من أجل إمداد وتمويل وصيانة هذه القوات دون نظير ـ فقرر لويد جورج أن يعمل وأن يضع فرنسا أمام الأمر الواقع . فاقترح سحب القوات البريطانية من غرب سوريا وشرقها ، وطلب كليمنصو أن تتولى فرنسا أمر المحافظة على النظام فى الإقليم الأول (لبنان) وأبلغه أنه سيعهد بنفس المهمة فى شرق سوريا إلى القوات العربية ، وكانت هذه الخطة تهدف إلى احتفاظ العرب بالأقاليم الممتدة من العقبة إلى عمان فدمشق فحمص وحلب وحماة ـ على أن تحتفظ بريطانيا بحامياتها فى الجزء الجنوبى من سوريا (فلسطين) وقرر أول نوفمبر ميعاداً لبدء الانسحاب بالحق فى إنشاء خط للسكك الحديدية وخط لأنابيب البترول ، من العراق حتى حيفا طبقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو . واستدعى فى نفس الوقت الأمير فيصل للحضور إلى لندن والتفاهم فى المسألة .

ووصل فيصل إلى لندن فى خلال شهر سبتمبر ، وعلم أن لويد جورج قد شرح أمام المجلس الأعلى لعصبة الأمم أن هذه الترتيبات مؤقتة ، وانتظاراً لاتخاذ قرار بشأن الأقاليم التى ستخضع للانتداب ، وعلم أن كليمنصو قد اشترط موافقته على هذا المشروع والاحتفاظ بحق فرنسا فى وضع الجزء الشرقى من سوريا تحت انتدابها ، مما يتعارض تماماً مع فكرة إقامة دولة عربية مستقلة فلم يكن أمام فيصل إلا الاعتراض على هذه الترتيبات ، ورفض الاعتراف بها ، واحتج رسمياً على ما جاء فى المذكرات الانجليزية التى عرضت عليه . وشرح فيصل فى مذكرة رسمية أنه لم يسحب قواته بعيداً عن ساحل البحر وإلى الداخل من سوريا إلا بعد أن أكد له اللورد اللنبى أن القوات البريطانية ستظل فى احتلالها لهذا الإقليم حتى إعلان نتائج مؤتمر الصلح . واحتج على هذه الترتيبات الإنجليزية الفرنسية ، خصوصاً وأنها استندت إلى إتفاقية سايكس ـ بيكو التى لم يوافق العرب عليها . واستند إلى التصريح الذى أرسلت له انجلترا للسبعة من زعماء العرب فى مصر وإلى التصريح

الإنجليزى الفرنسى فى ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وطلب عقد مؤتمر خاص من ممثلى انجلترا وفرنسا وأمريكا لبحث المسألة العربية على أساس تصريح الرئيس ويلسون .

وزاد قلق انجلترا خاصة وأنها كانت تعلم نيات فرنسا لاحتلال شرق سوريا. فبدأت فى الضغط على فيصل لكى يتفق مع فرنسا حتى يقضوا بذلك على مخاوف حليفتهم فرنسا من ناحية ويلقوا بمسئولية هذه الاتفاقية على أكتاف الأمير العربى الشاب - ويتخلصوا فى نفس الوقت من وعودهم المتضاربة .

ورأى فيصل من ناحيته صعوبة عقد مؤتمر من أقطاب أو ممثلى الدول العظمى الثلاث فى ذلك الوقت . فوافق على السفر إلى باريس ، وقابل كليمنصو ، وناقش معه نصوص الاتفاقية الفرنسية العربية ووافق عليها ، ونصت هذه الاتفاقية على احترام العرب لاحتلال فرنسا لكل الساحل السورى شمالا حتى الاسكندرونة ، وعلى أن يطلب إلى فرنسا تقديم المعونة والخبرة الفنية اللازمة لهم. وكانت بطبيعة الحال اتفاقية مؤقتة إلى أن تجىء نصوص قرارات عصبة الأمم .

وظهر جلياً أن فيصل قد تنازل عما لم يكن له حق التنازل عنه . ذلك أن تعليمات والده كانت صريحة ولم يكن العرب يقبلون تقسيم بلادهم ، ولكن فيصل اعتبرها اتفاقية مؤقتة ، وكان يؤمن بعدالة القضية العربية بدرجة لا تسمح له بالتفكير بأنه يوجد أى كائن كان يستطيع أن ينكر حقوق العرب ، وكان يخشى علاوة على ذلك من وقوع صدام بين القوات العربية والقوات الفرنسية بعد انسحاب القوات البريطانية من سوريا ،

وستعمل الحوادث على إلقاء قوى العربى فى الميدان لمحاولة الاحتفاظ بأراضيه وحرية بلادهم والوصول إلى أمانيه وحقوقه . ولكن دول الحلفاء

كانت مستعدة لذلك باتخاذ قرارات أعطوها صبغة القانون . وبقواتها المسلحة التى كانت مستعدة للزحف على البلاد العربية واحتلالها .

ثالثاً ـ الانتداب :

بدأ انسحاب القوات البريطانية من غرب سوريا فى أوائل شهر نوفبر، وشعر العرب بأن هذه العملية تمهيد لتسليم بلادهم لاحتلال فرنسى ، فأخذت النفوس فى الثورة ، وبدأ العداء واضحاً بين العرب وبين الأطماع الاستعمارية ولما جاءت انباء اتفاق فيصل مع كليمنصو زاد غضب العرب واتهمه البعض بأنه قد باع البلاد للفرنسيين . وبدأت بعض حوادث الاحتكاك بين العرب والقوات الفرنسية ، ثم أخذت تتسع واتخذت شكل الاشتباكات العسكرية .

مؤتمر سان ريمو :

حضر فيصل إلى سوريا وحاول تخفيف حدة الموقف والحصول على تفويض من المؤتمر الوطنى بالمفاوضة باسمه فى باريس، وصل إلى بيروت فى ١٤ من يناير سنة ١٩٢٠ وأسرع منها إلى دمشق ، وكان الجو قد أصبح مشحوناً ومتوتراً . ووجد أن معظم رجالات العرب غير راضيين عن اتفاقه مع كليمنصو وبدأت المظاهرات الشعبية تملأ الشوارع امامه ، تصرخ عاليا بالوحدة والاستقلال . وحاول أن يهدئهم ، ويطلب منهم ارسال وفد معه إلى أوربا ، ولكن الرفض كان قاطعاً ، إذ أنهم لا يوافقون على اتخاذ مبدأ الاعتراف بتقسيم الاقليم السورى أساساً للبدء فى الدخول فى أية مفاوضات .

ولم تر دمشق فى أى يوم من تاريخها مثل هذا الحماس العربى القومى، وكانت علوءة بزعماء العرب وضباط الجيش من كل سوريا وفلسطين والعراق واتفقوا جميعاً على الوحدة والاستقلال مذهباً لهم، ورفضوا الذهاب إلى أوربا والمفاوضة على أساس التقسيم، كما رفضوا لفيصل القيام بهذا الامر . ثم اجتمع المؤتمر الوطنى

واتخذ قرارات فى غاية الخطورة ، إذ أنه أعلن استقلال سوريا (بما فيها لبنان وفلسطين) كدولة ملكية دستورية ، وبالمناداه بالأمير فيصل ملكا عليها . واجتمع رجال العراق فى مؤتمر مشابه وقرروا نفس القرار لبلادهم ، على أن يتولى الأمير عبدالله الملكية الدستورية هناك ، واحتفظوا للبنان بنظام استقلال محلى داخل الوحدة السورية ، وقرروا أن أساس الادارة فى كل من سوريا والعراق سيكون هو نظام اللامركزية .

ولم يكن لقرارات هذا المؤتمر أن تؤدى إلى نتيجة عملية فعالة . وسريعة ما دامت فرنسا تحتل سوريا - وتقوم انجلترا باحتلال فلسطين والعراق . وكان فى استطاعة هاتين الدولتين الغربيتين أن تكسب العرب لو أنها عملت على تحقيق رغباتهم السياسية والقومية وجزء منها ، ولكن تصلب الدولتين الاستعماريتين ظهر واضحاً إذ أنهما أعلنا بطلان قرارات مؤتمر دمشق ، وعملا على عقد المجلس الأعلى لعصبة الامم ، ودعيا فيصل للعودة إلى أوربا مرة جديدة .

واجتمع هذا المجلس فى سان ريمو واتخذ قراراته فى يوم ٢٥ من أبريل وقرر وضع كل الاقاليم العربية الممتدة من البحر المتوسط حتى حدود الفرس تحت نظام الانتداب ، وقسم سوريا إلى أقسام خلق من بينها فلسطين ولبنان وترك البقية الباقية لكى تحمل اسم سوريا . ولكنه لم يقسم العراق . ووزع هذه الاقاليم على الدول الكبرى ، إرضاء لرغباتهم ، فوضعت سوريا ولبنان تحت نظام انتداب عهد به لفرنسا ، أما انجلترا فانها قد حصلت على انتداب على العراق وآخر على فلسطين . واضافوا حاشية تذكر أن الانتداب على فلسطين سينفذ مع تطبيق تصريح بلفور . ولم يذكر أى شىء عن تضارب هذه القرارات مع مصالح الشعب العربى وحقه فى تقرير مصيره .

ونشرت هذه القرارات فى أوائل مايو وساد العرب شعور عام باحتقار دول

الغرب ، عمل الغرب إذن على هدم المبدئين التى حارب العرب من أجلهما وهما الاستقلال والوحدة ، ونكثوا مع هذا بعهودهم ووعودهم . وانفجر الشعور بعد أن يأس العرب من عدالة القضاة الخصوم . وظهرت خيانة الغرب لعهد كتبه العرب بدمائهم .

زحف الفرنسيين على دمشق :

تفاقمت العلاقة بين الفرنسيين والعرب السوريين بمجرد إعلان نتائج مؤتمر سان ريمو ، واستندت فرنسا إلى هذا القرار الدولى لكى تطلق يدها فى سوريا وتتخذ سياسة قوية تجاه شعوب مليئة بالحماس، قوية بإيمانها بعدالة قضيتها وذهب هذا الايمان مع اليأس من عدالة الغربين بالعرب إلى طلب إعلان الحرب على فرنسا وزادت مطالب الفرنسيين ، واحتج مرة أخرى على تحرش القوات الفرنسية بالعرب، ولكنها كانت تصرفات مؤقتة ، لا تؤدى إلى حل ولا تمس القوى الفعلية الموجودة فى الميدان فى ذلك الوقت . كان يأمل فى أن يصل فى يوم من الأيام إلى عقد مؤتمر من فرنسا وانجلترا وأمريكا لتسوية المسألة العربية وكانت حداثته فى الدبلوماسية مما لا يسمح له بفهم معنى نقض أمريكا ليديها من مشكلات العالم القديم ، وظل يمنى نفسه بالعودة إلى أوربا والدفاع عن القضية العربية .

وفى أوائل شهر يوليو أبلغ فيصل المندوب السامى الفرنسى فى لبنان رغبته فى السفر إلى أوربا ، فرد عليه أنه سيرسل اليه مذكرة هامة وصلته من باريس. وجاءت هذه المذكرة فى يوم ١٤ من يوليو - عيد الحرية عند الفرنسيين وكانت فى شكل إنذار على فيصل أن ينفذ ما جاء فيه فى خلال أربعة أيام وإلا فان فرنسا ستصبح طليقة فى التصرف .

وفاجعت هذه المذكرة العرب وامتلأت بالادعاءات الموجهة ضدهم ، كما اتهمت حكومة دمشق العربية باتخاذ بعض الاجراءات التى كان من سلطتها اتخاذها

واتهمتها علاوة على ذلك بنشر الدعاية المعادية لفرنسا . ثم طلبت من فيصل وضع سكة حديد حلب تحت الاشراف الفرنسى والموافقة على احتلال القوات الفرنسية لحلب وحمص وحماه ، وإلغاء التجنيد العسكرى وتخفيض قوة الجيش العربى ، وإعلان الموافقة على قبول الانتداب الفرنسى واستخدام العملة التى أقرها الفرنسيون والاشتداد فى معاقبة كل من يروج الدعاية المعادية لفرنسا .

وضح أن فرنسا كانت ترغب فى احتلال كل سوريا عسكرياً ، وما هذا الانذار إلا تبريراً لذلك وظهر أن فيصل يرغب فى قبول هذه الشروط دون مناقشتها حتى يمنع الفرنسيين من احتلال دمشق نفسها ، وانتظار الذهاب إلى لندن وبحث المسألة العربية كلها ، وكان فيصل قد استلم برقية من اللورد كيرزن يوجهه فيها إلى الامتناع عن الدخول فى أعمال عدائية ضد الفرنسيين بأى ثمن . وتحولت دهشت العرب من موقف فيصل إلى غضب عليه ، وعلى الدول الغربية ، خاصة وأن القوات الفرنسية قد بدأت فى زحفها على دمشق . ولم تكف مجهودات فيصل لاقناع الزعماء وهب الشعب أمام تقدم قوات الاحتلال ، ولم يخضع لأوامر الادارة فوقع الاصطدام بين الشعب وقوات البوليس ، وذهب ضحيتها بضع مئات من القتلى ، وسقط غيرهم شهداء العروبة ، وهم يحاولون وقف تقدم القوات الاستعمارية . ويسجل التاريخ موقعة ميسلون ذكرى لهؤلاء العرب الأحرار الذين هبوا ووقفوا الى جانب احدى الوحدات العسكرية الصغيرة يدون بها الطريق أمام المعتدين ، رغم أوامر فيصل . وقفوا وقوف الأبطال أمام رشاشات العدو ومصفحاته وتحت نيران طائراته ، وسقطوا جميعاً ولم يمر العدو إلا من فوق أجسادهم واستشهد يوسف العظمة وزير الحربية الشاب ، فى هذه الموقعة واستشهد معه من كان جديراً بالدفاع عن أرض العروبة . وكانت أوامر فيصل

قد نفذت وسرحت بقية القوات العربية ، فسارت قوات الاحتلال إلى العاصمة السورية .

وسيحاول كل من اتصل بهذه الفترة من تاريخ سوريا أن يتصل من المسؤولية ويبحث عن الذرائع لتبرير موقفه . ولكن الجميع قد اتفقوا على أن واجب فيصل كان يحتم عليه اعلان الحرب على فرنسا ، والبدء فى تنظيم الشعب والقبائل لاقلاق راحة الفرنسيين فى سوريا . ولكن شيئا من هذا لم يحدث وطلب الفرنسيون من فيصل ترك البلاد ، ونفذ ذلك فى ٢٨ من يوليو ثم أقلع من حيفا الى ايطاليا ، مصحوبا ببعض حاشيته وأقام فى عزلة سياسية على ضفاف بحيرة ماجيورى .

احتلت فرنسا سوريا وأصبح المجاهد العربى الشاب أميراً فى المنفى وسيظل فى منفاه حتى تدعوه انجلترا للتفاهم معه فى أمر عرش العراق .

بريطانيا فى العراق :

يعتبر عام ١٩٢٠ عام « النكبة » عند العرب اذ تم فيه احتلال فرنسا لسوريا وسيطرت بريطانيا على كل من فلسطين والعراق . وشهد هذا العام بداية مقاومة العرب لقوات الاحتلال الأجنبية فى هذه الأقاليم العربية الثلاث وفى نفس الوقت .

وقعت الاصطدامات فى فلسطين نتيجة لخوف العرب من النتائج التى ستترتب على مجىء الصهيونيين واستقرارهم فى الاقاليم . أما فى سوريا فان الاصطدام استمرت بعد احتلال الفرنسيين لدمشق وقام كثير من العرب بتنظيم قوات شعبية وأخذوا يهاجمون مراكز القوات الفرنسية . واضطرت فرنسا إلى تجريد الحملات العسكرية ضدهم . ورغم أنهم لم يتمكنوا من التغلب على القوات الفرنسية المعدة لمثل هذه العمليات إلا أنهم أثبتوا أن الشعب السورى غير راض عن بقاء قوات أجنبية فى بلاده .

وتعتبر ثورة العراق فى ذلك الوقت أقوى الثورات العربية وأبعدها مدى .
وبدأ العراقيون يضيقون بنظام الادارة الانجليزية المباشر ، ثم بدأت القلاقل .
ووجد العرب أنفسهم مجردين مما وعدتهم به الدول الاوروبية التى انكرت عليهم حق الاستقلال ، وعمل الزعماء العراقيين على تنظيم الصفوف ، وساعدهم فى ذلك الضباط العراقيين الذين اشتركوا فى جمعية العهد قبل اعلان الحرب . واستخدمت القوات البريطانية كل ما لديها من قوة لقمع هذه الحركة وكبتها وغصت السجون بالاحرار وذهب غيرهم إلى المنفى فى مناطق بعيدة .

وكانت قرارات مؤتمر سان ريمو هى السبب المباشر التى حولت المظاهرات الى ثورة ، فاجتمع عدد من ضباط جمعية العهد ونشروا بلاغا فضحوا فيه هذه القرارات ويطالبوا شعب العراق بمقاومة تنفيذها بالقوة . وأعلنت السلطات البريطانية فى ١٧ من يونيو أنها ستدعوا جمعية تأسيسية لوضع دستور للعراق ولكن هذا الأعلان جاء متأخرا ولم ينقض قرارات مؤتمر سان ريمو أو يعدل شيئا منها ، فاستمر هياج الشعور إلى درجة الثورة عند نهاية ذلك الشهر .

واستمرت ثورة العراق من يوليو إلى أكتوبر . وبلغ عدد ضحاياها عشرة آلاف ، وسقط فيها ما يقرب من أربعة آلاف عربى . وتكبدت انجلترا فيها من الخسائر ما تصل قيمته إلى أربعين مليون جنيه أى الى ثلاثة أضعاف ماأنفقته هذه الدولة - ذهبا وأسلحة وذخائر - لتأييد الثورة العربية طوال فترة الحرب. وارتفعت قيمة الخسائر فى الممتلكات إلى مبلغ ضخم .

وزاد من خطورة هذه الثورة أنها اتخذت شكلا دينيا ، وشارك فيها كثير من رجال القبائل والعشائر ، ثم اشترك فيها رؤساء الشيعة مؤيدين لها مما أعطاها شكل الجهاد . ولقد اعلنوا الجهاد فى أواخر شهر يوليو بعد أن وصلت أنباء دخول القوات الفرنسية إلى دمشق ، فهاجت النجف وهاجت كربلاء وامتدت منها الثورة

فى كل اتجاه وتمكن الثوار فى فترات متعددة من السيطرة على كل العراق ، فيما عدا مدن بغداد والموصل والبصرة . وفقدت الادارة البريطانية كل سيطرة لها على الإقليم ، وقامت إدارات عربية محلية لتصريف الأمور فاسرعت إنجلترا فى أوائل أكتوبر بارسال السير برسى كوكس إلى العراق ليشغل منصب المندوب السامى المدنى ، وكرر إعلان رغبة حكومته فى دعوة جمعية تأسيسية لوضع دستور للعراق وتألفت حكومة عراقية مؤقتة أسموها مجلس الدولة يعاونها بعض الوزراء مع مستشارين من انجلترا فى كل ادارة وتمكنت القوات الاستعمارية من السيطـرة على الموقف . وكانت هذه الحكومة التى اقاموها هى حكومة انجليزية بالفعل وان كانت قد لبست ملابس العراق . وعلى أى حال فانها ستمهد للتقريب بين السلطات البريطانية والنظام الجديد الذى سينشأ فى العراق .

مؤتمر القاهرة :

كانت الخسائر التى تكبدتها انجلترا فى العراق مع زيادة المصـاريف اللازمة لقوات الاحتلال هناك سببا فى تفكير الحكومة البريطانية فى تطوير سياستها فى هذه المنطقة بشكل يقلل من أعباء الخزانة ولا يتعارض فى نتائجه مع المصالح الامبراطورية . فدعا السير ونستون تشرشل وزير المستعمرات فى ذلك الوقت إلى عقد مؤتمر فى القاهرة لدراسة الحالة فى الشرق الأوسط واتخاذ القرارات اللازمة

وتحدد شهر مارس سنة ١٩٢١ لعقد هذا المؤتمر ، ودارت المحادثات بين فيصل ولورنس وتشرشل قبل بدئه رسميا ، واتفقوا جميعا على أن تسلم انجلترا إدارة العراق لحكومة عربية ، ويحاولوا الحصول على تعيين فيصل ملكا على العراق ثم يدخلون فى مفاوضات معه لعقد معاهدة تحالف مع انجلترا ، تحل محل نظام الانتداب .

واجتمع المؤتمر فى يوم ١٢ وشارك فية المندوب السامى البريطانى فى العراق

وزميله فى فلسطين ، وأوصى بضرورة الاسراع فى الوصول الى تفاهم بين فيصل وتشرشل فى لندن ، واقترحوا أن يذهب فيصل الى العراق كمرشح للعرش وأن يعلن نفسه ملكا بعد إستفتاء .

ثم وصل تشرشل إلى القدس فى يوم ٢٤ . ورأى أنه يمكن لبريطانيا السيطرة على فلسطين مادام اليهود يدخلون إليها ، ولكنه خشى من الموقف فى شرق الأردن خصوصا وأن عبد الله كان قد جمع قوة فى معان منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٢٠ وأعلن عزمه على غزو سوريا ، والانتقام لطرد أخيه فيصل من دمشق . فخشى الانجليز منه ومن هذه القوة على مراكزهم فى فلسطين. وكانت شرقى الأردن أحد أجزاء حكومة فيصل العربية فى سوريا ، وبقيت دون إدارة أوربية بعد احتلال الفرنسيين لسوريا ، فأغرت انجلترا فرنسا على الاعتراف بضم هذة المنطقة للانتداب الانجليزى . ودعا تشرشل الأمير عبد الله إلى التباحث معه فى القدس ، وشارك لورنس فى هذه المفاوضات . ورفضوا مشروع عبد الله باقامة حكومة عربية واحدة فى كل من فلسطين وشرق الأردن، بدعوى انها تتعارض مع وعد انجلترا لليهود ، ولما طالب عبد الله بضم شرقى الأردن للعراق، ذكر له تشرشل أنه سيوصى فرنسا بضمها إلى سوريا ، وإعلانه ملكا على الاقليم كله بما يساعد على القضاء على معاداة العرب للفرنسيين . وأصبح الاتفاق معقودا ، ولكنه ظل مؤقتا إلى أن يوافق عليه والده فى الحجاز وسمحت له انجلترا فى خلال هذه الفترة بتجنيد قوة من العرب والدفاع عن شرقى الأردن وفلسطين ضد أى هجمات تأتى من الصحراء ووعدته باعطائه مساعدة مالية ، أى أنها إشترته للدفاع عن الحدود ، بدلا من تركه خطرا يهدد بقاءها فى فلسطين .

وهكذا لم ينتج عن مؤتمر القاهرة أى تحقيق للوعود التى كانت انجلترا قد أعطتها للعرب . وحقيقة أن هذا المؤتمر قد مهد لقيام حكومة عربية فى العراق ولكن

هدف انجلترا من ذلك كان تقليل نفقات احتلالها للعراق والعثور على عربي يعمل على تهدئة العرب بدلا من تركهم يتصادمون مع قوات الاستعمار وأما شرقى الأردن فان المنطقة قد انضمت للانتداب البريطانى وأصبح على عبدالله أن يحرس حدود فلسطين من أى هجوم قد يأتى من الصحراء عليها. وأما فلسطين فان انجلترا قد احتفظت بنظام الحكم المباشر فيها . تمهيداً لتثبيت أقدام الصهيونيين فيها ، واظهارا لقوة جديدة تعمل على المحافظة على التوازن مع العرب ولصالح الاجنبي وتقسم بين البلاد العربية ، وتقف حاجزاً بين فرنسا وقناة السويس .



وهكذا انتهت هذه الصفحة من صفحات تاريخ العالم العربى ، وبدأت بعدها صفحة جديدة . . .

وكان العالم العربى قد بدأ يقظته وهو داخل الامبراطورية العثمانية ، فاعتز بشخصيته وطالب باستقلاله وبحرية تصرفه فى شئونه ثم عمل على الثورة وانقسم بذلك إلى معسكرين : أحدهما ضد الدولة العثمانية ومع الحلفاء ، والثانى مع الخلافة والسلطان . وحقق المستعمرون أغراضهم وتوصلوا إلى ضرب القوى الاقليمية إحداها بالأخرى ، ضد الأتراك ، وجنوا ثمار سياستهم واستغلوا قصر نظر العرب وحسن نيتهم دون أن يبذلوا الكثير إلا من الوعود . وانتهت الحرب واقتسم المستعمرون الأسلاب واحتلوا سوريا والعراق وفلسطين . ولم يبق إقليم عربى واحد مستقل إلا وسط الجزيرة العربية برئاسة السعوديين .

إنتهت إذن الثورة العربية بتقسيم العالم العربى إلى مناطق نفوذ تخضع كل منها لحكم دولة أجنبية ، وتأكدت سيادة الدول الاستعمارية على كل مناطق شمال إفريقية ووسطها كذلك .

وستبدأ صفحة جديدة من صفحات تاريخ العالم العربى بجهاد يقع داخل كل منطقة من هذه المناطق العربية المحتلة ضد قوات الاستعمار ، وستكون هذه منطقة منفصلة مادياً عن بعضها . ولكن قلوب العرب وشعورهم كان يؤيد فى كل إقليم المجاهدين فى الأقاليم العربية الاخرى . وسيكون ذلك لازما لتحرير كل منطقة قبل اتحادهم جميعا فى اطار واحد . يعبر عن آمانيهم .

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٨٠٣/٧٤

تم بحمد الله ، طبع هـذا الكتاب فى
شركة الاسكندرية للطباعة والنشر
ابراهيم محمد السيد وشركاه
١ ش فنتورا بجوار سيدى عبد الرزاق
تليفون : ٣٥٨٤١